كليلة ودمنة

تأليف

ابن المقفع


ISBN 978-9933-22-023-5
9 789933 220235 >

تقديم

يعد كتاب (كليلة و دِمنى) من عيون الأدب العربي في أزهى عصوره، كما و يعد من عيون الأدب العالمي، و بداية فإن هذا الكتاب ليس نتاجًا صرفًا للحضارة العربية أو حتى الإسلامية، بل هو تراث شرقي عريق انتقل عبر عدد من الأمم، حيث أن المصدر الأساسي لهذا الكتاب هو الهند، و قد انتقل إلى الثقافة الفارسية و منها إلى العربية.

و يندرج الكتاب في تلك الفئة النادرة من الكتب و التي يجد فيها كل قارئ ما يناسبه، فالقارئ الباحث عن المتعة يجد العديد من القصص و المرويات التي تجري تارة على لسان أبطال نشوء عمل (كليلة و دِمنى) و تارة على لسان الحيوانات، كما و يجد القارئ المتعمق و الباحث خلف السطور، وفرة من الحكم و المضامين المخفية و التي تنظم الجانب الأخلاقي لحياة الأفراد و الأمم، و لا يمكن فهم الكتاب فهمًا متعمقًا ما لم نلقي الضوء على الكاتب الذي نقل روح العمل إلى العربية ألا و هو (ابن المقفع) و الزمن الذي عاش فيه.

زمن نقل الكتاب إلى اللغة العربية:

بدأ التأثير العجمي (تأثير أهل بلاد فارس و ما جاورها من الحضارات المدنية القديمة) جليًا في نهايات العصر الأموي و بدايات العصر العباسي، لدرجة دفعت ابن خلدون لكي يقول: (حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم؛ لا من[١] العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية؛ إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته) و تعليل ذلك ما رآه من سيطرتهم في بداية العصر العباسي.

ولهذا نقول: إذا كانت الأمم كلها قد (تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة واختيار الفكرة)[٢] فإن أبناء فارس خاصة تمرسوا منذ القديم بالسياسة والحدود والرسوم والحساب والحكم، ومرنوا في صنعة الكتابة والتأليف.

---

[١] **(لا من) استخدمها ابن خلدون هنا بمعنى سواء في.**

[٢])الإمتاع والمؤانسة ٧٤/١ وانظر فجر الإسلام ٨٤ – ٩٦.

ولما اعتنق أكثرهم دين الإسلام (وتعلموا العربية كان تأليفهم بالعربية سهلاً ويسيراً؛ وأن اختلف الموضوع واللغة)[1]. ومن ثم علا شأن بعضهم علواً كبيراً في أواخر العهد الأموي كعبد الحميد الكاتب، واحتلوا مناصب رفيعة في العصر العباسي، لبراعتهم في صناعة الكتابة والتأليف؛ فضلاً عن الحساب وإتقانه، وإدارة بعض شؤون الخلافة الهامة، كما لا ننسى علماء كبار مثل (سيبويه) و الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، و الشاعر بشار بن برد.

فلم تعد العلاقة بين العرب و الشعوب الشرقية الأخرى علاقة تأثر وتأثير، أو غالب ومغلوب كما كانت عليه في العصر الجاهلي، ولا هي علاقة ظاهرية تتم على الأتباع والتقليد في الأدب أو اللغة أو الفن أو شؤون الحياة في العمارة و الملبس و المشرب.. وإنما غدت العلاقة بينهما حركة علمية ثقافية دينية ينصهر في أنشطتها أبناؤها ويتنافسون في تقديم أحسن ما يملكون.

وابن المقفع عاش في مثل هذا الجو من الحرية الفكرية؛ ولكنه في الوقت نفسه ممتلئ بالأحداث السياسية الكبرى، وبالمؤامرات والدسائس والغدر والقتل... ورأى أن ولايات الدولة تعج بمفاسد كثيرة ومتنوعة، أدواتها الولاة قبل غيرهم، في وسط هذا المناخ كان يتنفس رؤيته إلى الإصلاح، ولم يكن قد استحق قانون القتل على الرأي والتمسك به ما دام بعيداً عن مركز الخلافة، ولعل السياسة الأموية كانت مشهورة في إلهاء الناس بشؤونهم الفكرية والأدبية الخاصة، أما القتل على الرأي المخالف-ولو كان بعيداً عن الخلافة- فقد تبناه المعتزلة في عهد المأمون؛ على الرغم من دعوتهم الظاهرية إلى حرية الرأي وصيانة حرية الاعتقاد، واحترام العقل.

نبذة عن الكاتب ابن المقفع:

اسمه أبو محمد عبد الله بن المقفع فارسي الأصل والمولد. وكان اسمه روزبه بن داذويه؛ ومعنى (روزبة): المبارك. ولما أسلم تسمى بعبد الله. ولادة عبد الله كانت في قرية (جور) سنة (١٠٦هـ ٧٢٤م) و قتل سنة (١٤٢هـ/ ٧٥٩م) بعد أن ((عاش ستاً وثلاثين سنة)).

---

١)ضحى الإسلام ١٩١/١ وانظر مقدمة ابن خلدون ٤٧٩ – ٤٨٠ – ٤٨١.

أبوه يسمى (داذويه) وقيل: اسمه داذجشنس. والمقفع (بتشديد الفاء وفتحها) على وزن اسم المفعول، لقب له لأنه كان قد ولي دواوين للخراج في إمارة والي -العراق وفارس- الحجّاج بن يوسف الثقفي؛ فسرق مالاً؛ فضرب ضرباً مبرحاً تقفعت يداه منه؛ أي تشنجت؛ فلقب (المقفع). والراجح أن أباه لم يسلم؛ وبقي مجوسياً مانوياً، ولكنه عني بتأديب ابنه كما عني بتعليمه العربية.(١) أما ابنه محمد فقد ورث مهنة ابيه في الكتابة والتأليف؛ ولذا اختلط العديد من المؤلفات بينه وبين أبيه.

عمل لدواوين بعض الولاة مثل يزيد بن عمر بن هبيرة في كرمان (١٢٨هـ) ولأخيه داود؛ والي البصرة حتى سنة (١٣٢هـ). ثم عمل لوالي نيسابور (المسبح بن الحواري الخويلدي) ثم لواليها سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ثم كاتب عيسى بن علي سنة (١٣٢هـ) وانتقل إليه في الأهواز، ثم انتقل إلى أخيه سليمان في البصرة ولم تنقطع صلته بعيسى... وأخلص لهما معاً، وأقام بها بصحبتهما حتى مصرعه، علماً أن سليمان ولي البصرة سنة (١٣٣هـ).

عاصر ابن المقفع الأحداث الجسام في تحول الدولة السياسي والفكري من بني أمية إلى بني العباس مما أثر كثيرًا في شخصيته... فما يشاهده من أحداث مرعبة، وهو على مقربة من مصادرها جعله شديد الحساسية والحذر من الوقوع فيها، فلجأ إلى التاريخ ليرى فيه راحته، فأخذ يترجم أمهات الكتب إلى العربية. فأقدم ابن المقفع على ترجمة الآثار القديمة الهندية والفارسية واليونانية من اللغة الفهلوية، و من جملة ما ترجم قام بترجمته كتاب (كليلة ودمنة) نحو سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)(٢) وكان هدفه من وراء هذا الكتاب كشف ما يدور في أروقة الخلافة والولايات؛ والسعي إلى إصلاحه، ثم جاءت مؤلفاته الأخرى (الأدب الصغير والأدب الكبير، ورسالة الصحابة)؛ لتعزز هذا الاتجاه لديه.

---

(١) انظر البيان والتبين ١/ ٢٥٥- وعنه أخذ شوقي ضيف في الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٣٤.
(٢) انظر تاريخ الأدب في إيران ٤٤٤ ودراسات في الأدب المقارن ١٧٤ وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) ٩٣/٣.

روي عن قصة اعتناقه للإسلام أنه ولما كان يعمل لدى عيسى بن علي - و هو ما زال على دين آباءه - و هو يسير ليلًا في طريق ضيقة من طرقات الأهواز، تناهى إلى سمعه وفؤاده صوت مرتفع لصبي صغير يتلو قوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلقناكم أزواجاً، وجعلنا نومكم سباتاً﴾ (النبأ ٧٨/٦-٩) فوقف منصتاً حتى أتم الطفل تلاوة السورة؛ فقال في نفسه: (الحق أنه ليس هذا بكلام بشر)، ثم ذهب إلى عيسى بن علي، وقال له: (قد دخل الإسلام في قلبي، وأريد أن أسلم على يدك).

موقف ابن المقفع من العرب:

اتهمت جمهرة من الأدباء و الباحثين - قديمهم و حديثهم- ابن المقفع بالتعصب لقومه الفرس و الحط من شأن العرب، و قد أكدت أغلب المرويات و الدلائل التي وصلتنا عكس ذلك، بل كان عقل ابن المقفع عقلًا إنسانيًا متفتحًا، كان يعطي لكل قومٍ ما لهم من فضائل، و يرى في نفس الوقت ما لهم من مثالب و نورد الحادثة التاريخية التالية و التي وردت في عدد من أمهات الكتب و من ضمنها (العقد الفريد):

روى أبو العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شيبة قال: كنا وقوفاً بالمربد- وكان المربد مؤلف الأشراف- إذ أقبل ابن المقفع فبشنا به؛ وبدأناه بالسلام؛ فرد علينا السلام؛ ثم قال لو ملتم إلى دار فيروز؛[1] وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل، فإن الذي تطلبونه لن تفاتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه. فقبلنا وملنا، فلما استقر بنا المكان قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا: لعله أراد أصله فارس، قلنا: فارس. فقال: ليسوا بذلك؛ إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك؛ وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم بنفوسهم، قلنا: فالروم، قال أصحاب صنعة؛ قلنا: فالصين، قال: أصحاب طرفة؛ قلنا الهند، قال: أصحاب فلسفة؛ قلنا: فالسودان، قال: شر خلق الله؛ قلنا: الترك، قال: كلاب ضالة؛ قلنا: الخزر، قال: بقر سائمة؛ قلنا: فقل؛ قال: العرب.

---

(١) المربد: سوق مشهورة بالبصرة منذ العهد الأموي، ونيروز: موضع آخر بالبصرة.

قال(أي شبيب) فضحكنا. قال (أي ابن المقفع) أما إني ما أردت موافقتكم؛ ولكن إذا فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، ولا آثار أثرت، أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم؛ يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم وحبائهم في أنفسهم حتى رفع الله لهم الفخر؛ وبلغ بهم أشرف الذكر، ختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافتهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. فقال تعالى:﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾(الأعراف ٧/ ١٢٨) فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان)[١].

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٣٢٤- ٣٢٥.

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

كليلة ودمنة قَدَّمَهَا بَهْنُوْدُ بْنُ سَحَوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِيٍّ بْنِ الشَّاهِ الفَارِسيِّ، ذَكَرَ فِيْهَا الْسَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوْفُ الْهِنْدِيُّ رَأْسُ البَرَاهِمَةِ[1] لِدَبْشَــلِيْمَ مَلِكَ الهِنْدِ كِتَابَهُ الَّذِي (كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ) وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسُــنِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ صِــيَانَةً لِغَرَضِــهِ فِيْهِ مِنَ العَوَامِّ، وَضِــنّاً بِمَا ضَــمَّنَهُ عَنِ الطَّغَامِ[2]، وَتَنْزِيْهَاً لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا، وَمَحَاسِــنَها وَعُيُونِهَا، إِذْ هِيَ لِلْفَيْلَسُــوفِ مَنْدُوْحَةٌ وَلِخَاطِرِهِ مَفْتُوْحَةٌ، وَلِمُحِبِّيْهَا تَثْقِيْفٌ، وَلِطَالِبِيْهَا تَشْرِيْفٌ، وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْفَذَ كِسْرَى أَنُوْشِــرْوَانُ[3] بْنُ قُبَاذَ بْنِ فَيْرُوْزَ مَلِكُ الْفُرْسِ بَرْزَوَيْهِ رَأْسَ أَطِبَّاءِ فَارِسَ إِلَى بِلاَدِ الهِنْدِ لأَجْلِ كِتَابِ (كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ).

وَمَا كَانَ مِنْ تَلَطُّفِ بَرْزَوَيْهِ عِنْدَ دُخُوْلِهِ إِلَى الهِنْدِ حَتَّى حَضَرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرَّاً مِنْ خِزَانَةِ المَلِكِ لَيْلاً مَعَ مَا وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الهِنْدِ، وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْ بَعْثَةِ بَرْزَوَيْهِ إِلَى مَمْلَكَةِ الْهِنْدِ لأَجْلِ نَقْلِ هَذَا الْكِتَابِ.

وَذَكَرَ فِيْهَا مَا يَلْزَمُ مُطَالِعَهُ مِنْ إِتْقَانِ قِرَاءَتِهِ والقِيَامِ بِدِرَاسَتِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى بَاطِنِ كَلاَمِهِ وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُــلْ عَلَى الغَايَةِ مِنْهُ. وَذَكَرَ فِيْهَا حُضُــوْرَ بَرْزَوَيْهِ وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ جَهْرَاً وَقَدْ ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بُزُرْجُمْهَرَ بَاباً مُفْرَداً يُسَــمَّى بَابَ بَرْزَوَيْهِ الطَّبِيْبِ وَذَكَرَ فِيْهِ شَــأْنَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآنِ مَوْلِدِهِ، إِلَى أَنْ بَلَغَ التَّأْدِيْبَ وَأَحَبَّ الحِكْمَةَ وَاعْتَبَرَ فــي أَقْسَامِها. وَجعلَهُ قَبْلَ بَابِ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ.

---

١ البراهمة: نسبة إلى رجلٍ يقال له براهم، وهذه الطَّائفة تنفي وجود الأنبياء، وتقرُّ باستحالة ذلك فـي العقل. وترى أنَّ من أكبر الكبائر اتِّباع رجلٍ من البشر، يأكل ممّا نأكل، ويشرب ممَّا نشرب، وترى أنَّ التَّوجُّهَ إلى بيت مخصوص فـي العبادة والطَّواف حوله، والسَّعي ورمي الجمار والإحرام، والتَّلبية.. مخالفةٌ لقضايا العقول.

٢ الطَّغَام: الأوغاد والأراذل.

٣ كِسرى أنو شروان: (٥٣١-٥٧٩م)، وأنو شروان لقبه، ومعناه: النَّفس الخالدة، كان ناصراً للعلم والعلماء، وبأمر منه نقلت مؤلَّفات اليونان والسّريان والهند إلى الفارسيَّة.

البَاعِثُ عَلَى تَأْلِيفِ الْكِتَابِ:

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ: كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفُ لِدَبْشَلِيْمَ مَلِكَ الهِنْدِ كِتَابَ (كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ):

أَنَّ الإِسْكَنْدَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرُّوْمِيَّ[1] لَمَا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ المُلُوْكِ الَّذِيْنَ كَانُوا بِنَاحِيَةِ المَغْرِبَ سَارَ يُرِيْدُ مُلُوْكَ المَشْرِقِ مِنَ الفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ.

فَلَمْ يَزَلْ يُحارِبُ مَنْ نَازَعَهُ، وَيُوَاقِعُ مَنْ وَاقَعَهُ، وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ مِنْ مُلُوْكِ الْفُرْسِ وَهُمُ الطَّبَقَةُ الأُوْلَى حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ، وَقَهَرَ مَنْ نَاوَأَهُ، وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ، فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ[2]، وتَمَزَّقُوا خَزَائِقَ[3]، فَتَوَجَّهَ بِالجُنُوْدِ نَحْوَ بِلاَدِ الصِّيْنِ فَبَدَأَ فِي طَرِيْقِهِ بِمَلِكِ الهِنْدِ لَيَدْعُوَهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَالدُّخُوْلِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلاَيَتِهِ.

وَكَانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبأْسٍ، وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ، يُقَالُ لَهُ فُوْرٌ، فَلَمَا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ، وَاسْتَعَدَّ لِمُجَاذَبَتِهِ، وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ[4]، وَجَدَّ فِي التَّأَلُّبِ[5] عَلَيْهِ، وَجَمَعَ لَهُ العُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ، مِنَ الفِيلَةِ المُعَدَّةِ لِلْحُرُوْبِ، وَالسِّبَاعِ المُضَرَّاةِ[6] بِالوُثُوْبِ، مَعَ الْخُيُوْلِ المُسْرَجَةِ، وَالسُّيُوْفِ القَوَاطِعِ، وَالحِرَابِ اللَّوَامِعِ.

فَلَمَّا قَرُبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُوْرٍ الهِنْديِّ وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الخَيْلِ الَّتِي كَأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ، مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ المُلُوْكِ الَّذِيْنَ كَانُوا فِي الأَقَالِيمِ، تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ تَقْصِيْرٍ يَقَعُ بِهِ إِنْ عَجَّلَ المُبَارَزَةَ.

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلاً ذَا حِيَلٍ ومَكَايِدَ مَعَ حُسْنِ تَدْبِيْرٍ وَتَجْرِبَةٍ، فَرَأَى إِعْمَالَ الحِيْلَةِ والتَّمَهُّلَ، وَاحْتَفَرَ خَنْدَقاً عَلَى عَسْكَرِهِ، وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لاِسْتِنْبَاطِ الحِيْلَةِ وَالتَّدْبِيْرِ لأَمْرِهِ وَكَيْفَ يُنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَدِمَ عَلَى الإِيْقَاعِ بِهِ، فَاسْتَدْعَى المُنَجِّمِيْنَ وَأَمَرَهُمْ بِالاخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُوْنُ لَهُ فِيْهِ سَعَادَةٌ لِمُحَارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِ، فَاشْتَغَلُوا بِذَلِكَ

---

١ الإسكندر ذو القرنين المقدونيُّ (٣٥٦- ٣٢٤ ق.م)، فتح بلاد فارس بعد أن انتصر عليهم في معركة إيسوس، وفتح العراق وسوريا ووصل سواحل مصر وبنى مدينة الإسكندرية، ثم تابع زحفه إلى بلاد الهند والصِّين، وهو غير ذي القرنين الذي ذُكِرَ في القرآن الكريم.

٢ الطَّرائق: الفرق.

٣ الخزائق: القطع.

٤ أطراف الرجل: أبواه وإخوته وأقرباؤه.

٥ التَّألُّب عليه: الجمع له والتَّحريض على قتاله.

٦ السِّباع المضرَّاة: المعوَّدة والمدرَّبة.

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لا يَمُرُّ بِمَدِيْنَةٍ إِلاَّ أَخَذَ الصُّنَّاعَ الْمَشْهُوْرِيْنَ مِنْ صُنَّاعِهَا بِالحِذْقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ، فَتَنَجَتْ لَهُ هِمَّتُهُ، وَدَلَّتْهُ فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الصُّنَّاعِ الَّذِيْنَ مَعَهُ، أَنْ يَصْنَعُوا خَيْلاً مِنْ نُحَاسٍ مُجَوَّفَةً عَلَيْهَا تَمَاثِيلٌ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى بَكَرٍ تَجْرِين إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتْ سِرَاعاً، وَأَمَرَ إِذَا فَرَغُوا مِنْهَا أَنْ تُحْشَى أَجْوَافُهَا بِالنِّفْطِ وَالكِبْرِيْتِ، وَتُلَبَّسَ وَتُقَدَّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَلْبِ، وَوَقْتَ مَا يَلْتَقِي الجَمْعَانِ تُضرَمُ فِيْهَا النِّيْرَانُ، فَإِنَّ الفِيلَةَ إِذَا لَفَّتْ خَرَاطِيْمَهَا عَلَى الفُرْسَانِ وَهِيَ حَامِيَةٌ وَلَّتْ هَارِبَةً، وَأَوْعَزَ إِلَى الصُّنَّاعِ بِالتَّشْمِيْرِ[1] وَالانْكِمَاشِ[2] وَالفَرَاغِ مِنْهَا، فَجَدُّوا فِي ذَلِكَ وَعَجَّلُوا، وَقَرُبَ أَيْضَاً وَقْتُ اخْتِيَارِ المُنَجِّمِيْنَ، فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى فُوْرٍ بِمَا يَدْعُوْهُ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَالإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ فَأَجَابَ جَوَابَ مُصِرٍّ عَلَى مُخَالَفَتِهِ، مُقِيْمٍ عَلَى مُحَارَبَتِهِ.

فَلَمَّا رأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيْمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأُهْبَتِهِ، وَقَدَّمَ فُوْرٌ الفِيلَةَ أَمَامَهُ، وَدَفَعَتِ الرِّجَالُ تِلْكَ الْخَيْلَ وَتَمَاثِيْلَ الْفُرْسَانِ فَأَقْبَلَتِ الفِيلَةُ نَحْوَهَا، وَلَفَّتْ خَرَاطِيْمَهَا عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا، وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا، وَمَضَتْ مَهْزُوْمَةً هَارِبَةً لاَ تَلْوِي[3] عَلَى شَيْءٍ، وَلاَ تَمرُّ بِأَحَدٍ إِلاَّ وَطِئَتْهُ، وَتَقَطَّعَ[4] فُوْرٌ وَجَمْعُهُ، وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الإِسْكَنْدَرِ وَأَثْخَنُوا فِيْهِمُ الجِرَاحَ، وَصَاحَ الإِسْكَنْدَرُ: يَا مَلِكَ الهِنْدِ ابْرُزْ إِلَيْنَا وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ، وَلاَ تَحْمِلْهُمْ إِلَى الفَنَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُرُوْءَةِ أَنْ يَرْمِيَ المَلِكُ بِعُدَّتِهِ فِي المهَالِكِ المُتْلِفَةِ والمَوَاضِعِ المُجْحِفَةِ، بَلْ يَقِيْهِمْ بِمَالِهِ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ، فَابْرُزْ إِليَّ وَدَعِ الجُنْدَ، فَأَيُّنَا قَهَرَ صَاحِبَهُ فَهُوَ الأَسْعَدُ. فَلَمَّا سَمِعَ فُوْرٌ مِنْ ذِيْ الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ الكَلاَمَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى مُلاَقَاتِهِ طَمَعَاً فِيْهِ وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً، فَبَرَزَ إِلَيْهِ الإِسْكَنْدَرِ فَتَجَاوَلاَ[5] عَلَى ظَهْرَيْ فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً، وَلَمْ يَزَالاَ يَتَعَارَكَانِ، فَلمَّا أَعْيَا[6] الإِسْكَنْدَرَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَجِدْ فُرْصَةً وَلاَ حِيْلَةً أَوْقَعَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَسْكَرِهِ صَيْحَةً عَظِيْمَةً ارْتَجَتْ لَهَا الأَرضُ وَالْعَسَاكِرُ. فَالتَفَتَ فُوْرٌ عِنْدَمَا سَمِعَ الزَّعْقَةَ وَظَنَّهَا مَكِيدَةً فِي عَسْكَرِهِ، فَعَاجَلُهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَالَتْهُ عَنْ سَرْجِهِ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَوَقَعَ إِلَى الأَرْضِ.

---

١ التَّشمير: شمَّر في الأمر: خفَّ ونهض وتهيَّأ.
٢ الانكماش: العزم والإسراع.
٣ لا تلوي: لا تقف ولا تنتظر.
٤ تقطَّع: تفرَّقْ.
٥ تجاولا: دار أحدهما حول الآخر.
٦ أعيا: أعجز.

فَلَّمَا رَأَتِ الْهُنُوْدُ مَا نَزَلَ بِهِمْ وَمَا صَـــارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ حَمَلُوا عَلَى الإِسْـــكَنْدَرِ، فَقَاتَلُوْهُ قِتَالاً أَحَبُّوا مَعَهُ الموْتَ. فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِـــهِ الإِحْسَـــانَ، ومَنَحَهُ اللهُ أَكْتَافَهُمْ[1] فَاسْـتَوْلَى عَلَى بِلاَدِهِمْ وَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنْ ثِقَاتِهِ. وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ حَتَّى اسْتَوْسَقَ[2] لَهُ ما أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاتِّفَاقِ كَلمتِهِمْ. ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِ الهِنْدِ وَخَلَّفَ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهاً نَحْوَ مَا قَصَدَ لَهُ.

فَلَمَّا بَعُدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الهِنْدِ بِجُيُوْشِهِ تَغَيَّرَتِ الهُنُوْدُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَّفَهُ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا لَيْسَ يَصْـلُحُ لِلسِّـيَاسَـةِ وَلاَ تَرْضَـى الخَاصَّـةُ وَالعَامَّةُ أَنْ يُمَلِّكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلاً لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلاَ مِنْ أَهْلِ بُيُوْتِهِمْ، فَإِنَّهُ لاَ يَزَالُ يَسْتَذِلُّهُمْ وَيَسْتَقِلُّهُمْ[3]. وَاجْتَمَعُوا يُمَلِّكُوْنَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنْ أَوْلاَدِ مُلُوْكِهِمْ. فَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكاً يُقَالُ لَهُ دَبْشَـلِيْمُ، وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كانَ خَلَّفَهُ عَلَيْهِمُ الإِسْـكَنْدَرُ. فَلَّمَا اسْـتَوْسَـقَ لَهُ الأَمْرُ وَاسْـتَقَرَّ لَهُ المُلْكُ، طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ، وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ المُلُوْكِ، وَكانَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّداً مُظَفَّراً مَنْصُـوْراً فَهَابَتْهُ الرَّعِيَّةُ. فَلَّمَا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ المُلْكِ وَالسَّـطْوَةِ عَبِثَ بِالرَّعِيَّةِ، وَاسْـتَصْـغَرَ أَمْرَهُمْ، وَأَسَاءَ السِّيْرَةَ فِيْهِمْ، وَكَانَ لاَ يَرْتَقِي حَالُهُ إِلاَّ ازْدَادَ عُتُوَّاً. فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ.

وَكَانَ فِـــي زَمَانِهِ رَجُلٌ فَيْلَسُوْفٌ مِنَ البَرَاهِمَةِ، فَاضِلٌ حَكِيْمٌ، يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ وَيُرْجَعُ فِي الأُمُوْرِ إِلَى قَوْلِهِ، يُقَالُ لَهُ : بَيْدَبَا. فَلَمَّا رَأَى المَلِكَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ لِلرَّعِيَّةِ فَكَّرَ فِـي وَجْهِ الحِيْلَةِ فِـي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَرَدِّهِ إِلَى العَدْلِ وَالإِنْصَـــافِ. فَجَمَعَ لِذَلِكَ تَلاَمِذَتَهُ، وَقَالَ: أَتَعْلَمُوْنَ مَا أُرِيْدُ أَنْ أُشَـــاوِرَكُمْ فِيْهِ. اعْلَمُوَا أَنّي أَطَلْتُ الفِكْرَةَ فِـــي دَبْشَـلِيْمَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الخُرُوْجِ عَنِ العَدْلِ، وَلُزُوْمِ الشَّرِّ، وَرَدَاءَةِ السِّيْرَةِ، وَسُوْءِ العِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ، وَنَحْنُ مَا نُرَوِّضُ[4] أَنْفُسَـــنَا لِمِثْلِ هَذِهِ الأُمُوْرِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ المُلُوْكِ إِلاَّ لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الخَيْرِ وَلُزُوْمِ العَدْلِ. وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمَنَا مِنْ وُقُوْعِ المَكْرُوْهِ بِنَا، وَبُلُوْغِ المَحْذُوْرَاتِ إِلَيْنَا أَنْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الجُهَّالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ، وَفِي العُيُوْنِ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ. وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِيَ الجَلاَءُ عَنِ الوَطَنِ، وَلاَ يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيْرَةِ، وَقُبْحِ الطَّرِيْقَةِ، وَلاَ يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِنَا، وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ نَسْـتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَنَا مُعَانَدَتُهُ. وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا بِمُخَالَفَتِهِ، وَإِنْكَارِنَا سُوْءَ سِيْرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارُنَا[5].

---

١ منحه الله أكتافهم: مَكَّنَهُ منهم فهزمهم.

٢ استوسق: اجتمع وانضمَّ، واستوسقت الإبل: انتظمت.

٣ يَسْتَقِلُّهم : يحتقرهم ويستصغرهم.

٤ نروِّض: ندرّب ونمرِّن.

٥ البَوار: الهلاك.

وَقَدْ تَعْلَمُوْنَ أَنَّ مُجَاوَرَةَ السَّبُعِ وَالْكَلْبِ وَالحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيْبِ الوَطَنِ وَنَضَارَةِ العَيْشِ غَدْرٌ بِالنَّفْسِ. وَإِنَّ الفَيْلَسُوْفَ لَحَقِيْقٌ[1] أَنْ تَكُوْنَ هِمَّتُهُ مَصْرُوْفَةً إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَوَازِلِ المَكْرُوْهِ، وَلَوَاحِقِ الْمَحْذُوْرِ، وَيَدْفَعُ المَخُوْفَ لاِسْتِجْلاَبِ الْمَحْبُوْبِ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوْفاً كَتَبَ إِلَى تِلْمِيْذِهِ يَقُوْلُ: إِنَّ مُجَاوَرَةَ رِجَالِ السُّوْءِ، وَالمُصَاحَبَةَ لَهُمْ كَرَاكِبِ البَحْرِ إِنْ هُوَ سَلِمَ مِنَ الغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ المَخَاوِفِ. فَإِذَا هُوَ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الهَلَكَاتِ وَمَصَادِرَ المخُوْفَاتِ عُدَّ مِنَ الحَمِيْرِ الَّتِي لاَ نَفْسَ لَهَا. لأَنْ الحَيَوَانَاتِ البَهِيْمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوقَّى المَكْرُوْهَ. وَذَلِكَ أَنَّنَا لَمْ نَرَهَا تُوْرِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِداً فِيْهِ هَلَكَتُهَا. وَأَنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا الَّتِي رُكِّبَتْ فِيْهَا شُحَّاً[2] بِأَنْفُسِهَا، وَصِيَانَةً لَهَا إِلَى النُّفُوْرِ وَالتَّبَاعُدِ عَنْهُ. وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الأَمْرِ لأَنَّكُمْ أُسْرَتِي، وَمَكَانُ سِرِّي، وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي، وَبِكُمْ أَعْتَضِدُ، وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ. فَإِنَّ الوَحِيْدَ فِي نَفْسِهِ، وَالمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ وَلاَ نَاصِرَ لَهُ. عَلَى أَنَّ العَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيْلَتِهِ مَا لاَ يَبْلُغُ بِالخَيْلِ وَالجُنُوْدِ. مَثَلُ القُنبَّرَةِ وَالفِيْلِ

وَالمَثَلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قُنْبُرَةً اتَّخَذَتْ أُدْحِيَّةً[3] وَبَاضَتْ فِيْهَا عَلَى طَرِيْقِ الْفِيْلِ. وَكَانَ لِلْفِيْلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ. فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُن فَوَطِئَ عُشَّ القُنْبُرَةِ، وَهَشَّمَ بَيْضَهَا، وَقَتَلَ فِرَاخِهَا. فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَهَا عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنَ الفِيْلِ لاَ مِنْ غَيْرِهِ. فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِيَةً، ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا المَلِكُ لِمَ هَشَمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاخِي وَأَنا فِي جِوَارِكَ. أَفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْغَاراً مِنْكَ لأَمْرِي وَاحْتِقَاراً لِشَأْنِي؟ قَالَ: هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ. فَتَرَكَتْهُ وَانْصَرَفَتْ إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الفِيْلِ. فَقُلْنَ لَهَا وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُوْرٌ. فَقَالَتْ لِلْعَقَاعِقِ[4] وَالغِرْبَانِ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إِلَيْهِ فَتَفْقَأْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيْلَةٍ أُخْرَى. فَأَجَبْنَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَذَهَبْنَ إِلَى الْفِيْلِ فَلَمْ يَزَلْنَ يَنْقُرْنَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبْنَ بِهِمَا، وَبَقِيَ لاَ يَهْتَدِي إِلَى طَرِيْقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ إِلاَّ مَا يَقُمُّهُ[5] مِنْ مَوْضِعِهِ. فَلَمَّا عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيْرٍ فِيْهِ ضَفَادِعُ كَثِيْرَةٌ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيْلِ.

---

١ حَقِيق : أهل وجدير.

٢ الشُّحُّ: البخل.

٣ الأدحيَّة: حفرة يضع الطَّائر بيضه فيها.

٤ العقاعق: مفردها عقعق، وهو طائر من فصيلة الغراب، لَهُ ذَنَبَ طويل، ومنقار طويل، لونه أسود وأبيض، وهو صخَّاب، والعرب تتشاءم به.

٥ يقمُّه: ما يأكله عن وجه الأرض.

قَالَتِ الضَّــفَادِعُ: مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فـــي عِظَمِ الْفِيْلِ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِـرْنَ مَعِي إِلَى وَهْدَةٍ[1] قَرِيْبَةٍ مِنْهُ فَتُنَقْنِقْنَ[2] فِيْهَا وَتَضـْجِجْنَ، فَإِنَّهُ إِذَا أَصْوَاتَكُنَّ لَمْ يَشُكَّ فـي المَاءِ فَيَهْوِيَ فِيْهَا. فَأَجَبْنَهَا إِلَى ذَلِكَ وَاجْتَمَعْنَ فِي الْهَاوِيَةِ. فَسَـمِعَ الْفِيلِ نَقِيْقَ الضَّـفَادِعُ وَقَدْ جَهَدَهُ العَطَشُ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي الوَهْدَةِ فَاعْتَطَمَ[3] فِيْهَا. وَجَاءَتِ القُنْبُرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِـهِ، وَقَالَتْ: أَيُّهَا الطَّاغِي المُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ المُحْتَقِرُ لأَمْرِي. كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيْلَتِي مَعَ صِـغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ؟!...

فَلْيُشِـرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْـنَحُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ. قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَيُّهَا الفَيْلَسُـوْفُ الفَاضِلُ والحَكِيْمُ العَادِلُ، أَنْتَ المُقَدَّمُ فِيْنَا وَالفَاضِلُ عَلَيْنَا، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُوْنَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ، غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ السِّبَاحَةَ فِي المَاءِ مَعَ التِّمْسَاحِ تَغْرِيْرٌ، وَالذَّنْبُ فِيْهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ، وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السُّمَّ مِنْ نَابِ الحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ لِيُجَرِّبَهُ عَلَى نَفْسِـهِ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ. وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الأَسَـدِ فِي غَابَتِهِ لَمْ يَأْمَنْ وَثْبَتَهُ. وَهَذَا المَلِكُ لَمْ تُفْزِعْهُ النَّوَائِبُ، وَلَمْ تُؤَدِّبْهُ التَّجَارِبُ، وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوْءٍ إِذَا لَقِيْتَهُ بِغَيْرِ مايُحِبُّ.

فَقَالَ الحَكِيْمُ بَيْدَبَا: لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحسَنْتُمْ، لَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ الفَرْدَ لاَ يُكْتَفَى بِهِ فِي الخَاصَّةِ، وَلاَ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي العامَّةِ، وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيْمَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيْمَ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيْحَتُكُمْ وَالإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ؛ غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْياً وَعَزَمْتُ عَزْماً، وَسَتَعْرِفُوْنَ حَدِيْثِي عِنْدَ المَلِكِ وَمُجَاوَرَتِي إِيَّاهُ. فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوْجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ. وَصَرَفَهُمْ وَهُمْ يَدْعُوْنَ لَهُ بِالسَّلاَمَةِ.

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا اخْتَارَ يَوْماً لِلدُّخُوْلِ عَلَى المَلِكِ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مُسُوْحَهُ - وَهِيَ لِبَاسُ البَرَاهِمَةِ - وَقَصَدَ بَابَ المَلِكِ، وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ، وَأُرْشِدَ إِلَيْهِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ لَهُ: إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ المَلِكَ فِي نَصِيْحَةٍ. فَدَخَلَ الآذِنُ عَلَى المَلِكِ فِي وَقْتِهِ وَقَالَ: بِالبَابِ رَجُلٌ مِنَ البَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِـيْحَةً. فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَفَّرَ وَسَـجَدَ لَهُ وَاسْتَوَى قَائِماً وَسَكَتَ وَفَكَّرَ دَبْشَلِيْمُ فِي سُكُوْتِهِ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْنَا إِلاَّ لِأَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَّا شَـيْئاً يُصْـلِحُ بِهِ حَالَهُ أَوْ لِأَمْرٍ لَحِقَهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِ طَاقَةٌ. ثُمَّ قَالَ: إِنْ كَانَ لِلْمُلُوْكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلاً فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ، لِأَنَّ الْحُكَمَـاءَ أَغْنِيَـاءُ عَنِ المُلُوْكِ بِـالعِلْمِ، وَلَيْسَ المُلُوْكُ بِـأَغْنِيَـاءَ عَنِ الحُكَمَاءِ بِالمَالِ

---

١ الوهدة: ما انخفض من الأرض.

٢ تنقنق: النقنة : صوت الضفدع.

٣ اعتطم: هلك ومات.

وَقَدْ وَجَدْتُ العِلْمَ وَالحَيَاءَ إِلْفَيْنِ مُتَآلِفَيْنِ لاَ يَفْتَرِقَانِ، مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوْجِد الآخَرُ، كَالمُتصافِيَيْنِ[1] إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ نَفْسَاً بِالبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأَسُّفَاً عَلَيْهِ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ الْحُكَمَاءِ، وَيُكْرِمْهُمْ وَيَعْرِفْ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَيَصُــنْهُمْ عَنِ المَوَاقِفِ الوَاهِنَةِ[2]، وَيُنَزِّهْهُمْ عَنِ المواطِنِ الرَّذْلَةِ[3]، كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ عَقْلَهُ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ، وَأَظْلَمَ الحُكَمَاءَ حُقُوْقَهُمْ، وَعُدَّ مِنَ الجُهَّالِ.

ثمَّ رَفَعَ رَأْسَــهُ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ: نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا بَيْدَبَا سَـاكِتاً لاَ تَعْرِضُ حَاجَتَكَ وَلاَ تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ[4]، فَقُلْتُ: إِنَّ الَّذِي أَسْــكَتَهُ هَيْبَةٌ سَــاوَرَتْهُ، أَوْ حَيْرَةٌ أَدْرَكَتْهُ. وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي طُوْلِ وُقُوْفِكَ وَقُلْتُ: لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلاَّ لأَمْرٍ حَرَّكَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَلاَّ نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُوْلِهِ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَـيْمٍ نَالَهُ كُنْتُ أَوْلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَسَـارَعَ فِي تَشْـرِيْفِهِ، وَتَقَدَّمَ فِي البُلُوْغِ إِلَى مُرَادِهِ، وإِعْزَازِهِ؛ وإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضَـــاً مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا أَمَرْتُ بِإِرْضَـــائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيْمَا أَحَبَّ. وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ المُلْكِ وَمِمَّا لاَ يَنْبَغِي لِلْمُلُوْكِ أَنْ يَبْذُلُوْهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلاَ يَنْقَادُوا إِلَيْهِ، نَظَرْتُ فِي قَدَرِ عُقُوْبَتِهِن عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى إِدْخَالِ نَفْسِــهِ فِي بَابِ مَسْــأَلَةِ المُلُوْكِ؛ وَإِنْ كَانَ شَيْئاً مِنْ أُمُوْرِ الرَّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيْهِ أَنْ أَصْرِفَ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ نَظَرْتُ مَاهُوَ، فَإِنَّ الحُكَمَاءَ لاَ يُشِيرُوْنَ إِلاَّ بِالخَيْرِ، وَالجُهَّالَ يُشِيرُوْنَ بِضِدِّهِ وَأَنَا قَدْ فَسحْتُ لَكَ فِي الكَلاَمِ. فَلَمَّا سَــمِعَ بَيْدَبَا ذَلِكَ مِنَ المَلِكِ أُفْرِخَ[5] عَنْهُ رَوْعُهُ وَسُــرِّيَ مَا كَانَ وَقضعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ، وَكَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ، ثَمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ:

أَوَّلُ مَا أَقُوْلُ أَنِّي أَسْـأَلُ اللهَ تَعَالَى بَقَاءَ المَلِكِ عَلَى الأَبَدِ، وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى الأَمَدِ لأَنَّهُ قَدْ مَنَحَنِي المَلِكُ فِي مُقَامِي هَذَا مَحَلاًّ جَعَلَهُ شَرَفاً لِي عَلَى جَمِيْعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ العُلَمَاءِ، وَذِكْراً بَاقِياً عَلَى الدَّهْرِ عِنْدَ الحُكَمَاءِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى المَلِكِ بِوَجْهِهِ مُسْــتَبْشِــراً بِهِ، فَرِحاً بِمَا بَدَا لَهُ مِنْهُ وَقَالَ: قَدْ عَطَفَ عَلَيَّ المَلِكُ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَالأَمْرُ الَّذِي دَعَانِي إِلَى الدُّخُوْلِ عَلَى المَلِكِ، وَحَمَلَنِي عَلَى الخَاطَرَةِ فِي كَلاَمِهِ، وَالإِقْدَامِ عَلَيْهِ نَصِـيْحَةٌ اخْتَصَـصْـتُهُ بِهَا دُوْنَ غَيْرِهِ، وَسَـيَعْلَمُ مَنْ يَتَصِّلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أُقَصِّـرْ عَنْ غَايَةٍ فِيْمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى الحُكَمَاءِ، فَإِنْ فَسَـــحَ فِي كَلامِي وَوَعَاهُ عَنِّي فَهُوَ حَقِيْقٌ بِذَلِكَ، وَإِنْ هُوَ أَلْقَاهُ فَقَدْ بَلَغْتُ مَا يَلْزَمُنِي، وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمٍ يَلْحَقُنِي.

---

١ المتصافيان: المتوادَّان والمتحابَّان.

٢ الواهنة: الضعيفة.

٣ الرَّذِلة: الرَّديئة.

٤ البغية: المراد والطَّلب

٥ أفرخ: سكن وزال.

قَالَ المَلِكُ: يا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ مَهمَا شِــئْتَ، فَإِنَّنِي مُصْــغٍ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ، وَسَــامِعٌ مِنْكَ حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ إلى آخِرِه، وَأُجَازِيْكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ.
قَالَ بَيْدَبَا: إِنِّي وَجَدْتُ الأُمُوْرَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الإِنْسَــانُ مِنْ بَيْنِ سَــائِرِ الحَيَوَانِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ، وَهِيَ جُمَّاعُ[١] مَا فِي العَالَمِ:
وَهِيَ الحِكْمَةُ وَالعِفَّةُ وَالعَقْلُ وَالعَدْلُ، وَالعِلْمُ وَالأَدَبُ وَالرُّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الحِكْمَةِ، وَالحِلْمُ وَالصَّــبْرُ وَالوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ العِفَّةِ، وَالصِّــدْقُ وَالإِحْسَــانُ وَالمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ الخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ العَدْلِ.
وَهَذِهِ هِيَ المَحَاسِــنُ، وَأَضْــدَادُهَا هِيَ المَسَــاوِئُ، فَمَتَى كَمُلَتْ هَذِهِ فِي وَاحِدٍ لَمْ يُخْرِجْهُ النَّقْصُ فِي نِعْمَتِهِ إِلَى سُوْءِ الحَظِّ مِنْ دُنْيَاهُ، وَلاَ نَقْصٍ مِنْ عُقْبَاهُ[٢]، وَلَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيْقُ، وَلَمْ يُحْزِنْهُ مَا تَجْرِي بِهِ المَقَادِيْرُ فِي مُلْكِهِ، وَلَمْ يَدْهَشْ عِنْدَ مَكْرُوْهٍ.
فَالحِكْمَةُ كَنْزٌ لاَ يَفْنَى عَلَى الإِنْفَاقِ، وَذَخِيْرَةٌ لاَ يُضْــرَبُ لَهَا بِالإِمْلاَقِ[٣]، وَحُلَّةٌ لاَ تَخْلُقُ[٤] جِدَّتُها، وَلَذَّةٌ لاَ تُصْــرَمُ[٥] مُدَّتُها، وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مُقَامِي بَيْنَ يَدَيْ المَلِكِ، أَمْسَــكْتُ عَنِ ابْتِدَائِهِ بِالْكَلاَمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلاَّ لِهَيْبَتِهِ وَالإِجْلاَلِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ المُلُوْكَ لأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا وَلاَ سِــيَّما مَنْ هُوَ فِي المنْزِلَةِ الَّتِي جَلَّ فِيْهَا المَلِكُ عَنْ نَازِلِ المُلُوْكِ قَبْلَهُ. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: اِلْزَمِ السُّــكُوْتَ فَإِنَّ فِيْهِ السَّلاَمَةَ، وَتَجَنَّبِ الكَلاَمِ الفَارِغَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ.
وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ العُلَمَاءِ ضَمَّهُمْ مَجْلِسُ مَلِكٍ فَقَالَ لَهُمْ: لِيَتَكَلَّمْ كُلٌّ مِنْكُم بِكَلاَمٍ يَكُوْنُ أَصْلاً لِلأَدَبِ.
فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَفْضَلُ خَلَّةِ[٦] العُلماءِ السُّكُوْتُ.
وَقَالَ الثَّانِي: إِنَّ مِنْ أَنْفَعِ الأَشْيَاءِ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدَرَ نْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ.
وَقَالَ الثَّالِثُ: أَنْفَعُ الأَشْيَاءِ لِلإِنْسَانِ أَلاَّ يَتَكَلَّمَ بِمَا لاَ يَعْنِيْهِ.
وَقَالَ الرَّابِعُ: أَرْوَحُ[٧] الأُمُوْرِ لِلإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيْرِ.

١ جُمَّاع: جميع.
٢ عقباه: آخرته.
٣ الإملاق: الفقر الشديد.
٤ تخلق: تبلى.
٥ لا تُصرم: لا تنقطع.
٦ الخَلَّة: الخصلة والشِّيمة.
٧ أروح: اسم تفضيل من الرَّاحة.

وَاجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوْكُ الأَقَالِيْمِ مِنَ الصَّــيْنِ وَالهِنْدِ وَفَارِسَ وَالرُّوْمِ، وَقَالُوا: يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمِ كُلٌّ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تُدَوَّنُ عَنْهُ عَلَى غَابِرِ[1] الدَّهْرِ. قَالَ مَلِكُ الصِّــيْنِ: أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ. قَالَ مَلِكُ الهِنْدِ: عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعْهُ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ[2].. قَالَ مَلِكُ فَارِسَ: أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالكَلِمَةِ مَلَكَتْنِي، وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكْتُهَا. قَالَ مَلِكُ الرُّوْمِ: ما نَدِمْتُ عَلَى مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ، وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيْراً.

وَالسُّــكُوْتُ عِنْدَ المُلُوْكِ أَحْسَــنُ مِنَ الهَذْرِ[3] الَّذِي لاَ يُرْجَعُ مِنْـهُ إِلَى نَفْعٍ. وأَعْضَلُ[4] مَا اسْتُضِلَّ[5] بِهِ الإِنْسَانُ لِسَانُهُ. غَيْرَ أَنَّ المَلِكَ أَطَالَ اللهُ مُدَّتَهُ لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الكَلاَمِ، وَأَوْسَعَ لِيْ فِيْهِ، كَانَ أَوْلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الأُمُوْرِ الَّتِي هِيَ غَرَضِــي أَنْ تَكُوْنَ ثَمَرَةُ ذَلِكَ لَهُ دُوْنِي، وَأَنْ أَخْتَصَّــهُ بِالفَائِدَةِ قَبْلِي، عَلَى أَنَّ العُقْبَى[6] هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلاَمِي لَهُ، وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ، وَأَكُوْنُ قَدْ قَضَيْتُ فَرْضاً وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُوْلُ:

أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الجَبَابِرَةِ الَّذِيْنَ أَسَّــسُــوا المُلْكَ قَبْلَكَ، وَشَيَّدُوْهُ دُونَكَ، وَبَنَوا القِلاَعَ وَالحُصُوْنَ، وَمَهَّدُوا البِلاَدَ، وَقَادُوا الجُيُوْشَ، وَاسْتَجَاشُوا[7] العُدَّةَ، وَطَالَتْ لَهُمُ المُدَّةُ، وَاسْتَكْثَرُوا مِنَ السِّلاَحِ وَالكِرَاعِ[8]، وَعَاشُــوا الدُّهُوْرَ فِيْ الغِبْطَةِ وَالسُّــرُوْرِ، فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذَلِكَ مِنِ اكْتِسَــابِ جَمِيْلِ الذِّكْرِ، وَلاَ قَطَعَهُمْ عَنِ اغْتِنَامِ الشُّــكْرِ وَاسْــتِعْمَالِ الإِحْسَــانِ إِلَى مَنْ خُوِّلُوْهُ[9]، وَالرِّفْقِ بِمَنْ وُلُّوْهُ[10]، وَحُسْــنِ السِّــيْرَةِ فِيمَا تَقَلَّدُوْهُم مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا فِيْهِ مِنْ غِرَّةِ[11] المُلْكِ وَسَــكْرَةِ الاقْتِدَارِ. وَإِنَّكَ أَيُّهَا المَلِكُ – السَّــعِيْدُ جَدُّهُ الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَــعْدِهِ – قَدْ وَرِثْتَ أَرْضَــهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتَهُمْ، فَأَقَمْتَ فِيمَا خُوِّلْتَ مِنَ المُلْكِ، وَوَرِثْتَ مِنَ الأَمْوَالِ وَالجُنُوْدِ،

---

١ غابر الدَّهر: سالف الزَّمن والماضي منه.
٢ أوبقته: أهلكته.
٣ الهذر: مالا ينبغي من الكلام، والكلام غير المفيد.
٤ أعضل: أعجز ، أغلظ، أدهى.
٥ استُضلَّ: حُمل على الضَّلال.
٦ العقبى: العاقبة: جزاء الأمر.
٧ استجاشوا: جمعوا.
٨ الكراع: الدَّوابّ.
٩ خوِّلوه: مُلِّكوه.
١٠ وُلُّوه: تولُّوا عليه.
١١ الغرَّة: الاغترار.

وَلَمْ تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ، بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَأَسَأْتَ السِّيْرَةَ، وَعَظُمَتْ مِنْكَ البَلِيَّةُ. وَكَانَ الأَوْلَى وَالأَشْبَهَ[1] بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيْلَ أَسْلاَفِكَ، وَتَتَّبِعَ آثَارَ المُلُوْكِ قَبْلَكَ، وَتَقْفُوَ[2] مَحَاسِنَ مَا أَبْقَوْهُ لَكَ، وَتُقْلِعَ[3] عَمَّا عَارُهُ لاَزِمٌ لَكَ وَشَيْنُهُ[4] وَاقِعٌ بِكَ، وَتُحْسِنَ النَّظَرَ بِرَعِيَّتِكَ، وَتَسُنَّ لَهُمْ سُنَنَ الخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرَهُ، وَيُعْقِبَكَ[5] الجَمِيْلَ فَخْرُهُ. وَيَكُوْنُ ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلاَمَةِ، وَأَدْوَمَ عَلَى الاِسْتِقَامَةِ. فَإِنَّ الجَاهِلَ المُغْتَرَّ مَنِ اسْتَعْمَلَ فِي أُمُوْرِهِ البَطَرَ وَالأُمْنِيَّةَ[6]، وَالحَازِمَ اللَّبِيْبَ مَنْ سَاسَ المُلْكَ بِالمُدَارَاةِ وَالرِّفْقِ. فَانْظُرْ أَيُّهَا المَلِكُ فِيْمَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ، وَلاَ يَثْقُلَنَّ ذَلِكَ، فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَذَا ابْتِغَاءَ غَرَضٍ تُجَازِيْنِي بِهِ، وَلا التِمَاسَ مَعْرُوْفٍ تَسُوْقُهُ إِلَيَّ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحاً مُشْفِقاً عَلَيْكَ.

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ، وَقَضَى مُنَاصَحَتَهُ أَوْغَرَ قَلْبَ المَلِكِ[7] فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الجَوَابِ اسْتِصْغَاراً لأَمْرِهِ، وَقَالَ: لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلاَمٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَداً مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ، وَلاَ يُقْدِمُ عَلَى مَا أَقْدَمْتَ عَلَيْهِ. فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ وَضُعْفِ مُنَّتِكَ[8] وَعَجْزِ قُوَّتِكَ. وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ، وَتَسَلُّطِكَ بِلِسَانِكَ فِيْمَا جَاوَزْتَ فِيْهِ حَدَّكَ، وَمَا أَجِدُ شَيْئَاً فِي تَأْدِيْبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ التَّنْكِيْلِ بِكَ[9]، فَذَلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرُوْمَ[10] مَا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ المُلُوْكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبَ. فَلَمَّا مَضَوْا فِيْمَا أَمَرَ فَكَّرَ فِيْمَا أَمَرَ بِهِ فَأَحْجَمَ عَنْهُ[11] ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيْدِهِ. فَلَمَا حُبِسَ أَنْفَذَ المَلِكُ فِي طَلَبِ تَلاَمِذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ، فَهَرَبُوا فِي البِلاَدِ وَاعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ البِحَارِ. فَمَكَثَ بَيْدَبَا فِي مَحْبَسِهِ أَيَّاماً لاَ يَسْأَلُ المَلِكُ عَنْهُ، وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَلاَ يَجْسُرُ[12] أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ،

---

١ الأشبه: الأصلح.
٢ تقفو: تتبَّعْ.
٣ تُقلع: تكفّ.
٤ شَينه: عيبه.
٥ يُعقبك: يورثك.
٦ البطر: الاستخفاف والتّعالي. والأُمنيَّة: التَّعلُّل بالآمال.
٧ أوغر قلبه: ملأه حقداً وغيظاً.
٨ مُنَّتك: قوّتك.
٩ التَّنكيل: المعاقبة بما يجعله عبرة لغيره.
١٠ يروم: يطلب، يريد.
١١ فأحجم عنه: تراجع.
١٢ يَجْسُر: يجرؤ.

حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي سَهِدَ[1] المَلِكُ سُهْدَاً شَدِيْدَاً، وَطَالَ سُهْدُهُ فَمَدَّ إِلَى الفَلَكِ بَصَرَهُ وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ الفَلَكِ[2]، وَحَرَكَاتِ الكَوَاكِبِ فَأَغْرَقَ[3] الفِكْرُ فِيْهِ، فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُوْرِ الفَلَكِ وَالمَسْأَلَةِ. فَذَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ بَيْدَبَا وَتَفَكَّرَ فِيْمَا كَلَّمَهُ فِيْهِ فَارْعَوَى[4] لِذَلِكَ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَقَدْ أَسَأْتُ فِيْمَا صَنَعْتُ بِهَذَا الفَيْلَسُوْفِ، وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ، وَحَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ سُرْعَةُ الغَضَبِ. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: أَرْبَعَةٌ لاَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ فِي المُلُوْكِ. الغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الأَشْيَاءِ مَقْتَاً[5]، والبُخْلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُوْرٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ[6]، وَالكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِرَهُ، وَالعُنْفُ فِي المُحَاوَرَةِ فَإِنَّ السَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَى إِلَيَّ رَجُلٌ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ مُبَلِّغَاً[7] فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ، وَكَافَأْتُهُ بِخِلاَفِ مَا يَسْتَوْجِبُ. وَمَا كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ مِنِّي بَلْ كَانَ الوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلاَمَهُ، وَأَنْقَادَ لِمَا يُشِيْرُ بِهِ. ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيْهِ بِهِ.

إِكْرَامُ المَلِكِ لِبَيْدَبَا

فَلَّمَا مَثَلَ[8] بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيْرِ هِمَّتِي، وَعَجَّزْتَ رَأْيِي فِي سِيْرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفاً.
قَالَ لَهُ بَيْدَبَا: أَيُّ المَلِكُ النَّاصِحُ الشَّفِيْقُ الصَّادِقُ الرَّفِيْقُ، إِنَّمَا نَبَّأْتُكَ بِمَا فِيْهِ صَلاَحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ وَدَاوَمُ مُلْكِكَ. قَالَ لَهُ المَلِكُ: يَا بَيْدَبَا أَعِدْ عَلَيَّ كَلاَمَكَ كُلَّهُ وَلاَ تَدَعْ مِنْهُ حَرْفاً إِلاَّ جِئْتَ بِهِ، فَجَعَلَ بَيْدَبَا يَنْثُرُ كَلاَمَهُ وَالمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ دَبْشَلِيْمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ شَيْئَاً يَنْكُتُ[9] الأَرْضَ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ[10] إِلَى بَيْدَبَا وَأَمَرَهُ بِالجُلُوْسِ. وَقَالَ لَهُ: يا بَيْدَبَا إِنِّي قَدِ اسْتَعْذَبْتُ كَلاَمَكَ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ فِي قَلْبِي، وَأَنَا نَاظِرٌ فِي الَّذِي أَشَرْتَ بِهِ، وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ. ثُمَّ أَمَرَ بِقُيُوْدِهِ فَحُلَّتْ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَتَلَقَّاهُ بِالقُبُوْلِ.

---

١ سَهِدَ: فارقه النَّوم.
٢ تفلُّكَ الفلك: استدارته.
٣ فأغرق الفكر: بالغ وتعمَّق.
٤ ارعوى: رجع عن رأيه وارتدع.
٥ المقت: البغض
٦ ذات اليد: اليسر. القدرة على العطاء.
٧ مُبَلِّغ: ناقلاً الخبر بقصد الدَّسيسة والإساءة.
٨ مَثَلَ: وقف أمامه.
٩ يَنكت الأرضِ: يضربها بقضيب أو نحوه.
١٠ رفع طرفه: رفع نظره.

فَقَالَ بَيْدَبَا: أَيُّهَا المَلِكُ إِنَّ فِي دُوْنِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً[١] لِمِثْلِكَ. قَالَ: صَـــدَقْتَ أَيُّهَا الحَكِيْمُ الفَاضِـلُ، وَقَدْ وَلَّيْتُكَ[٢] مِنْ مَجْلِســي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِــي مَمْلَكَتِي. فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ أَعْفِنِي مِنْ هَذَا الأَمْرِ فَإِنِّي غَيْرُ مُضْـطَلِعٍ بِتَقْوِيْمِهِ[٣] إِلاَّ بِكَ، فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا انْصَـــرَفَ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ. فَبَعَثَ فَرَدَّهُ، وَقَالَ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ مِمَّا عَرَضْـــتُهُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لاَ يَقُوْمُ إِلاَّ بِكَ، وَلاَ يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ، وَلاَ يَضْطَلِعُ بِهِ سِوَاكَ فَلاَ تُخَالِفْنِي فِيْهِ. فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذلك.
وَكَانَ عَادَةُ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوْزَرُوا وَزِيْراً أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجاً، وَيَرْكَبَ فِي أَهْلِ المَمْلَكَةِ، وَيُطَافَ بِهِ فِي المَدِيْنَةِ. فَأَمَرَ المَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِبَيْدَبَا ذَلِكَ. فَوُضِـــعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِــهِ، وَرَكِبَ فِي المَدِيْنَةِ وَرَجَعَ فَجَلَسَ بِمَجْلِسِ العَدْلِ وَالإِنْصَـــافِ يَأْخُذُ لِلدَّنِيْءِ مِنَ الشَّرِيْفِ، وَيُسَاوِي بَيْنَ القَوِيِّ وَالضَّعِيْفِ، وَرَدَّ المَظَالِمَ، وَوَضَعَ سُــنَنَ العَدْلِ، وَأَكْثَرَ مِنَ العَطَاءِ وَالبَذْلِ. وَاتَّصَــلَ الخَبَرُ بِتَلاَمِذَتِهِ فَجَاؤُوا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَرِحِيْنَ بِمَا جَدَّدَ اللهُ لَهُ مِنْ جَدِيْدِ رَأْيِ المَلِكِ فِيْهِ، وَشَــكَرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيْقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيْمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوْءِ السِّيْرَةِ. وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيْدًا يُعَيِّدُوْنَ فِيْهِ، فَهُوَ إِلَى اليَوْمِ عِيْدٌ يُعَيِّدُوْنَهُ فِي بِلاَدِ الهِنْدِ.

المَلِكُ يَطْلُبُ مِنْ بَيْدَبَا تَأْلِيفَ كِتَابٍ لِيَكُوْنَ دَسْتُوْراً لِلْبِلاَدِ

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لما أَخْلَى فِكْرَهُ مِنْ اشْـتِغَالِهِ بِدَبْشَـلِيْمَ، تَفَرَّغَ لِوَضْـعِ كُتُبِ السِّـيَاسَــةِ، وَنَشِـطَ لَهَا، فَعَمِلَ كُتُباً كَثِيْرَةً فِيْهَا دَقَائِقُ الحِيَلِ. وَمَضَـــى المَلِكُ عَلَى ما رَسَـمَ لَهُ بَيْدَبَا.
مِنْ حُسْـــنِ السِّـــيْرَةِ وَالعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ، فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ[٤] المُلُوكُ الَّذِيْنَ كَانُوا فِي نَوَاحِيْهِ، وَانْقَادَتْ لَهُ الأُمُوْرُ عَلَى اسْـــتِوَائِهَا، وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ. ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلاَمِذَتَهُ فَأَحْسَـنَ صِـلاَتَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ وَعْداً جَمِيْلاً، وَقَالَ لَهُمْ: لَسْـتُ أَشُـكُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نُفُوْسِـكُمْ وَقْتَ دُخُوْلِي عَلَى المَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ: إِنَّ بَيْدَبَا قَدْ ضَـاعَتْ حِكْمَتُهُ، وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ إِذْ عَزَمَ عَلَى الدُّخُوْلِ عَلَى هَذَا الجَبَّارِ الطَّاغِي. فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيْجَةَ رَأْيِي، وَصِـحَّةَ فِكْرِي، وَإِنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلاً بِهِ؛ لأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُوْلُ: إِنَّ المُلُوْكَ لَهَا سَـــكْرَةُ الشَّـــرَابِ، فَالمُلُوْكُ لاَ تُفِيْقُ مِنَ السَّـــكْرَةِ إِلاَّ بِمَوَاعِظِ العُلَمَاءِ، وَالوَاجِبُ عَلَى العُلَمَاءِ تَقْوِيْمُ المُلُوْكِ بِأَلْسِنَتِهَا، وَتَأْدِيْبُهَا بِحِكْمَتِهَا، وَإِظْهَـارُ الحُجَّـةِ البَيِّنَـةِ اللاَّزِمَـةِ لَهُمْ، لِيَرْتَـدِعُوا عَمَّـا هُمْ عَلَيْـهِ مِنَ الاعْوِجَـاجِ وَالْخُرُوجِ عَنِ العَدْلِ،

---

١ النُّهية: الزَّجر، والأمر بترك العمل.
٢ ولَّيتك: قلَّدتك الولاية.
٣ مضطلع: قادر.
٤ فرغبت إليه: مالت إليه.

فَوَجَدْتُ مَا قَالَتِ العُلَمَاءُ فَرْضَــاً وَاجِباً عَلَى الحُكَمَاءِ لِمُلُوْكِهِمْ، لِيُوْقِظُوْهُمْ مِنْ سِنَةِ[1] سَكْرَتِهِمْ، كَالطَّبِيْبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا، أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصِّحَّةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوْتَ أَوْ أَنْ أَمُوْتَ، وَمَا يَبْقَى عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ يَقُوْلُ: إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفُ فِيْ زَمَانِ دَبْشَلِيْمَ الطَّاغِي، فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كَلاَمُهُ خَوْفَاً عَلَى نَفْسِهِ، قَالُوا : كَانَ الهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جِوَارِهِ أَوْلَى بِهِ، وَالانْزِعَاجُ[2] عَنِ الوَطَنِ شَدِيْدٌ. فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُوْدَ بِحَيَاتِي، فَأَكُوْنَ قَدْ أَتَيْتُ فِيْمَا بَيْنِيَ وَبَيْنَ الحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْراً، فَحَمَلْتُها عَلَى التَّغْرِيْرِ أَوْ الظَّفَرِ بِمَا أُرِيْدُهُ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوْهُ. فَإِنَّهُ يُقَالَ فِي بَعْضِ الأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ. إِمَّا بِمَشَــقَّةٍ تَنَالُهُ فِي نَفْسِهِ، وَإِمَّا بِوَضِيْعَةٍ[3] فِي مَالِهِ، أَوْ وَكْسٍ[4] فِي دِيْنِهِ. وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبِ[5]، وَإِنَّ المَلِكَ دَبْشَلِيْمَ قَدْ بَسَطَ لِسَانِي[6] فِي أَنْ أَضَعَ كِتَاباً فِيْهِ ضُرُوْبُ الحِكْمَةِ. فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئاً فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ، وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لأَنْظُرَ مِقْدَارَ عِقْلِهِ، وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ الحِكْمَةِ فَهْمُهُ. قَالُوا: أَيُّهَا الحَكِيْمُ الفَاضِــلُ، وَاللَّبِيْبُ العَاقِلُ، وَالَّذِي وَهَبَ مَا مَنَحَكَ مِنَ الحِكْمَةِ وَالعَقْلِ وَالأَدَبِ وَالفَضِيْلَةِ، مَا خَطَرَ هَذَا بِقُلُوبِنَا سَاعَةً قَطٌّ، وَأَنْتَ رَئِيْسُنَا وَفَاضِلُنَا وَبِكَ شَرُفْنَا وَعَلَى يَدِكَ انْتَعَشْنَا وَلَكِنْ سَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا فِيْمَا أَمَرْتَ.

وَمَكَثَ المَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ السِّيْرَةِ زَمَاناً يَتَوَلَّى لَهُ ذَلِكَ بَيْدَبَا وَيَقُوْمُ بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ دَبْشَلِيْمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ المُلْكُ، وَسَقَطَ عَنْهُ النَّظَرُ فِي أُمُوْرِ الأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ بَيْدَبَا، صَــرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي الكُتُبِ الَّتِي وَضَــعَتْهَا فَلاَسِــفَةُ الهِنْدِ لآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ. فَوَقَعَ فِيْ نَفْسِــهِ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ أَيْضــاً كِتَابٌ مَشْـرُوْحٌ يُنْسَــبُ إِلَيْهِ، وَتُذْكَرُ فِيْهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذُكِرَ أَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ. فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَقُوْمُ إِلاَّ بِبَيْدَبَا، فَدَعَاهُ وَخَلاَ بِهِ، وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا إِنَّكَ حَكِيْمُ الهِنْدِ وَفَيْلَسُــوْفُهَا، وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي خَزَائِنِ الحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوْكِ قَبْلِي، فَلَمْ أَرَ فِيْهِمْ أَحَداً إِلاَّ وَقَدْ وَضَعَ كِتَاباً يَذْكُرُ فِيْهِ أَيَّامَهُ وَسِيْرَتَهُ، وَيُنْبِئُ عَنْ أَدَبِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ. فَمِنْهُ مَا وَضَــعَتْهُ المُلُوْكُ لأَنْفُسِــهَا وَذَلِكَ لِفَضْــلِ حِكْمَةٍ فِيْهَا، وَمِنْهُ مَا وَضَــعَتْهُ حُكَمَاؤُهَا، وَأَخَافُ أَنْ يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أُولَئِكَ مِمَّا لاَ حِيْلَةَ لِي فِيْهِ، وَلاَ يُوْجَدُ فِي خَزَائِنِي كِتَابٌ أُذْكَرُ بِهِ بَعْدِي، وَيُنْسَبُ إِلَيَّ كَمَا ذُكِرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ،

---

١ السِّنَة: النَّوم.

٢ الانزعاج عن الوطن: التَّحَوُّل عنهُ والانتقال إلى غيره.

٣ الوضيعة: الخسارة.

٤ الوكس: النّقصان.

٥ الرَّغائب: ما يرغب فيه.

٦ بسط لساني: أطلقه، وسمح لي..

وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَاباً بَلِيْغاً تَسْتَفْرِغُ فِيْهِ عَقْلَكَ، يَكُوْنُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ العامَّةِ وَتَأْدِيْبَهَا عَلَى طَاعَةِ المَلِكِ، وَبَاطِنُهُ أَخْلاَقَ المُلُوْكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلْرَّعِيَّةِ، فَيَسْقُطُ عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيْرٌ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ المُلْكِ. وَأُرِيْدُ أَنْ يُبْقِي لِي هَذَا الكِتَابُ بَعْدِي ذِكْراً عَلَى غَابِرِ الدُّهُوْرِ.

تَأْلِيفُ بَيْدَبَا كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ

فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلاَمَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِداً، وَرَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ السَّعِيْدُ جَدُّهُ[1]؛ عَلاَ نَجْمُكَ، وَغَابَ نَحْسُكَ، وَدَامَتْ أَيَّامُكَ، إِنَّ الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ مِنْ جُوْدَةِ القَرِيْحَةِ وَوَفُوْرِ العَقْلِ حَرَّكَهُ إِلَى عَالِي الأُمُوْرِ، وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهِمَّتُهُ إِلَى أَشْرَفِ المَرَاتِبِ مَنْزِلَةً وَأَبْعَدِهَا غَايَةً، وَأَدَامَ اللهُ سَعَادَةَ المَلِكِ، وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوْغِ مُرَادِهِ، فَلْيَأْمُرِ المَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنَ ذَلِكَ، فَإِنِّي صَائِرٌ[2] إِلَى غَرَضِهِ، مُجْتَهِدٌ فِيْهِ بِرَأْيِي. قَالَ لَهُ المَلِكُ: يَا بَيْدَبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوْفاً بِحُسْنِ الرَّأْيِ، وَطَاعَةِ المُلُوْكِ فِي أُمُوْرِهِمْ، وَقَدِ اخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذَلِكَ، وَاخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هَذَا الكِتَابَ، وَتُعْمِلَ فِيْهِ فِكْرَكَ، وَتَجْهَدَ فِيْهِ نَفْسَكَ بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيْلَ، وَلْيَكُنْ مُشْتَمِلاً عَلَى الجِدِّ وَالهَزْلِ وَاللَّهْوِ وَالحِكْمَةِ وَالفَلْسَفَةِ، فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ، وَقَالَ: قَدْ أَجَبْتُ المَلِكَ – أَدَامَ اللهُ أَيَّامَهُ – إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ. وَجَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلاً. قَالَ: وَكَمِ الأَجَلُ؟ قَالَ: سَنَةٌ. قَالَ: قَدْ أَجَّلْتُكَ، وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ تُعِيْنُهُ عَلَى عَمَلِ الكِتَابِ. فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّراً فِي الأَخْذِ فِيْهِ وَفِي أَيَّةِ صُوْرَةٍ يَبْتَدِئُ بِهَا فِيْهِ وَفِي وَضْعِهِ.

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلاَمِذَتَهُ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ المَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي إِلَى أَمْرٍ فِيْهِ فَخْرِي وَفَخْرُكُمْ وَفَخْرُ بِلاَدِكُمْ، وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الأَمْرِ.

ثُمَّ وَصَفَ مَا سَأَلَ المَلِكُ مِنْ أَمْرِ الكِتَابِ وَالغَرَضِ الَّذِي قَصَدَ فِيْهِ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الفِكْرُ فِيْهِ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيْدُهُ، فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَتِمُّ بِاسْتِفْرَاغِ العَقْلِ، وَإِعْمَالِ الفِكْرِ، وَقَالَ: أَرَى السَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِي فِي البَحْرِ إِلاَّ بِالملاَّحِيْنَ لأَنَّهُمْ يُعَدِّلُوْنَهَا، وَإِنَّمَا تَسْلُكُ اللُّجَّةَ بِمُدَبِّرِهَا الَّذِي تَفَرَّدَ بِإِمْرَتِهَا، وَمَتَى شُحِنَتْ بِالرُّكَّابِ الكَثِيْرِيْنَ، وَكَثُرَ مَلاَّحُوْهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الغَرَقِ. وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيْمَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ الكِتَابِ، حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الانْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ رَجُلٍ مِنْ تَلاَمِيْذِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ، فَخَلاَ بِهِ مُنْفَرِداً مَعَهُ بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الوَرَقِ الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ فِيْهِ الهِنْدُ شَيْئاً،

---

١ جَدُّهُ: طالعه وحظُّه.

٢ صَائِرٌ إليه: محقِّق إيَّاه.

وَمِنَ القُوْتِ مَا يَقُوْمُ بِهِ وبِتِلْمِيْذِهِ تِلْكَ المُدَّةَ، وَجلَسَا فِي مَقْصُوْرَةٍ[1]، وَرَدَّا عَلَيْهِمَا البَابَ، ثُمَّ بَدأَ فِي نَظْمِ الكِتَابِ وَتَصْنِيْفِه، وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي وَتِلْمِيْذُهُ يَكْتُبُ، وَيَرْجِعُ هُوَ فِيْهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ الكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الإِتْقَانِ وَالإِحْكَامِ، وَرَتَّب فِيْهِ خَمْسَةَ عَشَرَ بَاباً، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالجَوَابُ عَنْهَا، لِيَكُوْنَ لِمَنْ نَظَرَ فِيْهِ حَظٌّ مِنَ التَّبْصِرَةِ وَالهِدَايَةِ، وَضَمَّنَ تِلْكَ الأَبْوَابَ كِتَاباً وَاحِداً، وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيْلَةِ وَدِمْنَةَ.

ثُمَّ جَعلَ كَلاَمَهُ عَلَى أَلْسُنِ البَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ، لِيَكُوْنَ ظَاهِرُهُ لَهْوَاً لِلْخَوَاصِّ وَالعَوَامِّ، وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُوْلِ الخَاصَّةِ، وَضَمَّنَهُ أَيْضَاً مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ، وَآخِرَتِهِ وأُوْلاَهُ، وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوْكِ، وَيُجنِّبُهُ مَا تَكُوْنُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرَاً لَهُم ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنَاً وَظَاهِراً كَرَسْمِ سَائِرِ الكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الحِكْمَةِ. فصَارَ الحَيَوَانُ لَهْوَاً وَمَا يَنْطِقُ بِهِ حِكَمَاً وَأَدَبَاً. فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيْدَبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الكِتَابِ وَصْفَ الصَّدِيْقِ، كَيْفَ يَكُوْنُ صَدِيْقَانِ، وَكَيْفَ تُقْطَعُ المودَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهُمَا بِحِيْلَةِ ذِي النَّمِيْمَةِ[2]، وَأَمَرَ تِلْمِيْذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ مَا كَانَ المَلِكُ شَرطَهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ لَهْوَاً وَحِكْمَةً، فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ الحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلاَمُ النَّقَلَةِ أَفْسَدَهَا وَاسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا.

فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيْذُهُ يَعْملاَنِ الفِكْرَ فِيْمَا سَأَلَهُ المَلِكُ حَتَّى فَتَقَ[3] لَهُمَا العَقْلُ وَاسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا. أَنْ يَكُوْنَ كَلاَمُهُما عَلَى لِسَانِ بَهِيْمَتَيْنِ. فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَالهَزْلِ بِكَلاَمِ البَهَائِمِ، وَكَانَتِ الحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ. فَأَصْغَتِ الحُكَمَاءُ إِلَى حِكَمِهِ، وَتَرَكُوا البَهَائِمَ وَاللَّهْوَ وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي الَّذِي وُضِعَ لَهُمْ، وَمَالَتْ إِلَيْهِ الجُهَّالُ عَجَبَاً مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيْمَتَيْنِ، وَلَمْ يَشُكُّوا فِي ذَلِكَ وَاتَّخَذُوْهُ لَهْوَاً وَتَرَكُوا مَعْنَى الكَلاَمِ أَنْ يَفْهَمُوْهُ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الغَرَضَ الَّذِي وُضِعَ لَهُ، لأَنَّ الفَيْلَسُوْفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِيْ البَابِ الأَوَّلِ أَنْ يثخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ الإِخْوَانِ، كَيْفَ تَأَكَّدُ المودَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى التَّحَفُّظِ مِنْ أَهْلِ السِّعَايَةِ وَالتَّحَرُّزِ[4]، مِمَّنْ يُوْقِعُ العَدَاوَةَ بَيْنَ المُتَحَابَّيْنِ لِيَجُرَّ بِذَلِكِ نَفْعَاً إِلَى نَفْسِهِ.

فَلَمْ يَزَلْ بَيْدَبَا وَتِلْمِيْذُهُ فِي المقْصُوْرَةِ حَتَّى اسْتَتَمَّ عَمَلَ الكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنةٍ.

---

١ المقصورة: الحجرة.

٢ النَّميمة: نقل الكلام بين شخصين بقصد الإيقاع بينهما.

٣ فتق: كشف وشقّ.

٤ التَّحرُّز: التَّنبّه.

بَيْدَبَا يَعْرِضُ الكِتَابَ عَلَى المَلِكِ

فَلَّمَا تَمَّ الحَوْلُ[1] أَنْفَذَ إِلَيْهِ المَلِكُ أَنْ قَدْ جَاءَ الوَعْدُ، فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَيْدَبَا إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ المِلكَ، فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ المَمْلَكَةِ، لِتَكُوْنَ قِرَاءَتِي هَذَا الكِتَابَ بِحَضْرَتِهِمْ.

فَلَّمَا رَجَعَ الرَّسُوْلُ إِلَى المَلِكِ سُرَّ بِذَلِكَ، وَوَعَدَهُ يَوْمَاً يَجْمَعُ فِيْهِ أَهْلَ المَمْلَكَةِ. ثُمَّ نَادَى فِيْ أَقَاصِي بِلاَدِ الهِنْدِ لِيَحْضَرُوا قِرَاءَةَ ا لكِتَابِ. فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ اليَوْمُ أَمَرَ المَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا سَرِيْرٌ مِثْلُ سَرِيْرِهِ، وَكَرَاسِيٌّ لأَبْنَاءِ المُلُوْكِ وَالعُلَمَاءِ، وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ. فَلَّمَا جَاءَهُ الرَّسُوْلُ قَامَ فَلَبِسَ الثِّيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى المُلُوْكِ، وَهِيَ المُسُوْحُ السُّوْدُ، وَحَمَّلَ الكِتَابَ تِلْمِيْذَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى المَلِكِ وَثَبَ الخَلاَئِقُ بِأَجْمَعِهِمْ، وَقَامَ المَلِكُ شَاكِرَاً، فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ المَلِكِ، كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ، وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ. فَقَالَ المَلِكُ: يَا بَيْدَبَا ارْفَعْ رَأْسَكِ فَإِنَّ هَذَا يَوْمُ هَنَاءٍ وَفَرَحٍ وَسُرُوْرٍ، وَأَمَرَهُ المَلِكُ أَنْ يَجْلِسَ. فَحِيْنَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ الكِتَابِ سَأَلَهُ المَلِكُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الكِتَابِ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيْهِ، فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيْهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ، فَازْدَادَ المَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبَاً وَسُرُوْرَاً

فَقَالَ لَهُ: يا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ[2] الَّذِي فِي نَفْسِي، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ، فَاطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ. فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُوْلِ الجَدِّ[3] وَقَالَ : أَيُّهَا المَلِكُ أَمَّا المَالُ فَلاَ حَاجَةَ لي فِيْهِ، وأَمَّا الكُسْوَةُ فَلاَ أَخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هَذَا شَيْئاً ، وَلَسْتُ أُخْلِي المَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ.

قَالَ المَلِكُ: يا بَيْدَبَا مَا حَاجَتُكَ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا[4] مَقْضِيَّةٌ. قَالَ يَأْمُرُ المَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ آباؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كُتُبَهُمْ، وَيَأْمُرَ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلاَدِ الهِنْدِ، فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ. فَالمَلِكُ يَأْمُرُ أَلاَّ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِ الحِكْمَةِ. ثُمَّ دَعَا المَلِكُ بِتَلاَمِيْذِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الجَوَائِزَ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلأَكَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ وَكَانَ مُسْتَأْثِراً[5] بِالكُتُبِ وَالعِلْمِ وَالأَدَبِ وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الأَوَائِلِ، وَقَعَ إِلَيْهِ خَبَرُ الكِتَابِ، فَلَمْ يَقِرَّ قَرَارُهُ حَتَّى بَعَثَ بَرْزَوَيْهِ الطَّبِيْبَ، وَتَلَطَّفَ حَتَّى أَخْرَجهُ مِنْ بِلاَدِ الهِنْدِ، فَأَقَرَّهُ[6] فِي خَزَائِنِ فَارِسَ.

---

١ الحَوْلُ: السَّنَةُ.

٢ عَدَوت: جاوزت.

٣ طول الجدِّ: طول الحظ والسَّعادة.

٤ قِبَلَنا: عندنا.

٥ مستأثر: منفرد.

٦ أَقَرَّه: أثبته.

بابُ بَعْثَةِ المَلِكِ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانَ بْنِ قُبَّاذَ بْنِ فَيْرُوزَ بَرْزَوَيْهِ ابْنِ أَزْهَرَ الطَّبِيْبَ إِلَى الهِنْدِ فِي تَحْصِيْلِ هَذَا الكِتَابَ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيْحُ غَيْبِهِ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى كُلِّ عِلْمٍ وَغَايَةٍ، الدَّالِّ عَلَى الخَيْرِ المُسَبِّبِ كُلَّ فَضِيْلَةٍ. أَلْهَمَ عِبَادَهُ كُلَّ مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ مِنْ نَوَافِلِ[1] الخَيْرَاتِ، وَنَوَامِي[2] البَرَكَاتِ، لَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنَ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ، إِذْ أَمَرَهُمْ بِالشُّكْرِ لَهُ لِيَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ المَزِيْدَ مِنْهُ، وَيُسَارِعُوا فِيْمَا يُرْضِيْهِ عَنْهُمْ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِيْنَ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ مُسَبَّبٍ عِلَّةً، وَلِكُلِّ عِلَّةٍ مَجْرَىً يُجْرِيْهَا اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى يَدِ عَبْدٍ مِنْ عَبِيْدِهِ، وَيُقَدِّرُهَا لَهُ عَلَى أَيَّامِ دَوْلَتِهِ وَ أَيَّامِ عُمْرِهِ، وَذلِكَ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ عِلْمِ انْتِسَاخِ هَذَا الكِتَابِ، وَنَقْلِهِ مِنْ أَرْضِ الهِنْدِ إِلَى مَمْلَكَةِ فَارِسَ، إِلهَامٌ أَلْهَمَهُ اللهُ تَعَالَى كِسْرَى أَنُوشِرْوَانَ لِلْبَعْثِ فِي نَقْلِهِ وَنَسْخِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ أَكْبَرَ مُلُوْكِ الفُرْسِ، وأَكْثَرَهُمْ حِكْمَةً، وَ أَسَدَّهُمْ رَأْياً، وَأَرْشَدَهُمْ تَدْبِيْراً، وَأَحَبَّهُمْ لِلْعُلُوْمِ، وَأَبْحَثَهُمْ عَنْ مَكَامِنِ[3] الْعِلْمِ فِي اقْتِنَاءِ مَا يَزِيْنُهُ بِزِيْنَةِ الحِكْمَةِ مِنْ طَالِبِي الأَدَبِ وَالعِلْمِ فِي مَعْرِفَةِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ وَالصَّدِيْقِ وَالعَدُوِّ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ إلاَّ بِنُوْرِ اللهِ تَعَالَى فِي سِيَاسَتِهِ عَبِيْدَهُ وَبِلاَدَهُ لإِقَامَةِ رَعِيَّتِهِ وَأُمُوْرِهِ، وَهُوَ المَلِكُ المُعَظَّمُ فِي قَوْمِهِ كِسْرَى المُتَزَيِّنُ بِزِيْنَةِ البَهَاءِ، الفَاضِلُ المَاجِدُ الرَّشِيْدُ السَّعِيْدُ، الَّذِي لَمْ يَعْدِلْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ مَضَى قَبْلَهُ مِنْ مُلُوْكِ الفُرْسِ، النَّاقِدُ[4] البَصِيْرُ الكَامِلُ الأَدَبِ، المُعِيْنَةُ لَهُ نَفْسُهُ عَلَى الْتِمَاسِ فُرُوْعِ الحِكَمِ، المُسْتَعِيْنُ بِنُوْرِ العَقْلِ وَجُوْدَةِ الفِكْرِ، الَّذِي اخْتَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الخِصَالِ المَحْمُوْدَةِ، وَزَيَّنَهُ بِزِيْنَةِ الكَرَامَةِ، وَتَوَّجَهُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ السَّابِغَةِ[5]، حَتَّى أَذْعَنَتْ لَهُ الرَّعِيَّةُ، وَطَاعَتْ لِسُلْطَانِهِ البَرِيَّةُ، وَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيَا، وَدَانَتْ[6] لَهُ البِلاَدُ، وَانْقَادَتْ لَهُ المُلُوْكُ، وَرَكَنَتْ إِلَى طَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ وَمُنَاصَحَتِهِ، وَذَلِكَ مِنْحَةٌ مِنَ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلا قَسَمَهَا لَهُ فِي دَوْلَتِهِ، وَجَمَّلَهُ بِهَا فِي أَقْطَارِ مَمْلَكَتِهِ.

---

١ النَّوافل: كل عمل مستحسن دون وجوبه أو فرضه.

٢ النوامي: اسم فاعل من «نما» زاد وطلع.

٣ المكامن: المخابئ..

٤ النَّاقد: المميِّز.

٥ السَّابغة: الشَّاملة.

٦ دانت: خضعت.

فَبَيْنَمَا هُوَ ذاتَ يَوْمٍ فِي عُنْفُوَانِ[1] دَوْلَتِهِ وَشَمْخِهَا[2] وَعِزَّةِ مَمْلَكَتِهِ وَقَعَسِهَا[3]، إِذْ أَخْبَرَهُ بَعْضُ جُلَسَائِهِ أَنَّ عِنْدَ بَعْضِ مُلُوْكِ الهِنْدِ فِي خَزَائِنِهِ كِتَاباً مِنْ تَأْلِيْفِ الحُكَمَاءِ، وَتَصَانِيْفِ العُلَمَاءِ، وَاسْتِنْبَاطِ الفُضَلاَءِ، وَقَدْ فُصِّلَتْ لَهُ غَرَائِبُ مِنْ عَجَائِبِهِ المَوْضُوْعَةِ عَلَى أَفْوَاهِ البَهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالوَحْشِ وَالهَوَامِّ[4] وَخَشَاشِ[5] الأرضِ، مِمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فُضَلاَءُ المُلُوْكِ لِسِيَاسَةِ رَعِيَّتِهَا، وَنِظَامِ أُمُوْرِ مَمَالِكِهَا وَتَدْبِيْرِهَا، فَدَعَتْهُ الحَاجَةُ إِلَى اقْتِنَاءِ هَذَا الْكِتَابِ لِكَمَالِ مُلْكِهِ، وَأَنَّهُ بِعَدَمِهِ نَاقِصٌ وَبِتَحْصِيْلِهِ كَامِلٌ، وَبِاتِّبَاعِهِ يَحْصُلُ عَلَى رِضَى الخَالِقِ جَلَّ وَعَلاَ، وانْقِيَادِ المَخْلُوْقِ لَهُ وَزَجْرِهِ عَنِ المَعَاصِي الَّتِي يَتَّبِعُهَا شِرَارُ الخَلْقِ، وَيَتَجَنَّبُهَا أَصْفَاهُمْ جَوْهَرَا، وَأَجْوَدُهُمْ طَبْعاً، وَأَنْبَغُهُمْ[6] حَسَباً، وَإِنَّهُ لمَّا عَزَمَ عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِ، وَهَمَّ بِاقْتِنَائِهِ وَنَسْخِهِ قَالَ فِي نَفْسِهِ: مَنْ لِهَذَا الأَمْرِ العَظِيْمِ، وَالخَطْبِ الجَسِيْمِ، وَالأَدَبِ النَّفِيْسِ الَّذي بِهِ تَتَكَمَّلُ الفَضَائِلُ، وَلِمَ تَتَزَيَّنُ بِهِ مُلُوْكُ الهِنْدِ دَوْنَ مُلُوْكِ فَارِسَ، وَقَدْ هَمَمْتُ أَلاَّ أَدَعَ مَشَقَّةً وَلاَ صُعُوْبَةٍ وَلاَ مُخَاطَرَةً، حَتَّى أَبْذُلَهَا فِي طَلَبِ هَذَا الكِتَابِ، حَتَّى أَصِلَ إِلَى نَسْخِهِ، وَاقْتِنَائِهِ عَلَى تَرْتِيْبِ مَنَافِعِهِ وَعَجَائِبِهِ مِنْ أَقْوَالِ الحُكَمَاءِ وَوَضْعِ العُلَمَاءِ، لِيَقَعَ[7] لَنَا اسْتِنْبَاطُهُ[8] دُونَ سَائِرِ المُلُوْكِ مِنْ أَحَادِيْثَ مُعْجِبَةٍ، وَفَضَائِلَ مُحْكَمَةٍ يَكَادُ العَقْلُ يَمُدُّ يداً إِلَى اجْتِنَاءِ ثَمَرِهَا، وَيَفْتَحُ فَمَاً لِلَذِيْذِ مَذَاقِهَا، وَيَتَعَلَّقُ بِوَثِيْقِ حَبْلِهَا، إِذْ يُرَوْضُ النَّفْسَ بِالعُدُوْلِ عَنْ مَسَاوِئِهَا، وَيَعْدِلُ بِهَا عَنْ تَتَبُّعِ أَهْوَائِهَا.

فَلَمَّا فَحَصَ كِسْرَى رَأْيَهُ السَّدِيْدَ وَعَزْمَهُ الرَّشِيْدَ فِيْمَا صَمَّمَ عَلَيْهِ وَهَمَّ بِهِ قَالَ: الأَمْرُ فِي ذَلِكَ جَلِيْلٌ، وَالخَطْبُ عَظِيْمٌ، وَالشُّقَّةُ بَعِيْدَةٌ، وَالمسَافَةُ طَوِيْلَةٌ شَاقَّةٌ، وَلاَبُدَّ مِنْ أَنْ يَنْتَحِلَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَةِ أَصْلَبَهُمْ عُوْدَا وأَجْوَدَهُمْ عَزْمَاً وَحَزْمَاً، وَهَذَا يُوْجَدُ إِمَّا فِي كُتَّابِ الدِّيْوَانِ، وَإِمَّا فِي طِبِّ الخَاصِّ، لأَنَّ الخَاصَّ وَالعَامَّ تَجْمَعُ مَسَالِكُهُما جَمِيْعَ الفَضَائِلِ وَالأَدَبَ وَفُنُوْنَ العِلْمِ وَمَحْضَ الحِكَمِ فِي أَناةٍ وَتُؤَدَةٍ وَبُلُوْغَ الأَغْرَاضِ لِمُلُوْكِهَا بِحُسْنِ الحِيَلِ، وَجُوْدَةِ الذِّهْنِ وَكَمَالِ المُرُوءَةِ، وَكِتْمَانِ السِّرِّ، وَإِظْهَارِ أَضْدَادِهَا.

---

١ عنفوان الدَّولة: أوَّلها وازدهارها.

٢ شمخها : عظمتها. وفي بعض النسخ: شموخها.

٣ قعسها: منعتها وعزَّها.

٤ الهوامُّ: ما يقتل الحشرات.

٥ خشاش الأرض: الحشرات.

٦ أنبغهم: أظهرهم.

٧ ليقع: ليثبت.

٨ استنباطه: استخراجه.

فَلَمَّا تَمَّ عَزْمُهُ، وانْتَظَمَ، سَأَلَ وُزَرَاءَهُ أَنْ يَتَقَدَّمُوا وَيَجْتَهِدُوا فِي تَطَلُّبِ رَجُلٍ كَامِلٍ عَالِمٍ أَدِيْبٍ، قَدْ جَمَعَ الفَضَائِلَ بِحَذَافِيْرِهَا، وَنُسِبَ إِلَى الكَمَالِ مِنْ أَهْلِ الصِّنْفَيْنِ المَذْكُورَيْنِ إِمَاماً كَاتِباً نِحْرِيْراً أَوْ طَبِيْباً فَيْلَسُوْفاً مَاهِراً، قَدْ أَدَّبَتْهُ التَّجَارِبُ، عَارِفاً بِلِسَانِ الفَارِسِيَّةِ، خَبِيْراً بِاللُّغَةِ الهِنْدِيَّةِ، يَكْتُبُهُمَا جَمِيْعَاً، حَرِيْصَاً عَلَى العِلْمِ، مُجْتَهِدَاً فِي الأَدَبِ ، مُوَاظِباً عَلَى الطِّبِّ أَو الفَلْسَفَةِ، فَيَأْتُوْهُ بِهِ.

فَخَرَجَ أَهْلُ مَشُورَتِهِ وَوُزَرَاؤُهُ مُسْرِعِيْنَ، فَبَحَثُوا عَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ، فَوَجَدُوْهُ وَظَفِرُوا بِهِ، فَإِذَا هُوَ شَابٌّ جَمِيْلُ الوَجْهِ، كَامِلُ العَقْلِ، وَالأَدَبِ، ذُوْ جَسَبٍ وَصِنَاعَةٍ شَرِيْفَةٍ يُعْرَفُ بِهَا وَهِيَ الطِّبُّ، وَكَانَ مَاهِراً فِي الفَارِسِيَّةِ وَالهِنْدِيَّةِ، وَهُوَ بَرْزَوَيْهِ بْنُ أَزْهَرَ الفَيْلَسُوْفُ، وَكَانَ مِنْ فُضَلاَءِ أَطِبَّاءِ فَارِسَ. فَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدِي المَلِكِ كِسْرَى، فَخَرَّ سَاجِداً وَعَفَّر وَجْهَهُ طَاعَةً لِلْمَلِكِ، فَشَرَحَ لَهُ الأَمْرَ بِمَحْضَرٍ مِنْ وُزَرَائِهِ وَخَوَاصِّهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَقَالَ لَهُ:أَيُّهَا الحَكِيْمُ الفَاضِلُ إِنِّي تَقَدَّمْتُ إِلَى وُزَرَاءِ دَوْلَتِي، وَأَهْلِ نَصِيْحَتِي، أَنْ يَنْظُرُوا لِي رَجُلاً كَامِلَ الفَضْلِ قَدْ جَهَدَ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ العُلُوْمِ وَاقْتِنَاءِ الفَضَائِلِ، كَاتِمَاً لأَسْرَارِ المُلُوْكِ، أُطْلِعُهُ عَلَى مَا انْطَوَى عَلَيْهِ ضَمِيْرِي وَأُوْصِلُهُ إِلَى مَكْنُوْنِ سِرِّي، فَيَأْخُذُ ذَلِكَ بِقُبُوْلٍ وَإِقْبَالٍ وَسِيَاسَةٍ وَإِذْعَانٍ. وَيُظْهِرُ الخِدْمَةَ، وَيَمْحَضُ المِهْنَةَ وَيَبْذُلُ الاجْتِهَادَ فِي بُلُوْغِ المَلِكِ مُنَاهُ وَأَمَلَهُ، وَيُمَيِّزُهُ عَلَى سَائِرِ مُلُوْكِ الدُّوَلِ لِيَصِلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ، وَيُكَافَأَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَبْقَى فِي عَقِبِهِ، بَاذِلاً نَفْسَهُ فِيْمَا لِسُلْطَانِهِ.

وَقَدْ ذُكِرَ عَنْكَ فَضَائِلُ كَثِيْرَةٌ وَحِكَمٌ شَرِيْفَةٌ، أَنْتَ بِفِرَاسَتِكَ أَهْلٌ لَهَا وَينبُوْعٌ تَصْدُرُ عَنْكَ، فَكُنْ عِنْدَ رَجَاءِ الوُزَرَاءِ وَالأَصْفِيَاءِ فِيْكَ، وَأَنْزِلْ نَفْسَكَ هَذِهِ المنْزِلَةَ الَّتِي تُخُيِّرْتَ لَهَا، وَأَنْفِقْ مِنْ سِعَةٍ وَتَسَبَّبْ بِأَسْبَابِ مَنْ صَفَا جَوْهَرُهُ، وَطَابَ عُنْصُرُهُ وَارْتَفَعَ بِعِلْمِهِ وَحِلْمِهِ وَطَاعَةِ بَارِئِهِ بِطَاعَةِ سُلْطَانِهِ الَّتِي أُمِرَ بِاتِّبَاعِهَا، وَنُهِيَ عَنِ الخُرُوْجِ عَنْهَا، فَإِنِّيْ قَدِ اخْتَرْتُكَ لَمَا بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ وَحِرْصِكَ عَلَى طَلَبِ العِلْمِ حَيْثُ كَانَ، وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتَابٍ بِالهِنْدِ مَخْزُوْنٍ فِي خَزَائِنِهِمْ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ وَمَا بَلَغَهُ عَنْهُ. وَقَالَ لَهُ: تَجَهَّزْ فَإِنِّي مُرَحِّلُكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ، فَتَلَطَّفْ فِي ذَلِكَ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ، لاِسْتِخْرَاجِ هَذَا الكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمِنْ قِبَلِ عُلمائِهِمْ وَحُكَمَائِهِمْ تَامَّاً كَامِلاً مَكْتُوْباً بِالفَارِسِيَّةِ، فَتَسْتَفِيْدَهُ أَنْتَ وَتُفِيْدُنَا إِيَّاهُ، وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ الهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَاحْمِلْهُ مَعَكَ، وَقَدْ أَمَرْنَا أَنْ يُطْلَقَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَخْتَارُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فإذا نَفِدَ مَا تَسْتَصْحِبُهُ فَاكْتُبْ إِلَيْنَا نُمِدَّكَ بِالمَالِ، وَإِنْ كَثُرَتْ فِيْهِ النَّفَقَةُ فَإِنَّ جَمِيْعَ مَا فِي خَزَائِنِنَا مَبْذُوْلٌ لَكَ فِي طَلَبِ العُلُوْمِ، وَ هَذَا الكِتَابِ فَطِبْ نَفْساً، وَقِرَّ عَيْناً، وَعَجِّلْ فِي ذَلِكَ، وَلاَ تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ العُلُوْمِ، وَاعْمَلْ عَلَى مَسِيْرِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَالَ بَرْزَوَيْهِ: أَيُّهَا المَلِكُ عِشْتَ دَهْراً طَوِيْلاً سَعِيْدَاً، وَمُلِّكْتَ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ فِي خَفْضٍ[1] وَدَعَةٍ[2] مُؤَيَّداً مَنْصُوْراً، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيْدِكَ، وَسَهْمٌ مِنْ سِهَامِكَ، فَلْيَرْمِ بِي المَلِكُ حَيْثُ شَاءَ مِنَ الأَرْضِ، مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ المَلِكُ – أَدَامَ اللهُ أَيَّامَهُ فِي غِبْطَةٍ وَ سُرُوْرٍ، أَنْ يَعْقِدَ لِي مَجْلِسَاً قَبْلَ سَفَرِي يَحْضُرُهُ الخَوَاصُّ، لِيَعْلَمَ أَهْلُ الطَّاعَةِ وَالمَمْلَكَةِ مَا اسْتَخَصَّنِي بِهِ المَلِكُ، وَرَآنِي أَهْلاً لَهُ، وَنَوَّهَ بِاسْمِي[3] فَلْيَفْعَلْ ذَلِكَ مُنْعِماً عَلَى العَبْدِ الطَّائِعِ.

فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: يَا بَرْزَوَيْهِ قَدْ رَأَيْتُكَ لِذَلِكَ أَهْلاً، وَأَجَبْتُكَ إِلَى مَا طَلَبْتَ، وَأَذِنْتُ لَكَ فِيْمَا سَأَلْتَ، فَافْعَلْ مِنْ ذَلِكَ حَسَبَ مَا تَرَاهُ مُوَافِقاً لَكَ مُنَوِّهَاً بِاسْمِكَ، ثُمَّ خَرَجَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ المَلِكِ فَرِحاً مَسْرُوْراً، وَأَعَدَّ لَهُ المَلِكُ يَوْمَاً أَمَرَ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ فِيْهِ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ، وَخَوَاصُّ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُنْصَبَ لَهُ مِنْبَرٌ، فَنُصِبَ وَرَقِيَ عَلَيْهِ بَرْزَوَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَمَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، وَرَزَقَهُمْ مِنَ العَقْلِ مَا يَقْدِرُوْنَ بِهِ عَلَى إِصْلاَحِ مَعَايِشِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيُدْرِكُوْنَ بِهِ اسْتِنْقَاذَ أَرْوَاحِهِمْ مِنَ العَذَابِ فِي الآخِرَةِ، وَأَفْضَلُ مَا رَزَقَهُمْ اللهُ تَعَالَى وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ العَقْلُ، الَّذِي هُوَ الدِّعَامَةُ لِجَمِيْعِ الأَشْيَاءِ، وَ الَّذِي لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا عَلَى إِصْلاَحِ مَعِيشَتِهِ، وَلاَ إِحْرَازِ نَفْعٍ وَلاَ دَفْعِ ضَرَرٍ إِلاَّ بِفَيْضِهِ مِنَ الخَالِقِ المُبْدِعِ الوَحِدِ الأَحَدِ، وَكَذَلِكَ طَالِبُ الآخِرَةِ الزَّاهِدُ المُجْتَهِدُ فِي العَمَلِ المُنْجِي بِهِ نَفْسَهُ مِنْ عَمَايَةِ الضَّلاَلِ، لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِتْمَامِ عَمَلِهِ وَإِكْمَالِهِ، وَلاَ يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالعَقْلِ الَّذِي هُوَ السَّبَبُ المُوْصِلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَالمِفْتَاحُ لِكُلِّ سَعَادَةٍ، وَالمُبَلِّغُ إِلَى دَارِ الخُلُوْدِ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ عَنْهُ غِنَىً وَلاَ بِغَيْرِهِ اكْتِفَاءٌ. وَالعَقْلُ غَرِيْزِيٌّ مَطْبُوْعٌ، وَيَتَزَايَدُ بِالتَّجَارِبِ وَالأَدَبِ، وَغَرِيْزَتُهُ مَكْنُوْنَةٌ فِي الإِنْسَانِ كَامِنَةٌ فِيْهِ كُمُوْنَ النَّارِ فِي الحَجَرِ، فَإِنَّ النَّارَ طَبِيْعَتُها فِيْهِ كَامِنَةٌ لاَ تَظْهَرُ وَلاَ يُرَى ضَوْءُهَا، حَتَّى يُظْهِرَهَا قَادِحٌ مِنْ غَيْرِهَا، فَإِذَا قَدَحَهَا ظَهَرَتْ طَبِيْعَتُها بِضَوْئِهَا وَحَرِيْقِهَا، وَكَذَلِكَ العَقْلُ كَامِنٌ فِي الإِنْسَانِ لاَ يَظْهَرُ حَتَّى يُظْهِرَهُ الأَدَبُ، وَتَعْضُدَهُ التَّجَارِبُ، فَإِذَا اسْتَحْكَمَ كَانَ أَوْلَى بِالتَّجَارِبِ، لِأَنَّهُ هُوَ المُقَوِّي لِكُلِّ فَضِيْلَةٍ، وَالمُعِيْنُ عَلَى دَفْعِ كُلِّ رَذِيْلَةٍ، فَلاَ شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ العَقْلِ إِذَا مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ بِهِ، وَأَعَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالمُوَاظَبَةِ عَلَى طُرُقِ الأَدَبِ وَالعِلْمِ وَالحِرْصِ عَلَى ذَلِكَ ، وَمَنْ رُزِقَ العَقْلَ وَمُنَّ بِهِ عَلَيْهِ ، وأُعِيْنَ عَلَى صِدْقِ قَرِيْحَتِهِ بِالأَدَبِ، حَرَصَ عَلَى طَلَبِ سَعْدِ جَدِّهِ، وَأَدْرَكَ فِي الدُّنْيَا أَمَلَهُ، وَحَازَ فِي الآخِرَةِ ثَوَابَ الصَّالِحِيْنَ.

---

١ خفض: سعة العيش.

٢ دعة: سكينة.

٣ نوَّه باسمي: رفع ذِكْري.

فَالعَقْلُ هُوَ المُقَوِّي لِلْمَلِكِ عَلَى مُلْكِهِ، فَإِنَّ السُّـوْقَةَ[1] وَالعَوَامَّ لاَ يَصْـلُحُوْنَ إِلاَّ بِإِفَاضَةِ يَنْبُوْعِ العَدْلِ الفَائِضِ عَنِ العَقْلِ، لأَنَّهُ سِيَاجُ الدَّوْلَةِ.
وَقَدْ رَزَقَ اللهُ مَلِكَنَا السَّعِيْدَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانَ مِنَ العَقْلِ أَفْضَلَ الحَظِّ وَأَجْزَلَهُ. وَمِنَ العِلْمِ أَجْمَلَهُ وَأَكْمَلَهُ، وَمِنَ المعْرِفَةِ بِالأُمُوْرِ أَصْوَبَهَا، وَسَدَّدَهُ[2] مِنَ الأَفْعَالِ إِلَى أَسَدِّهَا، وَمِنَ البَحْثِ عَنِ الأُصُوْلِ وَالفُرُوْعِ إِلَى أَنْفَعِهِ، وَبَلَّغَهُ مِنْ فُنُوْنِ اخْتِلاَفِ العِلْمِ وَبُلُوْغِ مَنْزِلَةِ الفَلْسَفَةِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ المُلُوْكِ قَبْلَهُ. وَكَانَ القَابِلُ لِذَلِكَ بِجَوْدَةِ المَادَّةِ القَابِلَةِ لاِنْطِبَاعِ الصُّوَرِ، فَبَلَغَ بِذَلِكَ الرُّتْبَةَ القُصْوَى[3] فِيْ الفَضْلِ عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ المُلُوْكِ قَبْلَهُ، حَتَّى كَانَ فِيْمَا طَلَبَ وَبَحَثَ عَنْهُ وَسَمَتْ إِلَيهِ نَفْسُهُ مِنَ العِلْمِ، أَنْ بَلَغَهُ عنْ كِتَابٍ بِالهِنْدِ مِنْ كُتُبِ فَلاَسِفَتِهَا وَعُلَمَائِهَا مَخْزُوْنٍ عِنْدَ مُلُوْكِهِمْ، عَلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ، وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ، وَالدَّلِيْلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ، وَمِفْتَاحُ عَمَلِ الآخِرَةِ وَعِلْمِهَا، وَمَعْرِفَةُ النَّجَاةِ مِنْ أَهْوَالِهَا، وَالمُقَوِّي عَلَى جَمِيْعِ الأُمُوْرِ، وَالمُعِيْنُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ المُلُوْكُ فِي تَدْبِيْرِهِمْ لأُمُوْرِ مَمَالِكِهِمْ وَآدَابِ السُّوْقَةِ فِيْمَا يُرْضُوْنَ بِهِ مُلُوْكَهُمْ، وَيُصْلِحُوْنَ بِهِ مَعَايِشَهُمْ، وَهُوَ كِتَابُ كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ. فَلَمَّا تَيَقَّنَ[4] مَا بَلَغَهُ عَنْ ذَلِكَ الكِتَابِ، وَكَشَفَ عَمَّا فِيْهِ مِنَ المَنَافِعِ مِنْ تَقْوِيَةِ العَقْلِ وَالأَدَبِ، رَأَنِي أَهْلاً لِذَلِكَ، وَنَدَبَنِي إِلَى اسْتِخْرَاجِهِ، وَاللهُ المُوَفِّقُ وَالسَّلاَمُ.

سَفَرُ بَرْزَوَيْهِ لِنَسْخِ الكِتَابَ

فَعِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لِلْمَلِكِ عِلْمُهُ وَنَجَابَتُهُ وَشَهَامَتُهُ، فَسُرَّ بِذَلِكَ سُرُوْراً شَدِيْداً، ثُمَّ أَمَرَ المَلِكُ عِنْدَ ذَلِكَ بِإِحْضَارِ المُنَجِّمِيْنَ، وَأَنْ يَتَخَيَّرُوا لَهُ يَوْماً سَعِيْداً، وَطَالِعاً صَالِحاً، وَسَاعةً مُبَارَكَةً، لِيَتَوَجَّهَ فِيْهَا، فَاخْتَارُوا لَهُ يَوْماً يَسِيْرُ فِيْهِ وَسَاعَةً صَالِحَةً يَخْرُجُ فِيْهَا، فَسَارَ بَرْزَوَيْهِ بِطَالِعِ سَعْدٍ، وَحَمَلَ مَعَهُ مِنَ المَالِ عِشْرِيْنَ جِرَاباً كُلُّ جِرَابٍ فِيْهِ عَشْرَةُ آلاَفِ دِيْنَارٍ، وَتَوَجَّهَ جَادّاً فِي طَلَبِ حَاجَتِهِ نَهَاراً وَلَيْلاً حَتَّى قَدِمَ بِلاَدَ الهِنْدِ، فَجَعَلَ يَطُوْفُ بِبَابِ المَلِكِ وَالأَشْرَافِ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالعُلَمَاءِ وَالفَلاَسِفَةِ، وَجَعَلَ يَغْشَاهُمْ فِيْ مَجَالِسِهِمْ، وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلاَمِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيْبٌ قَدِمَ بِلاَدَهُمْ لِطَلَبِ العِلْمِ وَالأَدَبِ، وَالبَحْثِ عَنْهُ وَرِيَاضَتِهِ بِهِ، وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعُوْنَتِهِمْ فِيْمَا يَطْلُبُ مِنْ ذَلِكَ ،

---

١ السُّوقة: الرَّعيَّة.
٢ سدَّده: أرشده.
٣ القصوى: العليا.
٤ تيقَّن: تأكَّد.

وَيَسْأَلُهُمْ بَذْلَ ا لدُّعاءِ لَهُ بِبُلُوْغِ آَمالِهِ مَعَ شِدَّةِ كِتْمَانِهِ لِمَا قَدِمَ بِسَبَبِهِ وَدَفْنِهِ لِسِرِّهِ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَ مَاناً طَوِيْلاً يَتَأَدَّبُ عَلَى عُلَمَاءِ الهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيْعِه، وَكَأَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئَاً، وَهُوَ فِيْمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتُرُ بُغْيَتَهُ[١] وَحَاجَتَهُ، وَفِيْ أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَبْحَثُ فِي مَطْلُوْبِهِ بِحُنْكَةٍ[٢] وَسِيَاسَةٍ وَعِفَّةٍ وَنَزَاهةٍ، وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الحَالَةِ لِطُوْلِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ أَصْفِيَاءَ كَثِيرِيْنَ كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الهِنْدِ مِنَ الأَشْرَافِ وَالعُلَمَاءِ وَالفَلاَسِفَةِ وَالسُّوْقَةِ، وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ.

وَكَانَ قَدِ اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ رُجُلاً وَاحِداً اصْطَفَاهُ لِسِرِّهِ، وَاخْتَصَّهُ لِمَشُوْرَتِهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَحِكْمَتِهِ وَفَهْمِهِ وَكِتْمَانِهِ لِسِرِّ نَفْسِهِ، وَلَمَا اسْتَبَانَ لَهُ مِنْ صِحَّةِ إِخَائِهِ[٣]، وَ كَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الأُمُوْرِ، وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيْعِ مَا أَهَمَّهُ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ عَنْهُ الأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ حَتَّى يَبْلُوَهُ[٤] وَيَخْتَبِرَهُ، وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَبْحَثُ عَنْهُ وَيَجْتَهِدُ فِي أَمْرِهِ، حَتَّى وَثِقَ بِهِ وُثُوْقَ الأَكْفَاءِ بِالأَكْفَاءِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مَحَلٌّ لِكَشْفِ الأَسْرَارِ الجَلِيْلَةِ الخَطِيْرَةِ، وَأَنَّهُ مَأْمُوْنٌ عَلَى مَا يُسْتَوْدَعُ مِنْ ذَلِكَ غَيْرُ خَائِنٍ، صَدِيْقٌ صَدُوْقٌ، ثُمَّ زَادَ لَهُ إِلْطَافاً، وَبِهِ احْتِفَاءً، وعَلَيْهِ حُنُوّاً إِلَى أَنْ حَضَرَ اليَوْمَ الَّذِي رَجَا فِيْهِ بُلُوْغَ أُمْنِيَّتِهِ، وَالظَّفَرَ بِحَاجَتِهِ مَعَ طُوْلِ الغَيْبَةِ وَعِظَمِ النَّفَقَةِ فِي اسْتِلْطَافِ الإِخْوَانِ وَمُجَالَسَتِهِمْ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

وَإِنذَهُ لَمَّا وَثِقَ بِصَدِيْقِهِ الهِنْدِيِّ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَأَنِسَ بِهِ وَسَبَرَ عَقْلَهُ[٥]، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ فِي سِرِّهِ قَالَ لَهُ يَوْمَاً وَهُمَا خَالِيَانِ: يَا أَخِي مَا أُرِيْدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرِي فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ، لأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنِّي لأَمْرٍ قَدِمْتُ بِلاَدَكُمْ، وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي، وَالعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ الرَّجُلِ بِالعَلاَمَاتِ مِنْ نَظَرِهِ وَإِشَارَتِهِ، فَيَعْلَمُ بِذَلِكَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُهُ قَلْبُهُ. فَقَالَ لَهُ صَدِيْقُهُ الهِنْدِيُّ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا لَهُ جِئْتَ وَإِيَّاهُ تُرِيْدُ، وَإِلَيْهِ قَصَدْتَ، وَأَنَّكَ تَكْتُمُ مَا تَطْلُبُهُ، وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ، فَمَا خَفِيَ عَلَيَّ ذَلكَ مِنْكَ وَلاَ ذَهَبَ عَنِّي مَا كَتَمْتَهُ، وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِيْكَ وَفِي إِخَائِكَ كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِذَلِكَ، وأُفَاجِئَكَ بِهِ، لأَنِّي قَدْ ظَهَرَ لِي مَا تَكْتُمُ، وَبَانَ لِي مَا أَنْتَ لَهُ مُخْفٍ، فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ وَأَفْصَحْتَ بِهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ، وَمُظْهِرٌ لَكَ سَرِيْرَةَ أَمْرِكَ، وَمُعْلِمُكَ عَنْ سِرِّ حَاجَتِكَ الَّتِي قَدِمْتَ بِسَبَبِهَا، وَأَطَلْتَ مُقَامَكَ فِي طَلَبِهَا.

---

١ بغيته: مراده.

٢ الحنكة: حسن التَّصرف.

٣ إخائه: أخوّته.

٤ يبلوه: يجرّبه.

٥ سبر: امتحن.

وَذَلِكَ أَنَّكَ إِنَّمَا وَطِئْتَ أَرْضَـنَا، وَقَدِمْتَ إِلَى بِلاَدِنَا، لِتَسْـلُبَنَا كُنُوْزَنَا النَّفِيْسَـةَ، فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلاَدِكَ وَتَسُرَّ بِهَا مَلِكَكَ، وَ كَانَ قُدُومُكَ إِلَيْنَا بِالمكْرِ، وَمُصَادَقَتُكَ لَنَا بِالخَدِيْعَةِ، وَلِكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ وَمُوَاظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ، وَالتَّحَفُّظَ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ فِي الكَلاَمِ مَعَ طُوْلِ مُكْثِكَ عِنْدَنَا عَلَى كَتْمِ أَمْرِكَ بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيْرَتِكَ وَأُمُوْرِكَ، ازْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ وَثِقَةً بِعَقْلِكَ، وَأَحْبَبْتُ مَوَدَّتَكَ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ فِيْ الرِّجَالِ رَجُلاً هُوَ أَرْصَنُ[1] مِنْكَ عَقْلاً، وَلاَ أَحْسَنُ أَدَباً، وَلاَ أَصْبَرُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَلاَ أَكْتَمُ لِسِرِّهِ، وَلاَ سِيَّمَا فِي بِلاَدِ غُرْبَةٍ وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ، وَعِنْدَ قَوْمٍ لاَ تَعْرِفُ سُنَنَهُمْ وَلاَ شِيَمَهُمْ، وَإِنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ لَيَبِيْنُ فِي خِصَالٍ ثَمَانٍ، الأُوْلَى مِنْهَا الرِّفْقُ، وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا، وَالثَّالِثَةُ طَاعَةُ المُلُوْكِ وَالتَّحَرِّي لِمَا يُرْضِيْهِمْ، وَالرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلِعَ عَلَيْهِ صَدِيْقَهُ، وَالخَامِسَةُ أَنْ يَكُوْنَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوْكِ أَدِيْباً مَلِقَ اللِّسَانِ[2]، وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُوْنَ لِسِرِّهِ وَلِسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظاً، وَالسَّابِعَةُ أَنْ يَكُوْنَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِراً فَلاَ يَتَكَلَّمُ إِلاَّ بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ[3]، وَلاَ يُطْلِعُ عَلَى سِرِّهِ إِلاَّ الثِّقَاتِ، وَالثَّامِنَةُ أَلاَّ يَتَكَلَّمَ فِي المَحَافِلِ بِمَا لاَ يُسْأَلُ عَنْهُ.

فَمَنِ اجْتَمَعَتْ فِيْهِ هَذِهِ الخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِيَ الخَيْرَ إِلَى نَفْسِهِ، وَهَذِهِ الخِصَالُ كُلُّهَا قَدِ اجْتَمَعَتْ فِيْكَ، وَبَانَتْ لِي مِنْكَ، فَاللهُ تَعَالَى يَحْفَظُكَ وَيُعِيْنُكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ، وَيُظْفِرُكَ بِحَاجَتِكَ، لأَنَّكَ إِنَّمَا صَادَقْتَنِي لِتَسْلُبَنِي عِلْمِي، وَإِنَّكَ أَهْلٌ لأَنْ تُسْعَفَ بِحَاجَتِكَ، وَتُشْفَعَ[4] بِطَلَبَتِكَ، وَتُعْطَى سُؤْلَكَ. وَلَكِنَّ حَاجَتَكَ الَّتِي تَطْلُبُ قَدْ أَرْهَبَتْ نَفْسِي، وَأَدْخَلَتْ عَلَيَّ الفَرَقَ[5] وَالخَشْيَةَ. فَلَمَّا عَرَفَ بَرْزَوَيْهِ أَنَّ الهِنْدِيَّ قَدْ عَرَفَ أَنَّ مُصَادَقَتَهُ إِنَّمَا كَانَتْ مَكْراً وَخَدِيْعَةً، وَطَلَبَ حَاجَتَهُ فَلَمْ يَزْجُرْهُ، وَلَمْ يَنْتَهِرْهُ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِ رَدّاً لَيِّناً كَرَدِّ الأَخِ عَلَى أَخِيْهِ بِالتَّعَطُّفِ وَالرِّفْقِ، وَثِقَ بِقَضَاءِ حَاجَتِهِ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّأْتُ كَلاَماً كَثِيْراً، وَشَعَّبْتُ لَهُ شِعَاباً، وَأَنْشَأْتُ لَهُ أُصُوْلاً وَطُرُقاً، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ فِيْهِ إِلَى مَا بَادَهْتَنِي بِهِ مِنْ اطِّلاَعِكَ عَلَى أَمْرِي، وَ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ، وَأَلْقَيْتَهُ إِلَيَّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ وَرَغْبَتِكَ فِيْمَا أَلْقَيْتَ مِنَ الْقَوْلِ، اكْتَفَيْتُ بِاليَسِيْرِ مِنَ الخِطَابِ مَعَكَ عَمَّا كُنْتُ أَخْتَلِفُ فِيْهِ، إِذْ عَرَفْتَ الكَثِيْرَ مِنْ أُمُوْرِي بِالقَلِيْلِ مِنَ الكَلاَمِ لِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ مِنَ العَقْلِ وَالأَدَبِ، فَكَفَيْتَنِي مَؤُوْنَةَ الكَلاَمِ، فَاقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى الإِيْجَازِ، وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ،

---

١ أرصن: أثبت.
٢ مَلق اللِّسان: ودوده ولطيفه.
٣ تبعته: عاقبته.
٤ تُشفع: تُعان وتقرن.
٥ الفَرَق: الخوف.

فَإِنَّ الكَلاَمَ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى الفَيْلَسُوفِ، وَالسِّرَّ إِذَا اسْتُودِعَ اللَّبِيْبَ الحَافِظَ، فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِغَ بِهِ نِهَايَةُ أَمَلِ صَاحِبِهِ كَمَا يُحَصَّنُ الشَّيْءُ النَّفِيْسُ فِي القِلاَعِ الحَصِيْنَةِ.

فَقَالَ لَهُ: الهِنْدِيُّ: لاَ شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ المَوَدَّةِ، وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَتُهُ كَانَ أَهْلاً أَنْ يَخْلِطَهُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، وَلاَ يَدْخَرَ(١) عَنْهُ شَيْئَاً، وَلاَ يَكْتُمَهُ سِرَّاً، وَلاَ يَمْنَعُهُ حَاجَتَهُ وَمُرَادَهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ.

وَرَأْسُ الأَدَبِ حِفْظُ السِّرِّ، فَإِذَا كَانَ السِّرُّ عِنْدَ الأَمِيْنِ الكَتُوْمِ فَقَدِ احْتَرَزَ(٢) مِنَ التَّضْيِيْعِ، لأَنَّهُ خَلِيْقٌ أَنْ لاَ يَتَكَلَّمَ بِهِ، وَلاَ يُكْتَمُ سِرٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَا(٣)فِيْهِ، وَلاَ يَكُوْنُ سِرَّاً لأَنَّ اللِّسَانَيْنِ قَدْ تَكَلَّمَا بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسِّرِّ اثْنَانِ فَلاَ بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ مِنْ جِهَةِ الوَاحِدِ أَوْ مِنْ جِهَةِ الآخَرِ، فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلاثَةِ فَقَدْ شَاعَ وَذَاعَ حَتَّى لاَ يَسْتَطِيْعَ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْحَدَهُ(٤) وَيُكَابِرَ فِيْهِ، كَالغَيْمِ إِذَا كَانَ مُتَقَطِّعَاً فِي السَّمَاءِ فَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّ هَذَا الغَيْمَ مُتَقَطِّعٌ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَكْذِيْبِهِ.

وَأَنَا فَقَدْ يُدَاخِلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَمُخَالَطَتِكَ مَعَ أُنْسِي بِقُرْبِكَ سُرُوْرٌ لاَ يَعْدِلُهُ شَيْءٌ، وَ هَذَا الأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الأَسْرَارِ الَّتِي لاَ تُكْتَمُ، فَلاَ بُدَّ أَنْ يَفْشُوَ(٥) وَيَظْهَرَ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ، فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلاَكِي هَلاَكاً لا أَقْدِرُ عَلَى الفِدَاءِ مِنْهُ بِالمَالِ وَإِنْ كَثُرَ، لأَنَّ مَلِكَنَا فَظٌّ غَلِيْظٌ(٦) يُعَاقِبُ عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيْرِ أَشَدَّ العِقَابِ، فَكَيْفَ مِثْلُ هَذَا الذَّنْبِ العَظِيْمِ، وَإِذَا حَمَلَتْنِي المَوَدَّةُ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَسْعَفْتُكَ بِحَاجَتِكَ لَمْ يَرُدَّ عِقَابَهُ عَنِّي شَيْءٌ.

قَالَ بَرْزَوَيْهِ: إِنَّ العُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتِ الصَّدِيْقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيْقِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى الفَوْزِ، وَ هَذَا الأَمْرُ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمِثْلِكَ ذَخَرْتُهُ وَبِكَ أَرْجُو بُلُوْغَهُ، وَأَنَا وَاثِقٌ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ وَفُفُوْرِ عَقْلِكَ فِيْهِ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنِّي مَا وَصَلَ مِنَ المَشَقَّةِ فَأَنْعِمْ بِتَحَمُّلِ ذَلِكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لاَ تَخْشَى مِنِّي وَلاَ تَخَافُ أَنْ أُبْدِيَهُ بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَلَدِكَ المُطِيْفِيْنَ(٧) بِكَ، وَبِالملِكِ أَنْ يَسْعَوْا بِكَ إِلَيْهِ، وَيُبَلِّغُوْهُ ذَلِكَ عَنْكَ، وَأَنَا أَرْجُو أَلاَّ يَشِيْعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الأَمْرِ، لأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ(٨) وَأَنْتَ مُقِيْمٌ، وَمَا أَقَمْتُ فَلاَ ثَالِثَ بَيْنَنَا، فَتَعَاهَدَا عَلَى هَذَا جَمِيْعَاً.

---

١ يذخر: يخبئ.

٢ احترز: أمن من الانزلاق وَتوقَّى.

٣ تفاوضا: تشاركا.

٤ يجحده: يُنْكره.

٥ يفشو: يشيع.

٦ فظّ غليظ: خشن، قاس، جاف.

٧ المطيفين: المحيطين.

٨ ظاعن: راحل.

وَ كَانَ الْهِنْدِيُّ خَازِنَ المِلكِ وَبِيَدِهِ مَفَاتِيْحُ خَزَائِنِه، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ الكِتَابِ وَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الكُتُبِ وَسَلَّمَهَا إِلَيْهِ. فَأَكَبَّ[1] عَلَى تَفسِيْرِهِ وَنَقْلِهِ مِنَ اللِّسَانِ الْهِنْدِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الفَارِسِيِّ، وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ، وَأَنْصَبَ[2] بَدَنَهُ نَهَاراً وَلَيْلاً، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَجِلٌ[3] فَزِعٌ مِنْ مَلِكِ الْهِنْدِ، خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ المَلِكُ الكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلاَ يُصَادِفَهُ فِي خِزَانَتِهِ.

عَوْدَةُ بَرْزَوَيْهِ بِكِتَابِ كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ:

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ انْتِسَاخِ الكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمّا أَرادَ مِنْ سَائِرِ الكُتُبِ، كَتَبَ إِلَى أَنُوْشِرْوَانَ يُعْلِمُهُ بِذَلِكَ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الكِتَابُ سُرَّ سُرُوْراً شَدِيْداً، ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ المَقَادِيْرِ، أَنْ تُنَغِّصَ[4] عَلَيْهِ فَرَحَهُ وَيَنْتَقِضَ سُرُوْرُهُ، فَكَتَبَ إِلَى بَرْزَوَيْهِ يَأْمُرُهُ بِتَعْجِيْلِ القُدُوْمِ، فَسَارَ بَرْزَوَيْهِ مُتَوَجِّهاً نَحْوَ كِسْرَى.
فَلَمَّا رَأَى المَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ الشُّحُوْبِ وَالإِعْيَاءِ[5] قَالَ لَهُ: أَيُّهَا العَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ مَا قَدْ غَرَسَ، أَبْشِرْ وَقَرَّ عَيْنَاً فإِنِّي مُشَرِّفُكَ وَبَالِغٌ بِكَ أَفْضَلَ دَرَجَةٍ.
وأَمَرَهُ أَنْ يُرِيْحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ. فَلَمَّا كَانَ اليَوْمَ الثَّامِنُ أَمَرَ المَلِكُ بِإِحْضَارِ أَشْرَافِ مَمْلَكَتِهِ وَجَمِيْعِ عُلَمَاءِ مِصْرِهِ[6] وَ شُعَرَائِهِ وَالخُطَبَاءِ.
فَلَمَّا اجتَمَعُوا أَحْضَرَ بَرْزَوَيْهِ فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ، وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيِّ المَلِكِ، وَجَلَسَ عَلَى مَرْتَبَةٍ أُعِدَّتْ لَهُ، ثُمَّ وَقَّعَ الكَلاَمَ[7] فِيْمَا شَاهَدَهُ وَرَآهُ، وَشَرَحَ قِصَّتَهُ وَحَالَهُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَقُوَّادِهَا وَأَهْلِ عُلُوْمِهَا عَلَى طَبَقَاتِهِمْ إِلاَّ تَعَجَّبَ مِنْهُ، وَمِنْ طُوْلِ طَرِيْقِهِ وَحُسنِ سِيْرَتِهِ مَعَ صَدِيْقِهِ. وَمَا وَفَى لهُ بِلاَ عَهْدٍ[8] مِنْهُ لَهُ، وَلاَ مُقَدِّمَةٍ تَقَدَّمَتْ بَيْنَهُمَا مِنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِ لَهُ مَعَ مَا بَيْنَهُما مِن افْتِرَاقِ الأَدْيَانِ، وَتَبَايُنِ[9] الأَشْكَالِ، وَمُنَافَرَةِ المذْهَبِ. وَاسْتَعْظَمُوا مَا أَنْفَقَ عَلَى تَحْصِيْلِ ذَلِكَ. وَعَظُمَ بَرْزَوَيْهِ فِيْ أَعْيُنِ الحَاضِرِيْنَ، وَكَبُرَ قَدْرُهُ عِنْدَ مَلِكِهِ. ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ صَرَفَ مَنْ حَضَرَ. وَانْصَرَفَ بَرْزَوَيْهِ، وَعَمَدَ الخُطَبَاءُ يَصْنَعُوْنَ مُقَدِّماتٍ تَصْلُحُ لِحُضُوْرِ المَجْلِسِ وَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ.

---

١ أكبّ: أقبلَ.
٢ أنصب: أتعب.
٣ وجل: خائف.
٤ تنغّص: تكدّر وتعكّر.
٥ الشحوب والإعياء: الاصفرار والتَّعب.
٦ مصره: بلده.
٧ وقَّع: ألقى.
٨ بِلاَ عهد منه: بلا معرفة منه.
٩ تباين: اختلاف.

وَعَقَدَ لَهُمْ المَلِكُ مَجْلِسَاً، وَحَضَرَ بَرْزَوَيْهِ هُوَ وَخُطَبَاءُ الدَّوْلَةِ وَالوُزَرَاءُ وَفُصَحَاءُ الْمَمْلَكَةِ، وَأُحْضِرَ الكِتَابُ وَسَائِرُ الكُتُبِ، فَلَمَّا قُرِئَتِ الكُتُبُ وَسَمِعُوا مَا فِيْهَا مِنَ العُلُوْمِ وَالحِكَمِ وَسَائِرِ الطَّرَائِفِ وَغَرَائِبِ الآدابِ، اسْتَبْشَرَ مَنْ حَضَرَ، وَبَلَغَ المَلِكُ أُمْنِيَّتَهُ، وَمَدَحُوا بَرْزَوَيْهِ، وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ وَشَكَرُوْهُ عَلَى مَا نَالَهُ مِنَ التَّعَبِ، فَأَمَرَ المَلِكَ عِنْدَ ذَلِكَ بِالدُّرِّ وَالجَوْهَرِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَفُتِحَتْ خَزَائِنُ الكُسْوَةِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَحَمَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَمِيْعَ ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ أَلْبَسَهُ التَّاجَ وَأَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيْرِهِ تَشْرِيْفَاً لَهُ وَزِيَادَةً فِي إِجْلاَلِهِ، وَلَمَّا تَمَّ لبَرْزَوَيْهِ ذَلِكَ خَرَّ سَاجِداً لِلْمَلِكِ وَقَالَ:

أَكْرَمَ اللهُ المَلِكَ بِأَفْضَلِ الكَرَامَاتِ بِزِيَادَتِهِ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، وَخَلَّدَ مُلْكَهُ وَثَبَّتَ وَطْأَتَهُ[١] وَشَيَّدَ[٢] مَبَانِي مَجْدِهِ، إِنَّ اللهَ وَلِيُّ الحَمْدِ قَدْ أَغْنَانِي عَنِ المَالِ بِمَا بَلَغْتُ مِنْ الرُّتْبَةِ العَلِيَّةِ السَّنِيَّةِ وَالبُغْيَةِ وَالأُمْنِيَّةِ بِمَا رَزَقَنِي مِنْ تَشْرِيْفِ مَلِكِ المُلُوْكِ لِلْعَبْدِ الذَّلِيْلِ، لكِنْ إِذْ كَلَّفَنِي المَلِكُ ذَلِكَ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسُرُّهُ فَأَنَا آخُذُ مِمَّا أَمَرَ لِيْ بِهِ امْتِثَالاً لِأَمْرِهِ وَطَلَبَاً لِمَرْضَاتِهِ. وَقَامَ فَأَخَذَ مِنْهَا تَخْتَاً[٣] مِنْ طَرَائِفِ[٤] خُرَاسَانَ مِنْ مَلاَبِسِ المُلُوْكِ. ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا مَنَحَهُ اللهُ تَعَالَى عَقْلاً وَافِراً، وَعِلْمَاً رَاجِحَاً، وَخُلُقَاً رَحْبَاً[٥]، وَدِيْنَاً صُلْبَاً، وَنِيَّةً سَالِمَةً مِنَ العَاهَاتِ[٦]، فَلْيَشْكُرِ الصَّانِعَ الأَزَلِيَّ سَرْمَدَاً[٧] عَلَى مَا وَهَبَهُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ يَسْتَحِقُّهُ، وَلاَ مُقَدِّمَةٍ سَبَقَتْ لَهُ. وَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ، وَإِنْ كَانَ قَدِ اسْتَوْجَبَهُ تَعَباً وَمَشَقَّةً. وَأَمَّا أَنَا فَمَهْمَا لَقِيْتُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيْهِ الشَّرَفَ يَا أَهْلَ هَذَا البَيْتِ، فَإِنِّي لاَ أَزَالُ إِلَى هَذَا اليَوْمِ تَابِعَاً رِضَاكُمْ أَرَى العَسِيْرَ فِيْهِ يَسِيْراً، وَالشَّاقَّ هَيْنَاً، وَالنَّصَبَ وَالأَذَى سُرُوْراً وَلَذَّةً، لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيْهِ رِضىً وَعِنْدَكُمْ قُرْبَةً وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا المَلِكُ حَاجَةً تُسْعِفُنِي بِهَا، وَتُعْطِيْنِي فِيْهَا سُؤْلِي، فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيْرَةٌ وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيْرَةٌ. قَالَ أَنُوشِرْوَانَ: قُلْ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ، فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيْمٌ، وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا، وَلَمْ نَرْدُدْ طَلَبَتَكَ فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ، فَقُلْ وَلاَ تَحْتَشِمْ[٨]، فَإِنَّ الأُمُوْرَ كُلَّهَا مَبْذُوْلَةٌ لَكَ.

---

١ ثبَّت وطأته: مكَّن سلطته.

٢ شيَّد : بنى ومتَّن.

٣ التَّخت: وعاء تُصانُ فيه الثِّياب.

٤ طرائف: نفائس.

٥ الخُلُق: الرَّحب: الطَّبع الواسع.

٦ العاهات: الآفات والعوارض.

٧ سرمد : دائم.

٨ لا تحتشم: لا تخجل.

قَالَ بَرْزَوَيْهِ: أَيُّهَا المَلِكُ لاَ تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَــاكَ، وَانْكِمَاشِـــي[١] فِيْ طَاعَتِكَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزَمُنِي بَذْلُ مُهْجَتِي فِي رِضَاكَ، وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِيَ عَظِيْمَاً وَلاَ وَاجِباً عَلَى المِلِكِ، وَلَكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَـرَفِ مَنْصَـبِهِ عَمَدَ إِلَى مُجَازَاتي، وَخَصَّـنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ ا لمرْتَبَةِ وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ، حَتَّى لَوْ قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَفَعَلَ، فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا أَفْضَلَ الجَزَاءِ. قَالَ أَنُوشِرْوَانَ: اذْكُرْ حَاجَتَكَ فَعَلَيَّ مَا يَسُرُّكَ. فَقَالَ بَرْزَوَيْهِ: حَاجَتِي أَنْ يَخْرُجَ أَمْرُ المِلِكِ أَنْفَذَهُ اللهُ تَعالَى إِلَى الحَكِيْمِ الفَاضِـلِ الرَّفِيْعِ المقَامِ وَزِيْرِهِ بُزرْ جُمِهْرَ بْنِ البَخْتَكَانِ أَنْ يَنْظِمَ أَمْرِي فِي نُسْخَةٍ، وَيُبَوِّبَ الكِتَابَ[٢]، وَيَجْعَلَ تِلْكَ النُّسْخَةَ بَاباً يَذْكُرُ فِيْهِ أَمْرِي وَيَصِــفُ حَالِي وَلاَ يَدَعَ مِنَ المُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ أَقْصَــى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَيَأْمُرَهُ إِذَا فَرَغَ مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الأَسَـدِ وَالثَّوْرِ. فَإِنَّ المِلكَ إِذَا فَعلَ ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَ بِأَهْلِي غَايَةَ الشَّـرَفِ، وَأَعْلَى المَرَاتِبِ، وَأَبْقَى لَنَا مَا لاَ يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِياً عَلَى الأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الكِتَابُ.
فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنُوْشِرْوَانُ وَالعُظَمَاءُ مَقَالَتَهُ، وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُـهُ مِنْ أَدَبِهِ وَحُسْنِ عَقْلِهِ وَكِبَرَ نَفْسِه، اسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ. فَقَالَ كِسْرَى: حُبَّاً وَكَرامَةً يَا بَرْزَوَيْهِ، إِنَّكَ لأَهْلٌ أَنْ تُسْـعَفَ بِحَاجَتِكَ فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ، وَأَيْسَـرَهُ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ عَظِيْمَاً، ثُمَّ أَقْبَلَ أَنُوْشِـرْوَانُ عَلَى وَزِيْرِهِ بُزَرْجُمِهْرَ فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتَ مُنَاصَـحَةَ بَرْزَوَيْهِ لَنَا وَتَجَشُّـمَهُ[٣] المَخَاوِفَ وَالمَهَالِكَ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ مِنَّا، وَإِتْعَابَهُ بَدَنَهُ فِيْمَا يَسُـرُّنَا، وَمَا أَتَى إِلَيْنَا مِنَ المَعْرُوْفِ، وَمَا أَفَادَنَا اللهُ عَلَى عَلَى يَدِهِ مِنَ الحِكْمَةِ وَالأَدَبِ البَاقِي لَنَا فَخْرُهُ، وَمَا عَرَضْـنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَلَمْ تَمِلْ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. كَانَتْ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرَاً يَسِــيْراً رَآهُ هُوَ الثَّوَابَ مِنَّ لَهُ وَالكَرَامَةِ الجَلِيْلَةَ عِنْدَهُ. فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ وَتُسْـعِفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسُـرُّنِي، وَلاَ تَدَعْ شَـيْئاً مِنَ الاجْتِهَادِ وَالمُبَالَغَةِ إِلاَّ بَلَغْتَهُ وَإِنْ نَالَتْكَ فِيْهِ مَشَـقَّةٌ، وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ بَاباً مُضَــارِعاً لِتِلْكَ الأَبْوَابِ الَّتِي فِي الكِتَابِ، وَتَذْكُرَ فِيْهِ فَضْـلَ بَرْزَوَيْهِ وَنَسَـبَهُ وَحَسَبَهُ وَ صِنَاعَتَهُ وَأَدَبَهُ، وَكَيْفَ كَا ابْتِدَاءُ أَمْرِهِ وَ شَأْنِهِ وَتَنْسُبَهُ إِلَيْهِ، وَتَذْكُرَ فِيْهِ بَعْثَتَهُ إِلَى بِلاَدِ الهِنْدِ فِيْ حَاجَتِنَا، وَ مَا أُفِدْنَا مِنَ الحِكَمِ عَلَى يَدِهِ مِنْ هُنَالِكَ، و شَرُفْنَا بِهِ وَفُضِّلْنَا عَلَى غَيْرِنَا، وَكَيْفَ كَانَ حَالُهُ بَعْدَ قُدُوْمِهِ وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنَ الأَمْوَالِ فَلَمْ يَقْبَلْهُ، فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْرِيْظِ وَالإِطْنَابِ فِيْ مَدْحِهِ،

---

١ انكماشي: إسراعي.
٢ يبوِّب الكتاب: يقسِّمُهُ أبواباً وفصولاً
٣ تجشُّمُهُ: تكلُّفُهُ.

وَبَالِغْ فِي ذَلِكَ أَفْضَـــلَ المُبَالَغَةِ، وَاجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ اجْتِهَاداً يَسُـــرُّ بَرْزَوَيْهِ وَأَهْلَ المَمْلَكَةِ وَإِنَّهُ لأَهْلٌ لِذَلِكَ مِنْ قِبَلِي، وَمِنْ قِبَلَ جَمِيْعِ أَهْلَ المَمْلَكَةِ، وَمِنْ قِبَلِكَ أَيْضـــاً لِمَحبَّتِكَ لِلْعُلُوْمِ، وَاجْهَدْ أَنْ يَكُوْنَ غَرَضُ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي يُنْسَـــبُ إِلَيْهِ أَفْضَـلُ مِنْ أَغْرَاضِ تِلْكَ الأَبْوَابِ عِنْدَ الخَاصِّ وَالعَامِّ، وَأَشَـدَّ مُشَـاكَلَةً[1] لِحَالِ هَذَا الكِتَابِ، فَإِنَّكَ أَسْـــعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ لاِنْفِرَادِكَ بِهِ، وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الأَبْوَابِ، فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ بِحَيْثُ رَسَمْتُ لَكَ فَأَعْلِمْنِي لأَجْمَعَ أَهْلَ المَمْلَكَةِ وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ، فَيَظْهَرَ فَضْلُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِي مَحبَّتِنَا، فَيَكُوْنَ لَكَ بِذَلِكَ فَخْرٌ.

فَلَمَّا سَـمِعَ بُزَرْجُمِهْرُ مَقَالَةَ المَلِكِ خَرَّ لَهُ سَـاجِداً، وَقَالَ: أَدَامَ اللهُ لَكَ أَيُّهَا المَلِكُ البَقَاءَ، وَبَلَّغَكَ أَفْضَـلَ مَنَازِلِ الصَّـالِحِيْنَ فِي الآخِرَةِ وَالأُوْلَى، لَقَدْ شَـرَّفْتَنِي فِي ذَلِكَ شَرَفاً بَاقِياً إِلَى الأَبَدِ.

ثُمَّ خَرَجَ بُزَرْجُمِهْرُ مِنْ عِنْدِ المَلِكَ فَوَصَـــفَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ دَفَعَهُ[2] أَبَوَاهُ إِلَى المُؤدِّبِ[3]، وَمُضِـــيِّهِ إِلَى بِلاَدِ الهِنْدِ فِي طَلَبِ العَقَاقِيْرِ[4] وَالأَدْوِيَةِ. وَكَيْفَ تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنُوشِـرْوَانُ إِلَى الهِنْدِ فِي طَلَبِ الكِتَابِ، وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضَـائِلِ بَرْزَوَيْهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلاَئِقِهِ وَمَذْهَبِهِ أَمْراً إِلاَّ نَسَـقَهُ[5]، وَأَتَى بِهِ بِأَجْوَدِ مَا يَكُوْنُ مِنَ الشَّـــرْحِ. ثُمَّ أَعْلَمَ المَلِكَ بِفَرَاغِهِ مِنْهُ، فَجَمَعَ أَنُوشِـــرْوَانُ أَشْـــرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ، وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ، وَأَمَرَ بُزَرْجُمِهْرَ بِقِرَاءَةِ الكِتَابِ، وَ بَرْزَوَيْهِ قَائِمٌ إِلَى جَانِبِ بُزَرْجُمِهْرُ ، وَابْتَدَأَ بِوَصْـــفِ بَرْزَوَيْهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ، فَفَرِحَ المَلِكُ بِمَـا أَتَى بِـهِ بُزَرْجُمِهْرُ مِنَ الحِكْمَـةِ وَالعِلْمِ. ثُمَّ أَثْنَى المَلِكُ وَجَمِيْعُ مَنْ حَضَـــرَ عَلَى بُزَرْجُمِهْرِ وَشَـــكَرُوْهُ وَمَدَحُوْهُ، وَأَمَرَ لَهُ المَلِكُ بِمَالٍ جَزِيْلٍ وَكُسْوَةٍ وَحِليً وَأَوَانٍ، فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً غَيْرَ كُسْوَةٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ المُلُوْكِ. ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ بَرْزَوَيْهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى المَلِكَ وَقَالَ: أَدَامَ اللهُ لَكَ المُلْكَ وَالسَّـــعَادَةَ، فَقَدْ بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّـــرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بُزَرْجُمِهْرَ مِنْ صَـــنْعَةِ الكِتَابِ فِي أَمْرِي، وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي. ثُمَّ انْصَـــرَفَ الجَمْعُ مَسْرُوْرِيْنَ مُبْتَهِجِيْنَ وَكَانَ يَوْماً لاَ مِثَالَ لَهُ.

---

١ المشاكلة: الموافقة والمشابهة.

٢ دفعه: سلَّمه.

٣ المؤدِّب: المعلّم.

٤ العقاقير: النَّباتات التي يُتداوى بها.

٥ نَسَقَهُ: نظمه. جعله على نظام واحد.

بَابُ عَرْضِ الكِتَابِ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ المُقفّع مُعرِّبِ هَذَا الكِتَابِ

هَذَا كِتَابُ كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ، وَهُوَ مِمَّا وَضَعَتْهُ عُلَمَاءُ الهِنْدِ مِنَ الأَمْثَالِ وَالأَحَادِيْثِ، الَّتِي أُلْهِمُوا أَنْ يُدْخِلُوا فِيْهَا أَبْلَغَ مَا وَجَدُوا مِنَ القَوْلِ فِي النَّحْوِ[١] الَّذِي أَرَادُوا، وَلَمْ تَزَلْ العُلَمَاءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ وَلِسَانٍ يَلْتَمِسُوْنَ أَنْ يُعْقَلَ[٢] عَنْهُمْ، وَيَحْتَالُوْنَ لِذَلِكَ بِصُنُوْفِ الحِيَلِ، وَيَبْتَغُوْنَ إِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلَلِ[٣] فِي إِظْهَارِ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ العُلُوْمِ وَالحِكَمِ، حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ العِلَلِ وَضْعُ هَذَا الكِتَابِ عَلَى أَفْوَاهِ البَهَائِمِ وَالطَّيْرِ، فَاجتَمَعَ لَهُمْ بِذَلِكَ خِلاَلٌ[٤]. أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُنْصَرَفاً[٥] فِيْ القَوْلِ وَشِعَاباً[٦] يَأْخُذُوْنَ مِنْهَا، وَوُجُوْهاً يَسْلُكُوْنَ فِيْهَا.

وَأَمَّا الكِتَابُ فَجَمَعَ حِكْمَةً وَلَهْوَاً، فَاخْتَارَهُ الحُكَمَاءُ لِحِكْمَتِهِ، وَالأَغْرَارُ[٧] لِلَهْوِ. وَالمُتعَلِّمُ مِنَ الأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبَطُ فِي صَدْرِهِ وَلاَ يَدْرِي مَا هُوَ، بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَكْتُوْبٍ مَرْقُوْمٍ[٨]. وَكَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لمَّا اسْتَكْمَلَ الرَّجُوْلِيَّةَ وَجَدَ أَبَوَيْهِ قَدْ كَنَزَا لَهُ كُنُوْزَاً، وَعَقَدَاً لَهُ عُقَدَاً[٩] اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الكَدْحِ[١٠] فِيْمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيْشَتِهِ ، فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ[١١] مِنَ الحِكْمَةِ عَنِ الحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ وُجُوْهِ الأَدَبِ. فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ هَذَا الكِتَابَ أَنْ يَعْرِفَ الوُجُوْهَ الَّتِي وُضِعَتْ لَهُ، وَالرُّمُوْزَ الَّتِي رُمِزَتْ فِيْهِ، وَإِلَى أَيِّ غَايَةٍ جَرَى مُؤلِّفُهُ فِيْهِ عِنْدَمَا نَسَبَهُ إِلَى البَهَائِمِ، وَأَضَافَهُ إِلَى غَيْرِ مُفْصِحٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَوْضَاعِ الَّتِي جَعَلَهَا أَمْثَالاً. فَإِنَّ قَارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمْ يَدْرِ مَا أُرِيْدَ بِتِلْكَ المعَانِي، وَلاَ أَيَّ ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْهَا، وَلاَ أَيَّ نَتِيْجَةٍ تَحْصُلُ لَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ مَا تَضمَّنَهُ هَذَا الكِتَابُ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَتْ غَايَتُهُ مِنْهُ اسْتِتْمَامَ قِرَاءَتِهِ، وَالبُلُوْغَ إِلَى آخِرِهِ دُوْنَ تَفَهُّمِ مَا يُقْرَأُ مِنْهُ، لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ.

١ النَّحو: الطَّريق والقصد والنَّهج.

٢ يُعقل: يُؤخذ ويُفهم.

٣ العلل: الوسائل والأسباب.

٤ الخلال: الطُّرق والمذاهب، والصِّفات والفضائل.

٥ المنصرف: المذهب.

٦ الشِّعاب: الطُّرق.

٧ الأغرار: الصِّغار الَّذِي لا تجربة لهم في الحياة. والسُّذَّج والغُفَّل.

٨ مرقوم: مزيَّن.

٩ العُقَدَ: العقار والبناء.

١٠ الكدح: الكد والسَّعي.

١١ أشرف عليه: وصل إليه.

وَمَنْ اسْـــتَكْثَرَ مِنْ جَمْعِ الكُتُبِ وَقِرَاءَةِ العُلُوْمِ مِنْ غَيْرِ إِعْمَالِ الرَّوِيَّةِ[١] فِيْمَا يَقْرَأُهُ، كَانَ خَلِيْقَاً[٢] أَلاَّ يُصِيْبَهُ إِلاَّ مَا أَصَابَ الرَّجُلَ الَّذِي زَعَمَتِ العُلَمَاءُ أَنَّهُ اجْتَازَ بِبَعْضِ المفَاوِزِ، فَظَهَرَ لَهُ مَوْضِعُ آثَارِ كَنْزٍ، فَجَعَلَ يَحْفِرُ وَيَطْلُبُ، فَوَقَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنٍ وَوَرِقٍ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِنْ أَنَا أَخَذْتُ فِي نَقْلِ هَذَا المَالِ قَلِيْلاً قَلِيْلاً طَالَ عَلَيَّ وَقَطَعَنِي[٣] الاِشْتِغَالُ بِنَقْلِهِ وَإِحْرَازِهِ عَنِ اللَّذَّةِ بِمَا أَصَبْتُ مِنْهُ، وَلَكِنْ سَأَسْتَأْجِرُ أَقْوَاماً يَحْمِلُوْنَهُ إِلَى مَنْزِلِي، وَأَكُوْنُ آخِرَهُمْ وَلاَ يَكُوْنُ بَقِيَ وَرَائِي شَيْءٌ يُشْغَلُ فِكْرِي بِنَقْلِهِ، وَأَكُوْنُ قَدِ اسْتَظْهَرْتُ[٤] لِنَفْسِي فِي إِرَاحَةِ بَدَنِي عَنِ الكَدِّ بِيَسِيْرِ أُجْرَةٍ أُعْطِيْهَا لَهُمْ. ثُمَّ جَاءَ بِالحَمَّالِيْنَ فَجَعَلَ يُحمِّلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يُطِيْقُ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ هُوَ فَيَفُوْزُ بِهِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الكَنْزِ شَيْءٌ انْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيْهِ مِنَ المالِ شَيْئاً لاَ كَثِيْراً وَلاَ قَلِيْلاً، وَإِذَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الحمَّالِيْنَ قَدْ فَازَ بِمَا حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلرَّجُلِ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ العَنَاءُ وَالتَّعَبُ لأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ.

مَثَلُ المُتَعَلِّمِ وَالصَّحِيْفَةِ الصَّفْرَاءِ:

وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ هَذَا الكِتَابَ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيْهِ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيْهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ مَا فِيْهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا يَبْدُو لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ، كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلاً قُدِّمَ لَهُ جَوْزٌ صَحِيْحٌ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَكْسِرَهُ وَاسْتَخْرِجَ مَا فِيْهِ. وَكَانَ أَيْضَاً كَالرَّجُلِ الَّذِي طَلَبَ عِلْمَ الفَصِيْحِ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، فَأَتَى صَدِيْقَاً لَهُ مِنَ العُلَمَاءِ لَهُ عِلْمٌ بِالفَصَاحَةِ، فَأَعْلَمَهُ حَاجَتَهُ إِلَى عِلْمِ الفَصِيْحِ، فَرَسَمَ لَهُ صَدِيْقُهُ فِي صَحِيْفَةٍ صَفْرَاءَ فَصِيْحَ الكَلاَمِ وَتَصَارِيْفَهُ وَوُجُوْهَهُ.

فَانْصَرَفَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ فَجَعَلَ يُكْثِرُ قِرَاءَتَهَا، وَلاَ يَقِفُ عَلَى مَعَانِيْهَا، وَلاَ يَعْلَمُ تَأْوِيْلَ مَا فِيْهَا حَتَّى اسْتَظْهَرَهَا[٥] كُلَّهَا، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِعِلْمِ مَا فِيْهَا.

ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَحْفِلٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالأَدَبِ فَأَخَذَ فِي مُحَاوَرَتِهِمْ، فَجَرَتْ لَهُ كَلِمَةٌ أَخْطَأَ فِيْهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الجَمَاعَةِ: إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ وَالوَجْهُ غَيْرُ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ.فَقَالَ: كَيْفَ أُخْطِئُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيْفَةَ الصَّفْرَاءَ وَهِيَ فِي مَنْزِلِي. فَكَانَتْ مَقَالَتُهُ هَذِهِ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ[٦] عَلَيْهِ، وَزَادَهُ ذَلِكَ قُرْباً مِنَ الجَهْلِ وَبُعْداً مِنَ الأَدَبِ.

---

١ الرَّوِيَّة: التَّمهّل.

٢ الخليق: الجدير.

٣ قطعني: منعني.

٤ استظهرت: استعنت.

٥ استظهرها: حفظها غيباً.

٦ الحجَّة: الاحتجاج.

ثُمَّ إِنَّ الـعـاقِلَ إِذَا فَهِمَ هَذَا الكِتَابَ، وَبَلَغَ نِـهَايَةَ عِلْمِهِ فِيْهِ، يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عَلِمَ مِـنْهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ، وَيَجْعَـلَهُ مِـثَالاً لاَ يَحِيْدُ عَـنْهُ. فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ كَانَ مَثَلُهُ كَالرَّجُلِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّ سَـارِقاً تَسَـوَّرَ[1] عَلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَنْزِلِه، فَعَلِمَ بِهِ فَقَالَ: وَالله لأَسْـكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْـنَعُ، وَلاَ أَذْعَرُهُ[2] وَلاَ أُعْلِمُهُ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِهِ، فَإِذَا بَلَغَ مُرَادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ فَنَغَّصْـتُ[3] ذَلِكَ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّه أَمْسَـكَ عَنْهُ وَجَعَلَ السَّـارِقُ يَتَرَدَّدُ، وَطَالَ تَرَدُّدُهُ فِي جَمْعِهِ مَا يَجِدُهُ. فَغَلَبَ الرَّجُلَ النُّعَاسُ، فَنَامَ وَفَرَغَ اللِّصُّ مِمَّا أَرَادَ وَأَمْكَنَهُ الذَّهَابُ.

وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ فَوَجَدَ اللِّصَّ قَدْ أَخَذَ المتَاعَ[4] وَفَازَ بِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُوْمُهَا وَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ بِاللِّصِّ إِذْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ فِي أَمْرِهِ مَا يَجِبُ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ العِلْمَ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِالعَمَلِ، وَإِنَّ العِلْمَ كَالشَّـجَرَةِ وَالعَمَلَ بِهِ كَالثَّمَرَةِ. وَإِنَّما صَاحِبُ العِلْمِ يَقُوْمُ بِالعَمَلِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ مَا يَعْلَمُ فَلَيْسَ يُسَمَّى عَالِماً. وَلَو أَنَّ رَجُلاً كَانَ عالِماً بِطَرِيْقٍ مَخُوْفٍ ثُمَّ سَـلَكَهُ عَلَى عِلْمٍ بِهِ سُـمِّيَ جَاهِلاً.

وَلَعَلَّهُ إِنْ حَاسَـبَ نَفْسَـهُ وَجَدَهَا قَدْ رَكِبَتْ أَهْوَاءً هَجَمَتْ بِهَا فِيمَا هُوَ أَعْرَفُ بِضَـرَرِهَا فِيْهِ وَأَذَاها. وَمَنْ رَكِبَ[5] هَوَاهَ وَرَفَضَ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا جَرَّبَهُ هُوَ، أَوْ أَعْلَمَهُ بِهِ غَيْرُهُ كَانَ كَالمَرِيْضِ العَالِمِ بِرَدِيءِ الطَّعَامِ وَالشَّـرَابِ وَجَيِّدِهِ وَخَفِيْفِهِ وَثَقِيْلِه، ثُمَّ يَحْمِلُهُ الشَّـرَهُ[6] عَلَى أَكْلِ رَدِيْئِهِ، وَتَرْكِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى النَّجَاةِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ عِلَّتِهِ.

مَثَلُ البَصِيْرِ وَالأَعْمَى

وَأَقَلُّ النَّاسِ عُذْراً فِي اجْتِنَابِ مَحْمُوْدِ الأَفْعَالِ وَارْتِكَابِ مَذْمُوْمِهَا مَنْ أَبْصَـرَ ذَلِكَ، وَمَيَّزَهُ وَعَرَفَ فَضْـلَ بَعْضِـهِ عَلَى بَعْضٍ. كَمَا أَنَّهُ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما بَصِـيْرٌ وَالآخَرُ أَعْمَى سَـاقَهُما الأَجَلُ إِلَى حُفْرَةٍ فَوَقَعَا فِيْهَا كَانَا إِذَا صَـارَا فِي قَعْرِهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ.

---

١ تسوَّر عليه: دخل عليه واثباً عن سور بيته.

٢ أذْعَرُهُ: افزعُهُ وأخيفه.

٣ نغَّصت: كدَّرتُ.

٤ المتاع: كلُّ ما ينتفع به في البيت من طعام ولباس وأثاث.

٥ ركب: اتَّبع.

٦ الشَّره: شدّة الحرص على الطَّعام.

غَيْرَ أَنَّ البَصِيْرَ أَقَلُّ عُذْراً عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيْرِ، إِذْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَذَاكَ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ جَاهِلٌ غَيْرُ عَارِفٍ. وَعَلَى العَالِمِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ وَيُؤَدِّبَهَا بِعِلْمِهِ وَلاَ تَكُوْنَ غَايَتُهُ اقْتِناءَهُ العِلْمَ لِمُعَاوَنَةِ غَيْرِهِ وَنَفْعِهِ بِهِ وَحَرْمَانِ نَفْسِهِ مِنْهُ. وَيَكُوْنَ كَالعَيْنِ الَّتِي يَشْرَبُ النَّاسُ مَاءَهَا، وَلَيْسَ لَهَا فِي ذَلِكَ شَيءٌ مِنَ المَنْفَعَةِ. وَكَدُوْدَةِ القَزِّ الَّتِي تُحْكِمُ صَنْعَتَهُ وَلاَ تَنْتَفِعُ بِهِ. فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ العِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ بِعِظَةِ[1] نَفْسِهِ وَيَتَعَهَّدَهَا[2] بِرِيَاضَتِهَا، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبِسَهُ[3] فَإِنَّ خِلالاً يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا أَنْ يَقْتَنِيَهَا وَيَقْبِسَهَا. مِنْهَا: العِلْمُ وَالمَالُ، وَمِنْهَا: اتِّخَاذُ المعْرُوْفِ. وَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَعِيْبَ امْرأً بِشَيءٍ فِيْهِ مِثْلُهُ وَيَكُوْنَ كَالأَعْمَى الَّذِي يُعَيِّرُ الأَعْمَى بِعَمَاهُ. وَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ أَمْراً أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ غَايَةٌ وَنِهَايَةٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا، وَيَقِفُ عِنْدَهَا وَلاَ يَتَمَادَى فِي الطَّلَبِ. فَإِنَّه يُقَالُ مَنْ سَارَ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ فَيُوْشِكُ أَنْ تَنْقَطِعَ بِهِ مَطِيَّتُهُ، وَإِنَّهُ كَانَ حَقِيْقَاً أَلاَّ يُعَنِّيَ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ مَا لاَ حَدَّ لَهُ وَمَا لَمْ يَنَلْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ. وَلاَ يَتَأَسَّفَ عَلَيْهِ وَلاَ يَكُوْنَ لِدُنْيَاهُ مُؤْثِراً عَلَى آخِرَتِهِ.

فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْلَقْ قَلْبُهُ بِالغَايَاتِ قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا. وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ إِنَّهُما يَجْمُلاَنِ بِكُلِّ أَحَدٍ. أَحَدُهُمَا: النُّسْكُ، وَالآخَرُ: المَالُ الحَلاَلُ. وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ إِنَّهُما لاَ يَجْمُلاَنِ بِأَحَدٍ. المَلِكُ أَنْ يُشَارَكَ فِي مُلْكِهِ، والرَّجُلُ أَنْ يُشَارَكَ فِي خَاصَّتِهِ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَقْنَطَ وَيَيْأَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وفَضْلِهِ فِيمَا لاَ يَنَالُهُ، فَرُبَّمَا سَاقَ القَدَرُ لَهُ رِزْقاً هَنِيْئاً وَهْوَ غَافِلٌ عَنْهُ لاَ يَدْرِي بِهِ ولاَ يَعْلَمُ وَجْهَهُ.مَثْلُ الفَقِيْرِ وَاللِّصِّ.

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذَا أَنَّ رَجُلاً كَانَ بِهِ فَاقَةٌ وَجُوْعٌ وَعُرْيٌ، فَأَلْجَأَهُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ سَأَلَ بَعْضَ أَقَارِبِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ يَعُوْدُ بِهِ عَلَيْهِ. فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إِذْ بَصُرَ بِسَارِقٍ فِي المَنْزِلِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: وَاللهِ مَا فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أَخَافُ عَلَيْهِ فَلْيَجْهَدِ السَّارِقُ جُهْدَهُ. فَبَيْنَمَا السَّارِقُ يَجُوْلُ إِذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خَابِيَةٍ فِيْهَا حِنْطَةٌ، فَقَالَ السَّارِقُ: وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ عَنَائِي اللَّيْلَةَ بَاطِلاً وَلَعَلِّي لاَ أَصِلُ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ. وَلَكِنْ سَأَحْمِلُ هَذِهِ الحِنْطَةَ خَيْرٌ مِنَ الرُّجُوْعِ بِغَيْرِ شَيْءٍ. ثُمَّ بَسَطَ رِدَاءَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الحِنْطَةَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَذْهَبُ هَذَا بِالحِنْطَةِ وَلَيْسَ وَرَائِي سِوَاهَا، فَيَجْتَمِعُ عَلَي مَعَ العُرْي ذَهَابُ مَا كُنْتُ أَقْتَاتُ بِهِ، وَمَا تَجْتَمِعُ وَاللهِ هَاتَانِ الخَلَّتَانِ[4] عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ أَهْلَكَتَاهُ.

---

١ العظة: الوعظ.

٢ يتعهَّدها: يتفقَّدها.

٣ يقبسه: يستفيده.

٤ الخلَّة: الفقر والحاجة.

ثُمَّ صَاحَ بِالسَّارِقِ وَوَثَبَ إِلَيْهِ بِهِرَاوَةٍ كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلسَّارِقِ حِيْلَةٌ إِلاَّ الهَرَبُ مِنْهُ، وَتَرَكَ رِدَاءَهُ وَنَجَا بِنَفْسِهِ وَغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كَاسِياً.

وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَرْكَنَ إِلَى مِثْلِ هَذَا المثَلِ، فَيَتَّكِلَ عَلَيْهِ، وَيَدَعَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ السَّعْيِ وَالعَمَلِ لِصَلاَحِ مَعَاشِهِ. بَلْ أَلاَّ يَأْلُوَ جَهْداً فِي الطَّلَبِ عَلَى قَدَرِ مَعْرَفَتِهِ، وَلاَ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ تُؤَاتِيْهِ المقَادِيْرُ وَتُسَاعِدُهُ عَلَى غَيْرِ التِمَاسٍ مِنْهُ وَلاَ حَرَكَةٍ، لأَنَّ أُوْلَئِكَ فِي النَّاسِ قَلِيْلٌ. وَإِنَّمَا الجُمْهُوْرُ مِنْهُمْ مَنْ يَجْهَدُ نَفْسَهُ فِي الكَدِّ وَالسَّعْيِ، فِيْمَا يُصْلِحُ مِنْ أَمْرِهِ وَيَنَالُ بِهِ مَا يُرِيْدُ. وَلْيَحْرِصْ أَنْ يَكُوْنَ مَكْسَبُهُ مِنْ أَطْيَبِ المَكَاسِبِ وَأَفْضَلِهَا وَأَنْفَعِهَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ مَعاً مَا أَمْكَنَ. وَلاَ يَتَعَرَّضَنَّ لِمَا يَجْلُبُ عَلَيْهِ العَنَاءَ وَالشَّقَاءَ وَمَا يُعْقِبُهُ الهَمَّ وَالغَمَّ، وَلْيَحْذَرْ أَنْ يُعَاوِدَ مَا أَصَابَهُ مِنْهُ الضَّرَرُ. وَيَنْبَغِي لَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَحْذَرَ مِمَّا يُصِيْبُ غَيْرَهُ مِنَ الضَّرَرِ لِئَلاَّ يُصِيْبَهُ مِثْلُهُ فَيَكُوْنَ كَالحمَامَةِ الَّتِي تُفْرِخُ الفِرَاخَ فَتُؤْخَذُ وَتُذْبَحُ، ثُمَّ لاَ يَمْنَعُهَا ذَلِكَ مِنْ أَنْ تَعُوْدَ فَتُفْرِخَ مَوْضِعَهَا، وَتُقِيْمَ بِمَكَانِهَا فَتُؤْخَذُ الثَّانِيَةُ مِنْ فِرَاخِهَا، فَتُذْبَحُ حَتَّى تُؤخَذَ هِيَ أَيضاً فَتُذْبَحَ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيءٍ حَدَّاً يُوْقَفُ عَلَيْهِ. وَمَنْ تجَاوَزَ فِي الأَشْيَاءِ حَدَّهَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيْرُ عَنْ بُلُوْغِهَا. وَالمُتَجَاوِزُ الحَدَّ وَالمُقَصِّرُ عَنْهُ سِيَّانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، لأَنَّ كِلَيْهِمَا زَائِغٌ عَنْهُ فِي الحَالِيْنِ جَمِيْعاً. وَيُقَالُ: مَنْ كَانَ سَعْيُهُ لآخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ فَحَيَاتُهُ لَهُ وَعَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِدُنْيَاهُ خَاصَّةً فَحَيَاتُهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ لآخِرَتِهِ فَحَيَاتُهُ لَهُ. وَيُقَالُ فِي أَشْيَاءَ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِصْلاَحُهَا وَبَذْلُ جُهْدِهِ فِيْهَا.

مِنْهَا أَمْرُ دِيْنِهِ، وَمِنْهَا أَمْرُ مَعِيْشَتِهِ، وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الجَمِيلَ بَعْدَهُ. وَقَدْ قِيْلَ فِي أُمُوْرٍ مَنْ كُنَّ فِيْهِ لَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ عَمَلٌ. مِنْهَا التَّوَانِي، وَمِنْهَا تَضْيِيْعُ الفُرَصِ، وَمِنْهَا التَّصْدِيْقُ لِكُلِّ مُخْبِرٍ، وَمِنْهَا التَّكْذِيْبُ لِكُلِّ عَارِفٍ. وَرُبَّ مُخْبِرٍ بِشَيءٍ عَقَلَهُ وَلاَ يَعْرِفُ اسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقَهُ. وَالَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ ثَلاَثَةٌ: رَجُلٌ يُصَدِّقُ بِمَا جَرَّبَهُ غَيْرُهُ وَصَدَّقَهُ، فَيُصَدِّقُهُ هُوَ وَيَتَمَادَى فِي التَّصْدِيْقِ حَتَّى كَأَنَّمَا جَرَّبَهُ بِنَفْسِهِ، وَرَجُلٌ يُصَدِّقُ بِالأُمُوْرِ الَّتِي جَرَّبَهَا وَلَكِنْ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِحَقِيْقَتِهَا، وَرَجُلٌ تَلْتَبِسُ عَلَيْهِ الأُمُوْرُ فَيُصَدِّقُ بِهَا. وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُوْنَ لِهَوَاهُ مُتَّهِماً، وَلاَ يَقْبَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَدِيْثاً، وَلاَ يَتَمَادَى فِي الخَطَأِ إِذَا التَبسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ. وَلاَ يَلِجَّ فِي شَيءٍ مِنْهُ، وَلاَ يُقْدِمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوابُ فِيْهِ، وَتَسْتَوْضِحَ لَهُ الحَقِيْقَةُ، وَلاَ يَكُوْنَ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَزِيْغُ عَنِ الطَّرِيْقِ، فَيَسْتَمِرُّ عَلَى الضَّلاَلِ فَلاَ يَزْدَادُ فِي السَّيْرِ جَهْداً إِلاَّ ازْدَادَ عَنِ القَصْدِ بُعْداً، وَكَالرَّجُلِ الَّذِي تَقْذَى عَيْنُهُ فَلاَ يَزَالُ يَحُكُّهَا حَتَّى رُبَّما كَانَ الحَكُّ سَبَباً فِي ذَهَابِهَا.

وَيَجِبُ عَلَى العَاقِلِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا كُتِبَ سَوْفَ يَكُوْنُ، وَأَنَّ مَنْ أَتَى صَاحِبَهُ بِمَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ فَقَدْ ظَلَمَ، وَيَأْخُذَ بِالحَزْمِ فِي أُمُوْرِهِ وَيُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لَهَا فَلاَ يَطْلُبُ أَمْراً فِيْهِ مَضَرَّةٌ لِغَيْرِهِ طَلَباً لِصَلاَحِ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ كُلَّ غَادِرٍ مَأْخُوْذٌ.

مَثَلُ الشَّرِيْكَيْنِ وَالأَعْدَالِ

وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ خَلِيْقاً أَنْ يُصِيْبَهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ مِنْ رَفِيْقِهِ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ تَاجِرٌ وَكَانَ لَهُ شَرِيْكٌ، فَاسْتَأْجَرَا حَانُوْتاً وَجَعَلاَ مَتَاعَهُما فِيْهِ.

وَكَانَ أَحَدَهُمَا قَرِيْبَ المَنْزِلِ مِنَ الحَانُوْتِ، فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَسْرِقَ عِدْلاً مِنْ أَعْدَالِ رَفِيْقِهِ، وَمَكَرَ الحِيْلَةَ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنْ أَنَا أَتَيْتُ لَيْلاً لَمْ آمَنْ أَنْ أَحْمِلَ عِدْلاً مِنْ أَعْدَالِي أَوْ رِزْمَةً مِنْ رِزَمِي، وَلاَ أَعْرِفَهَا فَيَذْهَبَ عَنَائِي وَتَعَبِي بَاطِلاً. فَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَأَلْقَاهُ عَلَى العِدْلِ الَّذِي أَضمَرَ أَخْذَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَجَاءَ رَفِيقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُصْلِحَ أَعْدَالَهُ، فَقَالَ: والله هَذَا رِدَاءُ صَاحِبِي وَلاَ أَحْسَبُهُ إِلاَّ قَدْ نَسِيَهُ، وَمَا الرَّأْيُ أَنْ أَدَعَهُ هَهُنَا، وَلَكِنْ أَجْعَلُهُ عَلَى رِزَمِهِ فَلَعَلَّهُ يَسْتَبِقُنِي إِلَى الحَانُوْتِ فَيَجِدَهُ حَيْثُ يُحِبُّ.

ثُمَّ أَخَذَ الرِّدَاءَ فَأَلْقَاهُ عَلَى عِدْلٍ مِنْ أَعْدَالِ رَفِيْقِهِ، وَأَقْفَلَ الحَانُوْتَ وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ أَتَى رَفِيْقَهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ قَدْ وَاطَأَهُ عَلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَضَمِنَ لَهُ جُعْلاًعَلَى حَمْلِهِ فَصَارَ إِلَى الحَانُوْتِ، فَتَحَسَّسَ الرِّدَاءَ فِي الظُّلْمَةِ وَتَلَمَّسَهُ فَوَجَدَهُ عَلَى العِدْلِ، فَاحْتَمَلَ ذَلِكَ العِدْلَ وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَالرَّجُلُ، وَجَعَلاَ يَتَرَاوَحَانِ فِي حِمْلِهِ حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ وَرَمَى نَفْسَهُ تَعَباً. فَلَمَّا أَصْبَحَ افْتَقَدَهُ فَإِذَا هُوَ بَعْضُ أَعْدَالِهِ فَنَدِمَ أَشَدَّ النَّدَامَةِ، ثُمَّ انْطَلَقَ نَحْوَ الحَانُوْتِ، فَوَجَدَ شَرِيْكَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ فَفَتَحَ الحَانُوْتَ وَفَقَدَ العِدْلَ، فَاغْتَمَّ لِذَلِكَ غَمَّاً شَدِيْداً وَقَالَ: وَا سَوْءَتَاهُ مِنْ رَفِيْقٍ صَالِحٍ قَدِ ائْتَمَنَنِي عَلَى مَالِهِ وَخَلَّفَنِي فِيْهِ مَاذَا يَكُوْنُ حَالِي عِنْدَهُ، وَلَسْتُ أَشُكُّ فِي تُهْمَتِهِ إِيَّايَ وَلَكِنْ قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ. فَلَمَّا أَتَاهُ صَاحِبُهُ وَجَدَهُ مُغْتَمَّاً، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ: إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُ الأَعْدَالَ وَفَقَدْتُ عِدْلاً مِنْ أَعْدَالِكَ وَلاَ أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ، وَإِنِّي لاَ أَشُكُّ فِي تُهْمَتِكَ إِيَّايَ، وَإِنِّي قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ. فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي لاَ تَغْتَمَّ فَإِنَّ الخِيَانَةَ شَرُّ مَا عَمِلَهُ الإِنْسَانُ، وَالمَكْرُ وَالخدِيْعَةُ لا يُؤَدِّيَانِ إِلَى خَيْرٍ، وَصَاحِبُهُما مَغْرُوْرٌ أَبداً، وَمَا عَادَ وَبَالُ البَغْيِ إِلاَّ عَلَى صَاحِبِهِ. وَأَنا أَحَدُ مَنْ مَكَرَ وَخَدَعَ وَاحْتَالَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهِ وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ. فَقَالَ لَهُ رَفِيْقُهُ: مَا مَثَلُكَ إِلاَّ مَثَلُ اللِّصِّ وَالتَّاجِرِ. فَقَالَ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ اللِّصِّ وَالتَّاجِرِ

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ تَاجِراً كَانَ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ خَابِيَتَانِ، إِحْدَاهُما مَمْلُوْءَةٌ حِنْطَةً، وَالأُخْرَى مَمْلُوْءَةٌ ذَهَباً. فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللُّصُــوْصِ زَمَاناً حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُ الأَيَّامِ تَشَاغَلَ التَّاجِرُ عَنِ المَنْزِلِ، فَتَغَفَّلَهُ اللِّصُّ وَدَخَلَ المَنْزِلَ، وَكَمَنَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيْهِ.

فَلَمَّا هَمَّ بِأَخْذِ الخَابِيَةِ الَّتِي فِيْهَا الدَّنَانِيْرُ أَخَذَ الَّتِي فِيْهَا الحِنْطَةُ، وَظَنَّهَا الَّتِي فِيْهَا الذَّهَبُ. وَلَمْ يَزَلْ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ حَتَّى أَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ، فَلَمَّا فَتَحَهَا وَعَلِمَ مَا فِيْهَا نَدِمَ.

قَالَ لَهُ الخَائِنُ: مَا أَبْعَدْتَ المثَلَ، وَلاَ تَجَاوَزْتَ القِيَاسَ، وَقَدِ اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي وَخَطَئِي عَلَيْكَ وَعَزِيْزٌ عَلَيَّ[١] أَنْ يَكُوْنَ هَذَا كَهَذَا، غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ الرَّدِيْئَةَ تَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ.

فَقَبِلَ الرَّجُلُ مَعْذِرَتَهُ وأَضْــرَبَ[٢] عن تَوْبِيْخِهِ وَعَنِ الثِّقَةِ بِهِ، وَنَدِمَ هُوَ عِنْدَمَا عَايَنَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ وَتَقْدِيْمِ جَهْلِهِ.مَثَلُ الإِخْوَةِ الثَّلاَثَةِ

وَقَدْ يَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي كِتَابِنَا هَذَا أَلاَّ تَكُوْنَ غَايَتُهُ التَّصَفُّحَ لِتَزَاوِيْقِهِ[٣]، بَلْ يُشْرِفُ عَلَى مَا يَتَضَــمَّنُ مِنَ الأَمْثَالِ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِهِ، وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمةٍ، وَيُعْمِلَ فِيْهَا رَوِيَّتَهُ وَيَكُوْنَ مِثْلَ ثَالِثِ الإِخْوَةِ الثَّلاثَةِ الَّذِيْنَ خَلَّفَ لَهُمْ أَبُوْهُمُ المَالَ الكَثِيْرَ، فَتَنَازَعُوْهُ[٤] بَيْنَهُمْ. فَأَمَّا الاثْنَانِ الكَبِيْرَانِ فَإِنَّهُما أَسْـرَعَا فِي إِتْلاَفِهِ وَإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ. وَأَمَّا الصَّــغِيْرُ فَإِنَّهُ عِنْدَمَا نَظَرَ مَا صَـــارَ إِلَيْهِ أَخَوَاهُ مِنْ إِسْرَافِهِمَا[٥] وَتَخَلِّيْهِمَا[٦] مِنَ المَالِ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُشَاوِرُهَا، وَقَالَ: يَا نَفْسَ إِنَّمَا المَالُ يَطْلُبُهُ صَــاحِبُهُ وَيَجْمَعُهُ فِي كُلِّ وَجْهٍ لِبقَاءِ حَالِهِ، وَصَــلاَحِ مَعَاشِــهِ وَدُنْيَاهُ، وَشَــرَفِ مَنْزِلَتِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَاسْــتِغْنَائِهِ عَمَّا فِي أَيْدِيْهِمْ، وَصَــرْفِهِ فِي وَجْهِهِ مِنْ صِــلَةِ الرَّحِمِ، وَالإِنْفَاقِ عَلَى الوَلَدِ، وَالإِفْضَـــالِ عَلَى الإِخْوَانِ. فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلاَ يُنْفِقُهُ فِي حُقُوْقِهِ كَانَ كَالَّذِي يُعَدُّ فَقِيْراً وَإِنْ كَانَ مُوْسِراً[٧]، وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِمْسَاكَهُ وَالقِيَامَ عَلَيْهِ لَمْ يَعْدَمِ الأَمْرَيْنِ جَمِيْعاً مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ وَحَمْدٍ يُضَافُ إِلَيْهِ. وَمَتَى قَصَدَ إِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الوُجُوْهِ الَّتِي حُدَّتْ[٨] لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ،

---

١ عزيز عليَّ: صعب.
٢ أضرب عن: أعرض.
٣ التَّزويق: التَّزيين.
٤ تنازعوه: تقاسموه.
٥ الإسراف: التَّبذير.
٦ التَّخلّي: الفراغ.
٧ الموسر: الغنيّ.
٨ حُدَّت: رُسمت.

وَلَكِنِ الرَّأْيُ أَنْ أُمْسِـــكَ هَذَا المَالَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللهُ بِهِ، وَيُغْنِيَ إِخْوَتِي عَلَى يَدِيَّ، فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي وَمَالُ أَبِيْهِمَا. وَإِنَّ أَوْلَى الإِنْفَاقِ عَلَى صِـلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعُدَتْ فَكَيْفَ بِإِخْوَتِي! فَأَنْفَذَ فَأَحْضَـرَهُمَا وَشَـاطَرَهُمَا[1] مَالَهُ.مَثَلُ الصَّـيَّادِ وَالصَّدَفَةِ

وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى قَارِئِ هَذَا الكِتَابِ أَنْ يُدِيْمَ النَّظَرَ فِيْهِ مِنْ غَيْرِ ضَـــجَرٍ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَـانِيْـهِ، وَلاَ يَظُنَّ أَنَّ نَتِيْجَتَـهُ إِنَّمَـا هِيَ الإِخْبَـارُ عَنْ حِيْلَـةِ بَهِيْمَتَيْنِ، أَوْ مَحَاوَرَةِ سَـــبُعٍ لِثَوْرٍ، فَيَنْصَـــرِفَ بِذَلِكَ عَنِ الغَرَضِ المَقْصُـــوْدِ، وَيَكُوْنَ مَثَلُهُ مَثَلَ الصَّـيَّادِ الَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ الخُلُجِ[2] يَصِـيْدُ فِيْهِ السَّـمَكَ فِي زَوْرَقٍ، فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَقِيْقِ[3] المَاءِ صَدَفَةً تَتَلأْلأُ حُسْناً، فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَراً لَهُ قِيْمَةٌ، وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَتَهُ فِي البَحْرِ فاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوْتَ يَوْمِهِ فَخَلاَّهَا[4]، وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي المَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدَفَةَ، فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَها فَارِغَةً لاَ شَـــيءَ فِيْهَا مِمَّا ظَنَّ، فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ، وَتَأَسَّـفَ عَلَى مَا فَاتَهُ. فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذَلِكَ المَكَانِ وَأَلْقَى شَـــبَكَتَهُ فَأَصَـــابَ حُوْتاً صَـغِيْراً، وَرَأَى أَيْضـاً صَـدَفَةً سَـنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَـاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا، وَاجتَازَ بِهَا بَعْضُ الصَّيَّادِيْنَ فَأَخَذَها فَوَجَدَ فِيْهَا دُرَّةً تُساوِي أَمْوَالاً.

وَكَذَلِكَ الجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالِ أَمْرِ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا الكِتَابِ وَالاِغْتِرَارِ بِهِ، وَتَرْكِ الوُقُوْفِ عَلَى أَسْـرَارِ مَعَانِيْهِ وَالأَخْذِ بِظَاهِرِهِ دُوْنَ الأَخْذِ بِبَاطِنِهِ. وَمَنْ صَـرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوَابِ الهَزْلِ مِنْهُ، فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضاً طَيِّبَةً حُرَّةً[5] وَحَبَّاً صَحِيْحَاً فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا، حَتَّى إِذَا قَرُ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيْهَا مِنَ الزَّهْرِ وَقَطْعِ الشَّوْكِ، فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً[6].

وَيَنْبغِي لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الكِتَابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ:

أَحَدُهَا: مَا قُصِـدَ فِيْهِ إِلَى وَضْـعِهِ عَلَى أَلْسِـنَةِ البَهَائِمِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ مِنْ مُسَـارَعَةِ أَهْلِ الهَزْلِ مِنَ الشُّـبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهِن فَتُسْـتَمَالُ بِهِ قُلُوْبُهُمْ لأَنَّ هَذَا هُوَ الغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ الحَيَوَانَاتِ.

وَالثَّانِي: إِظْهَارُ خَيَالاَتِ الحَيَوانَاتِ بِصُـنُوْفِ الأَصْـبَاغِ وَالأَلْوَانِ لِيَكُوْنَ أُنْسَـاً لِقُلُوْبِ المُلُوْكِ، وَيَكُوْنَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ الصُّوَرِ.

---

١ شاطرهما: قاسمهما، وأعطاهما نصفه.

٢ الخُلُج: جمع خليج.

٣ عقيق الماء: مسيله.

٤ خلاَّها: تركها.

٥ الأرض الطَّيِّبة الحرَّة: لا رمل فيها.

٦ عائدة: منفعة.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يَكُوْنَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَيَتَّخِذَهُ المُلُوْكُ وَالسُّوْقَةُ[1]، فَيَكْثُرَ بِذَلِكَ انْتِسَاخُهُ وَلاَ يَبْطُلَ فَيَخْلُقَ[2] عَلَى مُرُوْرِ الأَيَّامِ، وَلِيَنْتَفِعَ بِذَلِكَ المُصَوِّرُ وَالنَّاسِخُ أَبَداً.

وَالغَرَضُ الرَّابِعُ: وَهُوَ الأَقْصَى مَخْصُوْصٌ بِالفَيْلَسُوْفِ خَاصَّةً.

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ المُقَفَّعِ: لمَّا رأَيْتُ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ فَسَّرُوا هَذَا الكِتَابَ مِنَ الهِنْدِيَّةِ إِلَى الفَارِسِيَّةِ، وَأَلْحَقُوا بِهِ بَاباً وَهُوَ بَابُ بَرْزَوَيْهِ الطَّبِيْبِ، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيْهِ مَا ذَكَرْنَا فِي هَذَا البَابِ لِمَنْ أَرَادَ قِرَاءَتَهُ وَاقْتِبَاسَ عَلُوْمِهِ فَوَائِدِهِ، وَضَعْنَا هَذَا البَابَ فتَأَمَّلْ ذَلِكَ تُرْشَدْ إِنْ شَاءَ اللهُ تعَالَى.

بَابُ بَرْزَوَيْهِ لِبُزَرْجُمْهَرَ بْنِ البَخْتَكَانِ

قَالَ بَرْزَوَيْهِ بْنُ أَزْهَرَ رَأْسُ أَطِبَّاءِ فَارِسَ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى انْتِسَاخَ هَذَا الكِتَابِ وَترْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ الهِنْدِ، وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ: إِنَّ أَبِي كَانَ مِنَ المُقَاتِلَةِ[3]، وَكَانَتْ أُمِّي مِنَ عُظَمَاءِ بُيُوْتِ الزَّمَازِمَةِ[4]، وَكَانَ مَنْشَئِي فِي نِعْمَةٍ كَامِلَةٍ، وَكُنْتُ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبَوَيَّ عَلَيْهِمَا، وَكَانَا بِي أَشَدَّ احْتِفَاظاً مِنْ دُوْنِ إِخْوَتِي، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِيْنَ أَسْلَمَانِي إِلَى المُؤَدِّبِ، فَلَمَّا حَذَقْتُ الكِتَابَةَ[5] شَكَرْتُ أَبَوَيَّ وَنَظَرْتُ فِي العِلْمِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا ابْتَدَأْتُ بِهِ وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ عِلْمَ الطِّبِّ، لأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ فَضْلَهُ، فَأَقَمْتُ فِي تَعَلُّمِهِ سَبْعَ سِنِيْنَ، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ مِنْهُ عِلْماً ازْدَدْتُ عَلَيْهِ حِرْصَاً وَلَهُ اتِّبَاعاً حَتَّى أَحَطْتُ مِنْهُ بِعِلْمٍ وَافِرٍ، وَقَدَرْتُ عَلَى غَوَامِضِهِ. فَلَمَّا هَمَّتْ نَفْسِي بِمُدَاوَاةِ المَرْضَى، وَعَزَمَتْ عَلَى ذَلِكَ أَمَرْتُها[6] ثُمَّ خَيَّرْتُها بَيْنَ الأُمُوْرِ الأَرْبَعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ، وَفِيْهَا يَرْغَبُوْنَ، وَلَهَا يَسْعَوْنَ. فَقُلْتُ: أَيُّ هَذِهِ الخِلاَلِ أَبْتَغِي فِي عِلْمِي، وَأَيُّهَا أَحْرَى[7] بِي فَأُدْرِكَ مِنْهُ حَاجَتِي. المَالُ أَمِ الذِّكْرُ أَمِ اللَذَّاتُ أَمِ الآخِرَةُ؟!

---

١ السُّوقَة: الرَّعية.

٢ يخلُق: يبلى.

٣ المقاتلة: الجند.

٤ الزّمازمة: هم أصحاب زروان الكبير، سمُّوا بالزَّروانيَّة، نسبة إلى زروان. وإنَّما لقّبوا بالزّمازمة، لأنَّهم يأكلون وهم صامتون، لا يستعملون اللِّسان ولا الشَّفة في كلامهم، لكنَّه صوت يدار في خياشيمهم وحلوقهم، فيفهم بعضهم بعضاً.

٥ حذقت الكتابة: أتقنتُها.

٦ آمرتها: شاورتها.

٧ أحرى: أجدر.

وَكُنْتُ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطِّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الأَطِبَّاءِ مَنْ وَاظَبَ عَلَى طِبِّهِ، لاَ يَبْتَغِي إِلاَّ أَجْرَ الآخِرَةِ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَطْلُبَ الاِشْتِغَالَ بِالطِّبِّ ابْتِغَاءَ الآخِرَةِ وَرَجَاءَ أَجْرِ المُنْقَلَبِ، لاَ أَبْتَغِي مَكَافَأَةَ الدُّنْيَا وَلاَ تَعْجِيْلَهَا، لِئَلاَّ أَكُوْنَ كَالتَّاجِرِ الَّذِي بَاعَ يَاقُوْتَةً ثَمِيْنَةً كَانَ يُصِيْبُ بِثَمَنِهَا غِنَى الدَهْرِ بِخَرَزَةٍ لاَ تُسَاوِي شَيْئاً. مَعَ أَنِّي قَدْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الأَوَّلِيْنَ أَنَّ الَّذِي يَبْتَغِي بِطِبِّهِ أَجْرَ الآخِرَةِ، لاَ يَنْقُصُهُ ذَلِكَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنَّ مَثَلَهُ مَثَلُ الزَّارِعِ الَّذِي يَبْذُرُ حَبَّهُ فِي الأَرْضِ وَيَعْمُرُ هَا ابْتِغَاءَ الزَّرْعِ لاَ ابْتِغَاءَ العُشْبِ، ثُمَّ هِيَ لاَ مَحَالَةَ نَابِتٌ فِيْهَا أَلْوَانُ العُشْبِ مَعْ نَاضِرِ الزَّرْعِ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى مُدَاوَاةِ المَرْضَى ابْتِغَاءَ أَجْرِ الآخِرَةِ، فَلَمْ أَدَعْ مَرِيْضاً أَرْجُو لَهُ البُرْءَ وَآخَرَ لاَ أَرْجُو لَهُ ذَلِكَ إِلاَّ أَنِّي أَطْمَعُ أَنْ يَخِفَّ عَنْهُ بَعْضُ المَرَضِ، إِلاَ بَالَغْتُ فِي مُدَاوَاتِهِ جُهْدِي، وَمَنْ قَدَرْتُ عَلَى القِيَامِ عَلَيْهِ قُمْتُ عَلَيْهِ بِنَفْسِي، وَمَنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى القِيَامِ عَلَيْهِ وَصَفْتُ لَهُ مَا يَصْلُحُ، وَأَعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّوَاءِ مَا يَتَعَالَجُ بِهِ، وَأَمَرْتُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي. وَلَمْ أُرِدْ مِمَّنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذَلِكَ جَزَاءً وَلاَ مُكَافَأَةً، وَلَمْ أَغْبِطْ أَحَداً مِنْ نُظَرَائِيَ الَّذِيْنَ هُمْ مِثْلِي فِي العِلْمِ، وَلاَ مَنْ هُمْ فَوْقِي فِي الجَاهِ وَالمالِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا لاَ يَعُوْدُ بِصَلاَحٍ وَلاَ حُسْنِ سِيْرَةٍ قَوْلاً وَلاَ عَمَلاً. وَلَمَّا كَانَتْ نَفْسِي تَتُوْقُ إِلَى ذَلِكَ، وَتُنَازِعُنِي فِي أَنْ تَنَالَ مِثْلَ مَنَالِهِمْ كُنْتُ أَبى لَهَا إِلا الخُصُوْمَةَ، وَأَقُوْلُ لَهَا يَا نَفْسُ أَمَا تَعْرِفِيْنَ نَفْعَكَ مِنْ ضَرِّكِ، أَلاَ تَنْتَهِيْنَ عَنْ طَلَبِ مَا لاَ يَنَالُهُ أَحَدٌ إِلاَّ قَلَّ انْتِفَاعُهُ بِهِ، وَكَثُرَ عَنَاؤُهُ فِيْهِ، وَاشْتَدَّتِ المؤُوْنَةُ عَلَيْهِ، وَعَظُمَتِ المشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ. يَا نَفْسُ أَمَا تَذْكُرِيْنَ مَا بَعْدُ هَذِهِ الدَّارِ، فَيُنْسِيْكِ مَا تَشْرَهِيْنَ إِلَيْهِ مِنْهَا، أَلاَ تَسْتَحْيِيْنَ مِنْ مُشَارَكَةِ الفُجَّارِ فِي حُبِّ هَذِهِ العَاجِلَةِ الفَانِيَةِ، الَّتِي مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ مِنْهَا شَيءٌ فَلَيْسَ لَهُ وَلَيْسَ بِبَاقٍ عَلَيْهِ فَلاَ يَأْلَفُهَا إِلاَّ المَغْرُوْرُوْنَ الجَاهِلُوْنَ. يَا نَفْسُ انْظُرِي فِي أَمْرِكِ وَانْصَرِفِي عَنْ هَذَا السَّفَهِ وَأَقْبِلي بِقُوَّتِكِ وَسَعْيِكِ عَلَى تَقْدِيْمِ الخَيْرِ، وَإِيَّاكِ وَالتَّسْوِيْفَ وَاذْكُرِي أَنَّ هَذَا الجَسَدَ مَوْجُوْدٌ لآفَاتٍ، وَأَنَّهُ مَمْلُوْءٌ أَخْلاَطاً فَاسِدَةً قَذِرَةً مُتَعَادِيَةًمُتَغَالِبَةً تَعْقِدُهَا الحَيَاةُ، وَالحَيَاةُ إِلَى نَفَادٍ كَالصَّنَمِ المُفَصَّلَةِ أَعْضَاؤُهُ إِذَا رُكِّبَتْ وَوُضِعَتْ، جَمَعَها فِي مَوَاضِعِهَا مِسْمَارٌ وَاحِدٌ يُمْسِكُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا أُخِذَ ذَلِكَ المِسْمَارُ تَسَاقَطَتْ تِلْكَ الأَوْصَالُ. يَا نَفْسُ لاَ تَغْتَرِّي بِصُحْبَةِ أَحِبَّائِكِ وَخُلاَّنِكِ، وَلاَ تَحْرِصِي عَلَى ذَلِكَ كُلَّ الحِرْصِ، فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ عَلَى مَا فِيْهَا مِنَ البَهْجَةِ وَالسُّرُوْرِ كَثِيْرَةُ المؤُوْنَةِ وَالأَذَى، وَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ الفِرَاقُ. وَمَثَلُهَا مَثَلُ المِغْرَفَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي جِدَّتِهَا لِسُخُوْنَةِ المَرَقِ وَلَذْعِهِ فَإِذَا قَدُمَتْ صَارَتْ وُقُوْداً فِي النَّارِ. يَا نَفْسُ لاَ يَحْمِلَنَّكِ أَهْلُكِ وَأَقَارِبُكِ عَلَى جَمْعِ مَا تُهْلِكِيْنَ فِيْهِ إِرَادَةَ صِلَتِهِمْ، فَإِذا أَنْتِ كَالدُّخْنَةِالأَرِجَةِ الَّتِي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ آخَرُوْنَ بِرِيْحِهَا.

يَـا نَفْسُ لاَ تَرْكَنِـي إِلَى هَـذِهِ الـدَّارِ الفَـانِيَـةِ، وَلاَ تَغْتَرِّي بِهَـا طَمَعَـاً فِي البَقَـاءِ وَالمَنْزِلَةِ الَّتِي يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُهَا، فَكَأيٍّ مِمَّنْ لاَ يُبْصِـرُ صِـغَرَ مَا يَسْـتَعْظِمُ وَحَقَارَتَهُ حَتَّى يُفَارِقَهُ كَشَـعْرِ الرَّأْسِ الَّذِي يَخْدُمُهُ صَـاحِبُهُ وَيُكْرِمُهُ مَا دَامَ عَلَى رَأْسِـهِ، فَإِذَا فَارَقَ رَأْسَـهُ اسْـتَقْذَرَهُ[1] وَرَفَضَـهُ. يَا نَفْسُ لاَ تَمَلِّي مِنْ عِيَادَةِ المَرْضَـى[2] وَمُدَاوَاتِهِمْ، وَاعْتَبِرِي كَيْفَ يَجْهَدُ الرَّجُلُ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْ مَضِـيْمٍ[3] وَاحِدٍ كُرْبَةً[4] وَاحِدَةً، وَيَسْـتَنْقِذَهُ مِنْهَا رَجَاءَ الأَجْرِ، فَكَيْفَ بِالطَّبِيْبِ الَّذِي يَفْعَلُ كَثِيْراً مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَثِيْرِيْنَ. إِنَّ هَذَا لَخَلِيْقٌ أَنْ يَعْظُمَ رَجَاؤُهُ، وَيُوْثَقَ مِنْهُ بِحُسْـنِ الثَّوابِ. يَا نَفْسُ لاَ يَبْعُدْ عَلَيْكِ أَمْرُ الآخِرَةِ فَتَمِيْلِي إِلَى العَاجِلَةِ فِي اسْـتِعْجَالِ القَلِيْلِ وَبَيْعِ الكَثِيْرِ بِاليَسِيْرِ كَالتَّاجِرِ الَّذِي كَانَ لَهُ مِلءُ بَيْتٍ مِنَ الصَّنْدَلِ[5]، فَقَالَ إِنْ بِعْتُهُ وَزْناً طَالَ عَلَيَّ فَبَاعَهُ جُزَافاً بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ. وَقَدْ وَجَدْتُ آرَاءَ النَّاسِ مُختَلِفةً، وَأَهْوَاءَهُمْ[6] مُتَبايِنَةً[7]، وَكُلٌّ عَلَى كُلِّ عَادٍ[8] وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُغْتَابٌ وَفِيْهِ وَاقِعٌ مَثَلُ المُصَدِّقِ المَخْدُوْعِ

فَلَما رَأَيْتُ ذَلِكَ لَمْ أَجِدْ إِلَى مُتَابَعَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَـبِيْلاً، وَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ صَـدَّقْتُ أَحَداً مِنْهُمْ لاَ عِلْمَ لِي بِحَالِهِ، كُنْتُ فِي ذَلِكَ كَالمُصَدِّقِ المَخْدُوْعِ الَّذِي زَعَمُوا فِيْهِ أَنَّ سَـارِقاً عَلاَ ظَهْرَ بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْـحَابِهِ، فاسْـتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنْ وَطْئِهِمْ فَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَأَعْلَمَهَا بِذَلِكَ، وَقَالَ لَهَا: رُوَيْداً إِنِّي لأَحْسَـبُ اللُّصُـوْصَ عَلَوْا عَلَى البَيْتِ، فَأَيْقِظِينِي بِصَـوْتٍ يَسْـمَعُهُ اللُّصُـوْصُ، وَقُوْلِي أَلاَ تُخْبِرُنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أَمْوَالِكَ هَذِهِ الكَثِيْرَةِ، وَكُنُوْزِكَ العَظِيْمَةِ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهَا؟ فَإِذَا امْتَنَعْتُ عَلَيْكِ فَأَلِّحِي عَلَيَّ فِي السُّـؤَالِ، وَاسْـتَحْلِفِيْنِي حَتَّى أَقُوْلَ لَكِ. فَفَعَلَتِ المَرْأَةُ ذَلِكَ وَسَأَلَتْهُ كَمَا أَمَرَهَا، وأَنصَتَتِ اللُّصُوْصُ إِلَى سَمَاعِ قَوْلِهِمَا، فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: أَيَّتُهَا المَرْأَةُ قَدْ سَـاقَكِ القَدَرُ إِلَى رِزْقٍ وَاسِـعٍ وَمَالٍ كَثِيْرٍ فَكُلِي وَاشْرَبِي، وَلاَ تَسْأَلِي عَنْ أَمْرٍ إِنْ أَخْبَرْتُكِ بِهِ لَمْ آمَنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ، فَيَكُوْنَ فِي ذَلِكَ مَا أَكْرَهُ وَتَكْرَهِيْنَ. فَقَالَتِ المرْأَةُ: أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ فَلَعَمْرِي مَا بِقُرْبِنَا أَحَدٌ يَسْـمَعُ كَلاَمَنَا. فَقَالَ لَهَا: فَإِنِّي مُخْبِرُكِ أَنِّي لَمْ أَجْمَعْ هَذِهِ الأَمْوَالَ إلاَّ مِنَ السَّرِقَةِ.

---

١ استقذره: وجده قذراً.

٢ عيادة المرضى: زيارتهم.

٣ مضيم: من أصابه الضَّيم، والضَّيم: الظُّلم والذُّل.

٤ الكربة: الشدّة والحزن.

٥ الصَّندل: نوع من الحبوب ذو رائحة طيّبة.

٦ أهواءهم: أميال نفوسهم.

٧ متباينة: مختلفة.

٨ عاد: هاجم.

قَالَتْ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ وَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ وَأَنْتَ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ البَرَرَةِ الصُّلاَّحِ.
قَالَ: ذَلِكَ لِعِلْمٍ أَصَبْتُهُ فِي السَّرِقَةِ وَكَانَ الأَمْرُ عَلَيَّ يَسِيْراً، وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ يَتَّهِمَنِي أَحَدٌ أَوْ يَرْتَابَ بِي. قَالَتْ: فَاذْكُرْ لِي ذَلِكَ. قَالَ: كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ المُقْمِرَةِ أَنَا وَأَصْحَابِي حَتَّى أَعْلُوَ دَارَ بَعْضِ الأَغْنِيَاءِ مِثْلِنَا فَأَنْتَهِي[1] إِلَى الكُوَّةِ[2] الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضَّوْءُ، فَأَرْقِي[3] بِهَذِهِ الرُّقْيَةِ وَهِيَ: شَوْلَمْ شَوْلَمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَأَعْتَنِقُ الضَّوْءَ فَلاَ يُحِسُّ بِوُقُوْعِي أَحَدٌ، وَلاَ يَبْقَى فِي البَيْتِ شَيءٌ إِلاَّ أَتَانِي قَاصِداً مُطِيْعاً، فَلاَ أَدَعُ مَالاً ولاَ مَتَاعاً إِلاَّ أَخَذْتُهُ. ثُمَّ أُعِيْدُ العَزِيْمَةَ[4] أَيْضاً وَأَعْتَنِقُ الضَّوْءَ فَيَجْذِبُنِي، فَأَصْعَدُ إِلَى أَصْحَابِي فنَمْضِي سَالِمِيْنَ آمِنِيْنَ. وَلَيْسَ عَلَى مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلاَّ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ جُرْأَةٌ[5]، فَيُسَلِّمَ نَفْسَهُ إِلَى حِبَالِ الضَّوْءِ وَيَتَعَلَّقَ بِهَا وَيَنْزِلَ عَلَيْهَا. فَاكْتُمِي ذَلِكَ وَإِيَّاكِ أَنْ تُعَلِّمِيْهِ لأَحدٍ. فَلَمَّا سَمِعَ اللُّصُوْصُ ذَلِكَ قَالُوا قَدْ ظَفِرْنَا اللَّيْلَةَ بِمَا نُرِيْدُ مِنَ المَالِ.
ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطَالُوا المَكْثَ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَدْ هَجَعَا[6]، وَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ مُقْمِرَةً وَلِلْبَيْتِ كُوَّةٌ نَافِذٌ مِنْهَا الضَّوْءُ. فَقَامَ قَائِدُهُمْ إِلَى مَدْخَلِ الضَّوْءِ وَقَالَ: شَوْلَمْ شَوْلَمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ اعْتَنَقَ الضَّوْءَ لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ المنْزِلِ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنكَّساً[7]، فَوَثَبَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِهِرَاوَتِهِ[8] وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ قَالَ أَنَا المُصَدِّقُ المَخْدُوْعُ المُغْتَرُّ بِمَا لاَ يَكُوْنُ أَبداً، وَ هَذِهِ ثَمَرةُ رُقْيَتِكَ وَ عَاقِبَةُ مَنْ يُصَدِّقُ كُلَّ مَا يَسْمَعُ.
فَلَمَّا تَحَرَّزْتُ مِنْ تَصْدِيْقِ مَا لاَ يَكُوْنُ، وَلَمْ آمَنْ إِنْ صَدَّقْتُهُ أَنْ يُوْقِعَنِي فِي تَهْلُكَةٍ عُدْتُ إِلَى البَحْثِ عَنِ الأَدْيَانِ وَالتِمَاسِ العَدْلِ مِنْهَا، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ ممَّنْ كَلَّمْتُهُ جَوَاباً فِيمَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ فِيْهَا، وَلَمْ أَرَ فِيمَا كَلَّمُوْنِي بِهِ شَيْئاً يَحِقُّ لِي فِي عَقْلِي أَنْ أُصَدِّقَ بِهِ وَلاَ أَنْ أَتَّبِعَهُ. فَقُلْتُ لمَّا لَمْ أَجِدْ ثِقَةً آخُذُ مِنْهُ: فَالرَّأْيُ أَنْ أَلْزَمَ دِيْنَ آبَائِي وَأَجْدَادِي الَّذِي وَجَدْتُهُمْ عَلَيْهِ وَهَمَمْتُ بِذَلِكَ. ثُمَّ التَمَسْتُ لِنَفْسِي مَخْرَجاً فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا مَعْذُوْراً، فَإِنَّ الَّذِي يَجِدُ أَبَاهُ سَاحِراً وَيَجْرِي عَلَى مِثَالِهِ يَكُوْنُ غَيْرِ مَلُوْمٍ مَعَ أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا لاَ يَحْتَمِلُهُ العَقْلُ.

---

١ أنتهي: أصِلُ.
٢ الكوَّة: النَّافذة.
٣ فأرقي: من الرّقية، وهو من أعمال السِّحر.
٤ العزيمة: الرّقية.
٥ الجرأة: الشَّجاعة والإقدام.
٦ هجعا: ناما.
٧ منكَّس: منقلب.
٨ الهراوة: العصا الغليظة.

وَذَكَرْتُ فِي ذَلِكَ قَوْلَ رَجُلٍ كَانَ فَاحِشَ الأَكْلِ فَعُوْتِبَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: كَذَلِكَ كَانَ أَكْلُ أَبِي وَجَدِّي. فَلَمَّا ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ العُذْرَ لِنَفْسِي فِي لُزُوْمِ دِيْنِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ وَلَمْ أَجِدْ لَهَا عَلَى الثُّبُوْتِ عَلَى دِيْنِ الآبَاءِ طَاقَةً، بَلْ وَجَدْتُها تُرِيْدُ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عَنِ الأَدْيَانِ وَالمَسْأَلَةِ عَنْهَا وَلِلنَّظَرِ فِيْهِمَا هَجَسَ[1] فِي قَلْبِي، وَخَطَرَ عَلَى بَالِي قُرْبُ الأَجَلِ، وَسُرْعَةُ انْقِطَاعِ الدُّنْيَا وَاعْتِبَاطُ[2] أَهْلِهَا، وَتَخَرُّمُ[3] الدَّهْرِ حَيَاتَهُمْ. فَفَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ، وَقُلْتُ أَمَّا أَنا فَلَعَلِّي قَدْ قَرُبَ أَجَلِي وَحَانَتْ نُقْلَتِي[4]، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ أُمُوْراً مَحْمُوْدَةً أَرْجُو أَنْ تَكُوْنَ أَصْلَحَ الأَعْمَالِ.

مَثَلُ الخَادِمِ وَالرَّجُلِ

وَلَعَلَّ تَرَدُّدِي شَغَلَنِي عَنْ خَيْرٍ كُنْتُ أَعْمَلُهُ فَيَكُوْنَ أَجَلِي دُوْنَ مَا تَطْمَحُ[5] إِلَيْهِ نَفْسِي، وَيَطْلُبُهُ أَمَلِي، وَيُصِيْبَنِي مَا أَصَابَ الرَّجُلَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ تَوَاطَأَ مَعَ خَادِمٍ فِي بَيْتٍ لأَحَدِ الأَغْنِيَاءِ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ البَيْتَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَغِيْبُ أَهْلُهُ، فَيَجْمَعَ لَهُ الخَادِمُ مِمَّا فِي البَيْتِ فَيَذْهَبَ بِهِ وَيَبِيْعَهُ وَيَتَشَاطَرَا ثَمَنَهُ. فَاتَّفَقَ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنْ غَابَ أَهْلُ البَيْتِ، وَبَقِيَ الخَادِمُ وَحْدَهُ فَأَنْفَذَ فَأَخْبَرَ صَاحِبَهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ البَيْتَ، وَأَخَذَا فِي الجَمْعِ مِمَّا فِيْهِ وَبَيْنَا[6] هُما يَجْمَعَانِ إِذْ قُرِعَ البَابُ. وَكَانَ لِلْبَيْتِ بَابٌ آخَرُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الرَّجُلُ، وَكَانَ ذَلِكَ البَابُ عِنْدَ جُبِّ المَاءِ، فَقَالَ الخَادِمُ لِلرَّجُلِ عَلَى عَجَلٍ مِنْهُ وَخِيْفَةٍ: بَادِرِ اخْرُجْ مِنَ البَابِ الَّذِي عِنْدَ جُبِّ المَاءِ وَأَشَارَ لَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ. فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ المَكَانِ فَوَجَدَ البَابَ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ جُبَّ المَاءِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ: أَمَّا البَابُ فَوَجَدْتُهُ، وَأَمَّا الجُبُّ فَلَمْ أَجِدْهُ. فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا المائِقُ[7] وَمَا تَصْنَعُ بِالجُبِّ! أَنَا دَلَلْتُكَ بِهِ لِتَعْرِفَ البَابَ فَإِذْ قَدْ عَرَفْتَهُ فَاذْهَبْ عَاجِلاً. فَقَالَ لَهُ: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ صِدْقاً فَلِمَ ذَكَرْتَ الجُبَّ وَلَيْسَ هُوَ هُنَاكَ؟ فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ أَيُّهَا الأَحْمَقُ انجُ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الحُمْقَ وَالتَّرَدُّدَ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَمْضِي وَقَدْ خَلَطْتَ[8] عَلَيَّ وَذَكَرْتَ الجُبَّ وَلَيْسَ هُنَاكَ؟ فَلَمْ يَزَلْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ حَتَّى دَخَلَ رَبُّ البَيْتِ، فَأَخَذَ بِتَلْبِيْبِهِ[9] وَأَوْجَعَهُ ضَرْباً وَرَفَعَهُ[10] إِلَى السُّلْطَانِ[11].

١ هجس: خطر.
٢ اعتباط: هلاك أهلها فجأة.
٣ تخرّم: استئصال.
٤ حانت نقلتي: حان أجلي وموتي.
٥ تطمح: تميل.
٦ بينا: بينما.
٧ المائق: الأحمق في غباوة.
٨ خلطت: مزجت الحقّ بالباطل.
٩ أخذ بتلبيبه: جمع ثيابه عند صدره عوقه ساحباً إيَّاه.
١٠ رفعه: قدّمه.
١١ السلطان: الحاكم.

فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرَدُّدِ رَأَيْتُ أَلاَّ أَتَعَرَّضَ لَهُ وَلاَ لِمَا أَتَخَوَّفُ مِنْهُ المَكْرُوْهَ، وَاقْتَصَرْتُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ تَشْهَدُ بِهِ العُقُوْلُ، وَتَتَّفِقُ عَلَيْهِ أَهْلُ الأَدْيَانِ، وَيُرَى أَنَّهُ صَوابٌ وَحَقٌّ. فَكَفَفْتُ يَدِي عَنِ الضَّرْبِ وَالقَتْلِ وَالسَّرِقَةِ، وَزَجَرْتُ نَفْسِي عَنِ الكِبْرِ[1] وَالغَضَبِ. وَنَزَّهْتُ قَلْبِي عَنِ الحِقْدِ وَالبُغْضِ وَالخِيَانَةِ، وَصُنْتُ لِسَانِي عَنِ الكَذِبِ وَالبُهْتَانِ[2] وَالغِيْبَةِ وَالنَّمِيْمَةِ وَكُلِّ أَمْرٍ مَكْرُوْهٍ، وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي أَلاَّ أَبْغِيَ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ أُكَذِّبَ بالبَعْثِ[3] وَلاَ القِيَامَةِ وَلاَ الثَّوَابِ وَلاَ العِقَابِ، وَأَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله الفَرْدُ الصَّمَدُ يُكَافِئُ عَلَى الخَيْرِ بِالخَيْرِ وَعَلى الشَّرِّ بِالشَّرِّ، وَأَنْ لاَ بُدَّ مِنَ المَسْأَلَةِ وَالحِسَابِ، وَزَايَلْتُ[4] الأَشْرَارَ، وَحَاوَلْتُ الجُلُوْسَ مَعَ الأَخْيَارِ بِجُهْدِي، وَرَأَيْتُ كُلاًّ مِنَ الصَّلاَحِ وَالعِلْمِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ صَاحِبٌ وَلاَ قَرِيْنٌ[5]، وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذَا وَفَّقَ اللهُ وَأَعَانَ يَسِيْراً، وَوَجَدْتُهُ يَدُلُّ عَلَى الخَيْرِ وَيُشِيْرُ بِالنُّصْحِ فِعْلَ الصَّدِيْقِ بِالصَّدِيْقِ، وَوَجَدْتُهُ لاَ يَنْقُصُ عَلَى الإِنْفَاقِ مِنْهُ بَلْ يَزْدَادُ، وَلاَ يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ بَلْ يَجِدُّ وَيزْهُو وَيَكْثُرُ، وَوَجدْتُهُ لاَ خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَغْصِبَهُ[6]، وَلاَ مِنَ الآفَاتِ أَنْ تُفْسِدَهُ، وَلاَ مِنَ المَاءِ أَنْ يُغْرِقَهُ، وَلاَ مِنَ النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ، وَلاَ مِنَ اللُّصُوْصِ أَنْ تَسْرِقَهُ، وَلاَ مِنَ السِّبَاعِ وَجَوارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُمَزِّقَهُ.

مَثَلُ التَّاجِرِ وَثَاقِبِ الجَوْهَرَةِ

وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ السَّاهِيَ اللاَّهِيَ المُؤْثِرَ اليَسِيْرَ يَنَالُهُ فِي يَوْمِهِ، ويُعْدَمُهُ فِي غَدِهِ عَلَى الكَثِيْرِ البَاقِي نَعِيْمُهُ، يُصِيْبُهُ فِيمَا ذَهَبَتْ فِيْهِ أَيَّامُهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيْسٌ، فَاسْتَأْجَرَ لِثَقْبِهِ رَجُلاً فِي اليَوْمِ عَلَى مِئَةِ دِرْهَمٍ يَدْفَعُها إِلَيْهِ، وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَعْمَلَ. وَإِذَا فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ صَنْجٌ[7] مَوْضُوْعٌ، فَقَالَ التَّاجِرُ لِلصَّانِعِ: هَلْ تُحْسِنُ الضَّرْبَ بِالصَّنْجِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَكَانَ بِضَرْبِهِ مَاهِراً، فَقَالَ الرَّجُلُ: دُوْنَكَ[8] الصَّنْجَ فَأَسْمِعْنَا ضَرْبَكَ بِهِ. فَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّنْجَ وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرُ الضَّرْبَ الصَّحِيْحَ وَالصَّوْتَ الرَّخِيْمَ، وَالتَّاجِرُ يُشِيْرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِهِ طَرَباً حَتَّى أَمْسَى.

---

١ الكِبْرِ: الكبرياء.

٢ البهتان: القول على النَّاس ما لم يفعلوه.

٣ البعث: يوم القيامة.

٤ زايلت: فارقت.

٥ القرين: الصَّاحب والعشير.

٦ يغصبه: يأخذه قهراً وظلماً.

٧ الصَّنج من آلات الطَّرب. صفيحة مدوّرة من صُفْر يضرب بها على أخرى.

٨ دونك: خذ.

فَلَمَّا حَانَ الغُرُوْبُ قَالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ: مُرْ لِي بِالأُجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: وَهَلْ عَمِلْتُ شَيْئاً تَسْتَحِقُّ بِهِ الأُجْرَةَ، فَقَالَ لَهُ: عَمِلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، وَأَنَا أَجِيْرُكَ وَمَا اسْتَعْمَلْتَنِي[1] عَمِلْتُ. وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِئَةَ الدِّرْهَمِ وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَثْقُوْبٍ.

فَلَمْ أَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا نَظَراً إِلاَّ ازْدَدْتُ فِيْهَا زَهَادَةً وَمِنْهَا هَرَباً، وَوَجَدْتُ النُّسْكَ هُوَ الَّذِي يُمَهِّدُ[2] لِلْمَعَادِ[3] كَمَا يُمَهِّدُ الوَالِدُ لِوَالِدِهِ. وَوَجَدْتُهُ هُوَ البَابَ المفْتُوْحَ إِلَى النَّعِيْمِ المُقِيْمِ، وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فَعْلَتَهُ[4] بِالسَّكِيْنَةِ وَالوَقَارِ، فَشَكَرَ وَتَوَاضَعَ، وَقَنِعَ فَاسْتَغْنَى، وَرَضِيَ فَلَمْ يَهْتَمَّ، وَخَلَعَ الدُّنْيَا فَنَجَا مِنَ الشُّرُوْرِ، وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ طَاهِراً، وَطَرَحَ الحَسَدَ فَوَجَبَتْ لَهُ المحبَّةُ، وَانْفَرَدَ بِنَفْسِهِ فَكُفِيَ الأَحْزَانَ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيءٍ، وَاسْتَعْمَلَ العَقْلَ فَأَبْصَرَ العَاقِبَةَ فَأَمِنَ النَّدَامَةَ، واعْتَزَلَ النَّاسَ فَسَلِمَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَخَفْهُمْ.

فَلَمْ أَزْدَدْ فِي النُّسْكِ نَظَراً إِلاَّ ازْدَدْتُ فِيْهِ رَغْبَةً، حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنْ أَهْلِهِ. ثُمَّ تَخَوَّفْتُ أَلاَّ أَصْبِرَ عَلَى عَيْشِ النَّاسِكِ، وَلاَ أَقْوَى عَلَى عُسْرِهِ وَمَشَقَّتِهِ لِمَا اعْتَدْتُهُ وَغُذِيْتُ بِهِ مُنْذُ كُنْتُ وَلِيداً، وَلَمْ آمَنْ إِنْ تَرَكْتَ الدُّنْيَا وَأَخَذْتُ فِي النُّسْكِ أَنْ أَضْعُفَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَكُوْنَ قَدْ رَفَضْتُ أَعْمَالاً كُنْتُ أَرْجُو عَائِدَتَها[5]، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُهَا فَأَنْتَفِعُ بِهَا فِي الدُّنْيا، فَيَكُوْنُ مَثَلِي فِي ذَلِكَ مَثَلَ الكَلْبِ الَّذِي مَرَّ بِنَهْرٍ وَفِي فِيْهِ ضِلَعٌ[6] فَرَأَى ظِلَّهَا فِي المَاءِ، فَأَهْوَى[7] لِيَأْخُذَهَا فَأَتْلَفَ مَا كَانَ مَعَهُ، وَلَمْ يَجِدْ فِي المَاءِ شَيْئاً.

فَهِبْتُ[8] النُّسْكَ مَهَابَةً شَدِيْدَةً، وَخِفْتُ مِنْ الضَّجَرِ وَقِلَّةِ الصَّبْرِ، وَأَرَدْتُ الثُّبُوْتَ عَلَى حَالَتِي الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا. ثُمَّ بَدَا[9] لِي أَنْ أَقِيْسَ مَا أَخَافُ أَلاَّ أَصْبِرَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّظَفِ[10] وَالضِّيْقِ والخُشُوْنَةِ فِي النُّسْكِ وَمَا يُصِيْبُ صَاحِبَ الدُّنْيَا مِنَ البَلاَءِ، وَكَانَ عِنْدِي أَنَّهُ لَيْسَ شَيءٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِها إِلاَّ وَهُوَ مُتَحَوِّلٌ إِلَى الأَذَى وَمُوَلِّدٌ لِلْحُزْنِ.

---

١ استعملتني: طلبت منّي عمله.
٢ يمهِّد: يسهِّل.
٣ المعاد: الآخرة.
٤ تدبَّر فعلته: نظر في عواقبها، وتفكَّر فيها.
٥ عائدتها: نفعها.
٦ ضلع: عظم.
٧ أهوى: انعطف ومال.
٨ فهبت: خفت.
٩ بدا: خطر وعرض لي.
١٠ الشَّظف: ضيق العيش وصعوبته.

فَالدُّنْيَا كَالمَاءِ المَلْحِ[1] الَّذِي لاَ يَزْدَادُ شَـارِبُهُ شُـرْباً إِلاَّ ازْدَادَ عَطَشـاً، وَكَالعَظْمِ الَّذِي يُصِيْبُهُ[2] الكَلْبُ فَيَجِدُ فِيْهِ رَيْحَ اللَّحْمِ، فَلاَ يَزَالُ يَطْلُبُ ذَلِكَ اللَّحْمَ حَتَّى يُدْحِيَ فَاهُ وَلاَ يَنَالَ شَيْئاً مِمَّا طَلَبَ، وَكالحِدَأَةِ[3] الَّتِي تَظْفَرُ بِالبَضْعَةِ[4] مِنَ اللَّحْمِ فَيَجتَمِعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ، فَلاَ تَزَالُ تَدُوْرُ وَتَدْأَبُ[5] حَتَّى تُعْيِيَ وَتَعْجَزَ، فَإِذَا تَعِبَتْ أَلْقَتْ مَا مَعَهَا.

وَكَالكُوْزِ مِنَ العَسَلِ الَّذِي فِي أَسْفَلِهِ السُّمُّ الَّذِي يُذَاقُ مِنْهُ حَلاوَةٌ عَاجِلَةٌ وآخِرُهُ مَوْتٌ زُعَافٌ[6]، وَكَأَحْلاَمِ النَّائِمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ذَهَبَ الفَرَحُ، وَكَالبَرْقِ الَّذِي يُضِيءُ يَسِيْراً فَيَطْمَعُ بِالنُّوْرِ، ثُمَّ يَذْهَبُ بَغْتَةً وَيَرْجِعُ الظَّلاَمُ، وَكَدُوْدَةِ القَزِّ الَّتِي تَنْسِجُ نَهَاراً وَلَيْلاً وَتَهْلِكُ وَسَطَ نَسِيْجِها الَّذِي كُلَّمَا زَادَتْ مِنْهُ نَسْجاً زَادَ اسْتِحْكَاماً وَمَنْعاً لَهَا عَنِ الخُرُوْجِ.

فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ الأُمُوْرِ رَجَعْتُ إِلَى طَلَبِ النُّسْكِ، وَهَزَّنِي الاشْتِيَاقُ إِلَيْهِ، وَقُلْتُ لاَ يَلِيْقُ بِي أَنْ أَقِيْسَ الدُّنْيَا بِالنُّسْكِ إِذَا تَفَكَّرْتُ فِيْهَا وَفِي شُرُوْرِهَا وَأَحْزَانِها.

ثُمَّ خَاصَمْتُ نَفْسِي إِذْ هِيَ فِي شُرُوْرِهَا، وَقَدْ لاَ تَثْبُتُ عَلَى أَمْرٍ تَعْزِمُ عَلَيْهِ، كَقَاضٍ سَمِعَ مِنْ خَصْمٍ وَاحِدٍ فَحَكَمَ لَهُ، فَلَمَّا حَضَرَ الخَصْمُ الثَّانِي عَادَ إِلَى الأَوَّلِ فَقَضَى عَلَيْهِ.

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الَّذِي أُكَابِدُهُ مِنِ احْتِمَالِ النُّسْكِ وَضِيْقِهِ، فَقُلْتُ: مَا أَصْغَرَ هَذِهِ المَشَقَّةِ فِي جَانِبِ رَوْحِ الأَبدِ وَرَاحَتِهِ. ثُمَّ نَظَرْتُ فِيمَا تَشْرَهُ[7] إِلَيْهِ النَّفْسُ البَهِيْمِيَّةُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ: مَا أَمَرَّ هَذَا وَأَوْجَعَهُ وَهُوَ يَدْفَعُ إِلَى عَذَابِ الأَبَدِ وأَهْوَالِهِ. وَكَيْفَ لاَ يَسْتَحْلِي الرَّجُلُ مَرَارَةً قَلِيْلَةً تَعْقُبُهَا حَلاوَةٌ طَوِيْلَةٌ؟ وَكَيْفَ لاَ تَمرُّ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيْشَ مِئَةَ سَنَةٍ لاَ يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلاَّ بُضِعَ مِنْهُ بَضْعَةٌ، غَيْرَ أَنَهُ يُشْرَطُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا اسْتَوْفَى السِّنِيْنَ المئةَ نَجَا مِنْ كُلِّ أَلَمٍ وَأَذىً، وَصَارَ إِلَى الأَمْنِ وَالسُّرُوْرِ، كَانَ حَقِيْقاً أَنْ لاَ يَرَى تِلْكَ السِّنِيْنَ شَيْئاً. فَكَيْفَ يَأْبى الصَّبْرَ عَلَى أَيَّامٍ قَلائِلَ يَعِيْشُهَا فِي النُّسْكِ، وَأَذَى تِلْكَ الأَيَّامِ قَلِيْلٌ يُعْقِبُ خَيْراً كَثِيْراً. أَوَ لَيْسَ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا بَلاءٌ وَعَذَابٌ، وَالإِنْسَانُ إِنَّمَا يَتَقَلَّبُ فِي عَذَابِهَا مِنْ حِيْنِ يُولَدُ إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ أَيَّامَ حَيَاتِهِ.

---

١ الملح: المالح.

٢ يصيبه: يجده.

٣ الحدأة: من الطُّيور الجوارح.

٤ البضعة: القطعة.

٥ تدأب: تجتهد.

٦ زعاف: سريع.

٧ تشره: تميل.

فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ طِفْلاً ذَاقَ مِنَ العَذَابِ أَلْوَاناً إِنْ جَاعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِطْعَامٌ[1] أَوْ عَطِشَ، فَلَيْسَ بِهِ اسْتِسْقَاءٌ[2] أَوْ وَجِعَ، فَلَيْسَ بِهِ اسْتِغَاثَةٌ. مَعَ مَا يَلْقَى مِنَ الوَضْعِ وَالحَمْلِ وَاللَّفِّ وَالدَّهْنِ وَالمَسْحِ. إِنْ أُنِيْمَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ قِيَاماً وَلاَ تَقَلُّباً، ثُمَّ يَلْقَى أَصْنَافَ العَذَابِ مَا دَامَ رَضِيْعاً، فَإِذَا أَفْلَتَ مِنْ عَذَابِ الرَّضَاعِ أَخَذَ فِي عَذَابِ الأَدَبِ، فَأُذِيْقَ مِنْهُ أَلْوَاناً مِنْ عُنْفِ المُعَلِّمِ، وَضَجَرِ الدَّرْسِ، وَسَآمَةِ[3] الكِتَابَةِ. ثُمَّ لَهُ مِنَ الدَّوَاءِ وَالحِمْيَةِ[4] وَالأَسْقَامِ وَالأَوْجَاعِ أَوْفَى نَصِيْبٍ. فَإِذَا أَدْرَكَ لَحِقَهُ هَمُّ الأَهْلِ، وَكَانَتْ هِمَّتُهُ فِي جَمْعِ المَالِ وَتَرْبِيَةِ الوَلَدِ وَمُخَاطَرَةِ الطَّلَبِ وَالسَّعْيِ وَالكَدِّ وَالتَّعَبِ.

وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ يَتَقَلَّبُ مَعَ أَعْدَائِهِ البَاطِنِيِّيْنَ اللاَّزِمِيْنَ لَهُ، وَهُمُ المُرَّةُ الصَّفْرَاءُ وَالمرَّةُ السَّوْدَاءُ وَالرِّيْحُ وَالبَلْغَمُ وَالدَّمُ مَعَ السُّمِّ المُمِيْتِ وَالحَيَّةِ اللاَّدِغَةِ وَالخَوْفِ مِنَ السِّبَاعِ وَالهَوَامِّ، مَعَ تَقَلُّبِ الفُصُوْلِ مِنَ الحَرِّ والبَرْدِ وَالأَمْطَارِ وَالرِّيَاحِ وَالثُّلُوْجِ وَالشَّيْطَانِ الدَّائِمِ وَالقَرِيْنِ السَّوْءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الطَّوَارِئِ[5] الرَّدِيْئَةِ، ثُمَّ أَنْوَاعِ عَذَابِ الهَرَمِ[6] لمنْ يَبْلُغُهُ.

فَلَوْ لَمْ يَخَفْ مِنْ هَذِهِ الأُمُوْرِ شَيْئاً، وَكَانَ قَدْ أَمِنَ وَوَثِقَ بِالسَّلاَمَةِ مِنْهَا فَلَمْ يُفَكِّرْ بِهَا، لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُوْنَ مفكِّراً فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَحْضُرُهُ فِيْهَا المَوْتُ وَيُفَارِقُ الدُّنْيَا، فَيَذْكُرَ مَا هُوَ نَازِلٌ بِهِ تِلْكَ السَّاعَةِ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ جِدَّاً مِنْ ذَلِكَ، مِنْ فِرَاقِ الأَحِبَّةِ وَالأَقَارِبِ وَالمَالِ وَكُلِّ مَضْنُوْنٍ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ الإِشْرَافِ عَلَى الهَوْلِ العَظِيْمِ بَعْدَ المَوْتِ. فَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَكَانَ حَقِيْقاً أَنْ يُعَدَّ عَاجِزاً مُفَرِّطاً مُحِبّاً لِلدَّنَاءَةِ مُسْتَحِقَاً لِلَّوْمِ. فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْلَمُ هَذَا وَلاَ يَسْتَعِدُّ لَهُ قَبْلَ حُلُوْلِهِ، وَيَحْتَالُ لِغَدٍ جُهْدَهُ فِي الحِيْلَةِ، وَيَرْفُضُ مَا يَشْغَلُهُ وَيُلْهِيْهِ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَغُرُوْرِهَا. وَلاَ سِيَما فِي هَذَا الزَّمَانِ الشَّبِيْهِ بِالصَّافِي وَهُوَ كَدِرٌ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ المَلِكُ حَازِماً عَظِيْمَ المَقْدِرَةِ، رَفِيْعَ الهِمَّةِ، بَلِيْغَ الفَحْصِ، عِدْلاً مَرْجُوّاً صَدُوْقاً، شَكُوْراً رَحْبَ الذِّرَاعِ، مُوَاظِباً عَلَى الحُسْنَى، عَالِماً بِالنَّاسِ، مُهْتَمَاً بِأُمُوْرِ رَعِيَّتِهِ، نَاظِراً فِي أَحْوَالِهِمْ، مُحِبَّاً لِلْعِلْمِ وَالخَيْرِ وَالأَخْيَارِ، شَدِيْداً عَلَى الظَّلَمَةِ غَيْرَ جَبَانٍ وَلاَ خَفِيْفَ القِيَادِ[7]، رَفِيْقاً بِالتَّوَسُّعِ عَلَى الرَّعِيَّةِ فِيمَا يُحِبُّوْنَ وَالدَّفْعِ لِمَا يَكْرَهُوْنَ،

---

١ استطعام: طلب الطَّعام.

٢ استسقاء: طلب الشُّرب.

٣ سآمة: ملل وضجر.

٤ الحمية: منع المريض من الإسراف في الأكل.

٥ الطَّوارئ: الحوادث.

٦ الهرم: الشَّيخوخة.

٧ خفيف القياد: غير سهل الانقياد.

فَإِنَّا قَدْ نَرَى الزَّمَانَ مُدْبِراً بِكُلِّ مَكَانٍ حَتَّى كَأَنَّ أُمُوْرَ الصِّدْقِ قَدْ نُزِعَتْ مِنَ النَّاسِ، فَأَصْبَحَ مَا كَانَ عَزِيْزاً فَقْدُهُ مَفْقُوْداً وَمَوْجُوْداً مَا كَانَ ضَائِراً[1] وَجُوْدُهُ، وَكَأَنَّ الخَيْرَ أَصْبَحَ ذَابِلاً وَالشَّرَّ نَاضِراً، وَكَأَنَّ الفَهْمَ أَصْبَحَ قَدْ زَالَتْ سُبُلُهُ، وَكَأَنَّ الحَقَّ وَلَّى كَسِيْراً[2] وَأَقْبَلَ البَاطِلُ تَابِعَهُ، وَكَأَنَّ إِتِّبَاعَ الهَوَى وَإِضَاعَةَ الحُكْمِ أَصْبَحَ بِالحُكَّامِ مُوَكَّلاً[3]، وَأَصْبَحَ المَظْلُوْمُ بِالحَيْفِ[4] مُقِرّاً، وَالظَّالِمُ بِنَفْسِهِ مُسْتَطِيْلاً[5]، وَكَأَنَّ الحِرْصَ أَصْبَحَ فَاغِراً[6] فَاهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَتَلَقَّفُ[7] مَا قَرُبَ مِنْهُ وَمَا بَعُدَ، وَكَأَنَّ الرِّضَا أَصْبَحَ مَجْهُوْلاً، وَكَأَنَّ الأَشْرَارَ يَقْصِدُوْنَ السَّمَاءَ صُعُوْداً، وَكَأَنَّ الأَخْيَارَ يُرِيدُوْنَ بَطْنَ الأَرْضِ.
وَأَصْبَحَتِ المُروْءَةُ مَقْذُوْفاً بِهَا مِنْ أَعْلَى شَرَفٍ[8] إِلَى أَسْفَلِ دَرَكٍ[9]، وَأَصْبَحَتِ الدَّنَاءَةُ مُمكَّنَةً، وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ مُنْتَقِّلاً عَنْ أَهْلِ الفَضْلِ إِلَى أَهْلِ النَّقْصِ. وَكَأَنَّ الدُّنْيَا جَذِلَةٌ[10] مَسْرُوْرَةٌ تَقُوْلُ: قَدْ غُيِّبَتِ الخَيْرَاتُ وَأُظْهِرَتِ السَّيِّئَاتُ.
فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَأُمُوْرِهَا وَأَنَّ الإِنْسَانَ هُوَ أَشْرَفُ الخَلْقِ فِيْهَا وَأَفْضَلُهُ، ثُمَّ هُوَ لاَ يَتَقَلَّبُ إِلاَّ فِي الشُّرُوْرِ وَالهُمُوْمِ عَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ كُلَّ العَجَبِ، وَتَحَقَّقْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ ذُو عَقْلٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ ثُمَّ لاَ يَحْتَالُ لِنَفْسِهِ فِي النَّجَاةِ وَيَلْتَمِسُ الخَلاَصَ.
وَإِنْ فَرَّطَ فِي ذَلِكَ فَهُوَ عِنْدِي عَاجِزٌ قَلِيْلُ الرَّأْيِ نَاقِصُ الهِمَّةِ فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ.
ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مُفرِّطُوْنَ فِي ذَلِكَ، مُغْفِلُوْنَ لَهُ فَقَضِيْتُ العَجَبَ[11] مِنْ ذَلِكَ، وَالتَمَسْتُ[12] لَهُمْ عُذْراً فِيْهِ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا الإِنْسَانُ لاَ يَمْنَعُهُ عَنِ الاحْتِيَالِ لِنَفْسِهِ إِلاَّ لَذَّةٌ صَغِيْرَةٌ حَقِيْرَةٌ مِنَ النَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيْبَ مِنْهَا الطَّفِيْفَ أَوْ يَقْتَنِي مِنْهَا اليَسِيْرَ، فَإِذَا ذَلِكَ يَشْغَلُهُ وَيَذْهَبُ بِهِ عَنِ الاِهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ وَطَلَبِ النَّجَاةِ لَهَا.
مَثَلُ الرَّجُلِ وَالبِئْرِ

١ الضَّائر: المضرّ.
٢ الكسير: مكسور الخاطر.
٣ أي لازماً لهم.
٤ الحيف: الظُّلم والجور.
٥ مستطيل: مكبّر.
٦ فاغر: فاتح.
٧ يتلقَّف: يتناول بسرعة.
٨ أعلى شرف: أعلى مكان.
٩ الدَّرك: أقصى قعر الشَّيء.
١٠ جذلة: فرحة ومسرورة.
١١ قضيت العجب: عجبت جداً.
١٢ التمسَ: طلب.

فَالتَمَسْتُ لِلإِنْسَانِ مَثَلاً فَإِذَا مَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ نَجَا مِنْ خَوْفِ فِيْلٍ هَائِجٍ إِلَى بِئْرٍ، فَتَدَلَّى فِيْهَا وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ كَانَا عَلَى سَمَائِهَا[١]، فَوَقَعَتْ رِجْلاَهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَيِّ البِئْرِ[٢]، فَإِذَا حَيَّاتٌ أَرْبَعٌ قَدْ أَخْرَجْنَ رُؤُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحَارِهِنَّ[٣]. ثُمَّ فَإِذَا فِي قَعْرِ البِئْرِ تِنِّيْنٌ فَاتِحٌ فَاهُ مُنْتَظِرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذَهُ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى الغُصْنَيْنِ فَإِذَا فِي أَصْلِهِمَا جُرَذَانِ أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ، وَهُمَا يَقْرِضَانِ الغُصْنَيْنِ دَائِبَيْنِ[٤] لاَ يَفْتُرَانِ. فَبَيْنَمَا هُوَ فِي النَّظَرِ لأَمْرِهِ وَالاهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ إِذْ بَصُرَ قَرِيْباً مِنْهُ بِخَلِيَّةٍ[٥] فِيهَا عَسَلٌ، فَذَاقَ العَسَلَ فَشَغَلَتْهُ حَلاوَتُهُ، وَأَلْهَتْهُ لَذَّتُهُ عَنِ الفِكْرَةِ فِي شَيءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنْ يَلْتَمِسَ الخَلاَصَ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَّاتٍ أَرْبَعٍ لاَ يَدْرِي مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَّ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الجُرَذَيْنِ دَائِبَانِ فِي قَطْعِ الغُصْنَيْنِ وَمَتَى انْقَطَعَا وَقَعَ عَلَى التِّنِّيْنِ. فَلَمْ يَزَلْ لاَهِياً غَافِلاً مَشْغُوْلاً بِتِلْكَ الحَلاَوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي فَمِ التِّنِّيْنِ فَهَلَكَ.

فَشَبَّهْتُ بِالبِئْرِ الدُّنْيَا المَمْلُوْءَةَ آفَاتٍ وَشُرُوْراً وَمَخَافَاتٍ وَعَاهَاتٍ[٦]، وَشَبَّهْتُ بِالحَيَّاتِ الأَرْبَعِ الأَخْلاَطَ الأَرْبَعَةَ الَّتِي فِي البَدَنِ، فَإِنَّهَا مَتَى هَاجَتْ أَوْ هَاجَ أَحَدُهَا كَانَتْ كَحُمَةِ[٧] الأَفَاعِي وَالسُّمِّ المُمِيْتِ، وَشَبَّهْتُ بِالغُصْنَيْنِ الأَجَلَ الَّذِي هُوَ إِلَى حِيْنٍ ثُمَّ لاَ بُدَّ مِنْ فَنَائِهِ وَانْقِطَاعِهِ، وَشَبَّهْتُ بِالجُرَذَيْنِ الأَسْوَدِ وَالأَبْيَضِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ اللَّذَيْنِ هُما دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الأَجَلِ، وَشَبَّهْتُ بِالتِّنِّيْنِ المَصِيْرَ[٨] الَّذِي لاَ بُدَّ مِنْهُ، وَشَبَّهْتُ بِالعَسَلِ هَذِهِ الحَلاوَةَ القَلِيْلَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الإِنْسَانُ فَيَرَى وَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشُمُّ وَيَلْمَسُ وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ، فَيَنْسَى أَمْرَ الآخِرَةِ وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيْلِ قَصْدِهِ.

فَحِيْنَئِذٍ صَارَ أَمْرِي إِلَى الرِّضَى بِحَالِي وَإِصْلاَحِ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلاَحَهُ مِنْ عَمَلِي، لَعَلِّي أَنْ أُصَادِفَ بَاقِيَ أَيَّامِي زَمَاناً أُصِيْبُ فِيْهِ دَلِيْلاً عَلَى هُدَايَ، وَسُلْطَاناً عَلَى نَفْسِي وَقَوَاماً عَلَى أَمْرِي.

فَأَقَمْتُ عَلَى هَذِهِ الحَالِ وَاتَّجَهْتُ إِلَى بِلاَدِ الهِنْدِ فِي طَلَبِ العَقَاقِيْرِ وَالأَدْوِيَةِ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهَا فِي انْتِسَاخِ هَذَا الكِتَابِ، وَانْصَرَفْتُ مِنْهَا إِلَى بِلاَدِي وَقَدِ انْتَسَخْتُ مِنْ كُتُبِهِمْ كُتُباً كَثِيْرَةً مِنْهَا هَذَا الكِتَابُ.

---

١ سماؤها: أعلاها.

٢ طيِّ البئر: جانبها المبني بالحجارة.

٣ أجحارهن: المفرد: (جحر) وهو للهوام والسِّباع كالوكر للطَّير.

٤ دائبين: مستمرَّين.

٥ الخليَّة: بيت النَّحل.

٦ العاهات: الأعراض المفسدة والأمراض.

٧ الحُمة: الإبرة التي تلسع بها الحيَّة.

٨ المصير: المنتهى.

بَابُ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ وَهُوَ أوَّلُ الكِتَابِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ، وَهُوَ رَأْسُ البَرَاهِمَةِ: اضْرِبْ لِي مَثَلاً لمُتَحَابَّيْنِ يَقْطَعُ بَيْنَهُما الكَذُوْبُ المُحْتَالُ حَتَّى يَحْمِلَهُما عَلَى العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ.

قَالَ بَيْدَبَا: إِذَا ابْتُلِيَ المُتَحَابَّانِ بِأَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُما الكَذُوْبُ المُحْتَالُ، لَمْ يَلْبَثَا أَنْ يَتَقَاطَعَا ويَتَدَابَرَا، وَآفَةُ[1] المَوَدَّةِ النَّمِيْمَةُ.

مَثَلُ الشَّيْخِ وَبَنِيْهِ الثَّلاَثَةِ

وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ دَسْتَاوَنْدَ رَجُلٌ شَيْخٌ لَهُ ثَلاَثَةُ بَنِيْنَ، فَلَمَّا بَلَغُوا أَشُدَّهُمْ[2] أَسْرَفُوا فِي مَالِ أَبِيْهِمْ، وَلَمْ يَكُوْنُوا احْتَرَفُوا[3] حِرْفَةً يَكْسِبُوْنَ بِهَا لأَنْفُسِهِمْ خَيْراً، فَلاَمَهُمْ أَبُوْهُمْ وَوَعَظَهُمْ عَلَى سُوْءِ فِعْلِهِمْ. وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ: يَا بَنِيَّ إِنَّ صَاحِبَ الدُّنْيَا يَطْلُبُ ثَلاثَةَ أُمُوْرٍ لَنْ يُدْرِكَهَا إِلاَّ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. أَمَّا الثَّلاَثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ فَالسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ، وَالمَنْزِلَةُ فِي النَّاسِ، وَالزَّادُ لِلآخِرَةِ. وَأَمَّا الأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي دَرَكِ[4] هَذِهِ الثَّلاثَةِ، فَاكْتِسَابُ المالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهٍ يَكُوْنُ، ثُمَّ حُسْنُ القِيَامِ عَلَى مَا اكْتَسَبَ مِنْهُ، ثُمَّ اسْتِثْمَارُهُ، ثُمَّ إِنْفَاقُهُ فِيمَا يُصْلِحُ المَعِيْشَةَ وَيُرْضِي الأَهْلَ وَالإِخْوَانَ، فَيَعُوْدُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ فِي الآخِرَةِ. فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ لَمْ يُدْرِكْ مَا أَرَادَ مِنْ حَاجَتِهِ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَعِيْشُ بِهِ.

وَإِنْ هُوَ كَانَ ذَا مَالٍ وَاكْتِسَابٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ القِيَامَ عَلَيْهِ، أَوْشَكَ المَالُ أَنْ يَفْنَى وَيَبْقَى مُعْدِماً[5]، وَإِنْ هُوَ وَضَعَهُ وَلَمْ يَسْتَثْمِرْهُ، لَمْ تَمْنَعْهُ قِلَّةُ الإِنْفَاقِ مِنْ سُرْعَةِ الذَّهَابِ، كَالكُحْلِ الَّذِي لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلاَّ غُبَارُ المِيْلِ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ سَرِيْعٌ فَنَاؤُهُ. وَإِنْ هُوَ أَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَأَخْطَأَ بِهِ مَوَاضِعَ اسْتِحْقَاقِهِ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ الفَقِيْرِ الَّذِي لاَ مَالَ لَهُ. ثُمَّ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ أَيْضَاً مالَهُ مِنَ التَّلَفِ بِالحَوَادِثِ وَالعِلَلِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهِ، كَمَحْبِسِ المَاءِ الَّذِي لاَ تَزَالُ المِيَاهُ تَنْصَبُّ فِيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ وَمَفَاضٌ وَمُتَنَفَّسٌ يَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ بِقَدَرِ مَا يَنْبَغِي، خَرِبَ وَسَالَ وَنَزَّ مِنْ نَوَاحٍ كَثِيْرَةٍ، وَرُبَّمَا انْبَثَقَ البَثْقَ العَظِيْمَ فَذَهَبَ المَاءُ ضَيَاعاً.

---

١ الآفة: الفساد.

٢ أشدَّهُم: قوتهم بخروجهم من سنِّ الصَّبوة.

٣ احترفوا: اتَّخذوا عملاً لهم.

٤ درك: إدراك.

٥ المُعْدِم: الفقير.

وَإِنَّ بَنِي الشَّــيْخِ اتَّعَظُوا بِقَوْلِ أَبِيْهِمْ وَأَخَـذُوا بِـهِ[1]، وَعَلِمُوا أَنَّ فِيْـهِ الخَيْرَ وَعَوَّلُوا[2] عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ نَحْوَ أَرْضٍ يُقَالُ لَـهَا مَيُّوْنُ، فَأَتَى فِي طَرِيْقِهِ عَلَى مَكَانٍ فِيْهِ وَحْلٌ كَثِيْرٌ، وَكَانَ مَعَهُ عَجَلَةٌ يَجُرُّها ثَوْرَانِ يُقَالُ لأَحَدِهِمَا شَتْرَبَةُ وَلِلآخَرِ بِنْدَبَةُ.

فَوَحِلَ شَــتْرَبَةُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ، فَعَالَجَهُ[3] الرَّجُلُ وَأَصْــحَابُهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمُ الجَهْدُ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِخْرَاجِهِ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ وَخَلَّفَ عِنْدَهُ رَجُلاً يُشَــارِفُهُ[4] لَعَلَّ الوَحْلَ يَنْشَفُ فَيَتْبَعَهُ بِهِ.

فَلَمَّا بَاتَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ المكَانِ تَبرَّمَ[5] بِهِ وَاسْــتَوْحَشَ، فَتَرَكَ الثَّوْرَ وَالتَحَقَ بِصَــاحِبِهِ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الثَّوْرَ قَدْ مَاتَ، وَقَالَ: إِنَّ الإِنْسَــانَ إِذَا انْقَضَــتْ مُدَّتُهُ وَحَانَتْ مَنِيَّتُهُ، فَهُوَ وَإِنِ اجتَهَدَ فِي التَّوَقِّي مِنَ الأُمُوْرِ الَّتِي يَخَافُ فِيْهَا عَلَى نَفْســهِ الهَلاَكَ، لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ[6] شَــيْئاً وَرُبَّما عَادَ اجْتِهَادُهُ فِي تَوَقِّيْهِ وَحَذَرِهِ وَبَالاً[7] عَلَيْهِ.

مَثَلُ الهَارِبِ مِنَ الذِّئْبِ وَاللُّصُوْصِ

كَالَّذِي قِيْلَ إِنَّ رَجُلاً سَلَكَ مَفَازَةً[8] فِيْها خَوْفٌ مِنَ السِّبَاعِ، وَكَانَ الرَّجُلُ خَبِيْراً بِوَعَثِ[9] تِلْكَ الأَرْضِ وَخَوْفِهَا، فَلَمَّا سَــارَ غَيْرَ بَعِيدٍ اعْتَرَضَ لَهُ ذِئْبٌ مِنْ أَحَدِّ الذِّئَابِ وَأَضْــرَاهَا، فلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ الذِّئْبَ قَاصِــدٌ نَحْوَهُ خَافَ مِنْهُ، وَنَظَرَ يَمِيْناً وشِــمَالاً لِيَجِدَ مَوْضِــعاً يَتَحَرَّزُ فِيْهِ مِنَ الذِّئْبِ، فَلَمْ يَرَ إِلاَّ قَرْيَةً خَلْفَ وَادٍ، فَذَهَبَ مُسْرِعاً نَحْوَ القَرْيَةِ، فَلَمَّا أَتَى الوَادِي لَمْ يَرَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةً، وَرَأَى الذِّئْبَ قَدْ أَدْرَكَهُ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي المَاءِ وَهُوَ لاَ يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ، وَكَادَ يَغْرَقُ لَوْلاَ أَنْ بَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ، فَتَوَاقَعُوا لإِخْرَاجِهِ فَأَخْرَجُوْهُ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الهَلاَكِ.

فَلَمَّا حَصَــلَ الرَّجُلُ عِنْدَهُمْ وَأَمِنَ عَلَى نَفْســهِ مِنْ غَائِلَةِ الذِّئْبِ رَأَى عَلَى عُدْوَةِ الوَادِي بَيْتاً مُفْرَداً، فَقَالَ: أَدْخُلُ هَذَا البَيْتَ فَأَسْـتَرِيْحُ فِيْهِ. فَلَّما دَخَلَهُ وَجَدَ جَمَاعَةً مِنَ اللُّصُــوْصِ قَدْ قَطَعُوا الطَّرِيْقَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ التُّجَارِ، وَهُمْ يَقْتَسِــمُوْنَ مَالَهُ وَيرِيْدُوْنَ قَتْلَهُ.

---

١ أخذوا به: عملوا بموجبه.
٢ عوَّلوا عليه: اعتمدوا.
٣ عالجه: حاول إخراجه.
٤ يشارفه: يطَّلع عليه.
٥ تبرَّم: ملَّ وضجر.
٦ لم يغنِ عنه: لم ينفعه.
٧ وبال: سوء العاقبة.
٨ المفازة: الفلاة. الموضع المهلك.
٩ وعث الأرض: وعورتها.

فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذَلِكَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَضَى نَحْوَ القَرْيَةِ، فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى حَائِطٍ مِنَ حِيْطَانِهَا لِيَسْتَرِيْحَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الهَوْلِ وَالإِعْيَاءِ، إِذْ سَقَطَ عَلَيْهِ الحَائِطُ فَمَاتَ.

قَالَ الرَّجُلُ: صَدَقْتَ قَدْ بَلَغَنِي هَذَا الحَدِيْثُ. وَأَمَّا الثَّوْرُ فَإِنَّهُ خَلَصَ مِنْ مَكَانِهِ وانْبَعَثَ[1] فَلَمْ يَزَلْ فِي مَرْجٍ مُخْصِبٍ كَثِيْرِ المَاءِ وَالكَلأِ[2]، فَلَمَّا سَمِنَ وَأَمِنَ جَعَلَ يَخُوْرُ[3] وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالخُوَارِ. وَكَانَ قَرِيْباً مِنْهُ أَجَمَةٌ[4] فِيْهَا أَسَدٌ عَظِيْمٌ، وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَمَعَهُ سِبَاعٌ كَثِيْرَةٌ وَذِئَابٌ وَبَنَاتُ آوى وَثَعَالِبُ وَفُهُوْدٌ وَنُمُوْرٌ. وَكَانَ هَذَا الأَسَدُ مُنْفَرِداً بِرَأْيِهِ دُوْنَ أَخْذٍ بِرأْيِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا سَمِعَ خُوَارَ الثَّوْرِ وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثَوْراً قَطُّ، وَلاَ سَمِعَ خُوَارَهُ خَامَرَهُ[5] مِنْهُ هَيْبَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَكَرِهَ أَنْ يُشْعِرَ بِذَلِكَ جُنْدَهُ، فَكَانَ مُقِيْماً مَكَانَهُ لاَ يَبْرَحُ وَلاَ يَنْشَطُ، بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى يَدِ جُنْدِهِ.

وَكَانَ فِيْمَنْ مَعَهُ مِنَ السِّبَاعِ ابْنَا آوى يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: كَلِيْلَةُ، وَلِلآخَرِ: دِمْنَةُ، وَكَانَا ذَوَيْ دَهَاءٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ.

فَقَالَ دِمْنَةُ يَوْماً لأَخِيْهِ كَلِيْلَةَ: يَا أَخِي مَا شَأْنُ الأَسَدِ مُقِيْماً مَكَانَهُ لاَ يَبْرَحُ وَلاَ يَنْشُطُ خِلاَفاً لِعَادَتِهِ؟ قَالَ لَهُ كَلِيْلَةُ: مَا شَأْنُكَ أَنْتَ وَالمسْأَلَةَ عَنْ هَذَا؟ نَحْنُ عَلَى بَابِ مَلِكِنَا آخِذِيْنَ بِمَا أَحبَّ وَتَارِكَيْنِ مَا يَكْرَهُ، وَلَسْنَا مِنْ أَهْلِ المَرْتَبَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ أَهْلُهَا كَلاَمَ المُلُوْكِ وَالنَّظَرَ فِي أُمُوْرِهِمْ، فَأَمْسِكْ عَنْ هَذَا، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ القَوْلِ وَالفِعْلِ مَا لَيْسَ مِنْ شَكْلِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ القِرْدَ مِنَ النَّجَّارِ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ القِرْدِ وَالنَّجَّارِ

قَالَ كَلِيْلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ قِرْداً رَأَى نَجَّاراً يَشُقُّ خَشَبَةً وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا، وَكُلَّمَا شَقَّ مِنْهَا ذِرَاعاً أَدْخَلَ فِيْهَا وَتِداً، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ، فَقَامَ القِرْدُ وَتَكَلَّفَ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ[6]، فَرَكِبَ الخَشَبَةَ وَجَعَلَ وَجْهَهُ قِبَلَ الوَتِدِ وَظَهْرَهُ قِبَلَ طَرَفِ الخَشَبَةِ، فَتَدَلَّى ذَنَبُهُ فِي الشَّقِّ، وَنَزَعَ الوَتِدَ، فَلَزِمَ الشَّقُّ عَلَيْهِ، فَكَادَ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الأَلَمِ. ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ فَأَصَابَهُ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ، فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الخَشَبَةِ.

---

١ انبعث: أسرع.

٢ الكلأ: العشب.

٣ يخور: الخوار: صوت البقر.

٤ الأجمة: الشَّجر الكثير الملتفّ.

٥ خامره: داخله.

٦ تكلَف ما ليس من شأنه: قام بعملٍ ليس من اختصاصه.

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ سَـــمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ، وَلَيْسَ كُلُّ منْ يَدْنُو مِنَ المُلُوْكِ يَقْدِرُ عَلَى صُـــحْبَتِهِمْ وَيَفُوْزُ بِقُرْبِهِمْ. وَلَكِنِ اعْلَمْ أَنَّ كُـلَّ مَنْ يَـدْنُوْ مِنْهُمْ لَيْسَ يَـدْنُوْ مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ، فَإِنَّ البَطْنَ يُحْشَى بِكُلِّ شَيءٍ، وَإِنَّمَا يَدْنُو مِنْهُمْ لِيَسُرَّ الصَّدِيْقَ وَيَكْبِتَ[1] العَدُوَّ. وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لاَ مُرُوْءَةَ لَهُ، وَهُمُ الَّذِيْنَ يَفْرَحُوْنَ بِالقَلِيْلِ، وَيَرْضَوْنَ بِالدُّوْنِ[2] كَالكَلْبِ الَّذِي يُصِـــيْبُ عَظْماً يَابِســـاً فَيَفْرَحُ بِهِ. وَأَمَّا أَهْلُ الفَضْـــلِ وَالمُرُوْءَةِ فَلاَ يُقْنِعُهُمْ القَلِيْلاُ، وَلاَ يَرْضَوْنَ بِهِ دُوْنَ أَنْ تَسْمُوَ بِهِمْ نُفُوْسُهُمْ إِلَى مَا هُمْء أَهْلٌ لَهُ، وَهُوَ أَيْضَاً لَهُمْ أَهْلٌ.
كَالأَسَـــدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الأَرْنَبَ، فَإِذَا رَأَى البَعِيْرَ تَرَكَها وَطَلَبَ البَعِيْرَ. أَلا تَرَى أَنَّ الكَلْبَ يُبَصْـــبِصُ بِذَنَبِهِ حَتَّى تَرْمِيَ لَهُ الكِسْـــرَةَ مِنَ الخُبْزِ فَيَفْرَحُ بِهَا وَتُقْنِعُهُ مِنْكَ.
وَأَنَّ الفِيْلَ المُعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ، إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَلَفُهُ لاَ يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يُمْسَحَ وَجْهُهُ وَيُتَمَلَّقَ لَهُ؟ فَمَنْ عَاشَ ذَا مَالٍ وَكَانَ ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ غَيْرَ خَامِلِ المَنْزِلَةِ، فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمْرُهُ طَوِيْلُ العُمْرِ. وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشِهِ ضِيْقٌ وَقِلَّةٌ وَإِمْسَـــاكٌ عَلَى نَفْسِـــهِ[3] وَذَوِيْهِ، وَكَانَ خَامِلَ المَنْزِلَةِ فَالمَقْبُوْرُ أَحْيَا مِنْهُ[4]. وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَقَنِعَ، وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ عُدَّ مِنَ البَهَائِمِ. قَالَ كَلِيْلَةُ: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتَ فَرَاجِعْ عَقْلَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَةً وَقَدْراً، فَإِنْ كَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيْهَا مُتَماسِـــكاً[5] كَانَ حَقِيْقاً أَنْ يَقْنَعَ، وَلَيْسَ لَنَا مِنَ المَنْزِلَةِ مَا يَحُطُّ حَالَنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا. ثُمَّ إِنَّ مَنْزِلَةَ الإِنْسَـــانِ مَقْدُوْرَةٌ عَلَيْهِ مُنْذُ الأَزَلِ، فَلاَ سَبِيْلَ لَهُ إلاَ الرِّضَى بِهَا كَيْفَ كَانَتْ. قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ المنَازِلَ مُتَنَازَعَةٌ[6] مُشْتَرَكَةٌ عَلَى قَدَرِ المُرُوْءَةِ، فَالمَرْءُ تَرْفَعُهُ مُرُوْءَتُهُ مِنَ المَنْزِلَةِ الوَضِيْعَةِ. وَإِنَّ الارتِفَاعَ إِلَى المَنْزِلَةِ الشَّـــرِيْفَةِ شَـــدِيْدٌ، وَالاِنْحِطَاطَ مِنْهَا هَيِّنٌ كَالحجَرِ الثَّقِيْلِ رَفْعُهُ مِنَ الأَرْضِ إِلَى العَاتِقِ[7] عَسِرٌ، وَوَضْعُهُ إِلَى الأَرْضِ هَيِّنٌ.

---

١ يكبت: يذلُّ ويقهرُ.
٢ الدُّون: الوضيع. السَّافل.
٣ إمساك على نفسه: بُخل.
٤ أحيا منه: أفضل منه حياة.
٥ متماسك: مُكتفٍ.
٦ متنازعة: الكلُّ يطلبها.
٧ العاتق: ما بين العنق والكتف.

فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَرُوْمَ[١] مَا فَوْقَنَا مِنَ المَنَازِلِ، وَأَنْ نَلْتَمِسَ ذَلكَ بِمُرُوْءَتِنَا. ثُمَّ كَيْفَ نَقْنَعُ بِمَنْزِلَتِنَا وَنَحْنُ نَسْتَطِيْعُ التَّحَوُّلَ عَنْهَا. قَالَ كَلِيْلَةُ: فَمَا الَّذِي اجتَمعَ عَلَيْهِ رَأْيُكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: أُرِيْدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلأَسَدِ عِنْدَ هَذِهِ الفُرْصَةِ، لأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ ضَعِيْفُ الرَّأْيِ قَدِ الْتَبسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَعَلى جُنْدِهِ أيضاً. وَلَعَلِّي عَلَى هَذِهِ الحَالِ أَدْنُو مِنْهُ فأُصِيْبَ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً وَمَكَانَةً، فَيَبْتَدِرَنِي بِالكَلاَمِ فَأُجِيْبَهُ بِمَا تَقدَحُهُ القَرِيْحَةُ، لَعَلَّهَا تَنْتُجُ بَيْنَنَا نَتِيْجَةٍ تُؤَدِّي إِلَى إِظْهَارِ أَمْرٍ مَكْتُوْمٍ. قَالَ كَلِيْلَةُ: وَمَا يُدْرِيْكَ أَنَّ الأَسَدَ قَدِ الْتَبسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ. قَالَ دِمْنَةُ: بِالحِسِّ وَالرَّأْيِ أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الرَّأْيِ يَعْرِفُ حَالَ صَاحِبِهِ وَبَاطِنَ أَمْرِهِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ دَلِّهِ وشَكْلِهِ. قَالَ كَلِيْلَةُ: فَكَيْفَ تَرْجُو المَنْزِلَةَ عِنْدَ الأَسَدِ وَلَسْتَ بِصَاحِبِ السُّلْطَانِ، وَلاَ لَكَ عِلْمٌ بِخِدْمَةِ السَّلاَطِيْنِ وَآدَابِهِمْ وَآدَابَ مَجَالِسِهِمْ؟ قَالَ دِمْنَةُ: الرَّجُلُ الشَّدِيْدُ القَوِيُّ لاَ يَنُوْءُ بِهِ الحِمْلُ الثَّقِيْلُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الحَمْلَ، وَالرَّجُلُ الضَّعِيْفُ لاَ يَسْتَقِلُّ بِهِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَتِهِ.

قَالَ كَلِيْلَةُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ لاَ يَتَوَخَّى بِكَرَامَتِهِ فُضَلاَءَ مَنْ بِحَضْرَتِهِ، وَلَكِنَّهُ يُؤْثِرُ الأَدْنَى وَمَنْ قَرُبَ مِنْهُ. قَالَ دِمْنَةُ: يُقَالُ إِنَّ مَثَلَ السُّلْطَانِ فِي إِيْثَارِهِ الأَفْضَلَ دُوْنَ الأَدْنَى مَثَلُ شَجَرِ الكَرْمِ الَّذِي لاَ يَعْلَقُ إِلاَّ بِأَكْرَمِ الشَّجَرِ. قَالَ كَلِيْلَةُ: وَكَيْفَ تَرْجُو المَنْزِلَةَ عِنْدَ الأَسَدِ وَلَمْ تَكُنْ دَنَوْتَ مِنْهُ مِنْ قَبْلُ؟!

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ فَهِمْتُ كَلاَمَكَ جَمِيْعَهُ وَتَدَبَّرْتُ مَا قُلْتَ وَأَنْتَ صَادِقٌ. لكِنِ اعْلَمْ أَنَّ الَّذِيْنَ لَهَمُ المَنَازِلُ الرَّفِيْعَةُ عِنْدَ المُلُوْكِ قَدْ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يَرْقَوا إِلَيْهَا لَيْسَتْ بِحَالَتِهِمْ، فَيَقْرُبُوْنَ بَعْدَ البُعْدِ، وَيَدْنُوْنَ بَعْدَ التَنَائِي، وَأَنا مُلْتَمِسٌ بُلُوْغَ مَكَانَتِهِمْ بِجُهْدِي، وَقَدْ قِيْلَ: لاَ يُوَاظِبُ عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ إِلاَّ مَنْ يَطْرَحُ الأَنَفَةَ وَيَحْمِلُ الأَذَى، وَيَكْظِمُ الغَيْظَ، وَيَرْفُقُ بِالنَّاسِ، ويَكْتُمُ السِّرَّ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مُرَادَهُ. قَالَ كَلِيْلَةُ: هَبْكَ وَصَلْتَ إِلَى الأَسَدِ فَمَا تَوْفِيْقُكَ عِنْدَهُ الَّذِي تَرْجُو أَنْ تَنَالَ بِهِ المَنْزِلَةَ وَقِلَّةَ الخِلاَفِ لَهُ، وَإِذَا أَرَادَ أَمْراً هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوَابٌ زَيَّنْتُهُ لَهُ وَصَبَّرْتُهُ عَلَيْهِ وَعَرَّفْتُهُ بِمَا فِيْهِ مِنَ النَّفْعِ وَالخَيْرِ، وَشَجَّعْتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الوُصُوْلِ إِلَيْهِ حَتَّى يَزْدَادَ بِهِ سُرُوراً. وَإِذَا أَرَادَ أَمْراً يُخَافُ عَلَيْهِ ضَرُّهُ وَشَيْنُهُ بَصَّرْتُهُ بِمَا فِيْهِ مِنَ الضَّرَرِ وَالشَّيْنِ، وَأَطْلَعْتُهُ عَلَى مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالزَّيْنِ بِحَسَبِ مَا أَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيْلَ. وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَزْدَادَ بِذَلِكَ عِنْدَ الأَسَدِ مَكَانَةً،

---

١ نروم: نبغي.

وَيَرَى مِنِّي مَا لاَ يَرَاهُ مِنْ غَيْرِي. فَإِنَّ الرَّجُلَ الأَدِيْبَ الرَّفِيْقَ[١] لَوْ شَــاءَ أَنْ يُبْطِلَ حَقّاً أَوْ يُحِقَّ بَاطِلاً لَفَعَلَ، كَالمُصَــوِّرِ المَاهِرِ الَّذِي يُصَــوِّرُ فِي الحِيْطَانِ صُــوَراً كَأَنَّهَا خَارِجَةٌ وَلَيْسَــتْ بِخَارِجَةٍ، وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ وَلَيْسَــتْ بِدَاخِلَةٍ. فَإِذَا هُوَ عَرَفَ مَا عِنْدِي وَبَانَ لَهُ حُسْــنُ رَأْيِي وَجُوْدَةُ فِكْرِي التَمَسَ إِكْرَامِي وَقَرَّبَنِي إِلَيْهِ.

قَالَ كَلِيْلَةُ: أَمَّا إِنْ قُلْتَ هَذَا، أَوْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ السُّــلْطَانِ، فَإِنَّ صُــحْبَتَهُ خَطِرَةٌ، وَأُحَذِّرُكَ مِنَ الَّذِي أَرَدْتَهُ لِعِظَمِ خَطَرِهِ عِنْدَكَ. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: إِنَّ ثَلاَثَةً لاَ يَجتَرِئُ عَلَيْهِنَّ إِلاَّ أَهْوَجُ، وَلاَ يَسْــلَمُ مِنْهُنَّ إِلاَّ قَلِيْلٌ، وَهِيَ صُحْبَةُ السُّلْطَانِ، وَائْتِمَانُ النِّسَاءِ عَلَى الأَسْرَارِ، وَشُرْبُ السُّمِّ لِلتَّجْرِبَةِ.

وَإِنَّمَا شَبَّهَ العُلَمَاءُ السُّلْطَانَ بِالجَبَلِ الصَّعْبِ المُرْتَقَى، الَّذِي فِيْهِ الثِّمَارُ الطَّيِّبَةُ وَالأَنْهَارُ الجَارِيَةُ وَالجَوَاهِرُ النَّفِيْسَــةُ وَالأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدِنُ السِّبَاعِ وَالنُّمُوْرِ وَالذِّئَابِ وَكُلِّ ضَارٍ مَخُوْفٍ. فَالارْتِقَاءُ إِلَيْهِ شَدِيْدٌ وَالمُقَامُ فِيْهِ أَشَــدُّ. قَالَ دِمْنَةُ: صَــدَقْتَ فِيمَا ذَكَرْتَ غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ، وَمَنْ تَرَكَ الأَمْرَ الَّذِي لَعَلَّهُ يَبْلُغُ فِيْهِ حَاجَتَهُ هَيْبَةً وَمَخَافَةً لِمَا لَعَلَّهُ أَنْ يَتَوَقَّاهُ فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيْماً

وَقَدْ قِيْلَ: إِنَّ خِصَــالاً ثَلاَثَةً لَنْ يَسْتَطِيْعَهَا أَحَدٌ إِلاَّ بِمَعُوْنَةٍ مِنْ عُلُوِّ هِمَّةٍ وَعَظِيْمِ خَطَرٍ، مِنْهَا صُــحْبَةُ السُّــلْطَانِ، وَتِجَارَةُ البَحْرِ، وَمُنَاجَزَةُ العَدُوِّ. وَلاَ يَلِيْقُ بِهِ غَيْرُهُما: إِمَّا مَعَ المُلُوْكِ مُكَرَّماً، أَوْ مَعَ النُّسَّــاكِ مُتَعَبِّداً. كَالفِيْلِ إِنَّمَا جَمَالُهُ وَبَهَاؤُهُ فِي مَكَانَيْنِ، إِمَّا أَنْ تَرَاهُ فِي البَرِّيَّةِ وَحْشِــيّاً أَوْ مَرْكَباً لِلْمُلُوْكِ. قَالَ كَلِيْلَةُ: خَارَ اللهُ لَكَ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ انْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الأَسَدِ فَعَفَّرَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ. فَقَالَ الأَسَــدُ لِبَعْضِ جُلَسَــائِهِ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا دِمْنَةُ بْنُ سَــلِيْطٍ، قَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَبَاهُ. ثُمَّ سَــأَلَهُ أَيْنَ تَكُوْنُ؟ قَالَ: لَمْ أَزَلْ مُرَابِطاً بَابَ المَلِكِ دَاعِياً لَهُ بِالنَّصْــرِ وَدَوَامِ البَقَاءِ، رَجَاءَ أَنْ يَحْضُــرَ أَمْرٌ فَأُعِيْنَ الملِكَ فِيْهِ بِنَفْسِــي وَرَأْيِي. فَإِنَّ أَبْوَابَ المُلُوْكِ تَكْثُرُ فِيْهَا الأُمُوْرُ الَّتِي رُبَّما يُحْتَاجُ فِيْهَا إِلَى الَّذِي لاَ يُؤْبَهُ لَهُ. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْــغُرُ أَمْرُهُ إِلاَّ وَقَدْ يَكُوْنُ عِنْدَهُ بَعْضُ الغَنَاءِ وَالمَنَافِعِ عَلَى قَدَرِهِ، حَتَّى العُوْدُ المُلْقَى فِي الأَرْضِ رُبَّمَا نَفَعَ فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ، فَيَحُكُّ بِهِ أُذُنَهُ فَيَكُوْنُ عُدَّتَهُ عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعَ الأَسَدُ قَوْلَ دِمْنَةَ أَعْجَبَهُ وَطَمِعَ أَنْ يَكُوْنَ عِنْدَهُ نَصِيْحَةٌ وَرَأْيٌ. فَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ فَقَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ ذَا النُّبْلِ وَالمُرُوءَةِ يَكُوْنُ خَامِلَ الذِّكْرِ، مُنْخَفِضَ المَنْزِلَةِ، فَتَأْبَى مَنْزِلَتُهُ إِلاَّ أَنْ تَشُبَّ، وَتَرْتَفِعَ كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَضْرِبُهَا صَاحِبُهَا وَتَأْبَى إِلاَّ ارْتِفَاعاً.

---

١ الرَّفيق: اللَّطيف اللَّيِّن.

فَلَمَّا عَرَفَ دِمْنَةُ أَنَّ الأَسَـدَ قَدْ عَجِبَ وَحَسُـنَ عِنْدَهُ كَلاَمُهُ قَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ إِنَّ رَعِيَّةَ المَلِكِ تَحْضُـرُ بَابَهُ رجَاءَ أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَهَا مِنْ عَلْمٍ وَافِرٍ، كَالزَّرْعِ المَدْفُوْنِ الَّذِي لاَ يُعْرَفُ فَضْـلُهُ حَتَّى يَخْرُجَ وَيَظْهَرَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. فَيَجِبُ عَلَى المَلِكِ أَنْ يَبْلُغَ بِكُلِّ امْرِئٍ مَرْتَبَتَهُ عَلَى قَدَرِ رَأْيِهِ، وَعَلَى قَدَرِ مَا يَجِدُ عِنْدَهُ مِنَ المنْفَعَـةِ. وَقَدْ قِيلَ: أَمْرَانِ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَهُمَا[١] مِثْلُ أَنْ يُجْعَلَ الخَلْخَالُ[٢] قِلاَدَةً لِلْعُنُقِ، وَمِثْلُ أَنْ تُجْعَلَ القِلاَدَةُ خَلْخَالاً فِي الرِّجْلِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الفَضْلَ فِي أَمْرَيْنِ: فَضْلِ المُقَاتِلِ عَلَى المُقَاتِلِ وَالعَالِمِ عَلَى العَالِمِ. وَإِنَّ كَثْرَةَ الأَعْوَانِ إِذَا لَمْ يَكُوْنُوا مُخْتَبِرِيْنَ رُبَّمَا تَكُوْنُ مَضَرَّةً عَلَى العَمَلِ، فَإِنَّ العَمَلَ لَيْسَ رَجَاؤُهُ بِكَثْرَةِ الأَعْوَانِ، وَلَكِنْ بِصَـالِحِي الأَعْوَانِ. وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُ الحَجَرَ الثَّقِيلَ، فَيَقْتُلُ بِهِ نَفْسَـهُ وَلاَ يَجِدُ لَهُ ثَمَناً. وَحَامِلُ اليَاقُوْتِ وَإِنْ قَلَّ يَقْدِرُ عَلَى بَيْعِهِ بِالكَثِيْرِ مِنَ المَالِ. وَالعَمَلُ الَّذِي يَحْتَاجُ فِيْهِ إِلَى الحِيَلِ وَالخِدَاعِ لاَ يَقْتَحِمُهُ إِلاَّ أَفْهَمُ الرِّجَالِ وَأَذْكَاهُمْ. وَالرَّجُلُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى الجُذُوْعِ[٣] لاَ يُجْزِئُهُ[٤] القَصَـبُ وَإِنْ كَثُرَ. فَأَنْتَ الآنَ أَيُّهَا المَلِكُ حَقِيْقٌ أَلاَّ تَحْقُرَ مُرُوْءَةً أَنْتَ تَجِدُها عِنْدَ رَجُلٍ صَغِيْرِ المَنْزِلَةِ، فَإِنَّ الصَّغِيْرَ رُبَّمَا عَظُمَ كَالعَصَبِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ المَيْتَةِ، فَإِذَا عُمِلَتْ مِنْهُ القُوْسُ أُكْرِمَ فَتَقْبِضُ عَلَيْهِ المُلُوْكُ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي البَأْسِ وَاللَّهْوِ.

وَأَحَبَّ دِمْنَةُ أَنْ يُرِيَ القَوْمَ أَنَّ مَا نَالَهُ مِنْ كَرَامَةِ المَلِكِ، إِنَّمَا هُوَ لِرَأْيِهِ وَمُرُوْءَتِهِ وَعَقْلِهِ، لأَنَّهُمْ عَرَفُوا قَبْلَ ذَلِكَ لمعْرِفَتِهِ أَبَاهُ. فَقَالَ: إِنَّ السُّلْطَانَ لاَ يُقَرِّبُ الرِّجَالَ لِقُرْبِ آبائِهِمْ وَلاَ يُبْعِدُهُمْ لِبُعْدِهِمْ، وَلكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِمَا عِنْدَهُ لأَنَّهُ لاَ شَيءَ أَقْرَبُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ جَسَدِهِ، وَمِنْ جَسَدِهِ مَا يَدْوَى[٥] حَتَّى يُؤْذِيَهُ، وَلاَ يَدْفَعُ ذَلِكَ عَنْهُ إِلاَّ بِالدَّوَاءِ الَّذِي يَأْتِيْهِ مِنْ بَعْدُ.

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ مَقَالَتِهِ هَذِهِ أُعْجِبَ الأَسَدُ بِهِ إِعْجَاباً شَدِيْداً، وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِ وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ. ثُمَّ قَالَ المَلِكُ لِجُلَسَائِهِ: يَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ أَلاَّ يُلِحَّ فِي تَضْيِيْعِ حَقِّ ذَوِي الحُقُوْقِ، فَإِنَّ عَاقِبَةَ ذَلِكَ رَدِيْئَة حَتَّى مِمَّنْ لاَ يَتَوَقَّعُ أَذَاهُ.

وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ رَجُلاَنِ: رَجُلٌ طَبْعُهُ الشَّرَاسَةُ فَهُوَ كَالحَيَّةِ إِنْ وَطِئَهَا[٦] الوَاطِئُ فَلَمْ تَلْدَغْهُ، لَمْ يَكُنْ جَدِيْراً أَنْ يَغُرَّهُ مِنْهَا، فَيَعُوْدَ إِلَى وَطْئِهَا ثَانِيَةً فَتَلْدَغَهُ.

---

١ يأتيهما: يفعلهما.

٢ الخلخال: سوار للنِّساء يلبس في الرِّجل للزِّينة.

٣ الجذوع: جمع جِذع وهو ساق النَّخلة.

٤ لا يجزئه: لا يكفيه ولا يغنيه.

٥ يدوى: يصيبه داء.

٦ وطئها: داسها.

وَرَجُلٌ أَصْلُ طِبَاعِهِ السُّهُوْلَةُ فَهُوَ كَالصَّنْدَلِ[1] البَارِدِ الَّذِي إِذَا أُفْرِطَ فِي حَكِّهِ صَارَ حَارّاً مُؤْذِياً.

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بِالأَسَدِ وَخَلاَ بِهِ فَقَالَ لَهُ يَوْماً: رَأَيْتُ المَلِكُ قَدْ أَقَامَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لاَ يَبْرَحُ مِنْهُ[2] خِلاَفاً لِمَأْلُوْفِهِ وَهُوَ، أَعْظَمَهُ اللهُ، مَنِيْعُ الجَانِبِ، نَافِذُ الأَمْرِ، آمِنُ السَّاحَةِ. فَرَأَيْتُ أَنْ أَتَطَاوَلَ عَلَيْهِ بِالاسْتِفْهَامِ عَلَى وَجْهِ النَّصِيْحَةِ، فَإِنَّ الأُمُوْرَ الخَفِيَّةَ لاَ يُظْهِرْ هَا إِلاَّ البَحْثُ عَنْهَا، فَإِذَا أُظْهِرَتْ أُجِيْلَتِ[3] الفِكْرَةُ فِيْهَا. فَبَيْنَمَا هُما فِي هَذَا الحَدِيْثِ إِذْ خَارَ شَتْرَبَةُ خُوَاراً شَدِيْداً، فَهَيَّجَ الأَسَدَ، وَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَ دِمْنَةَ بِمَا نَالَهُ.

وَعَلِمَ دِمْنَةُ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتَ قَدْ أَدْخَلَ عَلَى الأَسَدِ رِيْبَةً وَهَيْبَةً. فَسَأَلَهُ: هَلْ رَابَ[4] المَلِكَ سَمَاعُ هَذَا الصَّوْتِ؟ قَالَ: لَمْ يُرِبْنِي شَيءٌ سِوَى ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي حَبَسَنِي هَذِهِ المُدَّةَ فِي مَكَانِي، وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ طَرِيْقِ القِيَاسِ أَنَّ جُثَّةَ صَاحِبِ هَذَا الصَّوْتِ المُنْكَرِ الَّذِي لَمْ أَسْمَعْهُ قَطُّ عَظِيْمَةٌ، لأَنَّ صَوْتَهُ تَابِعٌ لِبَدَنِهِ. فَإِنْ يَكُنْ كَذلَكَ فَلَيْسَ لَنَا مَعَهُ قَرَارٌ وَلاَ مَقَامٌ.

قَالَ دِمْنَةُ: لَيْسَ المَلِكُ بِحَقِيْقٍ أَنْ يَدَعَ مَكَانَهُ لأَجْلِ صَوْتٍ. فَقَدْ قَالَتِ العُلَماءُ: لَيْسَ مِنْ كُلِّ الأَصْوَاتِ تَجِبُ الهَيْبَةُ. قَالَ الأَسَدُ: وَمَا مَثَلُ ذَلِكَ؟

مَثَلُ الثَّعْلَبِ وَالطَّبْلِ

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَباً أَتَى أَجَمَةً فِيْهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى شَجَرَةٍ، وَكُلَّمَا هَبَّتِ الرِّيْحِ عَلَى قُضْبَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَرَّكَتْهَا فَضَرَبَتِ الطَّبْلَ، فَسُمِعَ لَهُ صَوْتٌ عَظِيْمٌ بَاهِرٌ، فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ نَحْوَهُ لأَجْلِ مَا سَمِعَ مِنْ عَظِيْمِ صَوْتِهِ. فَلَمَّا أَتَاهُ وَجَدَهُ ضَخْماً، فَأَيْقَنَ فِي نَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الشَّحْمِ واللَّحْمِ، فَعَالَجَهُ حَتَّى شَقَّهُ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ لاَ شَيءَ فِيْهِ قَالَ: لاَ أَدْرِي لَعَلَّ أَفْشَلَ[5] الأَشْيَاءِ أَجْهَرُهَا[6] صَوْتاً وَأَعْظَمُهَا جُثَّةً.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ الَّذِي رَاعَنَا لَوْ وَصَلْنَا إِلَيْهِ لَوَجَدْنَاهُ أَيْسَرَ مِمَّا فِي أَنْفُسِنَا، فَإِنْ شَاءَ المَلِكُ بَعَثَنِي وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ حَتَّى آتِيَهُ بِبَيَانِ هَذَا الصَّوْتِ. فَوَافَقَ الأَسَدَ قَوْلُهُ، فَأَذِنَ لَهُ فِي الذَّهَابِ نَحْوَ الصَّوْتِ.

---

١ الصَّندل: نوع من الخشب، وهو شجر خشبه طيِّب الرائحة، ولخشبه ألوان مختلفة.

٢ لا يبرح: لا يغادر.

٣ أجيلت: أديرت.

٤ راب: دخل عليه الشَّكُّ والرِّيب.

٥ أفشل: أضعف.

٦ أجهرها: أعلاها.

فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي فِيْهِ شَـتْرَبَةُ. فَلَمَّا فَصَـلَ[1] دِمْنَةُ مِنْ عِنْدِ الأَسَـدِ، فَكَّرَ الأَسَـدُ فِي أَمْرِهِ، وَنَدِمَ عَلَى إِرْسَـالِ دِمْنَةَ حَيْثُ أَرْسَـلَهُ وَقَالَ فِي نَفْسِـهِ: مَا أَصَـبْتُ فِي ائْتِمَانِي دِمْنَةَ وَاطِّلاَعِهِ عَلَى سِـرِّي، وَقَدْ كَانَ بِبَابِي مَطْرُوْحاً. فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَحْضُـــرُ بَابَ المَلِكِ إِذَا كَانَ قَدْ أُطِيْلَتْ جَفْوَتُهُ[2] مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ[3] كَانَ مِنْهُ، أَوْ كَانَ مَبْغِيَّاً عَلَيْهِ[4] عِنْدَ سُــلْطَانِهِ، أَوْ كَانَ عِنْدَهُ مَعْرُوْفاً بِالشَّــرَهِ وَالحِرْصِ، أَوْ كَانَ قَدْ أَصَــابَهُ ضَــرٌّ وَضِـيْقٌ فَلَمْ يُنْعِشْـهُ[5]، أَوْ كَانَ قَدِ اجْتَرَمَ جُرْماً فَهُوَ يَخَافُ العُقُوْبَةَ مِنْهُ، أَوْ كَانَ يَرْجُو شَيْئاً يَضُرُّ المَلِكَ وَلَهُ مِنْهُ نَفْعٌ، أَوْ يَخَافُ فِي شَيءٍ مِمَّا يَنْفَعُهُ ضَرَّاً، أَوْ كَانَ لِعَدُوِّ المِلكِ سِلْماً[6] وَلِسِلْمِهِ حَرْباً[7]، أَوْ كَانَ قَدْ حِيْلَ[8] بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا فِي يَدَيْهِ مِنَ السُّــلْطَانِ، أَوْ بَاعَدَهُ، أَوْ طَرَدَهُ، فَلَيْسَ السُّــلْطَانُ بِحَقِيْقٍ أَنْ يَعْجَلَ في الاِسْــتِرْسَــالِ[9] إِلَى هَؤُلاَءِ وَالثِّقَةِ بِهِمْ وَالائْتِمَانِ لَهُمْ. وَإِنَّ دِمْنَةَ دَاهِيَةٌ أَدِيْبٌ وَقَدْ كَانَ بِبَابِي مَطْرُوْحاً مَجْفُوَّاً، وَلَعَلَّهُ قَدِ احْتَمَلَ عَلَيَّ بِذَلِكَ ضِغْناً وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَى خِيَانَتِي وَإِعَانَةِ عَدُوِّي وَنَقِيْصَتِي عِنْدَهُ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُصَادِفَ صَاحِبَ الصَّوْتِ أَقْوَى سُلْطَاناً مِنِّي فَيَرْغَبَ بِهِ عَنِّي وَيَمِيْلَ مَعَهُ عَلَيَّ. وَلَقَدْ كَانَ الوَاجِبُ أَنْ أَهْجُمَ عَلَى صَاحِبِ هَذَا الصَّـوْتِ بِنَفْسِـي. وَلَمْ يَزَلِ الأَسَدُ يُحدِّثُ نَفْسَهُ بِأَمْثَالِ ذَلِكَ حَتَّى جَعَلَ يَمْشِي وَيَنْظُرُ إِلَى الطَّرِيْقِ الَّتِي سَـارَ فِيْهَا دِمْنَةُ، فَلَمْ يَمْشِ غَيْرَ قَلِيْلٍ حَتَّى بَصُـرَ بِدِمْنَةَ مُقْبِلاً نَحْوَهُ، فَطَابَتْ نَفْسُـهُ بِذَلِكَ وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ.

مَثَلُ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ

وَدَخَلَ دِمْنَةُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ: مَاذَا صَنَعْتَ وَمَاذَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ ثَوْراً وَهُوَ صَــاحِبُ الخُوَارِ وَالصَّـوْتِ الَّذِي سَـمِعْتَهُ. قَالَ: فَمَا قُوَّتُهُ؟ قَالَ: لاَ شَـوْكَةَ لَهُ، وَقَدْ دَنَوْتُ مِنْهُ وَحَاوَرْتُهُ مُحاوَرَةَ الأَكْفَاءِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِي شَيْئاً. قَالَ الأَسَدُ: لاَ يَغُرَّنَّكَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلاَ يَصْغُرَنَّ عِنْدَكَ أَمْرُهُ؛ فَإِنَّ الرِّيْحَ الشَّدِيْدَةَ لاَ تَعْبَأُ بِضَعِيْفِ الحَشِيْشِ، لَكِنَّهَا تَحْطِمُ طِوَالَ النَّخلِ وَعَظِيْمَ الشَّجَرِ، وَتَقْلَعُ الدَّوْحَةَ العَاتِيَةَ[10] مِنْ مَوْضِعِهَا.

---

١ فصل: خرج.

٢ الجفوة: انقطاع المواصلة والمؤانسة.

٣ جرم: ذنب.

٤ مبغيَّاً عليه: مظلوماً.

٥ ينعشه: ينهضه ويجيره.

٦ سِلم: مسالم.

٧ الحرب: المحارب.

٨ حيل: اعترض.

٩ الاسترسال: الاطمئنان إليهم.

١٠ الدَّوحة العاتية: الشَّجرة العظيمة المتكبِّرة.

قَالَ دِمْنَةُ: لاَ تَهَابَنَّ أَيُّها المَلِكُ مِنْهُ شَــيْئاً، وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ أَمْرُهُ، فَأَنَا عَلَى ضُعْفِي آتِيْكَ بِهِ فَيَكُوْنُ لَكَ عَبْداً سَامِعاً مُطِيْعاً. قَالَ الأَسَدُ: دُوْنَكَ مَا بَدَا لَكَ وَقَدْ تَعَلَّقَ أَمَلُهُ بِهِ.

فانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ فَقَالَ لَهُ غَيْرَ هَائِبٍ[1] وَلا مُكْتَرِثٍ: إِنَّ الأَسَــدَ أَرْسَــلَنِي إِلَيْكَ لآتِيَهُ بِكَ، وَأَمَرَنِي إِنْ أَنْتَ عَجِلْتَ إِلَيْهِ أَنْ أُؤَمِّنَكَ عَلَى مَا سَــلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ فِي التَّأَخُّرِ عَنْهُ، وَتَرْكِكَ لِقَاءَهُ، وَإِنْ أَنْتَ تَأَخَّرْتَ وَأَحْجَمْتَ[2] أَنْ أُعَجِّلَ الرَّجْعَةَ إِلَيْهِ فَأُخْبِرَهُ. قَالَ لَهُ شَــتْرَبَةُ: وَمَنْ هَذَا الأَسَــدُ الَّذِي أَرْسَــلَكَ إِليَّ وَأَيْنَ هُوَ وَمَا حَالُهُ؟

قَالَ دِمْنَةُ: هُوَ مَلِكُ السِّــبَاعِ، وَهَذِهِ الأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا لَهُ وَهُوَ بِمَكَانِ كَذَا، وَمَعَهُ جُنْدٌ كَثِيْرٌ مِنْ جِنْسِــهِ. فَرُعِبَ شَتْرَبَةُ مِنْ ذِكْرِ الأَسَدِ وَالسِّــبَاعِ، وَقَالَ: إِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِيَ الأَمَانَ عَلَى نَفْسِــي أَقْبَلْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ. فَأَعْطَاهُ دِمْنَةُ مِنَ الأَمَانِ مَا وَثِقَ بِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ والثَّوْرُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلاَ عَلَى الأَسَدِ. فَأَحْسَنَ الأَسَدُ إِلَى الثَّوْرِ وَقَرَّبَهُ، وَقَالَ لَهُ: مَتَى قَدِمْتَ هَذِهِ البِلاَدَ وَمَا أَقْدَمَكَهَا[3]؟ فَقَصَّ شَــتْرَبَةُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ. فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ: اصْحَبْنِي والزَمْنِي فَإِنِّي مُكْرِمُكَ وَمُحْسِنٌ إِلَيْكَ. فَدَعَا لَهُ الثَّوْرُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَانْصَــرَفَ، وَقَدْ أُعْجِبَ بِهِ الأَسَــدُ إِعْجَاباً شَــدِيْداً لِمَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَأَدَبِهِ. ثُمَّ إِنَّهُ قَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَأَنِسَ بِهِ وَائْتَمَنَهُ عَلَى أَسْــرَارِهِ وَشَــاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ، وَلَمْ تَزِدْهُ الأَيَّامُ إِلاَّ عُجْباً[4] بِهِ وَرَغْبَةً فِيْهِ وَتَقْرِيْباً لَهُ، حَتَّى صَــارَ أَخَصَّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً.

فَلَمَّا رَأَى دِمْنَةُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ اخْتَصَّ[5] بِالأَسَــدِ دُوْنَهُ وَدُوْنَ أَصْــحَابِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ صَارَ صَاحِبَ رَأْيِهِ وَخَلْوَاتِهِ وَلَهْوِهِ، حَسَدَهُ حَسَداً عَظِيْماً، وَبَلَغَ مِنْهُ غَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ.

فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أَخِيْهِ كَلِيْلَةَ، وَقَالَ لَهُ: أَلاَ تَعْجَبْ يَا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي وَصُنْعِي لِنَفْسِي وَنَظَرِي فِيمَا يَنْفَعُ الأَسَدَ، وَأُغْفَلْتُ نَفْعَ نَفْسِي حَتَّى جَلَبْتُ إِلَى الأَسَدِ ثَوْراً غَلَبَنِي عَلَى مَنْزِلَتِي. قَالَ كَلِيْلَةُ: قَدْ أَصَابَكَ مَا أَصَابَ النَّاسِكَ. قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ النَّاسِكِ وَاللِّصِّ

---

١ غير هائب: غير خائف.

٢ أحجمت: تأخَّرت وتراجعت.

٣ أقدمكها: جعلك تقدم إليها.

٤ العُجب: الكِبْرُ والزَّهْوُ.

٥ اختصَّ به: انفرد به.

قَالَ كَلِيْلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً أَصَابَ[1] مِنْ بَعْضِ المُلُوْكِ كُسْوَةً فَاخِرَةً، فَبَصُرَ بِهِ سَارِقٌ فَطَمِعَ فِي الثِّيَابِ وَعَمِلَ عَلَى سَرِقَتِهَا، فَأَتَى النَّاسِكَ وَقَالَ لَهُ: إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَصْحَبَكَ فَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ وَآخُذَ عَنْكَ، فَأَذِنَ لَهُ النَّاسِكُ في صُحْبَتِهِ، فَصَحِبَهُ مُتَشَبِّهاً بِهِ، وَرَفَقَ لَهُ[2] فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَمِنَهُ النَّاسِكُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ. فَرَصَدَهُ[3] حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهِ وَأَمْكَنَتَهُ الفُرْصَةُ أَخَذَ تِلْكَ الثِّيَابِ فَذَهَبَ بِهَا. فَلَمَّا فَقَد النَّاسِكُ ثِيَابَهُ عَلِمَ أَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ أَخَذَهَا فَتَوَجَّهَ فِي طَلَبِهِ. فَمَرَّ فِي طَرِيْقِهِ بِوَعْلَيْنِ[4] يَتَنَاطَحَانِ حَتَّى سَالَتْ دِمَاؤُهُمَا.

فَجَاءَ ثَعْلَبٌ يَلَغُ[5] فِي تِلْكَ الدِّمَاءِ، وَيَتَحَكَّكُ بِهِمَا وَيُزَاحِمُهُما، فَغَضِبَا مِنْهُ وَأَقْبَلاَ عَلَيْهِ بِنِطَاحِهِمَا فَقَتَلاهُ. فَعَجِبَ النَّاسِكُ مِنْ ذَلِكَ وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ إِحْدَى المُدُنِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيْهَا قِرىً[6] إلاَّ بَيْتَ امْرَأَةٍ فَنَزَلَ بِهَا وَاسْتَضَافَهَا، وَكَانَتْ لِلْمَرْأَةِ جَارِيَةٌ تُؤَاجِرُهَا[7].

وَكَانَتِ الجَارِيَةُ قَدْ عَلِقَتْ رَجُلاً[8] تُرِيْدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ بَعْلاً لَهَا، وَقَدْ أَضَرَّ ذَلِكَ بِمَوْلاَتِها، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا سَبِيْلٌ إِلَى مُدَافَعَتِهِ. فَاحْتَالَتْ لِقَتْلِهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي اسْتَضَافَهَا فِيْهَا النَّاسِكُ. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ وَافَى[9] فَسَقَتْهُ مِنَ الخَمْرَةِ حَتَّى سَكِرَ وَنَامَ. فَلَمَّا اسْتَغْرَقَ فِي النَّوْمِ وَنَامَ مَنْ فِي البَيْتِ عَمَدَتْ لِسُمٍّ كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْهُ فِي قَصَبَةٍ لِتَنْفُخَهُ فِي أَنْفِ الرَّجُلِ.

فَلَمَّا أَرَادَتْ ذَلِكَ بَدَرَتْ[10] مِنْ أَنْفِهِ عَطْسَةٌ فَعَكَسَتِ السُّمَّ إِلَى حَلْقِ المَرْأَةِ فَوَقَعَتْ مَيْتَةً. وَكُلُّ ذَلِكَ بِعَيْنِ النَّاسِكِ وَسَمْعِهِ.

مَثَلُ الإِسْكَافِيِّ وَامْرَأَةِ الحَجَّامِ

---

١ أصاب: نال.

٢ رفق له: لان ولطف.

٣ رصده: راقبه. ترقّبه.

٤ الوعلين: الوعل: تيس الجبل.

٥ يلغ: يشرب بلسانه كالكلب.

٦ القِرى: الضّيافة.

٧ تؤاجرها: تستخدمها بالأجرة.

٨ علقت: أحبَّت.

٩ وافى: جاء.

١٠ بدرت: سبقت وأسرعت.

فَلمَّا رَأَى ذَلِكَ لَمْ يُصدِّقْ أَنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ حَتَّى خَرَجَ يَبْتَغِي[1] مَنْزِلاً غَيْرهُ. فَاسْتَضَافَ رَجُلاً إِسْكَافاً[2] فَأَتَى بِهِ امْرَأَتَهُ وَقَالَ لَهَا: انْظُرِي إِلَى هَذَا النَّاسِكِ، وَأَكْرِمِي مَثْوَاهُ[3]، وَقُومِي بِخِدْمَتِهِ، فَقَدْ دَعَانِي بَعْضُ أَصْدِقَائِي لِلشُّرْبِ عِنْدَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ ذَاهِباً. وَكَانَ لِلْمَرْأَةِ ابْنَةٌ تُرِيْدُ أَنْ تُزَوِّجَهَا لِرَجُلٍ لَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا يُرِيْدُهُ. فَكَانَ الرَّجُلُ يَخْتَلِفُ إِلَى البَيْتِ فِي غِيَابِ زَوْجِهَا، وَالوَسِيْطُ بَيْنَهُما امْرَأَةُ حَجَّامٍ[4]. فَأَرْسَلَتِ امْرَأَةُ الإِسْكَافِ إِلَى امْرَأَةِ الحَجَّامِ تَأْمُرُهَا بِالمَصِيْرِ إِلَيْهَا[5]، وَتُعَرِّفُ الرَّجُلَ غِيَابَ زَوْجِهَا وَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي قَدْ ذَهَبَ لِيَشْرَبَ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ، وَإِنْ عَادَ لاَ يَعُوْدُ إِلاَّ سَكْرَانَ فَقُوْلِي لَهُ يُسْرِعِ الكَرَّةَ[6]. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ جَاءَ فَقَعَدَ عَلَى البَابِ يَنْتَظِرُ الإِذْنَ، ووَافَقَ ذَلِكَ مَجِيءَ الإِسْكَافِيِّ سَكْرَانَ فَرَأَى الرَّجُلَ فِي الظُّلمةِ وَارْتَابَ بِهِ، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ ودَخَلَ مُغْضِباً[7] إِلى امْرَأَتِهِ فَأَوْجَعَهَا ضَرْباً، ثُمَّ أَوْثَقَهَا[8] فِي أُسْطُوَانَةٍ[9] فِي المَنْزِلِ وذَهَبَ فَنَامَ لاَ يَعْقِلُ. وَجَاءَتْ امْرَأَةُ الحَجَّامِ تُعْلِمُهَا أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَطَالَ الجُلُوْسَ، فَقَالَتْ لَهَا: انْظُرِي إِلَى مَا أَنا فِيْهِ بِسَبَبِه، فَإِنْ شِئْتَ وَأَحْسَنْتِ إِلَيَّ وَحَلَلْتِنِي وَرَبَطْتُكِ مَكَانِي حَتَّى أَنْطَلِقَ فَأَعْتَذِرَ إِلَيْهِ وَأُعَجِّلَ العَوْدَةَ. فَأَجابتْها امْرَأَةُ الحَجَّامِ إِلَى ذَلِكَ وَحَلَّتْهَا وَانْطَلَقَتْ إِلَى الرَّجُلِ، وَأَوْثَقَتْ هِيَ نَفْسَهَا مَكَانَهَا. فَاسْتَيْقَظَ الإِسْكَافُ قَبْلَ أَنْ تَعُوْدَ زَوْجَتُهُ فَنَادَاهَا بَاسْمِهَا فَلَمْ تَجِبْهُ امْرَأَةُ الحَجَّامِ، وَخَافَتْ مِنَ الفَضِيْحَةِ أَنْ يُنْكِرَ صَوْتَهَا، ثُمَّ دَعَاهَا ثَانِيَةً فَلَمْ تُجِبْهُ. فَامْتَلأَ غَيْظاً وَحَنَقاً، وَقَامَ نَحْوَهَا بِالشَّفْرَةِ[10] فَجَدَعَ[11] أَنْفَهَا وَقَالَ: خُذِي هَذَا فَأَتْحِفِي بِهِ صَدِيْقَكِ وَهُوَ لاَ يَشُكُّ فِي أَنَّهَا امْرَأَتُهُ.

---

١ يبتغي: يريد.

٢ الإسكافي: صانع الأحذية.

٣ مثواه: مقامه.

٤ الحجَّام: هو المعالج بامتصاص الدِّماء بالمحجم، وهي قارورة يجمع فيها الدَّم الزَّائد من بين كتفي المرء.

٥ المصير إليها: المجيء إليها.

٦ الكرَّة: الرجعة.

٧ مغضب: غضبان.

٨ أوثقها: ربطها.

٩ أسطوانة: عمود.

١٠ الشَّفرة: السِّكِّين.

١١ جدع: قطع.

ثُمَّ جَاءَتِ امْرَأَةُ الإِسْــكَافِ فَرَأَتْ صُــنْعَ زَوْجِهَا بِامْرَأَةِ الحَجَّامِ، فَسَــاءَهَا ذَلِكَ وَأَكْبَرَتْهُ[١] وَحَلَّتْ وَثَاقَهَا، فَانْطَلَقَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا مَجْدُوْعَةَ الأَنْفِ وَكُلُّ ذَلِكَ بِعَيْنِ النَّاسِــكِ وَسَــمْعِهِ. ثُمَّ إِنَّ امْرَأَةَ الإِسْــكَافِ جَعَلَتْ تَبْتَهِلُ[٢] وَتَدْعُو عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي ظَلَمَهَا، وَتَقُوْلُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ زَوْجِي قَدْ ظَلَمَنِي فَأَعِدْ عَلَيَّ أَنْفِي صَــحِيْحاً. ثُمَّ رَفَعَتْ صَوْتَهَا وَنَادَتْ زَوْجَهَا: أَيُّهَا الفَاجِرُ الظَّالِمُ قُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ صُنْعُكَ بِي وَصُنْعُ اللهِ بِي، كَيْفَ رَحِمَنِي وَرَدَّ أَنْفِي صَحِيْحاً كَمَا كَانَ، فقَامَ وأَوْقَدَ المِصْبَاحَ وَنَظَرَ فَإِذَا أَنْفُ زَوْجَتِهِ صَــحِيْحٌ. فَاسْــتَغْفَرَ إِلَيْهَا وَتَابَ عَنْ ذَنْبِهِ وَاسْــتَغْفَرَ إِلَى رَبِّهِ. وَأَمَّا امْرَأَةُ الحَجَّامِ، فَإِنَّهَا لَمَّا وَصَــلَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا تَفَكَّرَتْ فِي طَلَبِ العُذْرِ عِنْدَ زَوْجِهَا وَأَهْلِهَا فِي جَدْعِ أَنْفِهَا وَرَفْعِ الالتِبَاسِ. فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ السَّــحَرِ[٣] اسْــتَيْقَظَ الحَجَّامُ فَقَالَ لاِمْرَأَتِهِ: هَاتِي أَدَوَاتِي كُلَّهَا فَإِنِّي أُرِيْدُ المُضِــيَّ إِلَى بَعْضِ الأَشْــرَافِ. فَأَتَتْهُ بِالمُوسَــى، فَقَالَ لَهَا: هَاتِي الأَدَوَاتِ جَمِيعَهَا فَلَمْ تَأْتِهِ إِلاَّ بِالمُوسَى فَغَضِبَ حِينَ أَطَالَتِ التِّكْرَارَ وَرَمَاهَا بِهِ فَوَلْوَلَتْ وَصَاحَتْ أَنْفِي أَنْفِي، وَجَلَّبَتْ حَتَّى جَاءَ أَهْلُهَا وَأَقْرِبَاؤُهَا فَرَأَوْهَا عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ، فَأَخَذُوا الحَجَّامَ فَانْطَلَقُوا بِهِ إِلَى القَاضِــي. فَقَالَ لَهُ القَاضِــي: مَا حَمَلَكَ على جَدْعِ أَنْفِ امْرَأتِكَ؟ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ حُجَّةٌ يَحْتَجُّ بِهَا فَأَمَرَ بِهِ القَاضِي أَنْ يُقْتَصَّ مِنْهُ.

فَلَمَّا قُدِّمَ لِلْقِصَــاصِ وَافَى النَّاسِــكُ فَتَقَدَّمَ إِلَى القَاضِــي وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الحَاكِمُ لاَ يَشْــتَبِهَنَّ عَلَيْكَ هَذَا الأَمْرُ، فَإِنَّ اللِّصَّ لَيْسَ هُوَ الَّذِي سَــرَقَنِي. وَإِنَّ الثَّعْلَبَ لَيْسَ الوَعْلاَنِ قَتَلاَهُ. وَإِنَّ المَرْأَةَ لَيْسَ السُّــمُّ قَتَلَهَا. وَإِنَّ امْرَأَةَ الحَجَّامِ لَيْسَ زَوْجُهَا جَدَعَ أَنْفَهَا، وَإِنَّمَا نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ بِأَنْفُسِنَا. فَسَــأَلَهُ القَاضِــي عَنِ التَّفْسِيْرِ فَأَخْبَرَهُ بِالقِصَّةِ. فَأَمَرَ القَاضِي بِإِطْلاَقِ الحَجَّامِ.

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَلَ وَهُوَ شَبِيْهٌ بِأَمْرِي، وَلَعَلِّي مَا ضَــرَّنِي أَحَدٌ سِوَى نَفْسِي، وَلَكِنْ مَا الحِيْلَةُ؟ قَالَ كَلِيْلَةُ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ وَمَا تُرِيْدُ أَنْ تَعْزِمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: أَمَّا أَنَا فَلَسْــتُ اليَوْمَ أَرْجُو أَنْ تَزْدَادَ مَنْزِلَتِي عِنْدَ الأَسَــدِ فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ أَلْتَمِسُ أَنْ أَعُوْدَ إِلَى مَا كَانَتْ حَالِي عَلَيْهِ. فَإِنَّ أُمُوْراً ثَلاَثَةً العَاقِلُ جَدِيْرٌ بِالنَّظَرِ فِيْهَا وَالاِحْتِيَالِ لَهَا بِجَهْدِهِ. مِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا مَضَــى مِنَ الضَّــرِّ وَالنَّفْعِ، أَنْ يَحْتَرِسَ مِنَ الضَّرِّ الَّذِي أَصَابَهُ فِيمَا سَلَفَ لِئَلاَّ يَعُوْدَ إِلَى ذَلِكَ الضَّرِّ، وَيَلْتَمِسَ النَّفْعَ الَّذِي مَضَــى وَيَحْتَالَ لِمُعَاوَدَتِهِ. وَمِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا هُوَ مُقِيْمٌ فِيْهِ مِنَ المَنَافِعِ وَالمَضَــارِّ وَالاِسْــتِيثَاقِ مِمَّا يَنْفَعُ وَالهَرَبُ مِمَّا يَضُــرُّ. وَمِنْهَا النَّظَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ مَا يَرْجُو مِنْ قِبَلِ النَّفْعِ وَمَا يَخَافُ مِنْ قِبَلِ الضَّرِّ، لِيَسْتَتِمَّ مَا يَرْجُو وَيَتَوَقَّى مَا يَخَافُ بِجُهْدِهِ.

---

١ أكبرته: رأته أمراً كبيراً.
٢ تبتهل: تتضرَّع إلى الله.
٣ السَّحر: آخر اللَّيل.

وَإِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ فِي الأَمْرِ الَّذِي بِهِ أَرْجُو أَنْ تَعُوْدَ مَنْزِلَتِي وَمَا غُلِبْتُ عَلَيْهِ مِمَّا كُنْتُ فِيْهِ، لَمْ أَجِدْ حِيْلَةً وَلاَ وَجْهاً إِلاَّ الاِحْتِيَالَ لآكِلِ العُشْـــبِ[1] هَذَا، حَتَّى أُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الحَيَاةِ، فَإِنَّهُ إِنْ فَارَقَ الأَسَدَ عَادَتْ لِي مَنْزِلَتِي. وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُوْنُ خَيْراً لِلأَسَدِ، فَإِنَ إِفْرَاطَهُ فِي تَقْرِيْبِ الثَّوْرِ خَلِيْقٌ أَنْ يَشِيْنَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ.
قَالَ كَلِيْلَةُ: مَا أَرَى عَلَى الأَسَـــدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْئاً وَلاَ شَرّاً. قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّمَا يُؤْتَى السُّلْطَانُ وَيُفْسَدُ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ سِتَّةِ أَشْيَاءَ: الحِرْمَانِ وَالفِتْنَةِ وَالهَوَى وَالفَظَاظَةِ وَالزَّمَانِ وَالخُرْقِ. فَأَمَّا الحِرْمَانُ فَأَنْ يُحْرَمَ مِنْ صَالِحِي الأَعْوَانِ وَالنُّصَحَاءِ وَالسَّاسَةِ[2] مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ وَالأَمَانَةِ، وَأَنْ يَكُوْنَ مَنْ حَوْلَهُ فَاسِـداً مَانِعاً مِنْ وُصُــوْلِ أُمُوْرِ المُلْكِ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَحْرِمَ هُوَ أَهْلَ النَّصِيـــيْحَةِ وَالصَّـــلاَحِ مِنْ عِنَايَتِهِ وَالتِفَاتِهِ إِلَيْهِم. وَأَمَّا الفِتْنَةُ فَهِي تَحَارُبُ رَعِيَّتِـهِ وَوُقُوْعُ الخِلاَفِ والنِّزَاعِ بَيْنَهُمْ. وَأَمَّـا الهَوَى فَـالإِغْرَامُ[3] بِـالنِّسَـــاءِ وَالحَدِيْثُ وَاللَّهْوُ وَالشَّـرَابُ وَالصَّـيْدُ وَمَا أَشْـبَهَ ذَلِكَ. وَأَمَا الفَظَاظَةُ فَهِيَ إِفْرَاطُ الشِّـــدَّةِ حَتَّى يَجْمَحَ[4] اللِّسَـــانُ بِالشَّـــتْمِ وَاليَدُ بِالبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوْضِـــعِهَا. وَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ مَا يُصِيـــيْبُ النَّاسَ مِنَ السِّـــنِيْنَ[5] مِنَ المَوْتَانِ[6] وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالغَزَوَاتِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ. وَأَمَّا الخُرْقُ فَإِعْمَالُ الشِّدَّةِ فِي مَوْضِعِ اللِّيْنِ، وَاللِّيْنِ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ.
وَإِنَّ الأَسَدَ قَدْ أُغْرِمَ بِالثَّوْرِ إِغْرَاماً شَدِيْداً هُوَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ خَلِيْقٌ أَنْ يَشِيْنَهُ وَيَضُـــرَّهُ فِي أَمْرِهِ. قَالَ كَلِيْلَةُ: وَكَيْفَ تُطِيْقُ الثَّوْرَ وَهُوَ أَشَـدُّ مِنْكَ، وَأَكْرَمُ عَلَى الأَسَدِ مِنْكَ، وَأَكْثَرُ أَعْوَاناً. قَالَ دِمْنَةُ: لاَ تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِي وَضُعْفِي فَإِنَّ الأُمُوْرَ لَيْسَـــتْ بِالضُّـــعْفِ وَلاَ القُوَّةِ وَلاَ الصِّـــغَرِ وَلاَ الكِبَرِ فِي الجُثَّةِ، فَرُبَّ صَـــغِيْرٍ ضَـــعِيْفٍ قَدْ بَلَغَ بِحِيْلَتِهِ وَدَهَائِهِ وَرَأْيِهِ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ كَثِيْرٌ مِنَ الأَقْوِيَاءِ. أَوَ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ غُرَاباً ضَعِيْفاً احْتَالَ لأَسْوَدَ[7] حَتَّى قَتَلَهُ. قَالَ كَلِيْلَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟.
مَثَلُ الغُرَابِ وَالأَسْوَدِ

---

١ آكل العشب: يعني الثَّور.
٢ السَّاسة: جمع سائس، وهو الَّذي يتولَّى أمور النَّاس.
٣ الإغرام: الولع والحبّ الشَّديد.
٤ يجمح: يسرع.
٥ السِّنين: أراد بها أيَّام الشِّدَّة والضِّيق.
٦ الموتان: موت الماشية.
٧ الأَسْوَدُ: الحيَّة العظيمة.

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ غُرَاباً كَانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَـجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ، وَكَانَ قَرِيْباً مِنْهُ جُحْرُ ثُعْبَانٍ أَسْـودَ. فَكَانَ الغُرَابُ إِذَا أَفْرَخَ عَمَدَ الأَسْـوَدُ إِلَى فِرَاخِهِ فَأَكَلَهَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الغُرَابِ فَأَحْزَنَهُ، فَشَـكَا ذَلِكَ إِلَى صَـدِيْقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوى، وَقَالَ لَهُ: أُرِيْدُ مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ الغُرَابُ: قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الأَسْـوَدِ إِذَا نَامَ، فَأَنْقُرَ عَيْنَيْهِ فَأَفْقَأَهُما لَعَلِّيَ أَسْـتَرِيْحُ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ آوَى: بِئْسَ الحِيْلَةُ الَّتِي احْتَلْتَ، فَالتَمِسْ أَمْراً تُصِـيْبُ فِيْهِ بُغْيَتَكَ مِنَ الأَسْـوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرِّرَ بِنَفْسِـكَ وَتُخَاطِرَ بِهَا. وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُوْنَ مَثَلُكَ مَثَلَ العُلْجُوْمِ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرَطَانِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ: قَالَ الغُرَابُ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ العُلْجُوْمِ وَالسَّرَطَانِ

قَالَ ابْنُ آوى: زَعمُوا أَنَّ عُلْجُوْماً عَشَّشَ فِي أَجَمَةٍ كَثِيْرَةِ السَّمَكِ، فَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى مَا فِيْهَا مِنَ السَّمَكِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ. فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْداً، فَأَصَـابَهُ جُوْعٌ وَجَهْدٌ شَـدِيْدٌ، فَجَلَسَ حَزِيْناً يَلْتَمِسُ الحِيْلَةَ فِي أَمْرِهِ، فَمَرَّ بِهِ سَرَطَانٌ فَرَأَى حَالَتَهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الكَآبَةِ وَالحُزْنِ، فَدَنَا مِنْهُ وَقَالَ لَهُ: مَا لِي أَرَاكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ هَكَذَا حَزِيْناً كَئِيْباً؟ قَالَ العُلْجُوْمُ: وَكَيْفَ لاَ أَحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أَعِيْشُ مِنْ صَـيْدِ مَا هَهُنَا مِنَ السَّـمَكِ، وَإِنِّي رَأَيْتُ اليَوْمَ صَـيَّادَيْنِ قَدْ مَرَّا بِهَذَا المَكَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُما لِصَاحِبِهِ:

إِنَّ هَهُنَا سَمَكاً كَثِيْراً أَفَلاَ نَصِيْدُهُ أَوَّلاً؟ فَقَالَ الآخَرُ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانِ كَذَا سَمَكاً أَكْثَرَ مِنْ هَذَا السَّمَكِ فَلْنَبْدَأْ بِذَلِكَ، فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ جِئْنَا إِلَى هَذَا فَأَفْنَيْنَاهُ.

وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُما إِذَا فَرَغَا مِمَّا ثَمَّ انْتَهَيَا إِلَى هَذِهِ الأَجَمَةِ فَاصْـطَادَا مَا فِيْهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهُوَ هَلاَكِي وَنَفَادُ مُدَّتِي. فَانْطَلَقَ السَّـرَطَانُ إِلَى جَمَاعَةِ السَّـمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ.

فَأَقْبَلْنَ عَلَى العُلْجُوْمِ فَاسْتَشَرْنَهُ وَقُلْنَ لَهُ: إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيْرَ عَلَيْنَا فَإِنَّ ذَا العَقْلِ لاَ يَدَعُ مُشَاوَرَةَ عَدُوِّهِ وَبَقَاؤُكَ بِبقائِنَا. قَالَ العُلْجُوْمُ: أَمَّا مُكَابَرَةُالصَّيَّادَيْنِ فَلاَ طَاقَةَ لِي بِهَا وَلاَ أَعْلَمُ حِيْلَةً إِلاَّ المَصِـيْرَ إِلَى غَدِيْرٍ قَرِيْبٍ مِنْ هَهُنَا، فِيْهِ سَـمَكٌ وَمِيَاهٌ كَثِيْرَةٌ وَقَصَبٌ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُنَّ الاِنْتِقَالَ إِلَيْهِ كَانَ فِيْهِ صَلاَحُكُنَّ وَخصْبُكُنَّ. فَقُلْنَ لَهُ: مَا يَمُنُّ عَلَيْنَا بِذَلِكَ غَيْرُكَ. فَجَعَلَ العُلْجُوْمُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَـمَكَتَيْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَـا إِلَى بَعْضِ التِّلالِ فَيَـأْكُلَهُمَـا. حَتَّى إِذَا كَـانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَـاءَ لأَخْـذِ السَّـمَكَتَيْنِ فَجَاءَهُ السَّـرَطَانُ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَيْضَـاً قَدْ أَشْـفَقْتُ مِنْ مَكَانِي هَذَا، وَاسْـتَوْحَشْـتُ مِنْهُ، فَاذْهَبْ بِي إِلَى ذَلِكَ الغَدِيْرِ. فَقَالَ لَهُ حُبّاً وَكَرَامَةً واحْتَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ التَّلِّ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ السَّـمَكَ فِيْهِ، نَظَرَ السَّـرَطَانُ فَرَأَى عِظَامَ السَّمَكِ مَجْمُوْعَةً هُنَاكَ، فَعَلِمَ أَنَّ العُلْجُوْمَ هُوَ صَاحِبُهَا وَأَنَّهُ يُرِيْدُ بِهِ

مِثْلَ ذَلِكَ. فَقَالَ فِي نَفْسِـــهِ: إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ فِي المَوَاطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيْهَا هَالِكٌ، سَوَاءٌ قَاتَلَ أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ كَانَ حَقِيْقاً أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ نَفْسِـهِ كَرَمَاً وَحِفَاظاً، وَلاَ يُمَكِّنَهُ مِنْ نَفْسِـــهِ حَتَّى يَسْـــتَفْرِغَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الحِيْلَةِ فِي قِتَالِهِ، لأَنَّهُ قَدْ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى التَّلَفِ فَلَعَلَّ خَلاَصَـــهُ فِي ذَلِكَ القِتَالِ، وَالهَلاَكُ واقِعٌ بِهِ كَيْفَ كَانَ. فَلَمْ يَزَلْ يَحْتَالُ عَلَى العُلْجُوْمِ حَتَّى تَمكَّنَ مِنْ عُنُقِهِ فَأَهْوَى[1] بِكَلْبَتَيهِ[2] عَلَيْهَا فَعَصَـــرَها فَمَاتَ. وَتَخَلَّصَ السَّرَطَانُ إِلَى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ.

وَإِنَّما ضَـرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الحِيْلَةِ مَهْلَكَةٌ لِلْمُحْتَالِ. وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ إِنْ أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهِ كَانَ فِيْهِ هَلاَكُ الأَسْـــوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْلِكَ بِهِ نَفْسَكَ، وَتَكُوْنَ فِيْهِ سَلاَمَتُكَ. قَالَ الغُرَابُ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ ابْنُ آوى: تَنْطَلِقُ فَتَتَبَصَّـــرُ فِي طَيَرَانِكَ لَعَلَّكَ أَنْ تَظْفَرَ بِشَـــيءٍ مِنْ حُلِيِّ النِّسَـــاءِ، فَتَخْطَفَهُ وَلاَ تَزَالُ طَائِراً وَاقِعاً[3] بِحَيْثُ لاَ تَفُوْتُ العُيُوْنَ، فَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ تَبِعُوْكَ تَأْتِي جُحْرَ الأَسْـــوَدِ فَتَرْمِي بِالحُلِيِّ عِنْدَهُ. فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَخَذُوا حُلِيَّهُمْ وَأَرَاحُوْكَ مِنَ الأَسْوَدِ.

فَانْطَلَقَ الغُرَابُ مُحَلِّقاً[4] فِي السَّمَاءِ فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ العُظَمَاءِ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ تَغْتَسِلُ، وَقَدْ وَضَـعَتْ ثِيَابَهَا وَحُلِيَّهَا نَاحِيَةً، فَانْقَضَّ[5] وَاخْتَطَفَ مِنْ حُلِيِّهَا عِقْداً وَطَارَ بِهِ، فَتَبِعَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَزَلْ طَائِراً وَاقِعاً بِحَيْثُ يَرَاهُ كُلُّ أَحدٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الأَسْـــوَدِ، فَأَلْقَى العِقْدَ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا أَتَوْا أَخَذُوا العِقْدَ وَقَتَلُوا الأَسْوَدَ.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الحِيْلَةَ تُجْزِئُ[6] مَا لاَ تُجْزِئُ القُوَّةُ.

قَالَ كَلِيْلَةُ: إِنَّ الثَّوْرَ لَوْ لَمْ يَجتَمِعْ معَ شِـــدَّتِهِ رَأْيُهُ لَكَانَ كَمَا تَقُوْلُ، وَلكِنَّ لَهُ مَعَ شِدَّتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالعَقْلِ فَمَاذَا تَسْتَطِيعُ لَهُ؟.

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الثَّوْرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ فِي قُوَّتِهِ وَرَأْيِهِ، وَلكِنَّهُ مُقِرٌّ لِي بِالفَضْـــلِ وَأَنَا خَلِيْقٌ أَنْ أَصْرَعَهُ[7] كَمَا صَرَعَتِ الأَرْنَبُ الأَسَدَ. قَالَ كَلِيْلَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟.

مَثَلُ الأَرْنَبِ وَالأَسَدِ

---

١ أهوى: هجم.

٢ كلبتيه: نابيه ـ ظفريه.

٣ واقع: أي تطير وتقع.

٤ محلِّق: مرتفع.

٥ انقضَّ: هجم فجأة. وقع.

٦ تجزئ: تُغني وتكفي.

٧ أصرعه: أُهلكه.

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسداً كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيْرَةِ المِيَاهِ وَالعُشْبِ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الأَرْضِ مِنَ الوُحُوْشِ فِي سَـــعَةِ المِيَاهِ وَالمَرْعَى شَـــيءٌ كَثِيْرٌ. إلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهَا ذَلِكَ لِخَوْفِهَا مِنَ الأَسَدِ. فَاجتَمَعَتْ وَأَتَتْ إِلَى الأَسَدِ فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّكَ لَتُصِيْبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الجَهْدِ وَالتَّعَبِ، وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْياً فِيْهِ صَـــلاَحٌ مِنَّا وَأَمْنٌ لَنَا، فَإِنْ أَنْتَ أَمَّنْتَنَا وَلَمْ تُخِفْنَا فَلَكَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ نُرْسِلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدَائِكَ. فَرَضِيَ الأَسَدُ بِذَلِكَ وَصَالَحَ الوَحْشَ عَلَيْهِ وَوَفَيْنَ لَهُ بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ أَرْنَباً أَصَـــابَتْهَا القُرْعَةُ وَصَـــارَتْ غَدَاءَ الأَسَـدِ. فَقَالَتْ لِلْوُحُوْشِ: إِنْ أَنْتُنَّ رَفَقْتُنَّ بِي[1] فِيمَا لاَ يَضُـرُّكُنَّ رَجَوْتُ أَنْ أُرِيْحَكُنَّ مِنَ الأَسَـدِ. فَقَالَتِ الوُحُوْشُ: وَمَا الَّذِي تُكَلِّفِيْنَنَا مِنَ الأُمُوْرِ؟ قَالَتْ: تَأْمُرْنَ الَّذِي يَنْطَلِقُ بِي إِلَى الأَسَـــدِ أَنْ يُمْهِلَنِي رَيْثَمَا أُبْطِئُ عَلَيْهِ بَعْضَ الإِبْطَاءِ. فَقُلْنَ لَهَا: ذَلِكَ لَكِ. فَانْطَلَقَتِ الأَرْنَبُ مُتَبَاطِئَةً حَتَّى جَاوَزَتِ الوَقْتَ الَّذِي كَانَ يَتَغَدَّى فِيْهِ الأَسَدُ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَحْدَهَا رُوَيْداً[2] وَقَدْ جَاعَ فَغَضِبَ وَقَامَ مِنْ مَكَانِهِ نَحْوَهَا فَقَالَ لَهَا: مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟

قَالَتْ: أَنَا رَسُـوْلُ الوُحُوْشِ إِلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثْنَنِي وَمَعِي أَرْنَبٌ لَكَ. فَتَبِعَنِي أَسَـدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيْقِ، فَأَخَذَهَا مِنِّي، وَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِهَذِهِ الأَرْضِ وَمَا فِيْهَا مِنَ الوَحْشِ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ هَذَا غَدَاءُ المَلِكِ أَرْسَـلَتْ بِهِ الوُحُوْشُ إِلَيْهِ فَلاَ تَغْصِـبَنَّهُ[3] فَسَـبَّكَ وَشَـتَمَكَ، فَأَقْبَلْتُ مُسْـرِعَةً لأُخْبِرَكَ. فَقَالَ الأَسَـدُ: انْطَلِقِي مَعِي فَأَرِيْنِي مَوْضِـــعَ هَذَا الأَسَـــدِ. فَانْطَلَقَتِ الأَرْنَبُ إِلَى جُبٍّ[4] فِيْهِ مَاءٌ غَامِرٌ[5] صَـــافٍ. فَاطَّلَعَتْ فِيْهِ وَقَالَتْ: هَذَا المَكَانُ. فَاطَّلَعَ الأَسَـــدُ فَرَأَى ظِلَّهُ وَظِلَّ الأَرْنَبِ فِي المَاءِ، فَلَمْ يَشُـكَّ فِي قَوْلِهَا، وَوَثَبَ عَلَى الأَسَـدِ لِيُقَاتِلَهُ فَغَرِقَ فِي الجُبِّ. فَانْقَلَبَتْ الأَرْنَبُ إِلَى الوُحُوشِ فَأَعْلَمَتْهُنَّ صَنِيْعَهَا بِالأَسَدِ.

قَالَ كَلِيْلَةُ: إِنْ قَدَرْتَ عَلَى هَلاَكِ الثَّوْرِ بِشَيءٍ لَيْسَ فيْهِ مَضَرَّةٌ لِلأَسَدِ فَشَأْنُكَ[6]، فَإِنَّ الثَّوْرَ قَدْ أَضَـــرَّ بِي وَبِكَ وَبِغَيْرِنَا مِنَ الجُنْدِ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ بِهَلاَكِ الأَسَدِ، فَلاَ تَقْدِمْ عَلَيْهِ[7] فَإِنَّهُ غَدْرٌ مِنِّي وَمِنْكَ.

١ رَفَقْتُنَّ بي: عاملتُنَّني بلطف.
٢ رويداً: على مهل وتباطؤ.
٣ لا تغصبنَّه: لا تأخذه بالقوّة.
٤ الجبُّ: البئر.
٥ ماء غامر: ماء كثير.
٦ شأنك: افعل ما تريد.
٧ لا تقدم: لا تهجم وتجترئ.

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ تَرَكَ الدُّخُوْلَ عَلَى الأَسَدِ أَيّاماً كَثِيْرَةً، ثُمَّ أَتَاهُ عَلَى خَلْوَةٍ مِنْهُ فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ: مَا حَبَسَكَ عَنِّي مُنْذُ زَمَانٍ لَمْ أَرَكَ؟ أَلاَ لِخَيْرٍ كَانَ انْقِطَاعُكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: لِيَكُنْ خَيْراً أَيُّهَا المَلِكُ. قَالَ الأَسَدُ: وَهَلْ حَدَثَ أَمْرٌ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنِ المَلِكُ يُرِيْدُهُ وَلاَ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ.

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: كَلاَمٌ فَظِيْعٌ. قَالَ: أَخْبِرْنِي بِهِ. قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ كُلَّ كَلاَمٍ يَكْرَهُهُ سَامِعُهُ لاَ يَجْسَرُ عَلَيْهِ قَائِلُهُ وَإِنْ كَانَ نَاصِحاً مُشْفِقاً، إِلاَّ إِذَا كَانَ المَقُوْلُ لَهُ عَاقِلاً، فَإِنِ اتَّفَقَ ذَلِكَ حَمَلَ القَوْلَ عَلَى عَمَلِ المَحَبَّةِ وَعَلِمَ مَا فِيْهِ مِنَ النَّصِيْحَةِ، لأَنَّ مَا كَانَ فِيْهِ مِنْ نَفْعٍ فَهْوَ لَهُ. وَإِنَّكَ أَيُّهَا المَلِكُ لَذُو فَضِيْلَةٍ وَرَأْيُكَ يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ يُوْجِعُنِي أَنْ أَقُوْلَ مَا تكْرَهُ، وَإِنِّي وَاثِقٌ بِكَ أَنَّكَ تَعْرِفُ نُصْحِي وَإِيثَارِي[1] إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي. وَإِنَّهُ لِيَعْرِضُ لِي[2] أَنَّكَ غَيْرُ مُصَدِّقِي فِيمَا أُخْبِرُكَ بِهِ. وَلَكِنِّي إِذَا تَذَكَّرْتُ وَتَفَكَّرْتُ أَنَّ نُفُوْسَنَا، مَعَاشِرَ الوُحُوْشِ، مُتَعَلِّقَةٌ بِكَ لَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنْ أَدَاءِ النُّصْحِ الَّذِي يَلْزَمُنِي، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي أَوْ خِفْتُ أَنْ لاَ تَقْبَلَهُ مِنِّي، فَإِنَّهُ يُقَالُ: مَنْ كَتَمَ السُّلْطَانَ نَصِيْحَتَهُ، وَالأَطِبَّاءَ مَرَضَهُ، وَالإِخْوَانَ رَأْيَهُ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ. قَالَ الأَسَدُ: فَمَا ذَاكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَّثَنِي الأَمِيْنُ الصَّدُوْقُ عِنْدِي أَنَّ شَتْرَبَةَ خَلاَ بِرُؤُوْسِ جُنْدِكَ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ الأَسَدَ وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَمَكِيْدَتَهُ وَقُوَّتَهُ، فَاسْتَبَانَ لِي أَنَّ ذَلِكَ يَؤُوْلُ[3] مِنْهُ إِلَى ضُعْفٍ وَعَجْزٍ، وَسَيَكُوْنُ لِي وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشُّؤُوْنِ.

فَلَمَّا بَلَغَنِي ذَلِكَ عَلِمْتُ أَنَّ شَتْرَبَةَ خَوَّانٌ غَدَّارٌ، وَأَنَّكَ أَكْرَمْتَهُ الكَرَامَةَ كُلَّهَا، وَجَعَلْتَهُ نَظِيْرَ نَفْسِكَ، فَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ وَأَنَّكَ مَتَى زُلْتَ عَنْ مَكَانِكَ كَانَ لَهُ مُلْكُكَ، وَلاَ يَدَعُ جُهْداً إِلاَّ بَلَغَهُ فِيْكَ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِذَا عَرَفَ المَلِكُ مِنْ أَحَدِ رَعِيَّتِهِ أَنَّهُ سَاوَاهُ فِي المَنْزِلَةِ وَالحَالِ فَلْيَصْرَعْهُ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ كَانَ هُوَ المَصْرُوْعَ.

وَشَتْرَبَةُ أَعْلَمُ بِالأُمُوْرِ وَأَبْلَغُ فِيْهَا، وَالعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْتَالُ لِلأَمْرِ قَبْلَ تَمَامِهِ وَوُقُوْعِهِ، فَإِنَّكَ لاَ تَأْمَنُ أَنْ يَكُوْنَ وَأَلاَّ تَسْتَدْرِكَهُ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: الرِّجَالُ ثَلاَثَةٌ حَازِمٌ وَأَحْزَمُ مِنْهُ وَعَاجِزٌ. فَالحَازِمُ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ شَعَاعاً، وَلَمْ تَعِيَ بِهِ حِيْلَتُهُ وَمَكِيْدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا المَخْرَجَ مِنْهُ. وَأَحْزَمُ مِنْ هَذَا المِقْدَامُ ذُو العُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الابْتِلاءَ قَبْلَ وُقُوْعِهِ، فَيُعْظِمُهُ إِعْظَاماً وَيَحْتَالُ لَهُ حِيْلَةً حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ، فَيَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ، وَيَدْفَعُ الأَمْرَ قَبْلَ وُقُوعِهِ. وَأَمَّا العَاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ حَتَّى يَهْلِكَ. وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَثَلُ السَّمكاتِ الثَّلاثِ.

---

١ إيثاري: تفضيلي.

٢ يعرض لي: يخطر لي.

٣ يؤول: يرجع.

قالَ الأَسَدُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ السَّمَكَاتِ الثَّلاَثِ
قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ غديْراً كَانَ فِيهِ ثَلاَثُ مِنَ السَّــمَكِ كَيِّسَـــةٌ[1] وَكْيِسُ مِنْهَا وَعَاجِزَةٌ. وَكَانَ ذَلِكَ الغَدِيْرُ بِنَجْوَةٍ مِنَ الأَرْضِ[2] لاَ يَكَادُ يَقْرَبُهُ أَحَدٌ وَبِقُرْبِهِ نَهْرٌ جَارٍ. فَاتَّفَقَ أَنَّهُ اجتَازَ بِذَلِكَ النَّهْرِ صَـيَّادَانِ، فَأَبْصَـرَا الغَدِيْرَ فتَواعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشِـبَاكِهِمَا فَيَصِـيْدَا مَا فِيْهِ مِنَ السَّـمَكِ، فَسَـمِعَتِ السَّـمَكَاتُ قَوْلَهُما، فأَمَّا أَكْيَسُـــهُنَّ فَلَمَّا سَـــمِعَتْ قَوْلَهُما ارْتَابَتْ بِهِمَا، وتَخَوَّفَتْ مِنْهُما، فَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى شَــــيءٍ[3] حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ المكَانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيْهِ المَاءُ مِنَ النَّهْرِ إِلى الغَدِيْرِ فَنَجَتْ بِنَفْسِـــها. وَأَمَّا الكَيِّسَـــةُ الأُخْرَى فَإِنَّهَا مَكَثَتْ مَكانَها وتَهَاونَتْ في الأَمْرِ حَتَّى جَاءَ الصَّـــيَّادَانِ. فَلَمَّا رَأَتْهُما وَعَرَفَتْ ما يُرِيْدَانِ ذَهَبَتْ لِتَخْرُجَ مِنْ حَيْثُ يَدْخُلُ المَاءُ، فإِذَا بِهِمَا قَدْ سَـدَّا ذَلِكَ المكَانَ. فَحِينئذٍ قالَتْ: فَرَّطْتُ[4] وهَذِهِ عَاقِبَةُ التَّفْرِيْطِ فَكَيْفَ الحِيْلَةُ عَلَى هَذِهِ الحَالِ، وقَلَّمَا تَنْجَحُ حِيْلَةُ العَجَلَةِ والإِرْهَاقِ. غَيْرَ أَنَّ العَـاقِلَ لا يَقْنَطُ مِنْ مَنَـافِعِ الرَّأْيِ، وَلاَ يَيْـأَسُ عَلَى حَـالٍ، ولا يَـدَعُ الرَّأْيَ وَالجَهْدَ. ثُمَّ إِنَّهَا تَمَاوَتَتْ فَطَفَتْ عَلَى وَجْهِ الماءِ مُنْقَلِبةً عَلَى ظَهْرِهَا تَارَةً وَتَارَةً عَلَى بَطْنِهَا. فَأَخَذَهَا الصَّيَّادَانِ وَظَنَّاهَا مَيْتَةً، فَوَضَعَاهَا عَلَى الأَرْضِ بَيْنَ النَّهْرِ وَالغَدِيْرِ فَوَثَبَتْ إِلَى النَّهْرِ فَنَجَتْ. وَأَمَّا العَاجِزَةُ فَلَمْ تَزَلْ فِي إِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ حَتَّى صِيْدَتْ.
قَالَ الأَسَـــدُ: قَدْ فَهِمْتُ ذَلِكَ وَلاَ أَظُنُّ الثَّوْرَ يَغُشُّـــنِي وَلاَ يَرْجُو لِيَ الغَوائِلَ[5]، وَكَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرَ مِنِّي سُـوْءاً قَطُّ، وَلَمْ أَدَعْ خَيْراً إِلاَّ فَعَلْتُهُ مَعَهُ وَلاَ أُمْنِيَةً إِلاَّ بَلَّغْتُهُ إِيَّاهَا!!
قَالَ دِمْنَةُ: أَيُّهَا المَلِكُ إِنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ إِكْرَامِكَ لَهُ، وَتَبْلِيْغِكَ إِيَّاهُ كُلَّ مَنْزِلَةٍ خَلاَ مَنْزِلَتِكَ، وَإِنَّهُ مُتَطَلِّعٌ إِلَيْهَا. فَإِنَّ اللَّئِيْمَ لاَ يَزَالُ نَافِعاً نَاصِحاً حَتَّى يُرْفَعَ إِلَى المَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ. فإِذَا بَلَغَهَا اِشْرَأَبَّتْ نَفْسُهُ[6] إِلَى مَا فَوْقَهَا وَلاَ سِيَّما أَهْلُ الخِيَانَةِ وَالفُجُوْرِ. فَإِنَّ اللَّئِيْمَ الفَاجِرَ لاَ يَخْدُمُ السُّلطَانَ ولاَ يَنْصَـحُ لَهُ إِلاَّ مِنْ فَرَقٍ أَوْ حَاجَةٍ، فَإِذَا اسْـتَغْنَى وَذَهَبَتِ الهَيْبَةُ وَالحَاجَةُ عَادَ إِلَى جَوْهَرِهِ. كَذَنَبِ الكَلْبِ الَّذِي يُرْبَطُ لِيَسْتَقِيْمَ فَلاَ يَزالُ مُسْتَوِياً مَا دَامَ مَرْبُوطاً، فَإِذَا حُلَّ انْحَنَى وَتَعَوَّجَ كَمَا كَانَ.

---

١ كيِّسة: فطنة، عاقلة.
٢ النَّجوة: ما ارتفع من الأرض.
٣ تعرِّج: تقف. تمل.
٤ فرَّط: قَصَّرَ وضَيَّعَ.
٥ الغوائل: المهالك.
٦ اشرأَبَّت: تاقت وارتفعت وتطاولت.

وَاعْلَمْ أَيُّهَا المَلِكُ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ نُصَحَائِهِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ لَمْ يَحْمَدْ غِبَّ[1] رَأْيِهِ، كَالمرِيْضِ الَّذِي يَدَعُ مَا يَصِفُ لَهُ الطَّبِيْبُ وَيَعْمَدُ لِمَا تَشْتَهِيْهِ نَفْسُهُ.

وَحُقَّ عَلَى مُؤازِرِ[2] السُّلْطَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّحْضِيْضِ[3] لَهُ عَلَى مَا يَزِيْدُ بِهِ سُلْطَانَهُ قُوَّةً وَيَزِيْنُهُ، وَالكَفِّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَشِيْنُهُ. وَخَيْرُ الإِخْوَانِ وَالأَعْوَانِ أَقَلُّهُمْ مُدَاهَنَة فِي النَّصِيْحَةِ، وَخَيْرُ الأَعْمَالِ أَحْمَدُهَا عَاقِبَةً، وَخَيْرُ النِّسَاءِ المُوَافِقَةُ لِبَعْلِهَا، وَخَيْرُ الثَّنَاءِ مَا كَانَ عَلَى أَفْوَاهِ الأَخْيَارِ، وَأَفْضَلُ المُلُوْكِ مَنْ لاَ يُخَالِطُهُ بَطَرٌ[4] ولاَ يَسْتكْبِرُ عَنْ قَبُولِ النَّصِيْحَةِ، وَخَيْرُ الأَخْلاَقِ أَعْوَنُهَا عَلَى الوَرَعِ[5]. وقَدْ قِيْلَ: لَوْ أَنَّ امْرَءاً تَوَسَّدَ[6] النَّارَ وَافْتَرَشَ[7] الحَيَّاتِ، كَانَ أَحَقَّ أَنْ يَهْنَئَهُ النَّوْمُ مِمَّنْ يُحِسُّ مِنْ صَاحِبِهِ بِعَدَاوَةٍ يُرِيْدُهُ بِهَا وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ.

وَأَعْجَزُ المُلُوْكِ آخَذُهُمْ بالهُوَيْناءِ[8]، وَأَقَلُّهُمْ نَظَراً فِي مُسْتَقْبَلِ الأُمُوْرِ، وَأَشْبَهُهُمْ بِالفِيْلِ الهَائجِ الَّذِي لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى شَيءٍ. فَإِنْ أَحْزَنَهُ أَمْرٌ تَهَاوَنَ بِهِ، وَإِنْ أَضَاعَ الأُمُورَ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى قُرَنَائِهِ[9]. قَالَ الأَسَدُ: لَقَدْ أَغْلَظْتَ فِي القَوْلِ، وَقَوْلُ النَّاصِحِ مَقْبُوْلٌ مَحْمُوْلٌ وَإِنْ كَانَ شَتْرَبَةُ مُعَادِياً لِي كَمَا تَقُوْلُ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَضُرَّنِي وَلاَ يَفُتَّ فِي سَاعِدِي، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ آكِلُ عُشْبٍ وَأَنا آكِلُ لَحْمٍ، وَإِنَّمَا هُوَ لِي طَعَامٌ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخَافَةٌ، ثُمَّ لَيْسَ إِلَى الغَدْرِ بِهِ سَبِيْلٌ بَعْدَ الأَمَانِ الَّذِي جَعَلْتُهُ لَهُ، وَبَعْدَ إِكْرَامِي لَهُ وَثَنَائِي عَلَيْهِ، وَإِنْ غَيَّرْتُ مَا كَانَ مِنِّي وَبَدَّلْتُهُ فقَدْ سَفَّهْتُ رَأْيِي وَجَهَّلْتُ نَفْسِي وَغَدَرْتُ بِذِمَّتِي[10] وَنَقَضْتُ عَهْدِي.

قَالَ دِمْنَةُ: لاَ يَغُرَّنَّكَ قَوْلُكَ هُوَ لِي طَعَامٌ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخَافَةٌ، فَإِنَّ شَتْرَبَةَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْكَ بِنَفْسِهِ احتَالَ لَكَ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ. وَيُقَالُ: إِنِ اسْتَضَافَكَ ضَيْفٌ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَأَنْتَ لاَ تَعرِفُ أَخْلاَقَهُ، فَلاَ تَأْمَنْهُ عَلَى نَفْسِكَ، ولاَ تَأْمَنْ أَنْ يَصِلَكَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ مَا أَصَابَ القَمْلَةَ مِنَ البُرْغُوْثِ. قَالَ الأَسَدُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

---

١ غبَّ: عاقبة.
٢ مؤازر: معاون.
٣ التَّحضيض: الحثّ.
٤ البطر: الإسراف والطُّغيان جرَّاء النِّعمة.
٥ الورع: التَّقوى.
٦ توسَّد النَّار: أخذها وسادة.
٧ افترش الحيّات: جعلها فراشاً.
٨ الهويناء: التَّأنِّي والفتور.
٩ القرناء: الأمثال.
١٠ ذمَّتي: عهدي وحرمتي.

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ قَمْلَةً لَزِمَتْ فِرَاشَ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ دَهْراً، فَكَانَتْ تُصِيْبُ مِنْ دَمِهِ وَهُوَ نَائِمٌ لاَ يَشْعُرُ، وَتَدِبُّ دَبِيْباً رَفِيْقاً. فَمَكَثَتْ كَذَلِكَ حِيْناً حَتَّى اسْتَضَافَهَا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي بُرْغُوْثٌ فَقَالَتْ لَهُ: بِتْ عِنْدَنَا فِي دَمٍ طَيِّبٍ وَفِرَاشٍ لَيِّنٍ، فَأَقَامَ البُرْغُوْثُ عِنْدَهَا حَتَّى إِذَا آوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ وَثَبَ عَلَيْهِ البُرْغُوْثُ، فَلَدَغَهُ لَدْغَةً أَيْقَظَتْهُ وَأَطَارَتِ النَّوْمَ عَنْهُ. فَقَامَ الرَّجَلُ وَأَمَرَ أَنْ يُفَتَّشَ فَنُظِرَ فَلَمْ يُرَ إِلاَّ القَمْلَةُ فَأُخِذَتْ فَقُصِعَتْ[١] وَفَرَّ البُرْغُوْثُ.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلِ لِتَعْلَمَ أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ لاَ يَسْلَمُ مِنْ شَرِّهِ أَحَدٌ، وَإِنْ هُوَ ضَعُفَ عَنْ ذَلِكَ جَاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ، وَإِنْ كُنْتَ لاَ تَخَافُ مِنْ شَتْرَبَةَ فَخَفْ غَيْرَهُ مِنْ جُنْدِكَ الَّذِيْنَ قَدْ حَرَّشَهُمْ عَلَيْكَ[٢]، وَحَمَلَهَمْ عَلَى عَدَاوَتِكَ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِ الأَسَدِ كَلاَمُ دِمْنَةَ فَقَالَ: فَمَا الَّذِي تَرَى إِذَنْ وَبِمَاذَا تُشِيْرُ؟ قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الضِّرْسَ المأْكُوْلَ[٣] لا يَزَالُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلَمٍ وَأَذَىً حَتَّى يَقْلَعَهُ، وَالطَّعَامَ الَّذِي قَدْ عَفِنَ فِي البَطْنِ الرَّاحَةُ في قَذْفِهِ، وَالعَدُوَّ المُخِيْفَ دَوَاؤُهُ قَتْلُهُ. قَالَ الأَسَدُ: لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَكْرَهُ مُجَاوَرَةَ شَتْرَبَةَ إِيَّايَ، وَأَنا مُرْسِلٌ إِلَيْهِ وَذَاكِرٌ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ، ثُمَّ آمُرُهُ بِاللِّحَاقِ حَيْثُ أَحَبَّ.

فَكَرِهَ دِمْنَةُ ذَلِكَ وَعَلِمَ أَنَّ الأَسَدَ مَتَى كَلَّمَ شَتْرَبَةَ فِي ذَلِكَ وَسَمِعَ مِنْهُ جَوَاباً عَرَفَ بَاطِلَ مَا أَتَى هُوَ بِهِ، وَاطَّلَعَ عَلَى غَدْرِهِ وَكَذِبِهِ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ. فَقَالَ لِلأَسَدِ: أَمَّا إِرْسَالُكَ إِلَى شَتْرَبَةَ فَلاَ أَرَاهُ لَكَ رَأْياً وَلاَ حَزْماً. فَلْيَنْظُرِ المَلِكُ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ لاَ يَزَالُ لَكَ فِي نَفْسِكَ الخِيَارُ مَا دَامَ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَهُ قَدْ وَصَلَ إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ مَتَى عَلِمَ ذَلِكَ خِفْتُ أَنْ يُعَاجِلَ المَلِكَ بِالمُكَابَرَةِ. وَهُوَ إِنْ قَاتَلَكَ مُسْتَعِدّاً، وَإِنْ فَارَقَكَ فَارَقَكَ فِرَاقاً يَلِيْكَ[٤] مِنْهُ النَّقْصُ ويَلْزَمُكَ مِنْهُ العَارُ. مَعَ أَنَّ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ المُلُوكِ لاَ يُعْلِنُوْنَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُعْلَنْ ذَنْبُهُ. وَلكِنَّ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهَمْ عُقُوبَةً، فَلِذَنْبِ العَلاَنِيَةِ عُقُوْبَةُ العَلاَنِيَةِ، وَلِذَنْبِ السِّرِّ عُقُوْبَةُ السِّرِّ. قَالَ الأَسَدُ: إِنَّ المَلِكَ إِذَا عَاقَبَ أَحَداً عَنْ ظِنَّةٍ[٥] ظَنَّهَا مِنْ غَيْرِ تَيَقُّنٍ لِجُرْمِهِ[٦] فَنَفْسَهُ عَاقَبَ وَإِيَّاهَا ظَلَمَ، وَكَانَ نَاقِصَ البَصِيْرَةِ. قالَ دِمْنَةُ: أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا رَأْيَ المَلِكِ فَلاَ يَدْخُلَنَّ عَلَيْكَ شَتْرَبَةُ إِلاَّ وَأَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيْبَهُ مِنْكَ غِرَّةٌ[٧] أَوْ غَفْلَةٌ، فَإِنِّي لا أَحْسَبُ المَلِكَ حِيْنَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلاَّ سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيْمَةٍ،

---

١ قصعت: قتلت بالظُّفر.

٢ حرَّشهم عليك: أغراهم بك، وهيَّجهم عليك.

٣ الضِّرس المأكول: المنخور.

٤ يليك: يلحقك.

٥ الظِّنَّة: التُّهمة.

٦ الجرم: الذَّنب.

٧ الغِرَّة: الغفلة.

وَمِنْ عَلاَمَاتِ ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى هَيْئَتَهُ مُتَغَيِّرَةً، وَتَرَى أَوْصَالَهُ تُرْعِدُ[1]، وَتَرَاهُ مُلْتَفِتاً يَمِيْناً وشِمَالاً، وَتَرَاهُ يُصَوِّبُ قَرْنَيْهِ فِعْلَ الَّذِي هَمَّ بِالنِّطَاحِ وَالقِتَالِ.
قَالَ الأَسَدُ: سَأَكُوْنُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتَ عَلِمْتُ أَنَّ مَا فِي أَمْرِهِ شَكٌّ.
فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ تَحْرِيْشِ الأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ، وَأَنَّ الأَسَدَ سَيَتَحَذَّرُ مِنَ الثَّوْرِ، وَيَتَهَيَّأُ لَهُ. أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ الثَّوْرَ لِيُغْرِيَهُ بِالأَسَدِ، وَأَحَبَّ أَنْ يَكُوْنَ إِتْيَانُهُ مِنْ قِبَلِ الأَسَدِ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذَلِكَ فَيَتَأَذَّى بِهِ. فَقَالَ: أَيُّها المَلِكُ أَلاَ آتِي شَتْرَبَةَ فَأَنْظُرَ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ وَأَسْمَعَ كَلاَمَهُ لَعَلِّيَ أَنْ أَطَّلِعَ عَلَى سِرِّهِ، فَأُطْلِعَ المَلِكَ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ؟ فَأَذِنَ لَهُ الأَسَدُ فِي ذَلِكَ.
فَانْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى شَتْرَبَةَ كَالكَئِيْبِ الحَزِيْنِ. فَلَمَّا رَآهُ الثَّوْرُ رَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: مَا كَانَ سَبَبُ انْقِطَاعِكَ عَنِّي، فَإِنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ، أَسَلاَمَةٌ هُوَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلاَمَةِ مَنْ لاَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَأَمْرُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لاَ يُوْثَقُ بِهِ وَلاَ يَنْفَكُّ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ، حَتَّى مَا مِنْ سَاعةٍ تَمرُّ وَيَأْمَنُ فِيْهَا عَلَى نَفْسِهِ. قَالَ شَتْرَبَةُ: وَمَا الَّذي حَدَثَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَثَ مَا قُدِّرَ وَهُوَ كَائِنٌ. وَمَنْ ذَا الَّذِي غَالَبَ القَدَرَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسِيْماً مِنَ الأُمُوْرِ فَلَمْ يَبْطَرْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلَغَ مُنَاهُ فَلَمْ يَغْتَرَّ[2]؟ وَمَنْ ذَا الَّذي تَبِعَ هَوَاهُ فَلَمْ يَخْسَرْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي حَادَثَ النِّسَاءَ فَلَمْ يُصَبْ[3]؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي طَلَبَ مِنَ اللِّئَامِ[4] فَلَمْ يُحْرَمْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي خَالَطَ الأَشْرَارَ فَسَلِمَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطَانَ فَدَامَ لَهُ مِنْهُ الأَمْنُ وَالإِحْسَانُ؟ وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: مَثَلُ السَّلاَطِيْنِ فِي قِلَّةِ وَفَائِهِمْ لِمَنْ صَحِبَهُمْ وَسَخَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِمَنْ فَقَدُوا مِنْ قُرَنَائِهِمْ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الخَانِ كُلَّمَا فَقَدَ وَاحِداً جَاءَ آخَرُ؟ قَالَ شَتْرَبَةُ: إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ كَلاَماً يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَابَكَ[5] مِنَ الأَسَدِ رَائِبٌ وَهَالَكَ[6] مِنْهُ أَمْرٌ. قَالَ دِمْنَةُ: أَجَلْ لَقَدْ رَابَنِي مِنْهُ ذَلِكَ وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي. قَالَ شَتْرَبَةُ: فَفِي نَفْسِ مَنْ رَابَكَ؟

١ أوصاله ترعد: مفاصله ترتجف وتضطرب.
٢ يغترُّ: يغفل وينخدع.
٣ لم يصب: لم تحلَّ به المصائب.
٤ اللِّئام: البخلاء السَّفلة الأدنياء.
٥ رابك: أحدث في نفسك شكّاً وقلقاً.
٦ هالك: أفزعك.

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ تَعْلَمُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَيَّ وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ العَهْدِ وَالمِيْثَاقِ أَيَّامَ أَرْسَلَنِي الأَسَدُ إِلَيْكَ، فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنْ حِفْظِكَ وَاطْلاَعِكَ عَلَى مَا اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ.
قَالَ شَتْرَبَةُ: وَمَا الَّذِي بَلَغَكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَّثَنِي الخَبِيْرُ الصَّدُوقُ الَّذِي لاَ مِرْيَةَ[1] فِي قَوْلِهِ أَنَّ الأَسَدَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ: قَدْ أَعْجَبَنِي سِمَنُ الثَّوْرِ وَلَيْسَ لِي إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ، فَأَنَا آكِلُهُ وَمُطعِمٌ أَصْحَابِي مِنْ لَحْمِهِ. فَلَّما بَلَغَنِي هَذَا القَوْلُ وَعَرَفْتُ غَدْرَهُ وَسُوْءَ عَهْدِهِ، أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ لأَقْضِيَ حَقَّكَ وَتَحْتَالَ أَنْتَ لأَمْرِكَ.
فَلَمَّا سَمِعَ شَتْرَبَةُ كَلاَمَ دِمْنَةَ، وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ العَهْدِ وَالمِيْثَاقِ، وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الأَسَدِ ظَنَّ أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ وَنَصَحَ لَهُ، وَرَأَى أَنَّ الأَمْرَ شَبِيْهٌ بِمَا قَالَ دِمْنَةُ. فَأَهَمَّهُ ذَلِكَ وَقَالَ: مَا كَانَ لِلأَسَدِ أَنْ يَغْدُرَ بِي وَلَمْ آتِ إِلَيْهِ ذَنْباً وَلاَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ مُنْذُ صَحِبْتُهُ، وَلاَ أَظُنُّ الأَسَدَ إِلاَّ قَدْ حُمِلَ عَلَيَّ[2] بِالكَذِبِ وَشُبِّهَ عَلَيْهِ[3] أَمْرِي، فَإِنَّ الأَسَدَ قَدْ صَحِبَهُ قَوْمُ سُوْءٍ وَجَرَّبَ مِنْهُمُ الكَذِبَ وَأُمُوْراً تُصَدَّقُ إِذَا بَلَغَتْهُ عَنْ غَيْرِهِمْ. فَإِنَّ صُحْبَةَ الأَشْرَارِ رُبَّما أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا سُوْءَ ظَنٍّ بِالأَخْيَارِ، وَحَمَلَهُ مَا يَخْتَبِرُهُ مِنْهُمْ عَلَى الخَطَأِ فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ، كَخَطَأِ البَطَّةِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّها رَأَتْ فِي المَاءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ فَظَنَّتْهُ سَمَكَةً، فَحَاوَلَتْ أَنْ تَصِيْدَهَا، فَلَّما جَرَّبَتْ ذَلِكَ مِرَاراً عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصَادُ فَتَرَكَتْهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْ غَدِ ذَلِكَ اليَوْمِ سَمَكَةً فَظَنَّتْ أَنَّها مِثْلُ الَّذِي رَأَتْهُ بِالأَمْسِ فَتَرَكَتْهَا وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَهَا.
فَإِنْ كَانَ الأَسَدُ قَدْ بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبٌ فَصَدَّقَهُ عَلَيَّ وَسَمِعَهُ فيَّ فَمَا جَرَى عَلَى غَيْرِي يَجْرِي عَلَيَّ. وَإِنْ كَانَ لَمْ يَبْلُغْهُ شَيءٌ وَأَرَادَ السُّوْءَ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَعْجَبِ الأُمُوْرِ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِنَّ مِنَ العَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ رِضَى صَاحِبِهِ وَلاَ يَرْضَى. وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَلْتَمِسَ رِضَاهُ فَيَسْخَطَ، فَإِذَا كَانَتِ المَوْجِدَةُ[4] عَنْ عِلَّةٍ كَانَ الرِّضَى مَوْجُوداً وَالعَفْوُ مَأْمُوْلاً، وَإِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ انْقَطَعَ الرَّجاءُ، لأَنَّ العِلَّةَ إِذَا كَانَتْ المَوْجِدَةُ فِي وُرُوْدِهَا[5] كَانَ الرِّضَى مَأْمُوْلاً فِي صُدُوْرِهَا[6].

١ لا مرية: لا شكَّ فيه.
٢ حُمِلَ عليَّ: أغروه ليوقع بي.
٣ شُبِّه عليه: التبس.
٤ الموجدة: الغضب.
٥ ورودها: بلوغها ونزولها.
٦ صدورها: خروجها وابتعادها.

وَقَدْ نَظَرْتُ فَلاَ أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَسَــدِ جُرْماً وَلاَ كَبِيْرَ ذَنْبٍ وَلاَ صَــغِيرَهُ، وَلَعَمْرِي لاَ يَسْتَطِيْعُ أَحَدٌ أَطَالَ صُحْبَةَ صَاحِبٍ أَنْ يَحْتَرِسَ[1] فِي كُلِّ شَيءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلاَ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ مِنْهُ كَبِيْرَةٌ أَوْ صَغِيْرَةٌ يَكْرَهُهَا صَاحِبُهُ.

وَلَكِنَّ الرَّجُلَ ذَا العَقْلِ وَالوَفاءِ إِذَا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقْطَةً نَظَرَ فِيْهَا وَعَرَفَ قَدْرَ مَبْلَغِ خَطَئِهِ عَمْداً كَانَ أَوْ خَطَأً، ثُمَّ يَنْظُرُ هَلْ فِي الصَّــفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يُخَافُ ضَرَرُهُ وَشَيْنُهُ فَلاَ يُؤَاخِذُ صَاحِبَهُ بِشَيءٍ يَجِدُ فِيْهِ إِلَى الصَّفْحِ عَنْهُ سَبِيْلاً.

فَإِنْ كَانَ الأَسَدُ قَدِ اعْتَقَدَ عَلَيَّ ذَنْباً فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ إِلاَّ أَنِّي خَالَفْتُهُ فِي بَعْضِ رَأْيِهِ بَطَراً مِنِّي وَنَصِــيْحَةً لَهُ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُوْنَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الجَرَاءَةِ عَلَيْهِ وَالمُخالَفَةِ لَهُ، وَلاَ أَجِدُ لِي فِي هَذَا المَحْضَــرِ[2] إِثْماً مَا[3]. لأَنِّي لَمْ أُخَالِفْهُ فِي شَــيءٍ إِلاَّ مَا قَدْ نَدَرَ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِ الرُّشْدَ[4] والمَنْفَعَةَ وَالدِّيْنَ، وَلَمْ أُجَاهِرْ بِشَــيءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رؤُوْسِ جُنْدِهِ وَعِنْدَ أَصْــحَابِهِ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَخْلُو بِهِ وَأُكَلِّمُهُ سِــرَّاً كَلاَمَ الهَائِبِ[5]

المُوَقِّرِ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَنِ التَمسَ الرُّخَصَ[6] مِنَ الإِخْوَانِ عِنْدَ المُشَــاوَرَةِ، وَمِنَ الأَطِبَّاءِ عِنْدَ المَرَضِ، وَمِنَ الفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ. فَقَدْ أَخْطَأَ مَنَافِعَ الرَّأْيِ، وَازْدَادَ فِيمَا وَقَعَ فِيْهِ مِنْ ذَلِكَ تَوَرُّطاً[7]، وحَمَلَ الوِزْرَ[8]، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ سَــكَرَاتِ السُّــلْطَانِ، فَإِنَّ صُــحْبَةَ السُّــلْطَانِ خَطِرَةٌ وَإِنْ صُوْحِبَ بِالسَّلاَمَةِ وَالثِّقَةِ وَالمودَّةِ وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ، فَرُبَّمَا عَثَرَ مُصَاحِبُهُ العَثْرَةَ فَلاَ يَنْتَعِشُ[9] وَلاَ تُقَالُ عَثْرَتُهُ.

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا فَبَعْضُ مَا أُوتِيْتُ مِنَ الفَضْــلِ قَدْ جُعِلَ لِي فِيْهِ الهَلاَكُ وَبَعْضُ المَحَاسِــنِ آفَةٌ لِصَــاحِبِهَا. فَإِنَّ الشَّــجَرَةَ اللَّذِيْذَةَ الثَّمَرِ رُبَّمَا كَانَ أَذَاهَا فِي حَمْلِهَا، فَلُوِيَتْ أَغْصَانُهَا وَهُصِرَتْ أَطْرَافُهَا حتَّى تَتَكَسَّرَ. وَالطَّاوُوْسَ الَّذِي ذَنَبُهُ أَفْضَلُهُ يُنْسَلُ فَيُؤْلِمُهُ.

---

١ يحترس: يحذر.

٢ المحضر: مكان الحضور والاجتماع.

٣ الإثم: الذَّنب.

٤ الرُّشد: الهدى والاستقامة.

٥ الهائب: المحترم الخائف.

٦ الرُّخص: اليسر والتَّساهل.

٧ التَّورُّط: الدُّخول في المأزق والهلاك.

٨ الوزر: الذَّنب.

٩ ينتعش: ينهض.

وَالفَرَسَ المُطَهَّمَ[1] الجَرِيَّ[2] رُبَّما رُكِبَ حَتَّى يَنْقَطِعَ. وَالبُلْبُلَ الحَسَنَ الصَّوْتِ يُحْبَسُ دُوْنَ غَيْرِهِ مِنَ الطَّيْرِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا ولا هَذَا فَهُوَ إِذَنْ مِنْ مَوَاقِعِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ الَّذِي لاَ يُدْفَعُ. وَالقَدَرُ هُوَ الَّذِي يَسْلُبُ الأَسَدَ قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ وَيُدْخِلُهُ القَبْرَ، وَهُوَ الَّذي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيْفَ عَلَى ظَهْرِ الفِيْلِ الهَائِجِ، وَهُوَ الَّذي يُسَلِّطُ عَلَى الحَيَّةِ ذَاتِ الحُمَةِ[3] مَنْ يَنْزِعُ حُمَتَهَا ويَلْعَبُ بها. وَهُوَ الَّذِي يُصَيِّرُ العَاجِزَ حَازِماً، وَيُثَبِّطُ[4] السَّهْمَ المُنْطَلِقَ، ويُوَسِّعُ عَلَى المُقْتِرِ[5]، وَيُشَجِّعُ الجَبَانَ، وَيُجَبِّنُ الشُّجَاعَ عِنْدَمَا تَعْتَرِيْهِ[6] المَقَادِيْرُ بِالعِلَلِ الَّتِي اتَّفَقَتْ لَهَا.
قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ إِرَادَةَ الأَسَدِ بِكَ لَيْسَ مِنْ تَحْرِيْشِ الأَشْرَارِ وَلاَ سَكْرَةِ السُّلْطَانِ ولاَ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلكِنَّهَا الغَدْرُ وَالفُجُوْرُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ غَدَّارٌ، لِطَعَامِهِ حَلاَوَةٌ وَآخِرُهُ سُمٌّ مُمِيْتٌ. قَالَ شَتْرَبَةُ: فَأَرَانِي[7] قَدِ اسْتَلْذَذْتُ الحَلاَوةَ إِذْ ذُقْتُها، وَقَدِ انْتَهَيْتُ إِلَى آخِرِهَا الَّذِي هُوَ المَوْتُ، وَلَوْلاَ الحَيْنُ[8] مَا كَانَ مُقَامِي عِنْدَ الأَسَدِ وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ وَأَنا آكِلُ عُشْبٍ، فَأَنا في هَذِهِ الوَرْطَةِ كَالنَّحْلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ النَّيْلُوْفَرِ[9] إِذْ تَسْتَلِذُّ رَيْحَهُ وَطَعْمَهُ، فتَحبِسُهَا تِلْكَ اللَّذَّةُ عَنِ الحِيْنِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَطِيْرَ فِيْهِ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضَمُّ عَلَيْهَا فَتَرْتَبِكُ فِيْهِ وَتَمُوْتُ. ومَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِالكَفَافِ الَّذِي يُغْنِيْهِ وَطَمَحَتْ[10] عَيْنُهُ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْ عَاقِبَتَهُ كَانَ كَالذُّبَابِ الَّذِي لاَ يَرْضَى بِالشَّجَرْ وَالرَّيَاحِيْنِ، وَلاَ يُقْنِعُهُ ذَلِكَ حَتَّى يَطْلُبَ المَاءَ الَّذِي يَسِيْلُ مِنْ أُذُنِ الفِيْلِ، فَيَضْرِبُهُ الفِيْلُ بِأُذُنَيْهِ فَيُهْلِكُهُ. وَمَنْ يَبْذُلْ وُدَّهُ وَنَصِيْحَتَهُ لِمَنْ لاَ يَشْكُرُهُ، فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السِّبَاخِ[11]، وَمَنْ يُشِرْ عَلَى المُعْجَبِ كَمَنْ يُشَاوِرُ المَيْتَ أَوْ يُسَارُّ[12] الأَصَمَّ.

---

١ الفرس المطهَّم: الفرس التَّام الخلق الكامل.
٢ الجريُّ: الكثير الجري.
٣ الحُمَة: السُّمّ. الإبرة الَّتي تلدغ بها.
٤ يثبّط: يحوّل ويعوّق.
٥ المفتر: الفقير.
٦ تعتريه: تصيبه.
٧ أراني: أجد نفسي.
٨ الحَيْن: الهلاك والأجل.
٩ نور النَّيلوفر: نور: الزَّهر. والنَّيلوفر: ضرب من الرَّياحين تنبت في المياه.
١٠ طمحت: مالت وارتفعت.
١١ السِّباخ: الأرض المالحة. والسَّبخة: هي الأرض ذات النَّزِّ والملح.
١٢ يُسارّ: يُكلِّم بكلام خفي.

قَالَ دِمْنَةُ: دَعْ عَنْكَ هَذَا الكَلاَمَ وَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ. قَالَ شَتْرَبَةُ: بِأَيِّ شَيءٍ أَحْتَالُ لِنَفْسِي إِذَا أَرَادَ الأَسَدُ أَكْلِي مَعَ مَا عَرَّفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الأَسَدِ وَسُوْءِ أَخْلاَقِهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُرِدْ بِي إِلاَّ خَيْراً ثُمَّ أَرَادَ أَصْحَابُهُ بِمَكْرِهِمْ وَفُجُوْرِهِمْ هَلاَكِي لَقَدَرُوا علَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ المَكَرَةُ[1] الظَّلَمَةُ عَلَى البَرِيءِ الصَّالِحِ كَانُوا خُلَقَاءَ[2] أَنْ يُهْلِكُوْهُ، وَإِنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَهُوَ قَوِيٌّ. كَمَا أَهْلَكَ الذِّئْبُ وَالغُرَابُ وَابْنُ آَوَى الجَمَلَ حِيْنَ اجتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالمكْرِ وَالخَدِيْعَةِ وَالخِيَانَةِ. قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟.

مَثَلُ الذِّئْبِ وَالغُرَابِ وَابْنِ آوَى وَالجمَلِ

قَالَ شَتْرَبَةُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسَداً كَانَ فِي أَجَمَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِطَرِيْقٍ مِنْ طُرُقِ النَّاسِ، وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ ثَلاَثَةٌ ذِئْبٌ وَغُرَابٌ وَابْنُ آوَى. وَإِنَّ رُعَاةً مَرُّوا بِذَلِكَ الطَّرِيْقِ وَمَعَهُمْ جِمَالٌ. فَتَخَلَّفَ مِنْها جَمَلٌ فَدَخَلَ تِلْكَ الأَجَمَةِ حَتَّى انتَهَى إِلَى الأَسَدِ، فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ مَوْضِعِ كَذَا. قَالَ: فَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: مَا يَأْمُرُني بِهِ الملِكُ. قَالَ: تُقِيْمُ عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالأَمْنِ وَالخِصْبِ. فَأَقَامَ الأَسَدُ وَالجَمَلُ مَعَهُ زَمَاناً طَوِيْلاً. ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الأيَّامِ لِطَلَبِ الصَّيْدِ، فَلَقِيَ فِيْلاً عَظِيْماً، فَقَاتَلَهُ قِتَالاً شَدِيْداً وَأَفْلَتَ مِنْهُ مُثْقَلاً مُثْخَناً بالجِرَاحِ[3]، يَسِيْلُ مِنْهُ الدَّمُ وَقَدْ خَدَشَهُ الفِيْلُ بِأَنْيَابِهِ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَانِهِ وَقَعَ لاَ يَسْتَطِيْعُ حَرَاكاً وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ، فَلَبِثَ الذِّئْبُ وَالغُرَابُ وابنُ آوَى أَيَّاماً لاَ يَجِدُوْنَ طَعَاماً، لأَنَّهم كَانُوا يَأْكُلُوْنَ مِنْ فضَلاتِ الأَسَدِ وَطَعَامِهِ. فَأَصَابَهُمْ وَأَصَابَهُ جُوْعٌ شَدِيْدٌ وَهُزَالٌ[4]، وَعَرَفَ الأَسَدُ مِنْهُمْ ذَلِكَ فَقَالَ: لَقَدْ جُهِدْتُمْ وَاحْتَجْتُمْ إِلَى مَا تَأْكُلُوْنَ. فَقَالُوا: لاَ تُهِمُّنَا أَنْفُسُنَا، لَكِنَّا نَرَى المَلِكَ علَى مَا نَرَاهُ فَلَيْتَنَا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيُصْلِحُهُ. قَالَ الأَسَدُ: مَا أَشُكُّ فِي نَصِيْحَتِكُمْ وَلَكِنِ انْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيْبُوْنَ صَيْداً تَأْتُوْنَنِي بِهِ، فَيُصِيْبُنِي وَيُصيْبُكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ.

فَخَرَجَ الذِّئْبُ وَالغُرَابُ وَابْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الأَسَدِ فَتَنَحَّوْا وَائْتَمَرُوا[5] فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا: مَا لَنَا وَلِهَذَا الآكِلِ العُشْبِ[6] الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ مِنْ شَأْنِنَا وَلاَ رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنَا، أَلاَ نُزَيِّنُ لِلأَسَدِ فَيَأْكُلَهُ وَيُطْعِمَنَا مِنْ لَحْمِهِ. قَالَ ابْنُ آوَى: هَذَا مِمَّا لاَ نَسْتَطِيْعُ ذِكْرَهُ لِلأَسَدِ، لأَنَّهُ قَدْ أَمَّنَ الجَمَلَ وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ[7].

---

١ المَكَرَة: جمع ماكر، وهو المحتال.

٢ خلقاء: جمع خليق وهو الجدير.

٣ مثخناً بالجراح: أصابته جراح بليغة.

٤ الهزال: الضَّعف الشَّديد.

٥ ائتمروا: تشاوروا.

٦ آكل العشب: قصد به الجمل.

٧ جعل له ذمّته: قطع له عهداً.

قَالَ الغُرَابُ: أَنا أَكْفِيْكُمْ أَمْرَ الأَسَدِ.
ثُمَّ انْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الأَسَــدُ: هَلْ أَصَــبْتَ شَــيْئاً؟ قَالَ الغُرَابُ: إِنَّمَا يُصِيْبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ. وَأَمَّا نَحْنُ فَلاَ سَعْيَ لَنَا وَلاَ بَصَرَ لِمَا بِنَا مِنَ الجُوْعِ، وَلَكِنْ قَدْ وُفِّقْنَا إِلَى أَمْرٍ وَاجْتَمعْنَا عَلَيْهِ إِنْ وَافَقَنَا المَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيْبُوْنَ. قَالَ: الأَسَــدُ وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ الغُرَابُ: هَذَا الجَمَلُ آكِلُ العُشْــبِ المُتمَرِّغُ بَيْنَنَا مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ لَنَا مِنْهُ، وَلاَ رَدٍّ عَائِدَةٍ، وَلاَ عَمَلٍ يَعْقِبُ مَصْــلَحَةً. فَلما سَــمِعَ الأَسَــدُ ذَلِكَ غَضِــبَ وَقَالَ: مَا أَخْطأَ رَأْيَكَ وَمَا أَعْجَزَ مَقَالَكَ وَأَبْعَدَكَ عَنِ الوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ!! وَمَا كُنْتُ حَقِيْقاً أَنْ تَجتَرِئَ عَلَيَّ بِهَذِهِ المقَالَةِ، وَتَسْــتَقْبِلَنِي بِهَذَا الخِطَابِ مَعَ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَنِّي قَدْ أَمَّنْتُ الجَمَلَ، وَجَعَلْتُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِي، أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَــدَّقْ مُتَصَــدِّقٌ بِصَــدَقَةٍ هِيَ أَعْظَمُ أَجْراً مِمَّنْ أَمَّنَ نَفْســاً خَائِفَةً، وَحَقَنَ دَماً مَهْدُوْراً. وَقَدْ أَمَّنْتُهُ وَلَسْتُ بِغَادِرٍ بِهِ وَلاَ خَافِرٍ لَهُ ذِمَّةً.
قَالَ الغُرَابُ: إِنِّي لأَعْرِفُ مَا يَقُوْلُ المَلِكُ، وَلَكِنَّ النَّفْسَ الوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ البَيْتِ، وَأَهْلُ البَيْتِ تُفْتَدَى بِهِمِ القَبِيْلَةُ، وَالقَبِيلةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ المِصْــرِ، وَأَهْلُ المِصْــرِ فِدَى المَلِكِ. وَقَدْ نَزَلَتْ بِالمَلِكِ الحَاجَةُ، وَأَنا أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ مَخْرَجاً عَلَى أَنْ لاَ يَتكَلَّفَ المَلِكُ ذَلِكَ، وَلاَ يَلِيَهِ بِنَفْسِــهِ، وَلاَ يَأْمُرَ بِهِ أَحَداً. وَلَكِنَّا نَحْتَالُ بِحِيْلَةٍ لَنَا وَلَهُ فِيْهَا صَــلاَحٌ وَظَفَرٌ. فَسَــكَتَ الأَسَــدُ عَنْ جَوَابِ الغُرَابِ عَنْ هَذَا الخِطَابِ. فَلَمَّا عَرَفَ الغُرَابُ إِقْرَارَ الأَسَــدِ أَتَى صَــاحِبَيْهِ فَقَالَ لَهُمَا: قَدْ كَلَّمْتُ الأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الجَمَلَ عَلَى أَنْ نَجتَمِعَ نَحْنُ وَالجَمَلُ عِنْدَ الأَسَدِ، فَنَذْكُرَ مَا أَصَابَهُ وَنَتَوجَّعَ لَهُ اهْتِمَاماً مِنَّا بِأَمْرِهِ وَحِرْصــاً عَلَى صَــلاَحِهِ، وَيَعْرِضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَــهُ عَلَيْهِ تَجَمُّلاً لِيأْكُلَهُ فَيَرُدَّ الآخَرَانِ عَلَيْهِ، وَيُسَــفِّهَا رَأْيَهُ، وَيُبَيِّنَا الضَّــرَرَ فِي أَكْلِهِ.
فَإِذَا جَاءَتْ نَوْبَةُ الجَمَلِ صَوَّبْنَا رَأْيَهُ فَهَلَكَ وَسَلِمْنَا كُلُّنَا وَرَضِيَ الأَسَدُ عَنَّا.
فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَتَقَدَّمُوا إِلَى الأَسَدِ. فقَالَ الغُرَابُ: قَدِ احْتَجْتَ أَيُّهَا المَلِكُ إِلَى مَا يَقُوْتُكَ، وَنحنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ أَنْفُســنَا لَكَ فَإِنَّا بِكَ نَعِيْشُ، فَإِذَا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لأَحَدٍ مِنَّا بقَاءٌ بَعْدَكَ، وَلاَ لَنَا فِي الحَيَاةِ مِنْ خِيْرَةٍ فَلْيَأْكُلْنِي المَلِكُ، فَقَدْ طِبْتُ بِذَلِكَ نَفْســاً. فَأَجَابَهُ الذِّئْبُ وَابْنُ آوى: أَنِ اسْــكُتْ فَلاَ خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ وَلَيْسَ فِيْكَ شِــبَعٌ. قَالَ ابْنُ آوَى: لَكِنْ أَنَا أُشْــبِعُ المَلِكَ، فَلْيَأْكُلْنِي فَقَدْ رَضِــيْتُ بِذَلِكَ وَطِبْتُ نَفْســاً. فَرَدَّ عَلَيْهِ الذِّئبُ وَالغُرَابُ بِقَوْلِهِما: إِنَّك لمُنْتِنٌ قَذِرٌ. قَالَ الذِّئْبُ: إِنِّي لَسْــتُ كَذَلِكَ فَلْيَأْكُلْنِي المَلِكُ، فَقَدْ سَمَحْتُ بِذَلِكَ وَطَابَتْ بِهِ نَفْسِي. فَاعْتَرَضَهُ الغُرَابُ وَابْنُ آوَى وقَالا: قَدْ قَالَتِ الأَطِبَّاءُ: مِنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْســه فَلْيَأْكُلْ لَحمَ ذِئْبٍ. فَظَنَّ الجَمَلُ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْســهُ عَلَى الأَكْلِ التَمَسُــوا لَهُ عُذْراً كَمَا الْتَمَسَ بَعْضُــهُمْ لِبَعْضِ الأَعْذَارِ، فيسْــلَمُ ويَرْضَى الأَسَدُ عَنْهُ بِذَلِكَ وَيَنْجُو مِنَ المَهَالِكِ. فَقَالَ: لَكِنْ أَنا فِيَّ لِلْمَلِكِ شِبعٌ وَرِيٌّ وَلَحْمِي طَيِّبٌ هَنِيٌّ وبَطْنِي نَظِيْفٌ، فَلْيَأْكُلْنِي المَلِكُ، وَيُطْعِمْ أَصْــحَابَهُ وَخَدَمَهُ فَقَدْ رَضِيْتُ بِذَلِكَ وَطَابَتْ نَفْسِي بِهِ.

فَقَالَ الذِّئبُ وَابْنُ آوَى وَالغُرَابُ: لَقَدْ صَــدَقَ الجَمَلُ وَكَرُمَ وَقَالَ مَا عَرَفَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَّقُوْهُ.
وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ أصْحَابُ الأَسَدِ قَدِ اجْتَمعُوا عَلَى هَلاَكِي، فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَمْتَنِعَ مِنْهُمْ وَلاَ أَحْتَرِسَ، وَإِنْ كَانَ رَأْيُ الأسَدِ فيَّ عَلَى غَيْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَنْفَعُنِي وَلاَ يُغْنِي عَنِّي شَيْئاً.
وَقَدْ يُقَالُ: خَيْرُ السَّلاَطِيْنِ مَنْ أَشْبَه النَّسْرَ وَحَوْلَهُ الجِيَفُ، لاَ مَنْ أَشْبَهَ الجِيْفَةَ حَوْلَهَا النُّسوْرُ. وَلَوْ أَنَّ الأَسَدَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ لِي إِلاَّ الخَيْرُ والرَّحْمَةُ لَغَيَّرَتْهُ كَثْرَةُ الأَقَاوِيْلِ، فَإِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ لَمْ تَكُفَّ دُوْنَ أَنْ تُذْهِبَ الرِّقَّةَ وَالرَّأْفَةَ. أَلاَ تَرَى المَاءَ لَيْسَ كَالقَوْلِ، وَأَن الحَجَرَ أَشَدُّ مِنَ الإِنْسَانِ. وَالماءُ إِذَا دَامَ انْحِدَارُهُ عَلَى الحَجَرِ لَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى يَثْقُبَهُ وَيُؤَثِّرَ فِيْهِ، وَكَذَلِكَ القَوْلُ فِي الإِنْسَانِ.
قَالَ دِمْنَةُ: فَمَاذَا تَرِيْدُ أَنْ تَصْنَعَ الآنَ؟ قَالَ شَتْرَبَةُ: مَا أَرَى إِلاَّ الاِجْتِهَادَ وَالمُجَاهَدَةَ بِالقِتَالِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْمُصَلِّي فِي صَلاَتِهِ، وَلاَ لِلْمُحْتَسِبِ فِي صَدَقَتِهِ، وَلاَ لِلْوَرِعِ فِي وَرَعِهِ مِنَ الأَجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِ عَنْ نَفْسِهِ إِذَا كَانَتْ مُجَاهَدَتُهُ عَلَى الحقِّ.
قَالَ دِمْنَةُ: لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يُخَاطِرَ بِنَفْسِهِ وَهُوَ يَسْتَطِيْعُ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ جَاعِلٌ القِتَالَ آخِرَ الحِيَلْ، وَبَادِئٌ قَبْلَ ذَلِكَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ رِفْقٍ وَتَمحُّلٍ، وَقَدْ قِيْلَ: لاَ تَحْقِرَنَّ العَدُوَّ الضَّعِيْفَ المُهِيْنَ وَلاَ سِيَّما إِذَا كَانَ ذَا حِيْلَةٍ وَيَقْدِرُ على الأَعْوَانِ. فَكَيْفَ بِالأَسَدِ عَلَى جَرَاءَتِهِ وَ شِدَّتِهِ، فَإِنَّ مَنْ حَقَرَ عَدُوَّهُ لِضُعْفِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ وَكِيْلَ البَحْرِ مِنَ الطِّيْطَوَى قَالَ شَتْرَبَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ الطِّيْطَوَى وَوَكِيْلِ البَحْرِ
قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَن طَائِراً مِنْ طُيُوْرِ البَحْرِ يُقَالُ لَهُ الطِّيْطَوَى، كانَ وَطَنُهُ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ، فَلمَّا جَاءَ أَوَانُ إِفْرَاخِهِمَا قَالَتِ الأُنْثَى لِلْذَّكَرِ: لَوْ التَمَسْنَا مَكَاناً حَرِيْزاً غَيْرَ هَذَا نُفْرِخُ فيْهِ، فَإِنِّي أَخَافُ مِنَ البَحْرِ إِذَا مَدَّ المَاءُ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاخِنا، فَقَالَ لَهَا: مَا أَرَاهُ يَحْمِلُ عَلَيْنَا[1]، فَإِنَّ وَكِيْلَ البَحْرِ يَخَافُنِي أَنْ أَنْتَقِمَ فَأَفْرِخِي فِي مَكَانِكِ، فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ لَنَا وَالمَاءُ والزَّهْرُ مِنَّا قَرِيْبٌ. قَالَتْ لَهُ: يا غَافِلُ مَا أَشَدَّ عِنَادَكَ وَتَصَلُّبَكَ! أَمَّا تَذْكُرُ وَعِيْدَهُ وَتَهَدُّدَهُ إِيَّاكَ؟ أَلاَ تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ فِي وَعِيْدِ مَنْ لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ؟ فَأَبَى أَنْ يُطِيْعَهَا. فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَهَا قَالَتْ لَهُ: إِنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ النَّاصِحِ يُصِيْبُهُ مَا أَصَابَ السُّلحْفَاةَ حِيْنَ لَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ البَطَّتَيْنِ. قَالَ الذَّكَرُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ السُّلْحُفَاةِ وَالبَطَّتَيْنِ

---

١ يحمل علينا: يهجم.

قَالَتِ الأُنْثَى: زَعَمُوا أَنَّ غَدِيْراً كَانَ عِنْدَهُ عُشْــبٌ وَكَانَ فِيْهِ بَطَّتَانِ، وَكَانَ فِي الغَدِيْرِ سُلَحْفَاةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ البَطَّتَيْنِ مُوَدَّةٌ وَصَدَاقَةٌ، فَاتَّفَقَ أَنْ غِيْضَ[1] ذَلِكَ المَاءُ فَجَاءَتِ البَطَّتَانِ لِوَدَاعِ السُّــلَحْفَاةِ، وَقَالَتَا: السَّــلاَمُ عَلَيْكِ فَإِنَّنَا ذَاهِبَتَانِ عَنْ هَذَا المَكَانِ لأَجْلِ نُقْصَانِ المَاءِ عَنْهُ. فَقَالَتْ: إِنَّمَا يَبِيْنُ نُقْصَانُ المَاءُ عَلَى مِثْلِي الَّتِي كَأَنِّي السَّــفِيْنَةُ لاَ أَقْدِرُ عَلَى العَيْشِ إِلاَّ بِالمَاءِ. فَأَمَّا أَنْتُمَا فَتَقْدِرَانِ عَلَى العَيْشِ حَيْثُ كُنْتُما، فَاذْهَبَا بِي مَعَكُمَا. قَالَتَا: نَعَمْ. قَالَتْ: كَيْفَ السَّــبِيْلُ إِلَى حَمْلِي؟ قَالَتَا: نَأْخُذُ بِطَرَفَيْ عُوْدٍ وَتَقْبِضِــيْنَ بِفِيْكِ عَلَى وَسَطِهِ وَنَطِيْرُ بِكِ فِي الجَوِّ، وَإِيَّاكِ إِذَا سَمِعْتِ النَّاسَ يَتَكَلَّمُوْنَ أَنْ تَنْطِقِي. ثُمَّ أَخَذَتَاهَا فَطَارَتَا بِهَا فِي الجَوِّ. فَقَالَ النَّاسُ: عَجَبٌ سُلَحْفَاةٌ بَيْنَ بَطَّتَيْنِ قَدْ حَمَلَتَاهَا!!

فَلَمَّا سَــمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ: فَقَأَ الله أَعْيُنَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاهَا بِالنُّطْقِ وَقَعَتْ عَلَى الأَرْضِ فَمَاتَتْ.

قَالَ الذَّكَرُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكِ فَلاَ تَخَافِي وَكِيْلَ البَحْرِ. فَلَمَّا مَدَّ المَاءُ[2] دَنَا وَكِيْلُ البَحْرِ فَذَهَبَ بِفِرَاخِهِمَا. فَقَالَتْ الأُنْثَى: قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدْءِ الأَمْرِ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ وَمَا أَصَــابَنَا إِنَّمَا هُوَ بِتَفْرِيْطِكَ[3]. قَالَ الذَّكَرُ: قَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنا عَلَى قَوْلِي وَسَوْفَ تَرَيْنَ صُنْعِي بِهِ وَانْتِقَامِي مِنْهُ، ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فقَالَ لَهُنَّ: إِنَّكُنَّ أَخَوَاتِي وَثِقَاتِي[4] فَأَعِنَّنِي.

قُلْنَ: مَاذَا تُرِيْدُ أَنْ نَفْعَلَ؟ قَالَ: تَجتَمِعْنَ مَعِي إِلَى سَــائِرِ الطَّيْرِ فَنَشْــكُو إِلَيْهِنَّ مَا لَقِيْتُ مِنْ وَكِيْلِ البَحْرِ، وَنَقُوْلُ لَهُنَّ: إِنَّكُنَّ طَيْرٌ مِثْلُنَا فَأَعِنَّنَا. فَقَالَتْ لَهُ جَمَاعَةُ الطَّيْرِ: إِنَّ العَنْقَاءَ[5] بِنْتَ الرِّيْحِ هِيَ سَــيِّدَتُنَا وَمَلِكَتُنَا، فَاذْهَبْ بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى نَصِيْحَ بِهَا، فَتَظْهَرَ لَنَا، فَنَشْكُوَ إِلَيْهَا مَا نَالَكَ مِنْ وَكِيْلِ البَحْرِ، وَنَسْأَلَهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا مِنْهُ بِقُوَّة مُلْكِهَا. ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطِّيْطَوَى فَاسْتَغَثْنَهَا[6]، وَصِحْنَ بِهَا فَتَرَاءَتْ لَهُنَّ فَأَخْبَرْنَهَا وَسَــأَلْنَهَا أَنْ تَطِيْرَ مَعَهُنَّ إِلَى مُحَارَبَةِ وَكِيْلِ البَحْرِ، فَأَجَابَتْهُنَّ إِلَى ذَلِكَ.

---

١ غيض: نقص.

٢ مدَّ الماء: ارتفع وغمر شيئاً من الساحل.

٣ تفريطك: تقصيرك.

٤ ثقاتي: اللَّواتي أثق بكنَّ.

٥ العنقاء: طائر متوهَّم لا وجود له. جاء في كتاب حياة الحيوان للدّميري (٣/ ٢٣٦) قوله: «قال بعضهم: هو طير غريب يبيض بيضاً كالجبال، ويبعد في طيرانه، سمّيت بذلك لأنَّه في عنقها بياضاً كالطَّوق. وقال القزويني: إنَّها أعظم الطَّير جثَّة. وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر».

٦ استغثنها: طلبن مساعدتها.

فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيْلُ البَحْرِ أَنَّ العَنْقَاءَ قَدْ قَصَـدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ خَافَ مِنْ مُحَارَبَةِ مَلِكٍ لاَ طَاقَةَ لَهُ بِهِ، فَرَدَّ فِرَاخَ الطِّيْطَوَى وَصَالَحَهُ فَرَجَعَتِ العَنْقَاءُ عَنْهُ.

وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الحَدِيْثِ لِتَعْلَمَ أَنَّ القِتَالَ مَعَ الأَسَدِ لاَ أَرَاهُ لَكَ رَأْياً.

قَالَ شَتْرَبَةُ: فَمَا أَنا بِمُقَاتِلٍ الأَسَدَ، ولاَ نَاصِبٍ لَهُ العَدَاوَةَ سِرّاً وَلاَ عَلاَنِيَّةً، وَلاَ مُتَغَيِّرٍ لَهُ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يَبْدُوَ لِي مِنْهُ مَا أَتَخَوَّفُ فَأُغَالِبُهُ. فَكَرِهَ دِمْنَةُ قَوْلَهُ وَعَلِمَ أَنَّ الأَسَـدَ إِنْ لَمْ يَرَ مِنَ الثَّوْرِ العَلاَمَاتِ الَّتِي كَانَ ذَكَرَهَا لَهُ اتَّهَمَهُ وَأَسَـاءَ بِهِ الظَّنَّ.

فَقَالَ شَتْرَبَةُ: فَمَا أَنا بِمُقَاتِلٍ الأَسَدَ، وَلاَ نَاصِبٍ لَهُ العَدَاوَةَ سِرّاً وَلاَ عَلاَنِيَّةً، وَلاَ مُتَغَيِّرٍ لَهُ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يَبْدُوَ لِي مِنْهُ مَا أَتَخَوَّفُ فَأُغَالِبُهُ. فَكَرِهَ دِمْنَةُ قَوْلَهُ وَعَلِمَ أَنَّ الأَسَـدَ إِنْ لَمْ يَرَ مِنَ الثَّوْرِ العَلاَمَاتِ الَّتِي كَانَ ذَكَرَهَا لَهُ اتَّهَمَهُ وَأَسَـاءَ بِهِ الظَّنَّ.

فَقَالَ لِشَـتْرَبَةَ: اذْهَبْ إِلَى الأَسَـدِ فَسَـتَعْرِفُ حِيْنَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَا يُرِيْدُ مِنْكَ. قَالَ شَـتْرَبَةُ وَكَيْفَ أَعْرِفُ ذَلِكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: سَـتَرَى الأَسَـدَ حِيْنَ تَدْخُلُ عَلَيْهِ مُقْعِياً[١] عَلَى ذَنَبِهِ، رَافِعاً صَدْرَهُ إِلَيْكَ، مَادّاً بَصَرَهُ نَحْوَكَ، قَدْ صَرَّ[٢] أُذُنَيْهِ وَفَغَرَ[٣] فَاهُ وَاسْتَوَى لِلْوَثْبَةِ[٤].

قَالَ: إِنْ رَأَيْتُ هَذِهِ العَلاَمَاتِ مِنَ الأَسَدِ عَرَفْتُ صِدْقَكَ فِي قَوْلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ لمَّا فَرَغَ مِنْ تَحْرِيْشِ الأَسَـدِ عَلَى الثَّوْرِ، وَالثَّوْرِ عَلَى الأَسَـدِ تَوَجَّهَ إِلَى كَلِيْلَةَ، فَلمَّا التَقَيَا قَالَ كَلِيْلَةُ: إِلاَمَ انْتَهَى عَمَلُكَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ؟ قَالَ دِمْنَةُ: قَرِيْبٌ مِنَ الفَرَاغِ عَلَى مَـا أُحِبُّ وَتُحِبُّ. ثُمَّ إِنَّ كَلِيْلَـةَ وَدِمْنَـةَ انْطَلَقَـا جَمِيْعـاً لِيَحْضُرَا قِتالَ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ، وَيَنْظُرَا مَا يَجْرِي بَيْنَهُم وَمَا يَؤُوْلُ إِلَيْهِ أَمْرُهُما.

وَجَاءَ شَـــتْرَبَةُ فَدَخَلَ عَلَى الأَسَـــدِ، فَرَآهُ مُقْعِياً كَمَا وَصَـــفَهُ لَهُ دِمْنَةُ. فَقَالَ: مَا صَاحِبُ السُّلْطَانِ إِلاَّ كَصَاحِبِ الحَيَّةِ الَّتِي فِي صَدْرِهِ لاَ يَدْرِي مَتَى تَهِيْجُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ إِنَّ الأَسَـــدَ نَظَرَ إِلَى الثَّوْرَ فَرَأَى الدِّلاَلاَتِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَهُ دِمْنَةُ فَلَمْ يَشُـــكَّ أَنَّهُ جَاءَ لِقِتَالِهِ، فَوَاثَبَهُ ونَشَـأَتْ بَيْنَهُما الحَرْبُ، وَاشْـتَدَّ قِتَالُ الثَّوْرِ وَالأَسَـدِ، وَطَالَ وَسَالَتْ بَيْنَهُما الدِّمَاءُ.

---

١ مقعياً: جالساً على إليته ناصباً فخذيه كجلوس الكلب.

٢ صرَّ: نصب.

٣ فغر: فتح فمه.

٤ استوى للوثبة: جلس للقفز والهجوم.

فَلَمَّا رَأَى كَلِيْلَةُ أَنَّ الأَسَدَ قَدْ بَلَغَ مِنَ القِتَالِ مَا بَلَغَ، قَالَ لِدِمْنَةَ: أَيُّهَا الفَسْلُ[1]، مَا أَنْكَرَ جَهْلَتَكَ وَأَسْوَأَ عَاقِبَتَكَ فِي تَدْبِيْرِكَ! قَالَ دِمْنَةُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ كَلِيْلَةُ: جُرِحَ الأَسَدُ وَهَلَكَ الثَّوْرُ. وَإِنَّ أَخْرَقَ الخُرْقِ[2] مَنْ حَمَلَ صَاحِبَهُ عَلَى سُوْءِ الخُلُقِ والمُبَارَزَةِ وَالقِتَالِ، وَهُوَ يَجِدُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَبِيْلاً، وَإِنَّمَا الرَّجُلُ إِذَا أَمْكَنَتْهُ الفُرْصَةُ مِنْ عَدُوِّهِ يَتْرُكُهُ مَخَافَةَ التَّعَرُّضِ لَهُ بِالمُجَاهَرَةِ، وَرَجَاءَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ بِدُوْنِ ذَلِكَ. وَإِنَّ العَاقِلَ يُدَبِّرُ الأَشْيَاءَ وَيَقِيْسُهَا قَبْلَ مُبَاشَرَتِهَا، وَرَجَاءَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ بِدُوْنِ ذَلِكَ. وَإِنَّ العَاقِلَ يُدَبِّرُ الأَشْيَاءَ وَيَقِيْسُهَا قَبْلَ مُبَاشَرَتِهَا، فَمَا رَجَا أَنْ يَتِمَّ لَهُ مِنْهَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَمَا خَافَ أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ مِنْهَا انْحَرَفَ عَنْهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ. وَإِنِّي لأَخَافُ عَلَيْكَ عَاقِبَةَ بَغْيِكَ[3] هَذَا، فَإِنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ القَوْلَ وَلَمْ تُحْسِنِ العَمَلَ. أَيْنَ مُعَاهَدَتُكَ إِيَّايَ أَنَّكَ لاَ تُضِرُّ بِالأَسَدِ فِي تَدْبِيْرِكَ؟

وَقَدْ قِيْلَ: لاَ خَيْرَ فِي القَوْلِ إِلاَّ مَعَ العَمَلِ، وَلاَ فِي الفِقْهِ إِلاَّ مَعَ الوَرَعِ، وَلاَ فِي الصَّدَقَةِ إِلاَّ مَعَ النِّيَّةِ، وَلا فِي المَالِ إِلاَّ مَعَ الجُوْدِ، وَلا فِي الصِّدْقِ إِلا مَعَ الوَفَاءِ، وَلاَ فِي الحَيَاةِ إِلاَّ مَعَ الصِّحَّةِ، وَلاَ فِي الأَمْنِ إِلاَّ مَعَ السُّرُوْرِ. وَقَدْ شَرَطْتَ أَمْراً لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ العَاقِلُ الرَّفِيْقُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الأَدَبَ يُذْهِبُ عَنِ العَاقِلِ الطَّيْشَ، وَيَزِيْدُ الأَحْمَقَ طَيْشاً كَمَا أَنَّ النَّهَارَ يَزِيْدُ كُلَّ ذِي بَصَرٍ نَظَراً، وَيَزِيْدُ الخُفَّاشَ[4] سُوْءَ النَّظَرِ، وَيَكُوْنُ عِنْدَ ذَلِكَ كَالجَبَلِ الَّذِي لاَ تُحرِّكُهُ الرِّيَاحُ الشَّدِيْدَةُ. وَالسَّخِيْفُ كَالعُشْبِ يُحرِّكُهُ أَدْنَى رِيْحٍ، وَقَدْ أَذْكَرَنِي أَمْرُكَ شَيْئاً سَمِعْتُهُ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّ السُّلْطَانَ إِذَا كَانَ صَالِحاً وَوُزَرَاؤُهُ وُزَرَاءَ سُوْءٍ مَنَعُوا خَيْرَهُ فَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنْهُ. وَمَثَلُهُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ المَاءِ الطَّيِّبِ الَّذِي فِيْهِ التَّمَاسِيْحُ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ، وَإِنْ كَانَ إِلَى المَاءِ مُحْتَاجاً. وَإِنَّمَا المَلِكُ وَزِيْنَتُهُ أَنْ تَكُوْنَ جُنُوْدُهُ وَوُزَرَاؤُهُ ذَوِي صَلاَحٍ، فَيُسَدِّدُوْنَ[5] أَحْوَالَ النَّاسِ، وَيَنْظُرُوْنَ فِي صَلاَحِهِمْ.

وَأَنْتَ يَا دِمْنَةُ أَرَدْتَ أَنْ لاَ يَدْنُوَ مِنَ الأَسَدِ أَحَدٌ سِوَاكَ، وَهَذَا أَمْرٌ لاَ يَصِحُّ وَلاَ يَتِمُّ أَبداً، وَذَلِكَ لِلْمَثَلِ المضْرُوْبِ: إِنَّ البَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ وَالسُّلْطَانَ بِأَصْحَابِهِ. وَمِنَ الحُمْقِ الحِرْصُ عَلَى التِمَاسِ الإِخْوَانِ بِغَيْرِ الوَفَاءِ لَهُمْ، وَالتِمَاسِ الآخِرَةِ بِالرِّيَاءِ، وَمُوَدَّةِ النِّسَاءِ بِالغِلْظَةِ، وَنَفْعِ النَّفْسِ بِضَرِّ الغَيْرِ، وَمَا عِظَتِي وَتَأْدِيْبِي إِيَّاكَ إِلاَّ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ لِلطَّائِرِ: لاَ تَلْتَمِسْ تَقْوِيْمَ مَا لاَ يَسْتَقِيْمُ، وَلاَ تُعَالِجْ تَأْدِيْبَ مَا لاَ يَتَأَدَّبُ. قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ مَثَلُ القِرَدَةِ وَالطَّائِرِ وَالرَّجُلِ

---

١ الفسل: الضَّعيف الَّذي لا مروءة له.

٢ الخرق: الجهل والحمق.

٣ بغيك: ظلمك.

٤ الخُفَّاش: طائر ليلي، ضعيف النَّظر، ويقال له: الوطواط.

٥ يسدِّدون: يقوِّمون.

قَالَ كَلِيْلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ القِرَدَةِ كَانُوا سَــاكِنِيْنَ فِي جَبَلٍ، فَالتَمَسُــوا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ذَاتِ رِيَاحٍ وَأَمْطَارٍ نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا، فَرَأَوْا يَرَاعَةً[1] تَطِيْرُ كَأَنَّهَا شَــرَارَةُ نَارٍ فَظَنُّوهَا نَاراً، وَجَمَعُوا حَطَباً كَثِيْراً فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا، وَجَعَلُوا يَنْفُخُوْنَ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَتَرَوَّحُونَ[2] بِأَيْدِيهِمْ طَمَعاً فِي أَنْ يُوْقِدُوا نَاراً يَصْــطَلُوْنَ[3] بِهَا مِنَ البَرْدِ. وَكَانَ قَرِيْباً مِنْهُمْ طَائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ رَأَى مَا صَــنَعُوا فَجَعَلَ يُنَادِيْهِمْ وَيَقُوْلُ: لاَ تَتْعَبُوا فَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمُوْهُ لَيْسَ بِنَارٍ. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ عَزَمَ عَلَى القُرْبِ مِنْهُمْ لِيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيْهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَعَرَفَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: لاَ تَلْتَمِسْ تَقْوِيْمَ مَا لاَ يَسْتَقِيْمُ، فَإِنَّ الحَجَرَ الصُّلْبَ الَّذِي لاَ يَنْقَطِعُ لاَ تُجرَّبُ عَلَيْهِ السُّــيُوْفُ، وَالعُوْدَ الَّذِي لاَ يَنْحَنِي لاَ تُعْمَلُ مِنْهُ القَوْسُ فَلاَ تَتْعَبْ. فَأَبَى الطَّائِرُ أَنْ يُطِيْعَهُ وَتَقَدَّمَ إِلَى القِرَدَةِ لِيُعَرِّفَهُمْ أَنَّ اليَرَاعَةَ لَيْسَــتْ بِنَارٍ، فَتَنَاوَلَهُ بَعْضُ القِرَدَةِ فَضَــرِبَ بِهِ الأَرْضَ فَمَاتَ. فَهَذَا مَثَلُكَ مَعَي فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ الخِبُّ[4] وَالفُجُوْرُ[5] وَهُما خَلَّتَا[6] سُــوْءٍ، وَالخِبُّ شَرُّهُما عَاقِبةً. وَلِهَذَا مَثَلٌ. قَالَ دِمْنَةُ: وَمَا ذَلِكَ المَثَلُ؟

مَثَلُ الخِبِّ وَالمُغَفَّلِ

قَال كَلِيْلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ خِبّاً وَمُغَفَّلاً اشْــتَرَكَا فِي تِجَارَةٍ وَسَــافَرا، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الطَّرِيْقِ تَخَلَّفَ المُغَفَّلُ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ فَوَجَدَ كِيْســاً فِيْهِ أَلْفُ دِيْنَارٍ فَأَخَذَهُ. فَأَحَسَّ بِهِ الخِبُّ فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِهِمَا حَتَّى إِذَا دَنَوَا مِنَ المَدِيْنَةِ قَعَدَا لاِقْتِسَــامِ المَالِ. فَقَالَ المُغَفَّلُ: خُذْ نِصْــفَهُ وَأَعْطِنِي نِصْــفَهُ، وَكَانَ الخِبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفْسِــهِ أَنْ يَذْهَبَ بِالأَلْفِ جَمِيْعِهَا، فَقَالَ: لاَ نَقْتَسِــمُ فَإِنَّ الشَّــرِكَةَ وَالمُفَاوَضَــةَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّــفَاءِ وَالمُخَالَطَةِ، وَلَكِنْ آخُذُ نَفَقَةً وَتَأْخُذُ مِثْلَهَا وَنَدْفِنُ البَاقِي فِي أَصْــلِ هَذِهِ الشَّــجَرَةِ، فَهُوَ مَكَانٌ حَرِيْزٌ وَذَلِكَ أَكْتَمُ لأَمْرِنَا، فَإِذَا احْتَجْنَا جِئْنَا أَنا وَأَنْتَ فَنَأْخُذُ حَاجَتَنَا مِنْهُ وَلاَ يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنَا أَحَدٌ.

فَأَخَذَا مِنْهَا يَسِــيْراً وَدَفَنَا الباقِيَ فِي أَصْــلِ الشَّــجَرَةِ وَدَخَلاَ البَلَدَ. ثُمَّ إِنَّ الخِبَّ خَالَفَ المُغَفَّلَ إلى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَها وسَوَّى الأَرْضَ كَمَا كَانَتْ. وَجَاءَ المُغَفَّلُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلْخِبِّ: قَدِ احْتَجْتُ إِلَى نَفَقَةٍ فَانْطَلِقْ بِنَا نَأْخُذُ حَاجَتَنَا.

---

١ اليراعة: ذبابة تطير باللَّيل كأنَّها شرارة نار، تعرف عند بعض العامة بسراج اللَّيل.

٢ يتروَّحون: يجلبون الرِّيح.

٣ يصطلون: اصطلى بالنَّار: تدفَّأ.

٤ الخِبُّ: الخبث والخداع.

٥ الفجور: الكذب والعصيان.

٦ خَلَّتا: صفتا.

فَقَامَ الخِبُّ مَعَهُ وذَهَبَا إِلَى المَكَانِ فَحفَرا فَلَمْ يَجِدَا شَيْئاً. فَأَقْبَلَ الخِبُّ عَلَى وَجْهِهِ يَلْطِمُهُ وَيَقُوْلُ: لاَ تَغْتَرَّ بِصُحْبَةِ صَاحِبٍ، خَالَفْتَنِي إِلَى الدَّنَانِيْرِ فَأَخَذْتَهَا. فَجَعَلَ المُغَفَّلُ يَحْلِفُ وَيَلْعَنُ آخِذَهَا، وَلا يَزْدَادُ الخِبُّ إِلاَّ شِدَّةً فِي اللَّطْمِ وَقَالَ: مَا أَخَذَهَا غَيْرُكَ، وَهَلْ شَعَرَ بِهَا أَحَدٌ سِوَاكَ؟ ثُمَّ طَالَ بَيْنَهُما ذَلِكَ فَتَرافَعَا إِلَى القَاضِي، فَاقْتَصَّ القَاضِي قِصَّتَهُما[١]. فَادَّعَى الخِبُّ أَنَّ المُغَفَّلَ أَخَذَهَا، وَجَحَدَ[٢] المُغَفَّلُ. فَقَالَ لِلْخِبِّ أَلَكَ عَلَى دَعْوَاكَ بَيِّنَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَتِ الدَّنَانِيْرُ عِنْدَهَا تَشْهَدُ لِي أَنَّ المُغَفَّلَ قَدْ أَخَذَهَا! وَكَانَ الخِبُّ قَدْ أَتَى فَقَصَّ عَلَيْهِ القِصَّةَ وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ فَيَتَوَارَى[٣] فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذَا سُئِلَ أَجَابَ. فَقَالَ لَهُ أَبُوْهُ: رُبَّ مُتَحَيِّلٍ[٤] أَوْقَعَهُ تَحَيُّلُهُ فِي وَرْطَةٍ عَظِيْمَةٍ لاَ يَقْدِرُ عَلَى الخَلاَصِ مِنْهَا، فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُوْنَ مَثَلُكَ مَثَلُ العُلْجُوْمِ. قَالَ الخِبُّ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ العُلْجُوْمِ وَالحَيَّةِ وَابْنِ عُرْسٍ

قَالَ أَبُوْهُ: زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُوْماً جَاوَرَ حَيَّةً فَكَانَ كُلَّمَا أَفْرَخَ جَاءَتْ إِلَى عُشِّهِ وَأَكَلَتْ فِرَاخَهُ. فَفَزِعَ فِي ذَلِكَ إِلَى السَّرَطَانِ فَقَالَ لَهُ السَّرَطَانُ: إِنَّ بِقُرْبِكَ جُحْراً يَسْكُنُهُ ابْنُ عِرْسٍ وَهُوَ يَأْكُلُ الحَيَّاتِ. فاجْمَعْ سَمَكَاً كَثِيْراً وَفرِّقْهُ مِنْ جُحْرِ ابْنِ عِرْسٍ إِلَى جُحْرِ الحَيَّةِ، فَإِنَّهُ إِذَا بَدَأَ فِي أَكْلِ السَّمَكِ انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الحَيَّةِ فَأَكَلَهَا. فَفَعَلَ وَكَانَ كَذَلِكَ. ثُمَّ تَدَرَّجَ ابْنُ عِرْسٍ إِلَى جُحْرِ الحَيَّةِ فِي طَلَبِ غَيْرِهَا حَتَّى بَلَغَ إِلَى جُحْرِ العُلْجُوْمِ فَأَكَلَهُ أَيْضَاً وَفِرَاخَهُ جَمِيْعاً.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَثَبَّتْ فِي الحِيَلِ وَيَتَدَبَّرْهَا وَيَنْظُرْ فِيْهَا أَوْقَعَتْهُ حِيْلَتُهُ فِي أَشَدَّ مِمَّا يَحْتَالُ لَهُ. قَالَ الخِبُّ: قَدْ فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ وَلَكِنْ لاَ تَخَفْ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَسِيْرٌ حَقِيْرٌ. وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى طَاوَعَهُ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ. ثُمَّ إِنَّ القَاضِيَ لمَّا سَمِعَ مِنَ الخِبِّ حَدِيْثَ شَهَادَةِ الشَّجَرَةِ أَكْبَرَهُ وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، وَالخِبُّ وَالمُغَفَّلُ مَعَهُ حَتَّى وَافَى الشَّجَرَةَ فَسَأَلَهَا عَنِ الخَبَرِ، فَقَالَ الشَّيْخُ مِنْ جَوْفِهَا: نَعَمْ المُغَفَّلُ أَخَذَهَا. فَلَمَّا سَمِعَ القَاضِي ذَلِك اشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ وَجَعَلَ يَطُوْفُ بِالشَّجَرَةِ، حَتَّى بَانَ لَهُ خَرْقٌ فِيْهَا فَتَأَمَّلَهُ فَلَمْ يَرَ فِيْهِ شَيْئاً، فَدَعَا بِحَطَبٍ وَأَمَرَ أَنْ تُحْرَقَ الشَّجَرَةَ، فَأُضْرِمَتْ حَوْلَهَا النِّيْرَانُ. فَاسْتَغَاثَ أَبُو الخِبِّ عِنْدَ ذَلِكَ فَأُخْرِجَ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الهَلاَكِ. فَسَأَلَهُ القَاضِي عَنِ القِصَّةِ فَأَخْبَرَهُ بِالخَبَرِ. فَأَوْقَعَ بِالخِبِّ ضَرْباً وَبِأَبِيْهِ صَفْعاً وَأَرْكَبَهُ مَشْهُوْراً وَغَرَّمَ الخِبَّ الدَّنَانِيْرَ[٥] فَأَخَذَهَا وَأَعْطَاهَا المُغَفَّلَ.

---

١ اقتصَّ القاضي قصَّتهما: طلب القاضي منهما أن يحكيا له قصَّتهما.

٢ جحد: أنكر

٣ يتوارى: يختفي.

٤ متحيّل: صاحب حيلة.

٥ غرَّم الخبَّ الدَّنانير: ألزمه دفعها.

وَإِنَّمَا ضَــرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الخِبَّ وَالخَدِيْعَةَ رُبَّمَا كَانَ صَــاحِبُهُما هُوَ المَغْبُوْنَ، وَإِنَّكَ يَا دِمْنَةُ جَامِعٌ لِلْخِبِّ وَالخَدِيْعَةِ وَالفُجُوْرِ، وَإِنِّي أَخْشَـــى عَلَيْكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ مَعَ أَنَّكَ لَسْـــتَ بِنَاجٍ مِنَ العُقُوْبَةِ لأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ وَلِسَـــانَيْنِ. وَإِنَّمَا عُذُوْبَةُ مَاءِ الأَنْهَارِ مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى البِحَارِ، وَصَــلاَحُ أَهْلِ البَيْتِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمُ المُفْسِدُ. وَإِنَّهُ لا شَيءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الحَيَّةِ ذَاتِ اللِّسَانَيْنِ الَّتِي فِيْهَا السُّمُّ، فَإِنَّهُ قَدْ يَجْرِي مِنْ لِسَانِكَ كَسُمِّهَا، وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ لِذَلِكَ السُّمِّ مِنْ لِسَانِكَ خَائفاً، وَلَمَا يَحُلُّ بِكَ مُتَوَقِّعاً. وَالمُفْسِــدُ بَيْنَ الإِخْوَانِ وَالأَصْــحَابِ كَالحَيَّةِ الَّتِي يُرَبِّيْهَا الرَّجُلُ وَيُطْعِمُهَا وَيَمْسَحُهَا وَيُكْرِمُهَا، ثُمَّ لاَ يَكُوْنُ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ اللَّدْغِ. وَقَدْ يُقَالُ: الزَمْ ذَا العَقْلِ وَذَا الكَرَمِ وَذَا الأَصْـــلِ الطَّيِّبِ، وَاسْـــتَرْسِـــلْ إِلَيْهِمْ وَإِيَّاكَ وَمُفَارَقَتَهُمْ، وَاصْـــحَبِ الصَّـــاحِبَ إِذَا كَانَ عَاقِلاً كَرِيْماً أَوْ عَاقِلاً غَيْرَ كَرِيْمٍ أَوْ كَرِيْماً غَيْرَ عَاقِلٍ، فَالعَاقِلُ الكَرِيْمُ كَامِلٌ، وَالعَاقِلُ غَيْرُ الكَرِيْمِ اصْحَبْهُ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَحْمُوْدِ الخَلِيْقَةِ[١]، واحْذَرْ مِنْ سُوْءِ أَخْلاَقِهِ وَانْتَفِعْ بِعَقْلِهِ.

وَالكَرِيْمُ غَيْرُ العَاقِلِ الزَمْهُ وَلاَ تَدَعْ مُوَاصَــلَتَهُ وَإِنْ كُنْتَ لاَ تَحْمَدُ عَقْلَهُ، وَانْتَفِعْ بِكَرَمِهِ وَانْفَعْهُ بِعَقْلِكَ. وَالفِرَارَ كُلَّ الفِرَارِ مِنَ اللَّئِيْمِ الأَحْمَقِ، وَإِنِّي بِالفِرَارِ مِنْكَ لَجَدِيْرٌ، وَكَيْفَ يَرْجُو إِخْوَانُكَ عِنْدَكَ كَرَماً وَوُدّاً وَقَدْ صَــنَعْتَ بِمَلِكِكَ الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَــرَّفَكَ مَا صَنَعْتَ؟ وَإِنَّ مَثَلَكَ مَثَلُ التَّاجِرِ الَّذِي قَالَ: إِنَّ أَرْضــاً تَأْكُلُ جِرْذَانُهَا مِئَةَ مَنٍّ[٢] حَدِيداً لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ لِبُزَاتِهَا[٣] أَنْ تَخْتَطِفَ الفِيْلَةَ. قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ التَّاجِرِ وَالأَرْضِ الَّتِي تَأْكُلُ جِرْذَانُهَا الحَدِيْدِ

قَالَ كَلِيْلَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ كَذَا تَاجِرٌ، فَأَرَادَ الخُرُوْجَ إِلَى بَعْضِ الوُجُوْهِ لاِبْتِغَاءِ الرِّزْقِ، وَكَانَ عِنْدَهُ مِئَةُ مَنٍّ حَدِيْداً فَأَوْدَعَهَا رَجُلاً مِنْ إِخْوَانِهِ وَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ.

ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ فَجَاءَ وَالتمَسَ الحَدِيْدَ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ أَكَلَتْهُ الجِرْذَانُ.

فَقَالَ: قَدْ سَــمِعْتُ أَنْ لاَ شَــيءَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيَابِهَا لِلْحَدِيْدِ. فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِتَصْــدِيْقِهِ عَلَى مَا قَالَ وَادَّعَى. ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ خَرَجَ فَلَقِيَ ابْناً لِلرَّجُلِ فَأَخَذَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الغَدِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ ابْنِي؟ فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ بِالأَمْسِ رَأَيْتُ بَازِياً قَدِ اخْتَطَفَ صَبِيّاً صِفَتُهُ كَذَا وَلَعَلَّهُ ابْنُكَ.

---

١ الخليقة: الطَّبيعة.

٢ المنّ: من الأوزان يساوي رطلين شاميّين.

٣ البزاة: جمع بازٍ وهو من جوارح الطير.

فَلَطَمَ الرَّجُلُ رَأْسَــــهُ وَقَالَ: يَا قَوْمُ هَلْ سَــــمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ أَنَّ البُزَاةَ تَخْتَطِفُ الصِّبْيَانَ؟
فَقَالَ: نَعَمْ، وَإِنَّ أَرْضــــاً تَأْكُلُ جِرْذَانُهَا مِئَةَ مَنٍّ حَدِيْداً لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ تَخْتَطِفَ بُزَاتُها الفِيْلَةَ.
قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَنا أَكَلْتُ حَدِيْدَكَ وَهَذَا ثَمَنُهُ فَارْدُدْ عَلَيَّ ابْنِي؟
وَإِنَّما ضَــرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ غَدَرَ بِمَلِكِهِ وَصَــاحِبِ نُعْمَاهُ، فَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَغْدُرَ بِغَيْرِهِ. وَإِذَا صَــاحَبَ أَحَدٌ صَــاحِباً وَغَدَرَ بِمَنْ سِــوَاهُ، فَقَدْ عَلِمَ صَــاحِبُهُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِــعٌ. فلاَ شَــيءَ أَضْـيَعُ مِنْ مُوَدَّةٍ تَمْنَحُ مَنْ لاَ وَفَاءَ لَهُ، وَحِباءٍ[1] يُصْـطَنَعُ عِنْدَ مَنْ لاَ شُـكْرَ لَهُ، وَأَدَبٍ يُحْمَلُ إِلَى مَنْ لاَ يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلاَ يَسْمَعُهُ، وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ مَنْ لاَ يَحْفَظُهُ. وَإِنَّ صُحْبَةَ الأَخْيَارِ تُورِثُ الخَيْرَ، وَصُــحْبَةَ الأَشْــرَارِ تُورِثُ الشَّــرَّ، كَالرِّيْحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطِّيْبِ حَمَلَتْ طَيِّباً، وَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّتِنِ حَمَلَتْ نَتِناً. وَقَدْ طَالَ وَثَقُلَ كَلاَمِي عَلَيْكَ.
فَانْتَهَى كَلِيْلَةُ مِنْ كَلاَمِهِ إِلَى هَذَا المَكَانِ وَقَدْ فَرَغَ الأَسَــدُ مِنَ الثَّوْرِ. ثُمَّ فَكَّرَ فِي قَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ الثَّوْرَ وَذَهَبَ عَنْهُ الغَضَـبُ، وَقَالَ: لَقَدْ فَجَعَنِي[2] شَـتْرَبَةُ بِنَفْسِـهِ وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَخُلُقٍ كَرِيْمٍ، وَلاَ أَدْرِي لَعَلَّهُ كَانَ بَرِيْئاً أَوْ مَكْذُوْباً عَلَيْهِ. فَحَزِنَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. وَبَصُــرَ بِهِ دِمْنَةُ فَتَرَكَ مُحَاوَرَةَ كَلِيْلَةَ وَتَقَدَّمَ إِلَى الأَسَــدِ فَقَالَ لَهُ: لِيَهْنِئْكَ الظَّفَرُ، إِذَا أَهْلَكَ اللهُ أَعْدَاءَكَ فَمَاذا يُحْزِنُكَ أَيُّهَا المَلِكُ؟ قَالَ أنَا حَزِيْنٌ عَلَى عَقْلِ شَــتْرَبَةَ وَرَأْيِهِ وَأَدَبِهِ. قَالَ لَهُ دِمْنَةُ: لاَ تَرْحَمْهُ أَيُّهَا المَلِكُ، فَإِنَّ العَاقِلَ لاَ يَرْحَمُ مَنْ يَخَافُهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ الحَازِمَ رُبَّمَا أَبْغَضَ الرَّجُلَ وَكَرِهَهُ، ثُمَّ قَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ لِمَا يَعْلَمُ عِنْدَهُ مِنَ الغَنَاءِ[3] وَالكَفَاءَةِ فِعْلَ الرَّجُلِ المُتكَارِهِ عَلَى الدَّوَاءِ الشَّــنِيعِ[4] رَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ. وَرُبَّمَا أَحَبَّ الرَّجُلَ وَعَزَّ عَلَيْهِ فَأَقْصَــاهُ وَأَهْلَكَهُ مَخَافَةَ ضَــرَرِهِ، كَالَّذِي تَلْدَغُهُ الحَيَّةُ فِي إِصْــبَعِهِ فَيَقْطَعُهَا وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَسْــرِي سُــمُّهَا إِلَى بَدَنِهِ. فَرَضِــيَ الأَسَـدُ بِقَوْلِ دِمْنَةَ، ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِكَذِبِهِ وَفُجُوْرِهِ فَقَتَلَهُ شَرَّ قَتْلَةٍ.

---

١ الحباء: العطاء.
٢ فجعني: أصابني وأوجعني.
٣ الغَنَاء: المنفعة.
٤ الشَّنيع: الَّذي يشرب كرهاً.

القِسْمُ الثـانِـي
مِنْ كِتَابِ كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ

بَابُ الفَحْصِ عَنْ أمْرِ دِمْنَةَ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ حَدَّثْتَنِي عَنِ الوَاشِي المَاهِرِ المُحْتَالِ كَيْفَ يُفْسِدُ بِالنَّمِيْمَةِ المَوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ المُتَحَابَّيْنِ، فَحَدِّثْنِي إِنْ رَأَيْتَ بِمَا كَانَ مِنْ حَالِ دِمْنَةَ وَإِلاَمَ آلَ مَآلُهُ[١] بَعْدَ قَتْلِ شَتْرَبَةَ، وَمَا كَانَ مِنْ مَعَاذِيرِهِ عِنْدَ الأَسَدِ وَأَصْحَابِهِ حِيْنَ رَاجَعَ الأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ، وَأَدْخَلَ النَّمِيْمَةَ عَلَى دِمْنَةَ وَمَا كَانَتْ حُجَّتُهُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا.

قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: إِنِّي وَجَدْتُ فِي حَدِيْثِ دِمْنَةَ أَنَّ الأَسَدَ حِيْنَ قَتَلَ شَتْرَبَةَ نَدِمَ عَلَى قَتْلَتِهِ، وَذَكَرَ قَدِيْمَ صُحْبَتِهِ وَجَسِيْمَ خِدْمَتِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ وَأَخَصَّهُمْ مَنْزِلَةً لَدَيْهِ، وَأَقْرَبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ، وَكَانَ يُوَاصِلُ المَشْوَرَةَ دُوْنَ خَوَاصِّهِ[٢]، وَكَانَ مِنْ أَخَصِّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ النَّمِرُ. فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى النَّمِرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الأَسَدِ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ جَوْفَ اللَّيْلِ[٣] يُرِيْدُ مَنْزِلَهُ. فَاجتَازَ[٤] عَلَى مَنْزِلِ كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ.

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى البَابِ سَمِعَ كَلِيْلَةَ يُعَاتِبُ دِمْنَةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَلُوْمُهُ في النَّمِيْمَةِ وَاسْتِعْمَالِها مَعَ الكَذِبِ والبُهْتَانِ[٥] في حَقِّ الخَاصَّةِ. وَعَرَفَ النَّمِرُ عِصْيَانَ دِمْنَةَ وتَرْكَ القَبُوْلِ منهُ فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُما. فَكَانَ فِيمَا قَالَ كَلِيْلَةُ لِدِمْنَةَ: لَقَدِ ارْتَكَبْتَ مَرْكَباً صَعْباً، وَدَخَلْتَ مَدْخَلاً ضَيِّقاً، وَجَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ جِنَايَةً مُوْبِقَةً[٦] وَعَاقِبَتُها وَخِيْمَةٌ، وَسَوْفَ يَكُوْنُ مَصْرَعُكَ[٧] شَدِيْداً إِذَا انْكَشَفَ لِلأَسَدِ أَمْرُكَ، واطَّلَعَ عَلَيْهِ وَعَرِفَ غَدْرَكَ وَمِحَالَكَ[٨] وَبَقِيْتَ لاَ نَاصِرَ لَكَ. فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ الهَوَانُ وَالقَتْلُ مخَافَةَ شَرِّكَ وَحَذَراً مِنْ غَوَائِلِكَ[٩]، فَلَسْتُ بِمُتَّخِذِكَ بَعْدَ اليَوْمِ خَلِيْلاً وَلاَ مُفْشٍ لَكَ سِرّاً، لأَنَّ العُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا: تَبَاعَدْ مِمَّنْ لاَ رَغْبَةَ لَكَ فِيهِ. وَأَنا جَدِيْرٌ بِمُبَاعَدَتِكَ وَالتِمَاسِ الخَلاَصِ لِي مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الأَسَدِ مِنْ هَذَا الأمْرِ. فَلَمَّا سَمِعَ النَّمِرُ هَذَا مِنْ كَلاَمِهِمَا قَفَلَ رَاجِعاً، فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ الأَسَدِ فَأَخَذَ عَلَيْهَا العُهُوْدَ وَالمَوَاثِيْقَ أَنَّهَا لاَ تَبُوْحُ بِمَا يُسِرُّ إِلَيْهَا، فَعَاهَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ.

---

١ آل مآله: صار إليه مصيره.

٢ خواصُّه: المقرَّبون من رجال دولته.

٣ جوف اللَّيل: وسطه.

٤ اجتاز: مرَّ.

٥ البهتان: الافتراء.

٦ موبقة: مُهلكة.

٧ مصرعك: مقتلك.

٨ محالك: كيدك ومكرك.

٩ غوائلك: شرورك.

فَأَخْبَرَهَا بِمَا سَمِعَ مِنْ كَلاَمِ كَلِيْلَةَ وَدِمْنَةَ. فَلَمَّا أَصْبَحَتْ دَخَلَتْ عَلَى الأَسَدِ، فَوَجَدَتْهُ كَئِيْباً حَزِيْناً مَهْمُوْماً لِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ شَتْرَبَةَ.
فَقَالَتْ لَهُ: مَا هَذَا الهَمُّ الَّذِي أَخَذَ مِنْكَ[1] وَغَلَبَ عَلَيْكَ؟ قَالَ: يُحْزِنُنِي قَتْلُ شَتْرَبَةَ إِذَا تَذَكَّرْتُ صُحْبَتَهُ وَمُواظَبَتَهُ مَعِي، وَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ مُؤامَرَتِهِ وَأَسْكُنُ إِلَيْهِ فِي مُشَاوَرَتِهِ وَأَقْبَلُ مِنْ مُنَاصَحَتِهِ. قَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: إِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَّ لَكَ فِي قَتْلِهِ فَرَجاً فَلاَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَحْزَنَ، وَإِلاَّ فَقَلْبُكَ يَشْهَدُ أَنَّ عَمَلَكَ الَّذِي عَمِلْتَهُ لَمْ يَكُنْ صَوَاباً وَلاَ عَدْلاً، لأَنَّ العُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ فَفَكِّرْ فِي نَفْسِكَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُكَ لَهُ سَلِيْماً فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَكَ كَذَلِكَ.
فَانْظُرِ الآنَ وَابْحَثْ فِي ذَاتِ نَفْسِكَ هَلْ تَرَى ضَمِيْرَكَ يَشْهَدُ لَكَ أَنَّ الَّذِي فَعَلْتَهُ بِالثَّوْرِ كَانَ عَدْلاً أَمْ ظُلْماً؟ فَقَالَ الأَسَدُ: إِنْ صَحَّ مَا تَقُولِيْنَ فَإِنِّي لَمْ أَقْتُلِ الثَّوْرَ إِلاَّ ظُلْماً، لأَنِّي قَدْ بَحَثْتُ فِي نَفْسِي كَمَا تَقُولِيْنَ فَلَمْ أَجِدْ فِيْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَةِ شَتْرَبَةَ وَقَتْلِهِ ظُلْماً وَبَغْياً مَكْذُوْباً عَلَيْهِ مِنَ الأَشْرَارِ، وَإِنَّ كَثْرَةَ البَحْثِ عَنِ الأُمُوْرِ تُحِقُّ الحَقَّ وَتُبْطِلُ البَاطِلَ، وَإِنَّ حَدِيْثَكِ لَيَدُلُّ عَلَى مَكْنُوْنِ أَمْرٍ أَفَبَلَغَكِ شَيءٌ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟ فَقَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: إِنَّ أَشَدَّ مَا شَهِدَ امْرُؤٌ عَلَى نَفْسِهِ وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيْمٌ، كَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى قَتْلِ الثَّوْرِ بِلاَ عِلْمٍ وَلاَ يَقِيْنٍ، وَلَوْلاَ مَا قَالَتِ العُلَمَاءُ مِنْ إِذَاعَةِ الأَسْرَارِ وَمَا فِيْهَا مِنَ الإِثْمِ وَالشَّنَارِ لَذَكَرْتُ لَكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا عَلِمْتُ. فَإِنَّ العُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا: إِنَّ أَحْمَدَ النَّاسِ عَاقِبَةً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَكْتَمُهُمْ لِلسِّرِّ. قَالَ الأَسَدُ: إِنَّ أَقْوَالَ العُلَمَاءِ لَهَا وُجُوْهٌ كَثِيْرَةٌ وَمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ، فَإِنَّهُمْ قَدْ قَالُوا أَيْضاً: مَنِ اطَّلَعَ عَلَى ذُنُوْبِ المُذْنِبِيْنَ فَكَتَمَهَا عَنِ السُّلْطَانِ فَلَمْ يُعَاقِبُوا عَلَى ذُنُوْبِهِمْ عُوْقِبَ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِنَّ الَّذِي أَطْلَعَكِ عَلَى هَذَا السِّرِّ العَظِيْمِ لَمْ يُطْلِعْكِ عَلَيْهِ إِلاَّ لِتُعْلِمِيْنِي بِهِ فَأَطْلِعِيْنِي عَلَى مَا أَسَرَّ إِلَيْكِ مِنْ ذَلِكَ، وَأَخْبِرِيْنِي بِهِ وَلاَ تَطْوِيْهِ عَنِّي. فَأَخْبَرَتْهُ بِجَمِيْعِ مَا أَلْقَاهُ إِلَيْهَا النَّمِرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْبِرَهُ بِاسْمِهِ وَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أَجْهَلْ قَوْلَ العُلَمَاءِ فِي تَعْظِيْمِ العُقُوْبَةِ وَتَشْدِيْدِهَا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ مِنَ العَارِ فِي إِذَاعَةِ الأَسْرَارِ، وَلَكِنَّنِي أَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِمَا فِيْهِ المَصْلَحَةُ لَكَ.
فَقَدْ قَالَتْ العُلَمَاءُ: إِنَّ فَسَادَ عَامَّةِ الأَشْيَاءِ يَكُوْنُ مِنْ حَالَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا إِفْشَاءُ السِّرِّ، وَالأُخْرَى تَرْكُ عُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَوْجِبُ العُقُوْبَةَ. وَلإِفْشَاءُ السِّرِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُبْقَى عَلَى هَذَا الخَائِنِ دِمْنَةُ الَّذِي أَدْخَلَ الفَسَادَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الثَّوْرِ بِمَكْرِهِ وَفُجُوْرِهِ، فَلَوْ كُتِمَ أَمْرُهُ لَنَجَا مِنَ العِقَابِ عَلَى فِعْلِهِ وَلَخِيْفَ مِنْهُ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الفَعْلَةِ مِنْ عَمَلِهِ. وَقَدْ أَمَرَ العُلَمَاءُ بِالعَفْوِ عَنِ الجَانِي وَالصَّفْحِ عَنِ المُذْنِبِ، وَلَكِنَّهُمْ قَدْ نَهَوْا عَنِ اغْتِفَارِ الجُرْمِ العَظِيْمِ وَالذَّنْبِ الكَبِيْرِ.

[1] أخذ منك: اشتدَّ عليك.

فَلَمَّا قَضَـتْ أُمُّ الأَسَـدِ هَذَا الكَلاَمَ صَـحَّ عِنْدَ الأَسَـدِ مَا فَعَلَ دِمْنَةُ، فَاسْـتَدْعَى أَصْحَابَهُ وَجُنْدَهُ فَأُدْخِلُوا عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةَ. فَلَمَّا حَضَرَ دِمْنَةُ نَكَسَ[١] الأَسَدُ رَأْسَهُ إِلَى الأَرْضِ مَلِيَّاً[٢]. فَالتفتَ دِمْنَةُ إِلَى بَعْضِ الحَاضِرِيْنَ فَقَالَ: مَا الَّذِي حَدَثَ وَعَلاَمَ اجتَمَعْتُمْ وَمَا الَّذِي أَحْزَنَ الملِكَ؟

فَالْتَفَتَتْ أُمُّ الأَسَدِ إِلَيْهِ وقَالَتْ لَهُ: أَحْزَنَ المَلِكَ بقَاؤُكَ وَلَوْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولَنْ يَدَعكَ بَعْدَ اليَوْمِ حَيَّاً.

قَالَ دِمْنَةُ: ومَا حَدَثَ مِنْ أَمْرِي حَتَّى وَجَبَ بِهِ قَتْلِي؟

قالَتْ: إِنَّهُ قَدْ بَانَ لِلْمَلِكِ كَذِبُكَ وَفُجُوْرُكَ وخَدِيْعَتُكَ فِي قَتْلِ الثَّوْرِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ كَانَ مِنْهُ، فَلَسْتَ حَقِيْقاً أَنْ تُتْرَكَ بِالحَيَاةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ. قَالَ دِمْنَةُ: مَا تَرَكَ الأَوَّلُ لِلآخَرِ شَيْئاً، لأَنَّهُ يُقَالُ: أَشَدُّ النَّاسِ فِي تَوَقِّي الشَّرِّ يُصِيْبُهُ الشَّرُّ قَبْلَ المُسْتَسْلِمِ[٣] لَهُ، فَلاَ يَكُوْنَنَّ المَلِكُ وَخَاصَّتُهُ وَجُنُودُهُ المثَلَ السَّوْءَ. وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ: كُلَّما ازْدَادَ الإِنْسَانُ فِي الخَيْرِ اجْتِهاداً كَانَ الشَّرُّ إِلَيْهِ أَسْرَعُ. وَقَدْ قِيْلَ: مَنْ صَحِبَ الأَشْرَارَ وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُمْ كَانَ أَذَاهُ مِنْ نَفْسِهِ. ولِذَلِكَ انْقَطَعَتْ النُّسَّاكُ بِأَنْفُسِهَا عَنِ الخَلْقِ، وَاخْتَارَتِ الوَحْدَةَ عَلَى المُخَالَطَةِ، وَحُبَّ العَمَلِ لله عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا. وَمَنْ يَجْزِي بِالخَيْرِ خيْراً وَبالإِحْسَانِ إِحْسَاناً إِلاَّ اللهُ؟ وَمَنْ طَلَبَ الجَزَاءَ عَلَى الخَيْرِ مِنَ النَّاسِ كَانَ حَقِيْقاً أَنْ يَحْظَى بِالحِرْمَانِ، إِذْ يُخْطِئُ الصَّوَابَ فِي خُلُوْصِ العَمَلِ لِغَيْرِ اللهِ وَطَلَبِ الجَزَاءِ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنَّ عَاقِبَةَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعاقَبَ بِهِ الفُجَّارُ يُصَابُ بِهِ الأَخْيَارُ.

وَهَذَا الأَمْرُ شَبِيْهٌ بِشَأْنِي لأَنَّني حَمَلَنِي حُبَّ المَلِكِ وَنُصْحِي لَهُ وَإِشْفَاقِي عَلَيْهِ أَنْ أُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّ عَدُوِّهِ الخَائِنِ. وَإِنَّ المَلِكَ قَدْ شَاهَدَ مِنْهُ ذَلِكَ عِيَاناً، وَظَهَرَتْ لَهُ مِنْهُ العَلاَمَاتُ الَّتِي ذَكَرْتُها لَهُ، أَفَهَذَا جَزَائِي مِنْهُ أَنْ أُقْتَلَ؟

فَلَمَّا سَـمِعَ الأَسَـدُ ذَلِكَ مِنْ كَلاَمِ دِمْنَةَ أَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى يُنْظَرَ فِي أَمْرِهِ، لِيَجتَهِدَ فِي الفَحْصِ عَنْهُ لِئلاَّ يَعُودَ إِلَى العَجَلَةِ والنَّدَامَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ سَـجَدَ دِمْنَةُ لِلأَسَدِ شُكْراً لَهُ ودَعَا لَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ لا تَعْجَلْ فِي قَتْلِي، وَلاَ تَسْمَعْ فِيَّ كَلاَمَ الأَشْـرَارِ، وَلْيَبْحَثِ المَلِكُ عَنْ أَمْرِي حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ صِـدْقِي. وَقَدْ قَالَتِ الحُكَمَاءُ: إِنَّ النَّارَ أُخْفِيَتْ فِي الحِجَارَةِ فَلاَ تُسْتَخْرَجُ مِنْهَا إِلاَّ بِالمُعَالَجَةِ وَالقَدْحِ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ لِنَفْسِـي ذَنْباً فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ المَلِكِ لَمْ أَقُمْ بَيْنَ يَدَيْكَ، وأَنَا أَرْغَبُ إِلَى المَلِكِ إِنْ كَانَ فِي شَـكٍّ مِنْ أَمْرِي أَنْ يَأْمُرَ بِالنَّظَرِ فِيْهِ، وَيَكُوْنَ مَنْ يتَوَلَّى ذَلِكَ لا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ، وَإِلاَّ فَلاَ مَلْجَأَ لِي فِي ذَلِكَ إِلاَّ اللهُ وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ سَرَائِرَ العَبَادِ وَمَا تَكِنُّ صُدُوْرُهُمْ.

---

١ نكس: أطرق.

٢ مليَّاً: طويلاً.

٣ المستسلم: المُنقاد.

وَإنَّ أَحَقَّ مَا رَغِبَتْ فِيْهِ رَعِيَّةُ المَلِكِ هُوَ مَحَاسِـــنُ الأَخْلاَقِ وَمَوَاقِعُ الصَّـــوَابِ وَجَمِيْلُ السِّيَرِ. وَإِنَّ البَاطِلَ قَدْ يَتَلَبَّسُ[1] بِالحقِّ حَتَّى يَتَشَابَهَا كَمَا أَصَابَ الخَازِنَ الَّذِي فَضَحَ سِرَّهُ بِالتَّلْبِيسِ عَلَيْهِ. قَالَ الأَسَدُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ الخَازِنِ الَّذِي فَضَحَ سِرَّهُ

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ المُدُنِ تَاجِرٌ، وَكَانَ لَهُ خَازِنٌ لِبَيْتِ وَإِنَّ الخَازِنَ أَرَادَ اخْتِلاَسَ شَـــيءٍ مِنْ المَالِ فَلَمْ يَسْـــتَطِعْ، لأَنَّ التَّاجِرَ كَانَ إِذَا دَخَلَ الخَازِنُ بَيْتَ المَالِ[2] أَقْفَلَ عَلَيْهِ البَابَ، فَإِذَا أَرادَ الخُرُوجَ أَتَى فَفَتَحَ لَهُ وَفَتَّشَـــهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ. وَكَانَ إِلَى جَنْبِ التَّاجِرِ رَجُلٌ مُصـــوِّرٌ مَاهِرٌ، وَكَانَ هُوَ لِلْخَازِنِ صَـــدِيْقاً. فَقَالَ لَهُ الخَازِنُ يَوْماً: هَلْ لَكَ أَنْ تُوَاطِئَنِي[3] علَى الاِخْتِلاَسِ مِنْ هَذَا المَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَا الحَيْلَةُ وَلاَ سَبِيْلَ لِي إِلَى الخُرُوْجِ إِلَيْكَ، ولاَ سَبِيْلَ لَكَ إِلَى الدُّخُوْلِ إِلَيَّ؟ وَذَكَرَ لَهُ حَالَهُ مَعَ التَّاجِرِ.

قَالَ المُصَوِّرُ: أَوْمَا لِبَيْتِ المَالِ كُوَّةٌ إِلَى الخَارِجِ تُنَاوِلُنِي مِنْهَا شَيْئاً فِي الظَّلاَمِ؟

قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ يَرَانَا أَحَدٌ.

قَالَ: فَأَنَا أَمُرُّ قَرِيباً مِنَ الكُوَّةِ إِذَا ابْتَدَأَ الظَّلاَمُ فَأَصْـفِرُ لَكَ، أَوْ أُوْمِئُ إِلَيْكَ فَتَرْمِي لِي بِصُـــرَّةٍ فَآخُذُهَا وَلاَ يُشْـــعَرُ بِنَا. فَرَضِـــيَ الخَازِنُ بِذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ وَأَقَامَا عَلَيْهِ حِيْناً. ثُمَّ إِنَّ الخَازِنَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِلْمُصَـوِّرِ: إِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَحْتَالَ بِحِيْلَةٍ أَعْلَمُ بِهَا مَجِيْئَكَ مِنْ غَيْرِ صَفْرٍ ولاَ إِيْمَاءٍ وَلاَ مَا يُرْتَابُ[4] بِهِ مِنْ فِعْلِكَ وَفِعْلِي، فَإِنِّي قَدْ تَخَوَّفْتُ أَنْ يُحِسَّ بِنَا أَحَدٌ. قَالَ المُصَّـــوِّرُ: عِنْدِي مِنَ الحِيْلَةِ مَا ســـأَلْتَ. إِنَّ عِنْدِي مُلاَءَةً[5] فِيْهَا مِنْ تَهَاوِيْلِ الصُّوَرِ[6] وَتَماثِيْلِ الصَّنْعَةِ، فَإِنِّي أَلْبَسُهَا حِيْنَ مَجِيْئي وَأَتَراءَى لَكَ فِيْهَا. ثُمَّ إِنَّ المُصَـــوِّرَ لَبِسَ المُلاَءَةَ وَتَراءَى لَهُ فَرمَى لَهُ بِالصُّـــرَّةِ فَتَنَاولَهَا. وَلَمْ يَزَالاَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَصُـــرَ بِهِمَا فِي تِلْكَ الحَالَةِ جَارٌ لِلْمُصَـــوِّرِ. وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَادِمِ المُصَـــوِّرِ صَـــدَاقَةٌ، فَطَلَبَ المُلاَءَةَ مِنْهُ وَقَالَ: أُرِيْدُ أَنْ أُرِيَهَا صَدِيْقاً لِي لأَسُرَّهُ بِذَلِكَ وَأُسرِعُ الكَرَّةَ[7] بِرَدِّهَا قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِذَلِكَ مَوْلاَكَ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاها. وَلَمَّا أَتَى اللَّيْلُ أَسْـــرَعَ فَلَبِسَـــهَا وَمَرَّ مِنْ حَيْثُ كَانَ يَمُرُّ المُصَـــوِّرُ. فَلَمَّا رآَهُ الخَازِنُ لَمْ يَشُـــكَّ فِي مَجِيْئِهِ فَرَمَى لَهُ بِالصُّـــرَّةِ فَتَنَاوَلَهَا وَانْطَلَقَ.

---

١ يتلبَّسُ: يختلط.

٢ خازن بيت المال: الأمين على المال.

٣ تواطئني: توافقني.

٤ يُرتاب: يشكّ.

٥ المُلاءة: كِساءٌ يُلتفُّ به.

٦ تهاويل الصور: ألوانها ونقوشها.

٧ الكَرَّة: المجيء، العودة.

فَرَجَعَ بِالمُلاَءِةِ إِلَى خَادِمِ المُصَـوِّرِ فَدَفَعَها إِلَيْهِ فَوَضَـعَهَا. وَكَانَ المُصَـوِّرُ عَنْ بَيْتِهِ غَائِباً. فَلَمَّا عَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ لَبِسَ المُلاَءَةَ عَلَى عَادَتِهِ وتَرَاءَى لِلْخَازِنِ فَعَجِبَ مِنْ رُجُوْعِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مَا يَرْمِي لَهُ بِهِ وَانْصـرَفَ المُصَـوِّرُ بلا شَـيءٍ. ثُمَّ تَلاَقَيَا بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ المُصَـوِّرُ: لِمَ لَمْ تَرْمِ لي بِالصُّـرَّةِ؟ قَالَ: أَوَلَمْ تَمُرَّ قُبَيْلَ مُرُوْرِكَ وَرَمَيْتُ لَكَ بِهَا؟

فَرَجَعَ المُصَـوِّرُ إِلَى مَنْزِلِهِ فدَعا خَادِمَهُ وَتَوَعَّدَهُ بِالقَتْلِ أَوْ يُخْبِرَهُ بالحَقِيْقَةِ، فَأَخْبَرَهُ بِالقِصَّةِ فَأَخَذَ المُلاءَةَ فَأَحْرَقَها.

وَإِنَّمَا ضَـرَبْتُ لَكَ هَذَا المثَلَ إِرَادَةَ أَلاَّ يَعْجِلَ المُلكُ فِي أَمْرِي بِشُـبْهَةٍ، وَلَسْـتُ أَقُوْلُ هَذَا كَرَاهَةً لِلْمَوْتِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَرِيْهاً لاَ مَنْجَى مِنْهُ وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ.

وَإِنَّ العَلَماءَ قَدْ قَالُوا: مَنِ اقْتَرَفَ خَطِيْئَةً أَوْ إِثماً ثُمَّ أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى القَتْلِ مِنْ غَيْرِ ضَـرُوْرَةٍ تَدْعُوْهُ إِلَى ذَلِكَ عَفَا الله عَنْهُ وَأَنْجَاهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ عذَابِ النَّارِ. وَلَوْ كَانَتْ لِي مِئَةُ نَفْسٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَوَى المِلكِ في إِتْلاَفِهن[١] طِبْتُ لَهُ بِذَلِكَ نَفْساً. قَالَ بَعْضُ الجُنْدِ: لَمْ يَنْطِقْ بِهَذَا لِحبِّهِ المَلِكَ وَلَكِنْ لِخَلاَصِ وَالتِمَاسِ العُذْرِ لَهَا. فَقَالَ لَهُ دِمْنَةُ: وَيْلَكَ! وَهَلْ عَلَيَّ في التِمَاسِ العُذْرِ لِنَفْسِـي عَيْبٌ؟ وَهَلْ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلَى الإِنْسَـانِ مِنْ نَفْسِـهِ؟ وَإِذَا لَمْ يَلْتَمِسْ لَهَا العُذْرَ فَمَنْ يَلْتَمِسْـهُ؟ لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَمْتَلِكُ كِتْمَانَهُ مِنَ الحَسَدِ وَالبَغْضَاءِ، وَلَقَدْ عَرَفَ مَنْ سَمِعَ مِنْكَ أَنَّكَ لاَ تُحِبُّ لأَحَدٍ خَيْراً، وَأَنَّكَ عَدُوٌّ نَفْسِـكَ فَمَنْ سِـوَاهَا بِالأَوْلَى؟ فَمِثْلُكَ لا يَصْـلُحُ أَنْ يَكُوْنَ مَعَ البَهَائِمِ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُوْنَ مَعَ المَلِكَ وَأَنْ يَكُوْنَ بِبَابِهِ.

فَلَمَّا أَجَابَهُ دِمْنَةُ بِذَلِكَ خَرَجَ مُكْتَئِباً[٢] حَزِيْناً مُسْـتَحِياً. فَقَالَتْ أُمُّ الأَسَـدِ لِدِمْنَةَ: لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ أَيُّهَا المُحْتَالُ فِي قُلَّةِ حَيَائِكَ، وَكَثْرَةِ قِحَتِكَ[٣]، وَسُـرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ.

قَالَ دِمْنَةُ: لأَنَّكِ تَنْظُرِيْنَ إِلَيَّ بِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ، وَتَسْمَعِيْنَ بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ، مَعَ أَنَّ شَقَاوَةَ جَدِّي[٤] قَدْ زَوَتْ[٥] عَنِّي كُلَّ شَـيءٍ حَتَّى لَقَدْ سَـعَوْا إِلَى المَلِكَ بِالنَّمِيْمَةِ عَلَيَّ، وَإِنِّي أَرَى كُلَّ شَـيءٍ قَدْ تَنَكَّرَ[٦] حَتَّى صَـارَ النَّاسُ لاَ يَنْطِقُوْنَ بِالحَقِّ، وَصَـارَ مَنْ بِبَابِ المَلِكِ لاِسْـتِخْفَافِهِمْ بِهِ وَطُوْلِ كَرَامتِهِ إِيَّاهُمْ وَمَا هُمْ فِيْهِ مِنَ العَيْشِ وَالنِّعْمَـةِ لا يَـدْرُوْنَ فِي أَيِّ وَقْـتٍ يَنْبَغِي لَهُمُ الكَلاَمُ، ولاَ مَتَى يَجِـبُ عَلَيْهِم السُّكُوْتُ.

---

١ إتلافهنَّ: إهلاكهنَّ.

٢ مكتئب: مغتمّ.

٣ قِحتك: وقاحتك.

٤ جدِّي: حظّي.

٥ زوت: منعت وأبعدت.

٦ تنكّر: تغيَّر حاله.

قَالَتْ: أَلاَ تَنْظُرُوْنَ إِلَى هَذَا الخَبِيْثِ مَعَ عِظَمِ ذَنْبِهِ كَيْفَ يَجْعَلُ نَفْسَـهُ بَرِيْئاً كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ؟
قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُوْنَ غَيْرَ أَعْمَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى شَيءٍ، كَالَّذِي يَضَعُ الرَّمَادَ مَوْضِعاً يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِيْهِ الرَّمْلَ، وَيَسْتَعْمِلَ فِيْهِ السِّرْجِيْنَ[1]، والرَّجُلِ الَّذِي يَلْبَسُ لِبَاسَ المرأَةِ، وَالمرأَةِ الَّتِي تَلْبَسُ لِبَاسَ الرَّجُلِ، وَالضَّـيْفِ الَّذِي يَقُوْلُ أَنا رَبُّ البَيْتِ، والَّذِي يَنْطِقُ بَيْنَ الجمَاعَةِ بِمَا لاَ يُسَـأَلُ عَنْهُ. وَإِنَّمَا الخَبِيْثُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ الأُمُوْرَ وَلاَ أَحْوَالَ النَّاسِ، ولاَ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الشَّـرِّ عَنْ نَفْسِـهِ، ولاَ يَسْتَطِيْعُ ذَلِكَ.
قَالَتْ أُمُّ الأَسَـدِ: أَتَظُنُّ أَيُّهَا الغَادِرُ المُحْتَالُ بِقَوْلِكَ هَذَا أَنَّكَ تَخْدَعُ المَلِكَ ولاَ يَسْجُنُكَ؟
قَالَ دِمْنَةُ: الغَادِرُ هُوَ الَّذِي لاَ يَأْمَنُ عَدُوُّهُ مَكْرَهُ، وَإِذَا اسْـتَمْكَنَ مِنْ عَدُوِّهِ قَتَلَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ.
قَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: أَيُّها الغَادِرُ الكَذُوبُ أَتَظُنُّ أَنَّكَ نَاجٍ مِنْ عَاقِبَةِ كَذِبِكَ، وَأَنَّ مِحَالَكَ هَذَا يَنْفَعُكَ مَعَ عِظَمِ جُرْمِكَ؟
قَالَ دِمْنَةُ: الكَذُوْبُ هو الَّذِي يَقُوْلُ مَا لَمْ يَكُنْ، ويَأْتِي بِمَا لَمْ يَقُلْ وَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَمَّا أنا فَكَلاَمِي حَقٌّ وَالمَلِكُ يَعْلَمُ أَنَّنِي لَوْ كُنْتُ كَاذِباً لَمْ يَكُنْ لِي جُرْأَةٌ أَنْ أَتَكَلَّمَ هَذَا الكَلاَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، لأَنَّهُ قَدْ قِيْلَ: لَيْسَ أَشْـجَعُ مِنْ بَرِيْءٍ وَلاَ أَذْلَقُ[2] لِسَـاناً مِنْ ذِي حَقٍّ.
قَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: العُلَمَاءُ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِيْنَ يُوْضِحُوْنَ أَمْرَهُ بِفَصْلِ الخِطَابِ. ثُمّ نَهَضَتْ فَخَرَجَتْ. فَدَفَعَ الأَسَدُ دِمْنَةَ إِلَى القَاضِي فَأَمَرَ القَاضِي فَأَمَرَ القَاضِي بِسَجْنِهِ فَأُلْقِيَ فِي عُنُقِهِ غُلٌّ وَانْطُلِقَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ.
فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أُخْبِرَ كَلِيْلَةُ أَنَّ دِمْنَةَ فِي السِّجْنِ. فَأَتَاهُ مُسْتَخْفِياً، فَلَمَّا رَآهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيْقِ القُيُوْدِ وَحَرَجِ المكَانِ بَكَى، وَقَالَ: مَا وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ إِلاَّ لاسْتِعْمَالِكَ الخَدِيْعَةَ وَالمَكْرَ، وَإِضْرَابِكَ عَنِ العِظَةِ وَالنُّصْحِ. وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لِيَ بُدٌّ فِيمَا مَضَى مِنْ إِنْذَارِكَ وَالنَّصِيْحَةِ لَكَ وَالمُسَارَعَةِ إِلَيْكَ فِي خُلُوْصِ الرَّغْبَةِ فِيْكَ، فَإِنَّهُ لِكُلِّ مَقَالٌ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مَجَالٌ؛ وَلَوْ كُنْتُ قَصَّرْتُ فِي عِظَتِكَ حِيْنَ كُنْتَ فِي عَافِيةٍ لَكُنْتُ اليَوْمَ شَـرِيْكَكَ فِي ذَنْبِكَ؛ غَيْرَ أَنَّ العُجْبَ[3] دَخَلَ مِنْكَ مَدْخَلاً قَهَرَ رَأْيَكَ وَغَلَبَ عَلَى عَقْلِكَ. وَكُنْتُ أَضْرِبُ لَكَ الأَمْثَالَ كَثِيراً، وأُذَكِّرُكَ قَوْلَ العُلَمَاءُ وَقَ قَالَتِ العُلَمَاءُ: إِنَّ المُحْتَالَ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ.

---

١ السِّرجين: الزِّبل.
٢ أذلق: أحدّ.
٣ العُجب: الكِبَر والكبرياء.

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ عَرَفْتُ صِــدْقَ مَقَالِكَ، وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: لا تَجْزَعْ مِنَ العَذَابِ إِذَا وَقَفْتَ مِنْكَ عَلَى خَطِيْئَةٍ، وَلأَنْ تُعَذَّبَ فِي الدُّنْيَا بِجُرْمِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُعَذَّبَ فِي الآخِرَةِ بِجَهَنَّمَ مَعَ الإِثْمِ.
قَالَ كَلِيْلَةُ: قَدْ فَهِمْتُ كَلاَمَكَ، وَلَكِنَّ ذَنْبَكَ عَظِيْمٌ وَعِقَابُ الأسَـدِ شَـدِيْدٌ أَلِيْمٌ. وَكَانَ بِقُرْبِهِمَا فِي السِّــجْنِ فَهْدٌ مُعْتَقَلٌ[1] يَسْــمَعُ كَلاَمَهُمَا ولاَ يَرَيَانِهِ. فَعَرَفَ مُعَاتَبَةَ كَلِيْلَةَ لِدِمْنَةَ عَلَى سُــوْءِ فِعْلِهِ وَمَا كَانَ مِنْهُ، وَأَنَّ دِمْنَةَ مُقِرٌّ بِسُــوْءِ عَمَلِهِ وَعَظِيْمِ ذَنْبِهِ، فَحَفِظَ المُحَاوَرَةَ بَيْنَهُما وَكَتَمهَا لِيشْهَدَ بِهَا إِنْ سُئِلَ عَنْهَا.
ثُمَّ إِنَّ كَلِيْلَةَ انْصَـرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَدَخَلَتْ أُمُّ الأَسَـدِ حِيْنَ أَصْـبَحَتْ عَلَى الأَسَـدِ فقَالَتْ: يَا سَيِّدَ الوُحُوْشِ حُوْشِـيْتَ[2] أَنْ تَنْسـى مَا قُلْتَ بِالأَمْسِ، وَأَنَّكَ أَمَرْتَ بِهِ لِوَقْتِهِ وَأَرْضَـــيْتَ بِهِ رَبَّ العِبَادِ. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: لاَ يَنْبَغِي لِلإِنْسَـــانِ أَنْ يَتَوانَى[3] فِي الجِدِّ لِلْتَقْوَى، بَلْ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُدَافِعَ عَنْ ذَنْبِ الأَثِيْمِ.
فَلَمَّا سَمِعَ الأَسَدُ كَلاَمَ أُمِّهِ أَنْ يَحْضُرَ النَّمِرُ هُوَ وَصَاحِبُ القَضَاءِ. فَلَمَّا حَضَرَ قالَ لَهُ وَلِلْجَوَّاسِ[4] العَادِلِ: اجْلِسَا فِي مَوْضِعِ الحُكْمِ ونَادِيَا فِي الجُنْدِ صَغِيْرِهِم وَكَبِيْرِهِم أَنْ يَحْضُـرُوا وَيَنْظُرُوا فِي حَالِ دِمْنَةَ، ويَبْحَثُوا عَنْ شَـأْنِهِ وَيَفْحَصُـوا عَنْ ذَنْبِهِ وَيُثْبِتُوا قَوْلَهُ وَعُذْرَهُ فِي كُتُبِ القَضَاءِ، وَارْفَعَا إِلَيَّ ذَلِكَ يَوْماً فَيَوْماً.
فَلَمَّا سَمِعَ النَّمِرُ ذَلِكَ وَالجَوَّاسُ العَادِلُ، وَكَانَ هَذَا الجَوَّاسُ عَمَّ الأَسَدِ قَالاَ:
سَـمْعاً وَطَاعَةً لِمَا أَمَرَ المَلِكُ، وخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِلاَ بِمُقْتَضَـــى مَا أَمَرَهُما بِهِ. حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ اليَوْمِ الَّذِي جَلَسُوا فِيْهِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ أَمَرَ القَاضِي أَنْ يُؤْتَـى بِدِمْنَةَ، فَأُتِيَ بِهِ فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالجَمَاعَةُ حُضُوْرٌ.
فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ المَكَانُ نَادَى سَيِّدُ الجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا الجَمْعُ إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السِّبَاعِ لَمْ يَزَلْ مُنْذُ قَتَلَ شَتْرَبَةَ خَائِرَ النَّفْسِ كَثِيْرَ الهَمِّ وَالحُزْنِ، يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ شَتْرَبَةَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وأَنَّهُ أَخَذَهُ بِكَذِبِ دِمْنَةَ وَنَمِيْمَتِهِ. وَهَذَا القَاضِي قَدْ أُمِرَ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِسَ القَضَاءِ، وَيَبْحَثَ عَنْ شَأْنِ دِمْنَةَ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئاً فِي أَمْرِ دِمْنَةَ فَلْيَقُلْ ذَلِكَ، وَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُؤُوْسِ الجَمْعِ وَالأَشْهَادِ[5] لِيَكُوْنَ القَضَاءُ فِي أَمْرِهِ بِحَسَـــبِ ذَلِكَ، فَإِذَا اسْــتَوْجَبَ القَتْلَ فَالتَّثَبُّتُ فِي أَمْرِهِ أَوْلَى، وَالعَجَلَةُ مِنَ الهَوَى وَمُتَابَعَةُ الأَصْــحَابِ عَلَى البَاطِلِ ذُلٌّ. فَعِنْدَهَا قَالَ القَاضِــي: أَيُّهَا الجَمْعُ اسْمَعُوا قَوْلَ سَيِّدِكُمْ وَلاَ تَكْتُمُوا مَا عَرَفْتُمْ مِنْ أَمْرِهِ، واعْتَبِرُوا فِي تجَنُّبِ السِّتْرِ عَلَيْهِ ثَلاثَ خِصَالٍ.

---

١ معتقل: مقيَّد، مسجون.
٢ حوشيت: نُزِّهت.
٣ يتوانى: يتأخَّر.
٤ الجوَّاس: من أسماء الأسد.
٥ الأشهاد: الشُّهود.

أَمَّا إِحْدَاهُنَّ: وَهِيَ أَهَمُّهُنَّ فَأَلاَّ تَزْدَرُوا[1] فِعْلَهُ وَلاَ تَعُدُّوْهُ يَسِيْراً، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الخَطَايَا قَتْلُ البَرِيءِ الَّذِي لا ذَنْبَ لَهُ بِالكَذِبِ وَالنَّميمَةِ. وَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الكَذَّابِ الَّذِي اتَّهَمَ البَرِيْءَ بِكَذِبِهِ وَنَمِيْمَتِهِ شَيْئاً فَسَتَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ شَرِيْكُهُ فِي الإِثْمِ وَالعُقُوْبَةِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ إِذا اعْتَرَفَ المُذْنِبُ بِذَنْبِهِ كَانَ أَسْلَمَ لَهُ، وَالأَحْرَى بِالمَلِكِ وَجُنْدِهِ أَنْ يَعْفُوا عَنْهُ وَيَصْفَحُوا.

وَالثَّالِثَةُ: تَرْكُ مُرَاعَاةِ أَهْلِ الذَّمِّ وَالفُجُوْرِ، وَقَطْعُ أَسْبَابِ مُوَاصَلَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ عَنِ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ. فَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا المُحْتَالِ شَيْئاً فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ مِمَّنْ حَضَرَ لِيَكُونَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِ. وقَدْ قِيْلَ: إِنَّهُ مَنْ كَتَمَ شَهَادَةَ مَيْتٍ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلْيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَا عَلِمَ.

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الجَمْعُ كَلاَمَهُ أَمْسَكُوا عَنِ القَوْلِ. فَقَالَ دِمْنَةُ: مَا يُسْكِتُكُمْ بِمَا عَلِمْتُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ جَوَاباً. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: مَنْ يَشْهَدْ بِمَا لَمْ يَرَ، وَيَقُلْ مَا لاَ يَعْلَمُ يُصِبْهُ مَا أَصَابَ الطَّبِيْبَ الَّذِي قَالَ لِمَا لاَ يَعْلَمُهُ إِنِّي أَعْلَمُهُ.

قَالَتِ الجَمَاعَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ الطَّبِيْبِ وَالجَاهِلِ

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ المُدُنِ طَبِيْبٌ لَهُ رِفْقٌ[2] وَعِلْمٌ، وَكَانَ ذَا فِطْنَةٍ فيمَا يَجْرِي عَلَى يَدِهِ مِنَ المُعَالَجَاتِ. فَكَبِرَ ذَلِكَ الطَّبِيْبُ وضَعُفَ بَصَرُهُ. وكَانَ لَمِلِكِ تِلْكَ المَدِيْنَةِ ابْنٌ وَحِيْدٌ فأَصَابَهُ مَرَضٌ فَجِيءَ بِهَذَا الطَّبِيْبِ؛ فلَمَّا حضَرَ سَأَلَ الفَتَى عَنْ وَجَعِهِ وَمَا يَجِدُ فأَخبره فعرَفَ دَاءَهُ ودَوَاءَهُ وَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ لَجَمَعْتُ الأَخْلاَطَ[3] عَلَى مَعْرِفَتِي بِأَجْنَاسِهَا، وَلاَ أَثِقُ فِي ذَلِكَ بِأَحَدٍ غَيْرِي. وَكَانَ فِي المَدِيْنَةِ رَجُلٌ جَاهِلٌ فَبَلَغَهُ الخَبَرُ فَأَتَاهُمْ وَادَّعَى عِلْمَ الطِّبِّ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ خَبِيْرٌ بِمَعْرِفَةِ أَخْلاَطِ الأَدْوِيَةِ وَالعَقَاقِيْرِ[4]، عَارِفٌ بِطَبَائِعِ الأَدْوِيَةِ المُرَكَّبةِ والمُفْرَدَةِ. فَأَمَرَهُ المَلِكُ أَنْ يَدْخُلَ خِزَانَةَ الأَدْوِيَةِ فَيَأْخُذَ مِنْ أَخْلاَطِ الدَّوَاءِ حَاجَتَهُ. فَلَمَّا دَخَلَ الجَاهِلُ الخِزَانَةَ وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ الأَدْوِيَةُ وَلاَ يَدْرِي مَا هِيَ وَلاَ لَهُ بِهَا مَعْرِفَةٌ، أَخَذَ فِي جُمْلَةِ مَا أَخَذَ مِنْهَا صُرَّةً فِيْهَا سُمٌّ قَاتِلٌ لِوَقْتِهِ، وَدَافَهُ[5] بِالأَدْوِيَةِ وَلاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَلاَ مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ بِجِنْسِهِ. فَلَمَّا تمَّتْ أَخْلاَطُ الأَدْوِيَةِ سَقَى الفَتَى مِنْهُ فَمَاتَ لِوَقْتِهِ. فَلمَّا عَرَفَ المَلِكُ ذَلِكَ دَعَا بِالجَاهِلِ فَسَقَاهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّواءِ فَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ.

---

١ تزدروا: تحقِّروا.

٢ الرِّفق: الرَّأفة وحسن الرِّعاية.

٣ الأخلاط: الأدوية المركَّبة المختلطة.

٤ العقاقير: أصول الأدوية.

٥ دافه: خلطه.

وَإِنَّمَا ضَـــرَبْتُ لَكُمْ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمُوا مَا يَدْخُلُ عَلَى القَائِلِ وَالعَامِلِ مِنَ الذِّلَّةِ بِالشُّبْهَةِ فِي الخُرُوْجِ عَنِ الحَدِّ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْكُمْ عَنْ حَدِّهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ الجَاهِلَ، وَنَفْسُـــهُ المَلُوْمَةُ، وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: رُبَّمَا جُزِيَ المُتكلِّمُ بِقَوْلِهِ، وَالكَلاَمُ بَيْنَ أَيْدِيْكُمْ فَانْظُرُوا لأَنْفُسِكُمْ.
فَتَكَلَّمَ سَـيِّدُ الخَنَازِيْرِ لإِدْلاَلِهِ وَتَيْهِهِ[1] بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الأَسَـدِ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الشَّـرَفِ مِنَ العُلَمَاءِ اسْـمَعُوا مَقَالَتِي وَعُوا[2] بِأَحْلاَمِكُمْ[3] كَلاَمِي، فَالعُلَمَاءُ قَالُوا فِي شَـأْنِ الصَّالِحِيْنَ: إِنَّهُمْ يُعْرَفُوْنَ بِسِيمُاهُمْ[4]، وأَنْتُمْ مَعَاشِرَ ذَوِي الاقْتِدَارِ بِحُسْنِ صُنْعِ الله لَكُمْ وَتَمامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ تَعْرِفُوْنَ الصَّـالِحِيْنَ بسِيماهُمْ وَصُـوَرِهِمْ، وَتَخْبُرُوْنَ الشَّيءَ الكَبِيْرَ بِالشَّيءِ الصَّغِيْرِ؛ وَهَهُنَا أَشْيَاءٌ كَثِيْرَةٌ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الخَبِيْثِ دِمْنَةَ وَتُخْبِرُ عَنْ شَـرِّهِ، فَاطْلُبُوْهَا عَلَى ظَاهِرِ جَسْـمِهِ لِتَسْـتَيْقِنُوا وَتَسْـكُنُوا[5] إِلَى ذَلِكَ.
قَالَ القَاضِي لِسَيِّدِ الخَنَازِيْرِ: قَدْ عَلِمْتُ وَعَلِمَ الجَمَاعَةُ الحَاضِرُوْنَ أَنَّكَ عَارِفٌ بِمَا في الصُّـوَرِ مِنْ عَلاَمَاتِ السُّـوْءِ، فَفَسِّـرْ لَنَا مَا تَقُوْلُ، وَأَطْلِعْنَا عَلَى مَا تَرَى فِي صُوْرَةِ هَذَا الخَبِيْثِ. فَأَخَذَ سَيِّدُ الخَنَازِيْرِ يَذُمُّ دِمْنَةَ وَقَالَ: إِنَّ العُلَماءَ قَدْ كَتَبُوا وَأَخْبَرُوا أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ اليُسْـرَى أَصْـــغَرَ مِنْ عَيْنِهِ اليُمْنَى، وَهِيَ لا تَزَالُ تَخْتَلِجُ[6]، وَكانَ أَنْفُهُ مَائِلاً إِلَى جَنْبِهِ الأَيْمَنِ فَهُوَ جَامِعٌ لِلْخِبِّ وَالفُجُورِ. وَكَانَ دِمْنَةُ عَلَى هَذِهِ الصِّـــفَةِ. فَلَمَّا سَـــمِعَ دِمْنَةُ ذَلِكَ قَالَ: مِنْ هَهُنَا تَقِيْسُـــوْنَ الكَلاَمَ وَتَتْرُكُوْنَ العِلْمَ، فَاسْمَعُوا مِنِّي مَا أَقُوْلُهُ لَكُمْ وَتَدَبَّرُوا بِعُقُولِكُمْ، فَقَدْ وَعَيْتُمْ مَا قَالَ هَذَا، فَإِنْ كَانَ يَزْعَمُ أَنَّ مَا فِي جِسْمِي مِنْ هَذِهِ العَلاَمَاتِ هُوَ الدَّلِيْلُ عَلَى صِدْقِ مَا رُمِيْتُ بِهِ[7]، فَإِنِّي إِذاً أَكُوْنُ قَدْ وُسِمْتُ بِسِمَاتٍ وَعَلاَمَاتٍ اضْطَرَتْنِي إِلَى الإِثْمِ فَعَمِلْتُ بِهَا مَا عَمِلْتُ، فَفِي ذَلِكَ بَرَاءَةٌ لِي وعُذْرٌ مِمَّا عَمِلْتُهُ.
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى سَـيِّدِ الخَنَازِيْرِ وَقَالَ: فَقَدْ بَانَ لِمَنْ حَضَـرَ قِلَّةُ عَقْلِكَ وَمَا مَثَلُكَ فِي ذَلِكَ إِلاَّ مَثَلُ رَجُلٍ قَالَ لاِمْرَأَتِهِ: انْظُرِي إِلَى عُرْيِكِ وَبَعْدَ ذَلِكَ انْظُرِي إِلَى عُرْيِ غَيْرِكِ.
قِيْلَ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ.
مَثَلُ الرَّجُلِ وَامْرَأَتَيْهِ

---

[1] تيهه: لكبريائه.
[2] عُوا: احفظوا.
[3] أحلامكم: عقولكم.
[4] سيماهم: علاماتهم.
[5] تسكنوا: تطمئنّوا.
[6] تختلج: تضطرب.
[7] رميت به: اتُّهِمْتُ.

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ مَدِيْنَةً أغَارَ عَلَيْهَا العَدُوُّ فَقَتَلَ وسَــبَى[1] وَغنِمَ وَانْطَلَقَ إِلَى بِلاَدِهِ. فَاتَّفَقَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ جُنْدِيٍّ مِمَّا وَقَعَ فِي قِسْـمَتِهِ رَجُلٌ حَرَّاثٌ ومَعَهُ امْرَأَتَانِ لَهُ، وَكَانَ هذَا الجُنْدِيُّ يُسِيءُ إِلَيْهِمْ فِي الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ. فَذَهَبَ الحَرَّاثُ ذَاتَ يَوْمٍ وَمَعَهُ امْرَأَتَاهُ يَحْتَطِبُوْنَ[2] لِلْجُنْدِيِّ وَهُمْ عُرَاةٌ، فأَصَــابَتْ إِحْدَى المَرْأَتَانِ فِي طَرِيْقِهَا خِرْقَةً بَالِيَةً فَاسْـتَتَرَتْ بِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لِزَوْجِهَا: أَلاَ تَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ القَبِيْحَةِ كَيْفَ لاَ تَسْـتَحِيي وَتَسْـتَتِرُ؟ قَالَ لَهَا زُوْجُهَا: لَوْ بَدَأْتِ بِالنَّظَرِ إِلَى نَفْسِـكِ وَأَنَّ جِسْمَكِ كُلَّهُ عَارٍ لِمَا عَيَّرْتِ صَاحِبَتَكِ بِمَا هُوَ بِعَيْنِهِ فِيْكِ.

وَ شَأْنُكَ عَجَبٌ أَيُّهَا القَذِرُ ذُو العَلاَمَاتِ الفَاضِحَةِ القَبِيْحَةِ. ثُمَّ العَجَبُ مِنْ جُرْأَتِكَ عَلَى طَعَامِ المَلِكِ وَقِيَامِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَعَ مَا بِجِسْـمِكَ مِنَ القَذَرِ وَالقُبْحِ، وَمَعَ مَا تَعْرِفُهُ أَنْتَ وَيَعْرِفُهُ غَيْرُكَ مِنْ عُيُوْبِ نَفْسِـكَ؛ أَفَتَتَكَلَّمُ فِي النَّقِيِّ الجِسْـمِ الَّذِي لاَ عَيْبَ فِيْهِ؟ وَلَسْـتُ أَنَا وَحْدِي أَطَّلِعُ عَلَى عَيْبِكَ، لكِنَّ جَمِيْعَ مَنْ حَضَـرَ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ يَحْجِزُنِي عَنْ إِظْهَارِهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ مِنَ الصَّــدَاقَةِ، فَأَمَّا إِذْ قَدْ كَذَبْتَ عَلَيَّ وَبَهَّتَنِي فِي وَجْهِي وَقُمْتَ بِعَدَاوَتِي، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ فِيَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَعَلَى رُؤُوْسِ الحَاضِــرِيْنَ، فَإِنِّي أَقْتَصِــرُ عَلَى إِظْهَارِ مَا أَعْرِفُ مِنْ عُيُوْبِكَ وَتَعْرِفُـهُ الجَمَـاعَـةُ. وَحَقَّ عَلَى مَنْ عَرَفَـكَ حَقَّ مَعْرِفَتِـكَ أَنْ يَمْنَعَ المَلِـكَ مِنِ اسْتِعْمَالِهِ إِيَّاكَ عَلَى طَعَامِهِ، فَلَوْ كُلِّفْتَ أَنْ تَعْمَلَ فِي الزِّرَاعَةِ لَكُنْتَ جَدِيْراً بِالخِذْلاَنِ فِيْهَا؛ فَالأَحْرَى بِكَ أَلاَّ تَدْنُو إِلَى عَمَلٍ مِنَ وَأَلاَّ تَكُوْنَ دَبَّاغاً وَلاَ حَجَّاماً لِعَامِّيٍّ فَضْلاً عَنْ خَاصِّ خِدْمَةِ الملِكِ. قَالَ سَيِّدُ الخَنَازِيْرِ: أَوَ لِي تَقُوْلُ هَذِهِ المَقَالَةَ وَتَلْقَانِي بِهَذَا المَلْقَى؟

قَالَ دِمْنَةُ: نَعَمْ، وَحَقّاً قُلْتُ فِيْكَ وَإِيَّاكَ أَعْنِي أَيُّهَا الأَعْرَجُ المَكْسُوْرُ الذَّي فِي وِرْكِهِ النَّاسُوْرُ، الأَفْدَعُ الرِّجْلِ، المنْفُوْخُ البَطْنِ، الأَفْلَجُ الشَّفَتَيْنِ، السَّيِّئُ المنْظَرِ وَالمخْبَرِ. فَلَمَّا قَالَ دِمْنَةُ ذَلِكَ تَغَيَّرَ وَجْهُ سَـيِّدِ الخَنَازِيْرِ وَاسْـتَعْبَرَ وَاسْـتَحَى وَتَلَجْلَجَ لِسَـانُهُ واسْتَكَانَ وَفَتَرَ نَشَاطُهُ. فَقَالَ دِمْنَةُ حِيْنَ رَأَى انْكِسَارَهُ وَبُكَاءَهُ: إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَطُوْلَ بُكَاؤُكَ إِذَا اطَّلَعَ المَلِكُ عَلَى قَذَرِكَ وَعُيُوْبِكَ، فَعَزَلَكَ عَنْ طَعَامِهِ وَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خِدْمَتِهِ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ حَضْـرَتِهِ. ثُمَّ إِنَّ شَـعْهراً كَانَ الأَسَـدُ قَدْ جَرَّبَهُ فَوَجَدَ فِيْهِ أَمَانَةً وَصِــدْقاً، فَرَتَبَهُ فِي خِدْمَتِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْفَظَ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ وَيُطْلِعَهُ عَلَيْهِ. فَقَامَ الشَّعْهَرُ فَدَخَلَ علَى الأَسَدِ فَحَدَّثَهُ بِالحَدِيْثِ كُلِّهِ عَلَى جَلِيَّتِهِ، فَأَمَر الأَسَدُ بِعَزْلِ سَيِّدِ الخَنَازِيرِ عَنْ عَمَلِهِ وَأَمَرَ أَلاَّ يَدْخُلَ عَلَيْهِ وَلاَ يَرَى وَجْهَهُ، وَأَمَرَ بِدِمْنَةَ أَنْ يُرَدَّ إِلَى السِّــجْنِ، وَقَدْ مَضَـــى مِنَ النَّهَارِ أَكْثَرُهُ، وَجَمِيْعُ مَا جَرَى وَقَالُوا وَقَالَ كُتِبَ وَخُتِمَ عَلَيْهِ بِخَاتِمِ النَّمِرُ، وَرَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزَلِهِ.

---

١ سبى: أسر.

٢ يحتطبون: يجمعون الحطب.

ثُمَّ إِنَّ شَـــعْهَراً يُقَالُ لَهُ: رَوْزَبَةُ كَانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ كَلِيْلَةَ إِخَاءٌ وَمودَّةٌ، وَكَانَ عِنْدَ الأَسَـــدِ وَجِيْهاً وَعَلَيْهِ كَرِيْماً. وَاتَّفَقَ أَنَّ كَلِيْلَةَ أَخَذَهُ الوَجْدُ[1] إِشْـــفَاقاً[2] مِنْ أَنْ يَلْتَطِخَ بِشَـــيءٍ مِنْ أَمْرِ أَخِيْهِ وَحذَراً عَلَيْهِ، وَكَانَ بِهِ مَرَضٌ فَهَاجَ بِهِ مَرَضُـــهُ[3] وَمَاتَ.

فَانْطَلَقَ هَذَا الشَّـــعْهَرُ إِلَى دِمْنَةَ فَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ كَلِيْلَةَ، فَبَكَى وَحَزِنَ وَقَالَ: مَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الأَخِ الصَّفِيِّ[4]؟ وَاحَرَّ قَلْبَاهُ[5]! إِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ[6] أَتَاهُ الشَّـــرُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاكْتَنَفَهُ[7] الهَمُّ وَالحُزْنُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى إِذْ لَمْ يَمُتْ كَلِيْلَةُ حَتَّى أَبْقَى لِي مِنْ ذَوِي قَرَابَتِي أَخَاً مِثْلَكَ، فَإِنِّي قَدْ وَثِقْتُ بِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَإِحْسَـــانِهِ إِلَيَّ فِيمَا رَأَيْتُ مِنِ اهْتِمَامِكَ بِي وَمُرَاعَاتِكَ لِي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجَائِي وَرُكْنِي فِيمَا أَنَا فِيْهِ، فَأُرِيْدُ مِنْ إِنْعَامِكَ أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى مَكَانِ كَذَا فَتَنْظُرَ إِلَى مَا جَمَعْتُهُ أَنا وَأَخِي بِحِيْلَتِنَا وَسَعْيِنَا وَمَشِيْئَةِ اللهِ تَعَالَى فَتَأْتِيَنِي بِهِ.

فَفَعَلَ الشَّـعْهَرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ دِمْنَةُ، فَلَمَّا وَضَـعَ المَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَعْطَاهُ شَـطْرَهُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ عَلَى الدُّخُوْلِ وَالخُرُوْجِ عَلَى الأَسَـــدِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِكَ، فَتَفَرَّغْ لِشَـــأْنِي، وَاصْـرِفِ اهْتِمَامَكَ إِلَيَّ، وَاسْـمَعْ مَا أُذْكَرُ بِهِ عِنْدَ الأَسَدِ إِذَا رُفِعَ إِلَيْهِ مَا يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الخُصُـــوْمِ، وَمَا يَبْدُو مِنْ أُمِّ الأَسَـــدِ فِي حَقِّي، وَمَا تَرَى مِنْ مُتَابَعَةِ الأَسَدِ لَهَا وَمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا فِي أَمْرِي، وَاحْفَظْ ذَلِكَ كُلَّهُ.

فَأَخَذَ الشَّعْهَرُ مَا أَعْطَاهُ دِمْنَةُ وَانْصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هَذَا العَهْدِ، فَانْطَلَقَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَوَضَعَ المَالَ فِيْهِ.

ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ بَكَّرَ فِي الغَدِ، فَجَلَسَ حَتَّى إِذَا مَضَـى مِنَ النَّهَارِ سَـاعَتَانِ اسْـتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَصْحَابَهُ فِي الدُّخُوْلِ فَأَذِنَ لَهُمْ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَوَضَعُوا الكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَلَمَّا عَرَفَ قَوْلَهُمْ وَقَوْلَ دِمْنَةَ، فَقَرَأَ عَلَيْهَا ذَلِكَ. فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا فِي الكِتَابِ نَادَتْ بِأَعْلَى صَـوْتِهَا إِنْ أَنَا أَغْلَظْتُ فِي القَوْلِ فَلاَ تَلُمْنِي، فَإِنَّكَ لَسْـتَ تَعْرِفُ ضَـرَّكَ مِنْ نَفْعِكَ؛ أَلَيْسَ هَذَا مَمَّا كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ سَمَاعِهِ لأَنَّهُ كَلاَمُ هَذَا المُجْرِمِ المُسِيءِ إِلَيْنَا الغَادِرِ بِذِمَّتِنَا. ثُمَّ إِنَّهَا خَرَجَتْ مُغْضَبَةً وَذَلِكَ بِعَيْنِ الشَّعْهَرِ الَّذِي آخَاهُ دِمْنَةُ وَبِسَـمْعِهِ، فَخَرجَ فِي إِثْرِهَا مُسْـرِعاً حَتَّى أَتَى دِمْنَةَ فَحَدَّثَهُ بِالحَدِيْثِ. فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ إِذْ جَاءَ فِيْجُ الأَسَدِ فَانْطَلَقَ بِدِمْنَةَ إِلَى المَجْمَعِ عِنْدَ القَاضِي.

---

١ الوجد: شدَّة الحزن.
٢ الإشفاق: الخوف.
٣ هاج به مرضه: اشتدّ عليه.
٤ الصَّفيُّ: الصَّادق المودَّة.
٥ واحَرَّ قلباه: أي احترق قلبي حباً وحزناً.
٦ بليَّة: مصيبة.
٧ اكتنفه: أحاط به.

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِّ القَاضِي اسْتَفْتَحَ سَيِّدُ المَجْلِسِ فَقَالَ يَا دِمْنَةُ: قَدْ أَنْبَأَنِي عَنْ خَبَرِكَ الأَمِيْنُ الصَّادِقُ وَلَيسَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْحَصَ عَنْ شَأْنِكَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، لأَنَّ العُلَمَاءَ قَالُوا: إِنَّ الله تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا سَبَباً إِلَى الآخِرَةِ وَمِصْدَاقاً لَهَا، لأَنَّهَا دَارُ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ الدَّالِّيْنَ عَلَى الخَيْرِ، الهَادِيْنَ إِلَى الجَنَّةِ، الدَّاعِيْنَ إِلَى مَعْرِفَةِ الله تَعَالَى، وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا وَأَخْبَرَنَا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنَا بِقَوْلِهِ، إِلاَّ أَنَّ سَيِّدَنَا أَمَرَنَا بِالعَوْدِ إِلَى أَمْرِكَ والفَحْصِ عَنْ شَأْنِكَ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ ظَاهِراً بَيِّناً. قَالَ دِمْنَةُ: أَرَاكَ أَيُّهَا القَاضِي لَمْ تَتَعَوَّدِ العَدْلَ فِي القَضاءِ، وَلَيْسَ فِي عَدْلِ المُلُوْكِ دَفْعُ المَظْلُومِيْنَ وَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ إِلَى قَاضٍ غَيْرِ عَادِلٍ، بَل المُخَاصَمَةُ لَهُمْ وَالذَّوْدُ عَنْ حُقُوقِهِمْ. فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أُقْتَلَ وَلَمْ أُخَاصِمْ وَتُعَجِّلَ ذَلِكَ مُوَافَقَةً لِهَوَاكَ وَلَمْ تَمْضِ بَعْدُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ! وَلَكِنْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: إِنَّ الَّذِي تَعَوَّدَ عَمَلَ الشَّرِّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَإِنْ أَضَرَّ بِهِ. قَالَ القَاضِي: إِنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الأَوَّلِيْنَ أَنَّ القَاضِيَ العَدْلَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ المُحْسِنِ وَالمُسِيءِ، لِيُجَازِيَ المُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى هَذَا ازْدَادَ المُحْسِنُوْنَ حِرْصاً عَلَى الإِحْسَانِ، وَالمُسِيْئُوْنَ اجْتِنَاباً لِلذُّنُوْبِ، وَالرَّأْيُ إِلَيْكَ يَا دِمْنَةُ أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعْتَ فِيْهِ وَتَعْتَرِفَ بِذَنْبِكَ وَتُقِرَّ بِهِ وَتَتُوْبَ، فَلأَنْ يُعَاقَبَ المَرْءُ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ عِقَابِ الآخِرَةِ.

فَأَجَابَهُ دِمْنَةُ: إِنَّ صَالِحِي القُضَاةِ لاَ يَقْطَعُوْنَ بِالظَّنِّ وَلاَ يَعْمَلُوْنَ بِهِ لاَ فِي الخَاصَّةِ وَلاَ فِي العَامَّةِ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً، وَأَنْتُمْ إِنْ ظَنَنتُمْ أَنِّي مُجْرِمٌ فِيمَا فَعَلْتُ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ وَعِلْمِي بِنَفْسِي يَقِيْنٌ لاَ شَكَّ فِيْهِ وَعِلْمُكُمْ بِي غَايَةُ الشَّكِّ؛ وَإِنَّمَا قُبْحُ أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَنِّي سعَيْتُ بِغَيْرِي فَمَا عُذْرِي عِنْدَكُمْ إِذَا سَعَيْتُ بِنَفْسِي كَاذِباً عَلَيْهَا، فَأَسْلَمْتُهَا إِلَى القَتْلِ وَالعَطَبِ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِبَرَاءَتِي وَسَلاَمَتِي مِمَّا قُرِفْتُ بِهِ، وَنَفْسِي أَعْظَمُ الأَنْفُسِ عَلَيَّ حُرْمَةً وَأَوْجَبُهَا حَقّاً. فَلَوْ فَعَلْتُ هَذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَدْنَاكُمْ لِمَا وَسِعَنِي فِي دِينِي وَلاَ حَسُنَ بِي مُرُوْءَتِي، وَلاَ حُقَّ لِي أَنْ أَفْعَلَهُ فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسِي؟ فَاكْفُفْ أَيُّهَا القَاضِي عَنْ هَذِهِ المَقالَةِ، فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ نَصِيْحَةً فَقَدْ أَخْطَأْتَ مَوْضِعَهَا، وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً فَإِنَّ أَقْبَحَ الخِدَاعِ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، مَعَ إِنَّ الخِدَاعَ وَالمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ صَالِحِي القُضَاةِ وَلاَ ثِقَاتِ الوُلاَةِ. وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الجُهَّالُ وَالأَشْرَارُ سُنَّةً يَقْتَدُوْنَ بِهَا، لأَنَّ أُمُوْرَ القَضَاءِ يَأْخُذُ بِصَوَابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ وَبِخَطَئِهَا أَهْلُ الخَطَأِ وَالبَاطِلِ وَالقَلِيْلُو الوَرَعِ، وَأَنا خَائِفٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا القَاضِي مِنْ مَقَالَتِكَ هَذِهِ أَعْظَمَ الرَّزَايَا والبَلاَيَا؛ وَلَيْسَ مِنَ البَلاَءِ وَالمُصِيْبَةِ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ المَلِكِ وَالجُنْدِ والخَاصَّةِ والعَامَّةِ فَاضِلاً فِي رَأْيِكَ، مُقْنِعاً في عَقْلِكَ، مَرْضِيّاً في حُكْمِكَ وَعَفَافِكَ وَفَضْلِكَ. وَإِنَّما البَلاَءُ كَيْفَ أُنْسِيْتَ ذَلِكَ في أَمْرِي، أَوَ مَا بَلَغَكَ عَنِ العُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنِ ادَّعَى عِلْمَ مَا لاَ يَعْلَمُ، وَشَهِدَ عَلَى الغَيْبِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ البَازِيَارَ[1]؟ قَالَ القَاضِي: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ مَثَلُ البَازِيَارِ وَالمَرْزُبَانِ

---

١ البازيار: مربِّي البازي ومدرِّبه على الصَّيد.

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّه كَانَ في بَعْضِ المُدُنِ رَجُلٌ مِنَ المَرَازِبَةِ[١] مَذْكُوْرٌ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَعَفَافٍ، وَكَانَ لِلرَّجُلِ بَازِيَارٌ خَبِيْرٌ بِعِلاَجِ البُزَاةِ[٢] وَسِيَاسَتِها، وَكَانَ هَذَا البَازِيَارُ عِنْدَ هَذَا الرَّجُلِ بِمَكَانٍ خَلِيْلٍ بِحَيْثُ أَدْخَلَهُ دَارَهُ، وَجَعَلَهُ كَوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا. فَاتَّفَقَ أَنْ وَقَعَتْ كَلِمةٌ مِنَ البَازِيَارِ فَتَسَخَّطَتْ لَهَا زَوْجَةُ مَوْلاَهُ وَنَفَرتْ. فَغَضِبَ وَعَمِلَ عَلَى أَنْ يَكِيْدَهَا بِمَكِيْدَةٍ، فَخَرَجَ يَوْماً إِلَى الصَّيْدِ عَلَى عَادَتِه، فَأَصَابَ فَرْخَيْ بَبَّغَاءَ فَأَخَذَهُما، وَجَاءَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ وَرَبَّاهُمَا. فَلَمَّا كَبِرَا فَرَّق بَيْنَهُما وَجَعَلَهُما في قَفَصَيْنِ وَعَلَّمَ أَحَدَهُما أَنْ يَقُوْلَ: رَأَيْتُ رِيْبَةً فِي بَيْتِ مَوْلاَيَ، وَعَلَّمَ الآخَرَ أَنْ يَقُوْلَ: أَمَّا أَنا فَلاَ أَقُوْلُ شَيْئاً. ثُمَّ أَدَّبَهُما عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَتْقَنَاهُ وَحَذِقَاهُ[٣] في سِتَّةِ أَشْهُرٍ. فَلمَّا بَلَغَ الَّذِي أَرَادَ مِنْهُمَا حَمَلَهُما إِلَى مَوْلاَهُ، فَلمَّا رَآهُمَا أَعْجَبَاهُ وَنَطَقَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَطْرَبَاهُ. إلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَا يَقُوْلاَنِ، لأَنَّ البَازِيَارِ كَانَ قَدْ عَلَّمَهُما بِلُغَةِ البَلْخِيِّيْنَ[٤].

وَإِنَّ المَرْزُبَانَ أُعْجِبَ بِهِمَا إِعْجَاباً شَدِيْداً وَحَظِيَ البَازِيَارُ عِنْدَهُ بِذَلِكَ حُظْوَةً كَرِيْمَةً، فَأَمَرَ امْرَأَتَهُ بِالاحْتِيَاطِ عَلَيْهِما وَالاحْتِفَاظِ بِهِمَا. فَفَعَلَتْ المَرْأَةُ ذَلِكَ. فَاتَّفَقَ أَنَّه بَعْدَ مُدَّةٍ قَدِمَ عَلَى الرَّجُلِ قَوْمٌ مِنْ عُظَمَاءِ بَلْخ، فَتَأَنَّقَ لَهُمْ في الطَّعَامِ والشَّرَابِ، وَجَمَعَ مِنْ أَصْنَافِ الفَوَاكِهِ وَالتُّحَفِ شَيْئاً كَبِيْراً؛ وَحَضَرَ القَوْمُ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنَ الطَّعَامِ وَشَرَعُوا فِي الحَدِيْثِ أَشَارَ المُرْزُبَانُ إِلَى البَازِيَارِ أَنْ يَأْتِيَ بِالبَبَّغَاءَيْنِ فَأَحْضَرَهُمَا. فَلمَّا وُضِعَتَا بَيْنَ يَدَيْهِ صَاحَتَا بِمَا عُلِّمَتَاهُ، فَعَرَفَ أُوْلَئِكَ العُظَمَاءُ مَا قَالَتَا، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَنَكَسُوا رُؤُوْسَهُمْ حَيَاءً وَخَجَلاً، وجَعَلَ يَغْمِزُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا أَعْلَمُ مَا تَقُوْلاَنِ، وَلَكِنِّي يُعْجِبُنِي ذَلِكَ مِنْهُما. وَسَأَلَهُمْ عَمَّا تَقُوْلاَنِ فَامْتَنَعُوا أَنْ يَقُوْلُوا مَا قَالتَا. فَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ وَأَكْثَرَ السُّؤَالَ عَمَّا قَالَتَا. فَقَالُوا: إِنَّما تَقُوْلاَنِ كَذَا وَكَذَا وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ بَيْتٍ يُعْمَلُ فِيهِ الفُجُوْرُ.

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ سَأَلَهُمُ الرَّجُلُ أَنْ يُكَلِّمُوْهُما بِلِسَانِ البَلْخِيَّةِ بِغَيْرِ مَا نَطَقَتَا بِهِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدُوْهُما تَعْرِفَانِ غَيْرَ مَا تكَلَّمَتَا بِهِ، وَبَانَ لَهُمْ وَلِلْجَمَاعَةِ بَرَاءَةُ البَيْتِ مِمَّا رُمِيَ بِهِ، وَوَضَحَ كَذِبُ البَازِيَارِ. فَأَمَرَ بِالبازِيَارِ أَنْ يُدْخَلَ عَلَيْهِ،

---

١ المرازبة: جمع مرزبان، وهو رئيس الفُرس.
٢ البزاة: المفرد «بازي» وهو من الطّيور الجوارح.
٣ حذقاه: مهرا فيه.
٤ البلخيُّون: نسبة إلى بلدة بلخ في خراسان.

وَكَانَ عَلَى يَدِهِ بَازٍ أَشْهَبُ، فَصَاحَتْ بِهِ امْرَأَةُ المَرْزَبَانِ مِنْ دَاخِلِ البَيْتِ: أَيُّهَا العَدُوُّ لِنَفْسِهِ أَنْتَ رَأَيْتَ فِي البَيْتِ مَا ذَكَرْتَ وَعَلَّمْتَ بِهِ البَبَّغَاءَيْنِ؟
قَالَ: نَعَمْ، أَنَا رَأَيْتُ فِيْهِ مِثْلَ مَا تَقُوْلِيْنَ. فَوَثَبَ البَازِي إِلَى وَجْهِهِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ بِمَخَالِبِهِ. فَقَالَتِ المَرْأَةُ: بِحَقٍّ أَصَابَكَ هَذَا، إِنَّهُ لجَزَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِشَهَادَتِكَ بِمَا لَمْ تَرَهُ عَيْنُكَ.
وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المثَلَ أَيُّهَا القَاضِي لِتَزْدَادَ عِلْماً بِوَخَامَةِ عَاقِبَةِ[1] الشَّهَادَةِ بِالكَذِبِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.
فلمَّا سَمِعَ القَاضِي ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ دِمْنَةَ نَهضَ فَرَفَعَهُ إِلَى الأَسَدِ عَلَى وَجْهِهِ[2]، فَنَظَرَ فِيْهِ الأَسَدُ فَدَعَا أُمَّهُ فَعَرَضَهُ عَلَيْهَا. فَقَالَتْ حِيْنَ تَدَبَّرَتْ[3] كَلاَمَ دِمْنَةَ: لَقَدْ صَارَ اهْتِمَامِي بِمَا أَتَخَوَّفُ مِنِ احْتِيَالِ دِمْنَةَ لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ حَتَّى يَقْتُلَكَ: أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ أَعْظَمَ مِنِ اهْتِمَامِي بِمَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَيْكَ فِي الغِشِّ وَالسِّعَايَةِ حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيْقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. فَوَقَعَ قَوْلُهَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لَهَا: أَخْبِرِيْنِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكِ عَنْ دِمْنَةَ بِمَا أَخْبَرَكِ فَيَكُوْنَ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَةَ. فَقَالَتْ: لأَكْرَهُ إِفْشَاءَ سِرٍّ مَنِ اسْتَكْتَمَنِيْهِ. فَلاَ يَهْنِئُنِي سُرُوْرِي بقَتْلِ دِمْنَةَ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنِّي اسْتَظْهَرْتُ عَلَيْهِ بِرُكُوْبِ مَا نَهَتْ عَنْهُ العُلَمَاءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ، وَلَكِنِّي أُطَالِبُ الَّذِي اسْتَوْدَعَنِيْهِ أَنْ يَحُلَّنِي مِنْ ذِكْرِهِ، وَيَقُوْمَ هُوَ بِعِلْمِهِ وَمَا سَمِعَ مِنْهُ. ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّمِرِ وَذَكَرَتْ لَهُ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّزْيِيْنِ لِلأَسَدِ، وَحُسْنِ مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الحَقِّ، وَإِخْرَاجِ نَفْسِهِ مِنَ الشَّهَادَةِ الَّتِي لاَ يَكْتُمُهَا مِثْلُهُ مَعَ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ المَظْلُوْمِيْنَ، وَتَثْبِيْتِ حُجَّةِ الحَقِّ فِي الحَيَاةِ وَالمَمَاتِ. فَإِنَّ العُلَمَاءَ قَدْ قَالَتْ: مَنْ كَتَم حُجَّةَ مَيْتٍ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ. فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الأَسَدِ، فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِ دِمْنَةَ.
فَلَمَّا شَهِدَ النَّمِرُ بِذَلِكَ أَرْسَلَ الفَهْدُ المَسْجُونُ الَّذِي سَمِعَ إِقْرَارَ دِمْنَةَ وَحَفِظَهُ إِلَى الأَسَدِ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي شَهَادَةً فَأَخْرَجُوْهُ فَشَهِدَ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِهِ. فَقَالَ لَهُمَا الأَسَدُ: مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُوْمَا بِشَهَادَتِكُمَا وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَمْرَنَا وَاهْتِمَامَنَا بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةَ. فَقَالَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُما: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ شَهَادَةَ الوَاحِدِ لا تُوجِبُ حُكْماً فَكَرِهْتُ التَّعَرُّضَ لِغَيْرِ مَا يَمْضِي بِهِ الحُكْمُ، حَتَّى إِذَا شَهِدَ أَحَدُنَا قَامَ الآخَرُ. فَقَبِلَ الأَسَدُ قَوْلَهُمَا وَأَمَرَ بِدِمْنَةَ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبَ عَلَى رُؤُوْسِ الأَشْهَادِ وَبِطَانَتِهِمْ بِالكَذِبِ وَالبُهْتَانِ.
فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضَرِّ غَيْرِهِ بِالخِلاَبَةِ وَالمَكْرِ، فَإِنَّهُ سَيُجْزَى عَلَى خِلاَبَتِهِ وَمَكْرِهِ.

---

١ وخامة عاقبة: فساد النَّتيجة.
٢ فرفعه إلى الأسد على وجهه: أي على حكمه.
٣ تدبّرت: تأمَّلت.

بَابُ الحَمَامَةِ المُطَوَّقَةِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ المُتحَابَيْنِ كَيْفَ قَطَعَ بَيْنَهُما الكَذُوْبُ، وَإِلَى مَاذَا صَــارَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ. فَحَدِّثْنِي إِنْ رَأَيْتَ عَنْ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ كَيْفَ يَبْتَدِئُ تَوَاصُلُهُمْ وَيَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

قَالَ الفَيْلَسُــوفُ: إِنَّ العَاقِلَ لاَ يَعْدِلُ بِالإِخْوَانِ شَــيْئاً. فَالإِخْوَانُ هُمُ الأَعْوَانُ[1] عَلَى الخَيْرِ كُلِّهِ، وَالمُؤَاسُــوْنَ[2] عِنْدَمَا يَنُوبُ[3] مِنَ المَكْرُوهِ. وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ المُطَوَّقَةِ وَالجُرَذِ وَالظَّبْيِ[4] وَالغُرَابِ.

مَثَلُ الحَمَامَةِ المُطَوَّقَةِ وَالجُرَذِ والظَّبْيِ وَالغُرَابِ

قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ سَــكَاوَنْدَجِيْنَ عِنْدَ مَدِيْنَةِ دَاهَرَ مَكَانٌ كَثِيْرُ الصَّيْدِ يَنْتَابُهُ[5] الصَّيَّادُوْنَ. وَكَانَ فِي ذَلِكَ المَكَانِ شَجَرَةٌ كَثِيْرَةُ الأَغْصَانِ، مُلْتَفَّةُ الوَرَقِ فِيْهَا وَكْرُ غُرَابٍ. فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَــاقِطٌ فِي وَكْرِهِ إِذْ بَصُــرَ بِصَــيَّادٍ قَبِيْحِ المَنْظَرِ سَــيِّءِ الخَلْقِ، وَقُبْحُ مَنْظَرِهِ يَدُلُّ عَلَى سُــوْءِ مَخْبَرِهِ[6]، عَلَى عَاتِقِهِ شَبَكَةٌ وَفِي يَدِهِ عَصاً، مُقْبِلاً نَحْوَ الشَّجَرَةِ. فَذُعِرَ[7] مِنْهُ الغُرَابُ وَقَالَ: لَقَدْ سَاقَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى هَذَا المَكَانِ إِمَّا حَيْنِي وَإِمَّا حَيْنُ غَيْرِي، فَلأَثْبُتَنَّ مَكَانِي حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ.

ثُمَّ إِنَّ الصَّــيَّادَ نَصَــبَ شَــبَكَتَهُ وَنَثَرَ عَلَيْهَا الحَبَّ وَكَمَنَ قَرِيْباً مِنْهَا، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ قَلِيْلاً حَتَّى مَرَّتْ بِهِ حَمَامَةٌ يُقَالُ لَهَا: المُطَوَّقَةُ، وَكَانَتْ سَيِّدَةُ الحَمَامِ وَمَعَهَا حَمَامٌ كَثِيْرٌ. فَعَمِيَتْ هِيَ وَصَــاحِبَاتُها عَنِ الشَّــرَكِ، فَوَقَعْنَ عَلَى الحَبِّ يَلْتَقِطْنَهُ، فَعَلِقْنَ فِي الشَّبَكَةِ كُلُّهُنَّ، وَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ فَرِحاً مَسْرُوْراً. فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمَامَةٍ تَتَلَجْلَجُ فِي حَبَائِلِهَا وَتَلْتَمِسُ الخَلاَصَ لِنَفْسِهَا. قَالَتِ المُطَوَّقَةُ: لاَ تَتَخَاذَلْنَ فِي المُعَالَجَةِ، وَلاَ تَكُنْ نَفْسُ إِحْدَاكُنَّ أَهَمَّ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِ صَــاحِبَتِهَا، وَلكِنْ نَتَعَاوَنُ جَمِيْعُنَا وَنَطِيْرُ كَطَائِرٍ وَاحِدٍ فَيَنْجُو بَعْضُنَا بِبَعْضٍ. فَجَمَعْنَ أَنْفُسَــهُنَّ وَوَثَبْنَ وَثْبَةً وَاحِدَةً، فَقَلَعْنَ الشَّــبَكَةَ جَمِيْعَهُنَّ بِتَعَاوُنِهِنَّ وَعَلَوْنَ بِهَا فِي الجَوِّ. وَلَمْ يَقْطَعِ الصَّــيَّادُ رَجَاءَهُ مِنْهُنَّ، وَظَنَّ أَنَّهُنَّ لاَ يُجَاوِزْنَ[8] إِلاَّ قَرِيْباً حَتَّى يَقَعْنَ. فَقَالَ الغُرَابُ: لأَتَّبِعُهُنَّ وَأَنْظُرُ مَا يَكُوْنُ مِنْهُنَّ.

---

١ الأعوان: المعينون والمساعدون.
٢ المؤاسون: المُعَزُّون. المخفِّفو الهموم.
٣ ينوب: يصيب.
٤ الظَّبي: الغزال.
٥ ينتابه: يرتاده ويتردّد عليه.
٦ مخبره: ما يُختبر منه، أي ذاته.
٧ ذعر: خاف
٨ يُجاوزن: يقطعن.

فَالتَفَتَتْ المُطَوَّقَةُ فَرَأَتِ الصَّـــيَّادَ يَتْبَعُهُنَّ فَقالَتْ لِلْحَمَامِ: هَذَا الصَّـــيَّادُ جَادٌّ فِي طَلَبِكُنَّ فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا فِي الفَضَـــاءِ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا وَلَمْ يَزَلْ يَتْبَعُنَا، وَإِنْ نَحْنُ تَوَجَّهْنَا إِلَى العُمْرَانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا وَانْصَرَفَ. وَبِمَكَانِ كَذَا جُرَذٌ هُوَ لِي أَخٌ فَلَوِ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ قَطَعَ عَنَّا هَذَا الشَّـــرَكَ. فَفَعَلْنَ ذَلِكَ وَأَيِسَ الصَّـــيَّادُ مِنْهُنَّ وَانْصَـــرَفَ. وَتَبِعَهُنَّ الغُرَابُ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِنَّ لَعَلَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْهُنَّ حِيلَةً تَكُوْنُ لَهُ عُدَّةً عِنْدَ الحَاجَةِ. فَلَمَّا انْتَهَتِ الحَمَامَةُ المُطَوَّقَةُ إِلَى الجُرَذِ أَمَرَتِ الحَمَامَ أَنْ يَقَعَنْ فَوَقَعْنَ.

وَكَانَ لِلْجُرَذِ مِئَةُ جُحْرٍ أَعَدَّهَا لِلْمَخَاوِفِ. فَنَادَتْهُ المُطَوَّقَةُ بِاسْـــمِهِ وَكَانَ اسْـــمُهُ زَيْرَكَ، فَأَجَابَهَا الجُرَذُ مِنْ جُحْرِهِ مَنْ أَنْتِ؟

قَالَتْ: أَنَا خَلِيْلَتُكَ المُطَوَّقَةُ. فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الجُرَذُ يَسْعَى فَقَالَ لَهَا: مَا أَوْقَعَكِ فِي هَذِهِ الوَرْطَةِ[١]؟ قَالَتْ لَهُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الخَيْرِ وَالشَّـــرِّ شَـــيءٌ إِلاَّ وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَى مَنْ تُصِـــيْبُهُ المَقَادِيْرُ، وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْنِي فِي هَذِهِ الوَرْطَةِ؟ فَقَدْ لاَ يَمْتَنِعُ مِنَ القَدَرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْراً، وَقَدْ تَنْكَسِفُ[٢] الشَّمْسُ وَيَنْخَسِفُ[٣] القَمَرُ إِذَا قُضِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا.

ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ[٤] العِقْدِ الَّذِي فِيْهِ المُطَوَّقَةُ. فَقَالَتْ لَهُ المُطَوَّقَةُ: ابْدَأْ بِقَطْعِ عِقْدِ سَـــائِرِ الحَمَامِ وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْبِلْ عَلَى عَقْدِيَ. فَأَعَادَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِرَاراً وَهُوَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهَا. فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ القَوْلَ وَكَرَّرَتْ قَالَ لَهَا: لَقَدْ كَرَّرْتِ القَوْلَ عَلَيَّ كَأَنَّكِ لَيْسَ لَكِ فِي نَفْسِكِ حَاجَةٌ، وَلاَ لَكِ عَلَيْهَا شَفَقَةٌ وَلاَ تَرْعَيْنَ لَهَا حَقّاً.

قَالَتْ: إِنِّي أَخَافُ إِنْ بَدَأْتَ بِقَطْعِ عِقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتَكْسَـــلَ عَنْ قَطْعِ مَا بَقِيَ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَّ قَبْلِي وَكُنْتُ أَنَا الأَخِيْرَةَ لَمْ تَرْضَ وَإِنْ أَدْرَكَكَ الفُتُوْرُ[٥] أَنْ أَبْقَى فِي الشِّـــرَكِ. قَالَ الجُرَذُ: هَذَا مِمَّا يَزِيْدُ الرَّغْبَةَ فِيْكِ وَالمَوَدَّةَ لَكِ. ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّـــبَكَةِ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا. فَانْطَلَقَتْ المُطَوَّقَةُ وَحَمَامُهَا مَعاً.

فَلَمَّا رَأَى الغُرَابُ صُنْعَ الجُرَذِ رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ، فَجَاءَ وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ، فَأَخْرَجَ الجُرَذُ رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟

---

١ الورطة: المأزق، المهلكة.
٢ تنكسف: انكسفت الشَّمس: ذهب ضوءها.
٣ ينخسف: انخسف القمر: ذهب نوره.
٤ قرض: قطع.
٥ الفتور: الكسل.

قَالَ: إِنِّي أُرِيْدُ مُصَـــادَقَتَكَ. قَالَ الجُرَذُ: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَوَاصُـــلٌ وَإِنَّمَا العَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيْلاً، وَيَتْرُكَ التِمَاسَ مَا لَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيْلٌ، كَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُجْرِيَ السُّــفُنَ فِي البَرِّ، وَالعَجَلَ[1] فِي البَحْرِ، فَإِنْ أَنْتَ إِلاَّ آكِلٌ وَأَنا طَعَامٌ لَكَ.

قَالَ الغُرَابُ: إِنَّ أَكْلِي إِيَّاكَ وَإِنْ كُنْتَ لِي طَعَامَاً مِمَّا لاَ يُغْنِي عَنِّي شَــيْئاً، وَإِنَّ مَوَدَّتَكَ آنَسُ[2] لِي مِمَّا ذَكَرْتَ، وَلَسْتَ بِحَقِيْقٍ إِذَا جِئْتُ أَطْلُبُ مَوَدَّتَكَ أَنْ تَرُدَّنِي خَائِباً، فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْكَ مِنْ حُسْــنِ الخُلُقِ مَا رَغَّبَنِي فِيْكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمِسُ إِظْهَارَ ذَلِكَ.

فَإِنَّ العَاقِلَ لاَ يَخْفَى فَضْـلَهُ وَإِنْ هو أَخْفَاهُ كَالمِسْـكِ الَّذِي يُكْتَمُ ثُمَّ لاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ النَّشْرِ[3] الطَّيِّبِ وَالأَرَجِ[4] الفَائِحِ.

قَالَ الجُرَذُ: إِنَّ أَشَــدَّ العَدَاوَةِ عَدَاوَةُ الجَوْهَرِ، وَهِيَ عَدَاوَتَـانِ مِنْهَا مَا هُوَ مُتكَافِئٌ[5] كَعَدَاوَةِ الفِيْلِ وَالأَسَـدِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ الأَسَـدُ الفِيْلَ، أَوِ الفَيْلُ الأسَـدَ. وَمِنْهَا مَا قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الجَانِبَيْنِ عَلَى الآخَرَ كَالَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَ السِّـنَّوْرِ[6] وَبَيْنَكَ وَبَيْنِي. فَإِنَّ العَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ وَإِنَّمَا ضَرَرُهَا عَلَيَّ. فَإِنَّ المَاءَ لَوْ أُطِيْلَ إِسْـخَانُهُ لَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ مِنْ إِطْفَائِهِ النَّارَ إِذا صُـبَّ عَلَيْهَا. وَإِنَّمَا مُصَـاحِبُ العَدُوِّ وَمُصَالِحُهُ كَصَاحِبِ الحَيَّةِ يَحْمِلُهَا فِي كُمِّهِ. وَالعَاقِلُ لاَ يَسْتَأْنِسُ إِلَى العَدُوِّ الأَرِيْبِ[7].

قَالَ الغُرَابُ: قَدْ فَهِمْتُ مَا تَقُوْلُ وَأَنْتَ خَلِيْقٌ أَنْ تَأْخُذَ بِفَضْـــلِ خَلِيْقَتِكَ، وَتَعْرِفَ صِدْقَ مَقَالِي وَلاَ تُصَعِّبَ عَلَيَّ الأَمْرَ بِقَوْلِكَ: لَيْسَ إِلَى التَّوَاصُلِ بَيْنَنَا سَبِيْلٌ.

فَإِنَّ العُقَلاَءَ الكِرَامَ لاَ يَبْتَغُوْنَ[8] عَلَى مَعْرُوْفٍ جَزَاءً، وَالمَوَدَّةُ بَيْنَ الصَّــالِحِيْنَ سَرِيْعٌ اتِّصَالُهَا بَطِيْءٌ انْقِطَاعُهَا. وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الكُوْزِ الذَّهَبِ بطِيْءُ الانْكِسَارِ سَرِيْعُ الإِعَادَةِ هَيِّنُ الإِصْلاَحِ إِنْ أَصَابَهُ ثَلْمٌ[9] أَوْ كَسْرٌ. وَالمَوَدَّةُ بَيْنَ الأَشْرَارِ سَرِيْعٌ انْقِطَاعُهَا بَطِيْءٌ اتِّصَالُهَا. وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الكُوْزِ الفَخَّارِ سَرِيْعُ الاِنْكِسَارِ يَنْكَسِـرُ مِنْ أَدْنَى شَـيءٍ وَلاَ وَصْـلَ لَهُ أَبَداً. وَالكَرِيْمُ يَوَدُّ الكَرِيْمَ، وَاللَّئِيْمُ لاَ يَوَدُّ أَحَداً إِلاَّ عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ[10].

---

١ العجل: الدَّواليب.
٢ آنس: تفضيل من الأُنس.
٣ النَّشر: الرَّائحة العطرة.
٤ الأرج: ذكاء الرَّائحة.
٥ متكافئ: متماثل.
٦ السِّنَّور: القط، الهرّ.
٧ الأريب: العاقل.
٨ لا يبتغون: يطلبون.
٩ ثلم: جُرحٌ.
١٠ الرَّهبة: الخوف.

وَأَنَا مُلاَزِمٌ لِبَابِكَ غَيْرُ ذَائِقٍ طَعَامَاً حَتَّى تُؤَاخِيَنِي. وَاعْلَمْ أَنِّي لَوْ كُنْتُ أَشَــاءُ ضَرَّكَ لَفَعَلْتُ حِيْنَ كُنْتُ مُحَلِّقاً[١] فَوْقَ رَأْسِكَ عِنْدَمَا كُنْتَ تَقْطَعُ حَبَائِلَ الحَمَامِ.

قَالَ الجُرَذُ: قَدْ قَبِلْتُ إِخَاءَكَ فَإِنِّي لَمْ أَرْدُدْ أَحَداً عَنْ حَاجَةٍ قَطُّ، وَإِنَّمَا بَلَوْتُكَ[٢] بِمَا بَلَوْتُكَ بِهِ إِرَادَةَ التَّوَثُّقِ[٣] لِنَفْسِي، فَإِنْ أَنْتَ غَدَرْتَ بِي لَمْ تَقُلْ إِنِّي وَجَدْتُ الجُرَذَ ضَعِيْفَ الرَّأْيِ سَرِيْعَ الانْخِدَاعِ. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ جُحْرِهِ فَوَقَفَ عِنْدَ البَابِ، فَقَالَ لَهُ الغُرَابُ: مَا يَمْنَعُكَ مِنَ الخُرُوْجِ إِلَيَّ وَالاسْــتِئْنَاسِ بِيْ؟ أَوَ فِي نَفْسِــكَ بَعْدُ مِنِّي رِيْبَةٌ؟

قَالَ الجُرَذُ: إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ وَيَتَوَاصَلُونَ عَلَيْهِمَا، وَهُمَا ذَاتُ النَّفْسِ وَذَاتُ اليَدِ. فَالمُتَبَادِلُوْنَ ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الأَصْــفِيَاءُ. وَأَمَّا المُتَبَادِلُوْنَ ذَاتَ اليَدِ فَهُمُ المُتَعَاوِنُوْنَ الَّذِيْنَ يَلْتَمِسُ بَعْضُــهُمُ الانْتِفَاعَ بِبَعضٍ. وَمَنْ كَانَ يَصْنَعُ المَعْرُوْفَ لِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا فَإِنَّمَا مَثَلُهُ فِيمَا يَبْذُلُ وَيَعْطِي، كَمَثَلِ الصَّيَّادِ وَإِلْقَائِهِ الحَبَّ لِلطَّيْرِ لاَ يُرِيْدُ بِذَلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وَإِنَّمَا يُرِيْدُ نَفْعَ نَفْسِهِ. فَتَعَاطِي ذَاتِ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ تَعَاطِي ذَاتِ اليَدِ؛ وَإِنِّي وَاثِقٌ مِنْكَ بِذَاتِ نَفْسِكَ، وَمَنَحْتُكَ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ ذَلِكَ.

وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الخُرُوْجِ إِلَيْكَ سُوْءُ ظَنٍّ بِكَ، وَلَكِنْ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ لَكَ أَصْحَاباً جَوْهَرُهُمْ كَجَوْهَرِكَ وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فيَّ كَرَأْيِكَ.

قَالَ الغُرابُ: إِنَّ مِنْ عَلاَمَةِ الصَّــدِيْقِ أَنْ يَكُوْنَ لِصَــدِيْقِ صَــدِيْقِهِ صَــدِيْقاً وَلِعَدُوِّ صَدِيْقِهِ عَدُوّا. وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبٍ ولاَ صَدِيْقٍ مَنْ لاَ يَكُوْنَ لَكَ مُحِبّاً. وَإِنَّهُ يَهُوْنُ عَلَيَّ قَطِيْعَةُ مَنْ كَانَ كذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِي، فَإِنَّ زَارِعَ الرَّيْحَانِ إِذَا رَأَى بَيْنَهُ عُشْباً يُفْسِدُهُ قَلَعَهُ وَرَمَى بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ خَرَجَ إِلَى الغُرَابِ فَتَصَــافَحَا وَتَصَــافَيَا، وَأَنِسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُما بِصَــاحِبِهِ. حَتَّى إِذَا مَضَــتْ لَهُمَا أيَّامٌ قَالَ الغُرَابُ لِلجُرَذِ: إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيْبٌ مِنْ طَرِيْقِ النَّاسِ وَأَخَافُ أَنْ يَرْمِيْكَ بَعْضُ الصِّــبْيَانِ بَحَجَرٍ، وَلِي مَكَانٌ فِي عُزْلَةٍ وَلي فِيْهِ صَدِيْقٌ مِنَ السَّلاَحِفِ وَهُوَ مُخْصِبٌ مِنَ السَّمَكِ، وَنَحْنُ وَاجِدُوْنَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ، فَأُرِيْدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيْشَ آمِنِيْنَ. قَالَ الجُرَذُ: وَإِنِّي أَيْضــاً كَارِهٌ لِمَكَانِي هَذَا وَلِي أَخْبَارٌ وَقِصَــصٌ سَــأَقُصُّــهَا عَلَيْكَ إِذَا انْتَهَيْنَا حَيْثُ تَرِيْدُ فَافْعَلْ مَا تَشَــاءُ. فَأَخَذَ الغُرَابُ بِذَنَبِ الجُرَذِ وَطَارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ حَيْثُ أَرَادَ. فَلَمَّا دَنَا مِنَ العَيْنِ الَّتِي فِيْهَا السُّلَحْفَاةُ، بَصُرَتِ السُّلَحْفَاةُ بِغُرَابٍ وَمَعَهُ جُرَذٌ فَذُعِرَتْ مِنْهُ وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا. فَنَادَاهَا فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ وَسَأَلَتْهُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَت، فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ حِيْنَ تَبعَ الحمَامَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الجُرَذِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا.

---

١ المحلِّق: المرتفع.
٢ بلوتك: امتحنتك.
٣ التَّوثُّق: التَّأكُّد.

فَلَمَّا سَمِعَتِ السُّلَحْفَاةُ شَأْنَ الجُرَذِ عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ ووَفَائِهِ ورَحَّبَتْ بِهِ، وَقَالَتْ لَهُ: مَا سَاقَكَ إِلَى هَذِهِ الأَرْضِ. قَالَ الغُرَابُ لِلْجُرَذِ: اقْصُصْ عَلَيَّ الأَخْبَارَ الَّتِي قُلْتَ إِنَّكَ تُحَدِّثُنِي بِهَا فَأَخْبِرْنِي بِهَا مَعَ جَوَابِ مَا سَأَلَتِ السُّلَحْفَاةُ، فَإِنَّهَا عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي، فَبَدَأَ الجُرَذُ وَقَالَ:

الجُرَذُ وَالنَّاسِكُ

كَانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِي بِمَدِيْنَةِ مَارُوْتَ فِي بَيْتِ رَجُلٍ نَاسِكٍ، وَكَانَ خَالِياً مِنَ الأَهْلِ وَالعِيَالِ، وَكَانَ يُؤْتَى فِي كُلِّ يَوْمٍ بِجُوْنَةٍ[1] مِنَ الطَّعَامِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا حَاجَتَهُ وَيُعَلِّقُ البَاقِيَ. وَكُنْتُ أَرْصُدُ النَّاسِكَ حَتَّى يَخْرُجَ وَأَثِبُ إِلَى الجُوْنَةِ فَلاَ أَدَعُ فِيْهَا طَعَاماً إِلاَّ أَكَلْتُهُ، وَرَمَيْتُ مِنْهُ إِلَى الجُرْذَانِ. فَجُهِدَ النَّاسِكُ مِرَاراً أَنْ يُعَلِّقَ الجُوْنَةَ فِي مَكَانٍ لاَ أَنَالُهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ. حَتَّى نَزَلَ بِهِ ذاتَ لَيْلَةٍ ضَيْفٌ فَأَكَلاَ جَمِيْعاً ثُمَّ أَخَذَا فِي الحَدِيْثِ. فَقَالَ النَّاسِكُ لِلْضَّيْفِ: مِنْ أَيِّ أَرْضٍ أَقْبَلْتَ وَأَيْنَ تُرِيْدُ الآنَ؟

وكَانَ الرَّجُلُ قَدْ جَابَ الآفَاقَ[2] وَرَأَى عَجَائِبَ، فَأَنْشَأَ يُحدِّثُ النَّاسِكَ عَمَّا وَطِئَ مِنْ البِلاَدِ وَرَأَى مِنَ العَجَائِبِ، وَجَعَلَ النَّاسِكَ خِلاَلَ هَذَا يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ لِيُنَفِّرَنِي عَنِ الجُوْنَةِ. فَغَضِبَ الضَّيْفُ وَقَالَ: أَنَا أُحَدِّثُكَ وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيْثِي فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَأَلْتَنِي؟ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ وَقَالَ: إِنَّما أُصَفِّقُ بِيَدِي لأُنَفِّرَ جُرَذَاً قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ، وَلَسْتُ أَضَعُ فِي البَيْتِ شَيْئاً إِلاَّ أَكَلَهُ. فَقَالَ: جُرَذٌ وَاحِدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَمْ جِرْذَانٌ كَثِيْرَةٌ؟

فَقَالَ النَّاسِكُ: جِرْذَانُ البَيْتِ كَثِيْرَةٌ لَكِنَّ فِيْهَا جُرَذاً وَاحِداً هُوَ الَّذِي غَلَبَنِي فَمَا أَسْتَطِيْعُ لَهُ حِيْلَةً.

قَالَ الضَّيْفُ: لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قَوْلَ الَّذِي قَالَ: لأَمْرٍ مَا بَاعَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ سِمْسِماً مَقْشُوْراً، قَالَ النَّاسِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ السِّمْسِمِ المَقْشُوْرِ وَغَيْرِ المَقْشُوْرِ

قَالَ الضَّيْفُ: نَزَلْتُ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ بِمَكَانٍ كَذَا فَتَعَشَّيْنَا، ثُمَّ فَرَشَ لِي وانْقَلَبَ عَلَى فِرَاشِهِ. فَسَمِعْتُهُ يَقُوْلُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ لاِمْرَأَتِهِ: إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَدْعُوَ غَداً رَهْطاً لِيَأْكُلُوا عِنْدَنَا فَاصْنَعِي لَهُمْ طَعَاماً. فَقَالَتِ المَرْأَةُ: كَيْفَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِكَ وَلَيْسَ فِي بَيْتِكَ فَضْلٌ عَنْ عِيَالِكَ، وَأَنْتَ رَجُلٌ لاَ تُبْقِي شَيئاً ولاَ تَدَّخِرُهُ؟ قَالَ الرَّجُلُ: لا تَنْدَمِي عَلَى شَيءٍ أَطْعَمْنَاهُ وَأَنْفَقْنَاه، فَإِنَّ الجَمْعَ والادِّخَارَ رُبَّما كَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَعَاقِبَةِ الذِّئْبِ.

قَالَتِ المَرْأَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ مَثَلُ الذِّئْبِ وَالرَّجُلِ وَالقَوْسِ

---

١ الجونة: سلة مغطَّاة بقطعة من الجلد.

٢ جاب الآفاق: قطع النَّواحي.

قَالَ الرَّجُلُ زَعَمُوا أَنَّه خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ رَجَلٌ قَانِصٌ وَمَعَهُ قَوْسُـــهُ وَنُشَّـــابُهُ، فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيْدٍ حَتَّى رَمَى ظَبْياً فَحَمَلَهُ وَرَجَعَ طَالِباً منْزِلَهُ، فَاعْتَرَضَهُ خِنْزِيْرٌ بَرِّيٌّ فَرَمَاهُ بِنُشَّابَةٍ نَفَذَتْ فِيْهِ، فَأَدْرَكَهُ الخِنْزِيْرُ وَ ضَرَبَهُ بِأَنْيَابِهِ ضَرْبَةً أَطَارَتْ مِنْ يَـدِهِ القَوْسَ وَوَقَعَـا مَيْتَيْنِ. فَـأَتَى عَلَيْهِمْ ذِئْـبٌ فَقَـالَ: هَـذَا الرَّجُـلُ وَالظَّبْيُ وَالخِنْزِيْرُ يَكْفِيْنِي أَكْلُهُمْ مُدَّةً، وَلَكِنْ ابْدَأُ بِـهَذَا الوَتَرِ، فَآكُلُهُ فَيَكُوْنُ قَوْتَ يَوْمِي وَأَدَّخِرُ البَاقِيَ إِلَى غَدٍ فَمَا وَرَاءَهُ. فَعَالَجَ الوَتَرَ حَتَّى قَطَعَهُ، فَلَمَّا انْقَطَعَ طَارَتْ سِيةُ القَوْسِ فَضَرَبَتْ حَلْقَهُ فَمَاتَ.
وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكِ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمِي أَنَّ الجَمْعَ وَالادِّخَارَ وَخِيْمُ العَاقِبَةِ.
فَقَالَتِ المَرْأَةُ: نَعِمَّا قُلْتَ وَعِنْدَنَا مِنَ الأَرُزِّ وَالسِّمْسِمِ مَا يَكْفِي سِتَّةَ نَفَرٍ أَوْ أَكْثَرَ، فَأَنا غَادِيَةٌ عَلَى صُـــنْعِ الطَّعَامِ فَادْعُ مَنْ أَحْبَبْتَ. وَأَخَذَتِ المَرْأَةُ حِيْنَ أَصْـــبَحَتْ سِمْسِماً وَقَشَرَتْهُ وَبَسَطَتْهُ فِي الشَّمْسِ لِيَجِفَّ وَقَالَتْ لِغُلاَمٍ لَهُمْ: اطْرُدْ عَنْهُ الطَّيْرَ وَالكِلاَبَ، وَتَفَرَّغَتِ المَرْأَةُ لِصُـــنْعِهَا. وَتَغَافَلَ الغُلاَمُ عَنِ السِّـــمْسِـــمِ فَجَاءَ كَلْبٌ فَعَاثَ فِيْهِ، فَاسْـــتَقْذَرَتْهُ المَرْأَةُ وَكَرِهَتْ أَنْ تَصْـــنَعَ مِنْهُ طَعَاماً. فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى السُّـوْقِ، فَأَخَذَتْ بِهِ مُقَايَضَــةً سِـمْسِـماً غَيْرَ مَقْشُـوْرٍ مِثْلاً بِمِثْلٍ، وَأَنَا وَاقِفٌ فِي السُّوْقِ. فَقَالَ رَجُلٌ: لأَمْرٍ مَا بَاعَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ سِمْسِماً مَقْشُوْراً بِغَيْرِ مَقْشُوْرٍ.
وَكَذَلِكَ قَوْلِي فِي هَذَا الجُرَذِ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ عِلَّةٍ مَا يَقْدِرُ عَلَى مَا شَـــكَوْتَ مِنْهُ، فَالتَمِسْ لِي فَأْســاً لَعَلِّي أَحْتَفِرُ جُحْرَهُ فَأَطَّلِعَ عَلَى بَعْضِ شَـــأْنِهِ. فَاسْتَعَارَ النَّاسِكُ مِنْ بَعْضِ جِيْرَانِهِ فَأْساً فَأَتَى بِهَا الضَّيْفَ، وَأَنا حِيْنَئِذٍ فِي جُحْرِ غَيْرِ جُحْرِي أَسْـــمَعُ كَلاَمَهُما، وَفِي جُحْرِي كِيْسٌ فِيْهِ مِئَةُ دِيْنَارٍ لاَ أَدْرِي مَنْ وَضَـعَهَا. فَاحْتَفَرَ الضَّـيْفُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّنَانِيْرِ فَأَخَذَهَا، وَقَالَ لِلنَّاسِـكِ: مَا كَانَ هَذَا الجُرَذُ يَقْوَى عَلَى الوُثُوْبِ حَيْثُ كَانَ يَثِبُ إِلاَّ بِهَذِهِ الدَّنَانِيْرِ، فَإِنَّ المَالَ جُعِلَ قُوَّةً وَزِيَادَةً فِي الرَّأْيِ وَالتَّمَكُّنِ، وَسَتَرى بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لا يَقْدِرُ عَلَى الوُثُوْبِ حَيْثُ كَانَ يَثِبُ.
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ اجتَمعَتِ الجِرْذَانُ الَّتِي كَانَتْ مَعِي فَقَالَتْ: قَدْ أَصَـــابَنَا الجُوْعُ وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا. فَانْطَلَقْتُ وَمَعِي الجِرْذَانُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَثِبُ مِنْهُ إِلَى الجُوْنَةِ، فَحَاوَلْتُ ذَلِكَ مِرَاراً فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَاسْـــتَبانَ لِلْجِرْذانِ نَقْصُ حَالِي فَسَمِعْتُهُنَّ يَقُلْنَ انصَرِفْنَ عَنْهُ وَلاَ تَطْمَعْنَ فِيمَا عِنْدَهُ، فَإِنَّا نَرَى لَهُ حَالاً لاَ نَحْسَبُهُ إِلاَّ قَدِ احْتَاجَ مَعَها إِلَى مَنْ يَعُوْلُهُ؛ فَتَرَكْنَنِي وَلَحِقْنَ بَأَعْدَائِي وَجَفَوْنَنِي وَأَخَذْنَ فِي غِيْبَتِي عِنْدَ مَنْ يُعَادِيْنِي وَيَحْسُدُنِي، وَأَصْبَحْنَ كَأَنهُنَّ لمْ يَعْرِفْنَنِي وَكَأَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِنَّ رَئِيْساً قَطُّ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِـي: مَا الإِخْوَانُ وَلاَ الأَعْوَانُ وَلاَ الأَصْـدِقَاءُ إِلاَّ بِالمَالِ. وَوَجَدْتُ مَنْ لاَ مَالَ لَهُ إِذَا أَرَادَ أَمْراً قَعَدَ بِهِ العُدْمُ عَمَّا يُرِيْدُهُ، كَالمَاءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشِّتَاءِ لاَ يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ وَلاَ يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ إِلاَّ أَنْ يَفْسُدَ وَيَنْشَفَ وَلاَ يُنْتَفَعَ بِهِ.

وَوَجَدْتُ مَنْ لاَ إِخْوَانَ لَهُ لاَ أَهْلَ لَهُ، وَمَنْ لاَ وَلَدَ لَهُ لاَ ذِكْرَ لَهُ، وَمَنْ لاَ مَالَ لَهُ لاَ عَقْلَ لَهُ وَلاَ دُنْيَا وَلاَ آخِرَةَ لَهُ، لأَنَّ مَنْ نَزَلَ بِهِ الفَقْرُ لاَ يَجِدُ بُدّاً مِنْ تَرْكِ الحَيَاءِ، وَمَنْ ذَهَبَ حَيَاؤُهُ ذَهَبَ سُرُوْرُهُ، وَمَنْ ذَهَبَ سُرُوْرُهُ مَقَتَ نَفْسَهُ[1]، وَمَنْ مَقَتَ نَفْسَهُ كَثُرَ حُزْنُهُ، وَمَنْ كَثُرَ حُزْنُهُ قَلَّ عَقْلُهُ وَارْتَبَكَ فِي أَمْرِهِ، وَمَنْ قَلَّ عَقْلُهُ كَانَ أَكْثَرُ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ عَلَيْهِ لاَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَأَحْرِ بِهِ[2] أَنْ يَكُوْنَ أَنْكَدَ النَّاسِ حَظّاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ قَطَعَهُ أَقَارِبُهُ وإِخْوَانُهُ وَأَهْلُ وُدِّهِ وَمَقَتُوْهُ وَرَفَضُوْهُ وَأَهَانُوْهُ وَاضْطَرَّهُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَ الرِّزْقِ مَا يُغَرِّرُ فِيْهِ بِنَفْسِهِ[3]، ويُفْسِدَ فِيْهِ آخِرَتَهُ فَيَخْسَرَ الدَّارَيْنِ جَمِيْعاً. وَإِنَّ الشَّجَرَةَ النَّابِتَةَ فِي السِّبَاخِ[4]، المأْكُوْلَةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَحَالِ الفَقِيْرِ المُحْتَاجِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

وَوَجَدْتُ الفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلاءٍ وَجَالِباً إِلَى صَاحِبِهِ كُلَّ مَقْتٍ وَمَعْدِنَ النَّمِيْمَةَ.

وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ اتَّهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتَمِناً وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَناً.

فَإِنْ أَذْنَبَ غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلْتُّهْمَةِ مَوْضِعاً؛ وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ[5] إلاَّ هِيَ لِلْغَنِيِّ مَدْحٌ وَهِيَ لِلْفَقِيْرِ ذَمٌّ، فَإِنْ كَانَ شُجَاعاً قِيْلَ أَهْوَجُ، وَإِنْ كَانَ جَوَاداً[6] سُمِّيَ مُبَذِّراً، وَإِنْ كَانَ حَلِيْماً سُمِّيَ ضَعِيْفاً، وَإِنْ كَانَ وَقُوْراً سُمِّيَ بَلِيْداً، وَإِنْ كَانَ صَمُوْتاً[7] سُمِّيَ عَيِيّاً[8]، وَإِنْ كَانَ لَسِناً[9] سُمِّيَ مِهْذَاراً[10]. فَالموْتُ أَهْوَنُ مِنَ الحاجَةِ الَّتِي تُحْوِجُ صَاحِبَهَا إِلَى المَسْأَلَةِ[11]، وَلاَ سِيَّمَا مَسْأَلَةِ الأَشِحَّاءِ[12] وَاللِّئَامِ.

فَإِنَّ الكَرِيْمَ لَوْ كُلِّفَ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي فَمِ الأَفْعَى فَيُخْرِجَ مِنْهُ سُمّاً، فَيَبْتَلِعَهُ كَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ وَأَحبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ البَخِيْلِ اللَّئِيْمِ. حَتَّى لَقَدْ جَاءَ فِي قَدِيْمِ الأَقَاوِيْلِ: إِنَّ منِ ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ فِي جَسَدِهِ لاَ يُفَارِقُهُ حَتَّى يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ مِنَ الحَاجَةِ وَالفَقْرِ.

---

١ مقت نفسه: كرهها.
٢ أَحْرِ به: جدير به.
٣ يغرِّر فيه بنفسه: يعرضها للهلكة.
٤ السِّباخ: الأراضي ذات الملح والنَّزّ.
٥ الخلَّة: الصِّفة.
٦ الجواد: الكريم.
٧ الصَّموت: كثير الصَّمت، قليل الكلام.
٨ العييُّ: العاجز عن الكلام.
٩ اللَّسن، فصيح اللِّسان.
١٠ المهذار: كثير الكلام في الخطأ والباطل.
١١ المسألة: الحاجة والطلب.
١٢ الأشحَّاء: البخلاء.

وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّيْفَ حِيْنَ أَخَذَ الدَّنَانِيْرَ فَقَاسَمَهَا النَّاسك، جَعَلَ النَّاسِكُ نَصِيْبَهُ فِي خَرِيْطَةٍ[١] عِنْدَ رَأْسِهِ لمَّا جَنَّ اللَّيْلُ[٢]. فَطَمِعْتُ أَنْ أُصِيْبَ مِنْهَا شَيْئاً فَأَرُدَّهُ إِلَى جُحْرِي، ورَجَوْتُ أَنْ يَزِيْدَ ذَلِكَ فِي قُوَّتِي أو يُرَاجِعَنِي بِسَبَبِهِ بَعْضُ أَصْدِقَائِي.

فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّاسِكِ وَهُوَ نَائِمٌ حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَوَجَدْتُ الضَّيْفَ يَقْظَانَ وَبِيَدِهِ قَضِيْبٌ، فَضَرَبَنِي عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً مُوْجِعَةً، فَانْقَلَبْتُ رَاجِعاً إِلَى جُحْرِي.

فَلَمَّا سَكَنَ عَنِّي الألَمُ هَيَّجَنِي الحِرْصُ وَالشَّرَهُ فَخَرَجْتُ طَمَعاً كَطَمَعِي الأَوَّلِ. وإِذَا الضَّيْفُ يَرْصُدُنِي فَضَرَبَنِي بِالقَضِيْبِ ضَرْبَةً أَسَالَتْ مِنِّي الدَّمَ، فتَحَامَلْتُ عَلَى نَفْسِي وَتَقَلَّبْتُ ظَهْراً لِبَطْنٍ إِلَى جُحْرِي، فَخَرَجْتُ مَغْشِيَّاً عَلَيَّ، فَأَصَابَنِي مَنَ الوَجَعِ مَا بَغَّضَ إِلَيَّ المَالَ حَتَّى لاَ أَسْمَعُ بِذِكْرِهِ إلاَّ تَدَاخَلَنِي مِنْ ذِكْرِ المَالِ رِعْدَةٌ ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فَوَجَدْتُ البَلاَءَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَسُوْقُهُ الحِرْصُ وَالشَّرَهُ، لأَنَّهُمَا لاَ يَزَالاَنِ يُدْخِلاَنِ صَاحِبَهُما مِنْ شَيءٍ إِلَى شَيءٍ، وَالأَشيَاءُ لاَ تَنْفَدُ وَلاَ تَنْتَهِي وَلاَ يَزَالُ صَاحِبُ الدُّنْيَا فِي بَلِيَّةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ. وَوَجَدْتُ رُكُوْبَ الأَهْوَالِ وَتَجَشُّمَ الأَسْفَارِ البَعِيْدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَليَّ مِنْ بَسْطِ اليَدِ إِلَى السَّخِيِّ بِالمَالِ، فَكَيْفَ بِالشَّحِيْحِ بِهِ؟ وَلَمْ أَرَ كَالرِّضَى شَيْئاً. وَوَجَدْتُ العُلماءَ قَدْ قَالُوا: لاَ عَقْلَ كَالتَّدْبِيْرِ، وَلاَ وَرَعَ كَكَفِّ الأَذَى، وَلاَ حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ، وَلاَ غِنَى كَالرِّضَى. وَأَحَقُّ مَا صَبَّرَ الإِنْسَانَ عَلَى الشَّيءِ نَفْسُهُ، وَأَفْضَلُ البِرِّ الرَّحْمَةُ، وَرَأْسُ المودَّةِ الاسْتِرْسَالُ، وَرَأْسُ العَقْلِ مَعرِفَةُ مَا يَكُوْنُ مِمَّا لاَ يَكُوْنُ. وَقَالُوا: الخَرسُ خَيْرٌ مِنَ اللِّسَانِ الكَذُوْبِ، وَالضُّرُّ وَالفَقْرُ خَيْرٌ مِنَ النَّعْمَةِ وَالسَّعَةِ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ. فَصَارَ أَمْرِي إِلَى أَنْ رَضِيْتُ وَقَنِعْتُ وَانْتَقَلْتُ مِنْ بَيْتِ النَّاسِكِ إِلَى البَرِّيَّةِ. وَكَانَ لِي صَدِيْقٌ مِنَ الحَمّامِ فَسِيْقَتْ إِلَيَّ بِصَدَاقَتِهِ صَدَاقَةُ الغُرَابِ.

وَالتَفتَ إِلَى السُّلَحْفَاةِ فَقَالَ: ثُمَّ ذَكَرَ لِي الغُرَابُ مَا بَيْنَكِ وَبَيْنَهُ مِنَ المَوَدَّةِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيْدُ إِتْيَانَكِ فَأَحْبَبْتُ أَنْ آتِيْكِ مَعَهُ؛ وَكَرِهْتُ الوَحْدَةَ، فَإِنَّهُ لاَ شَيْءَ مِنْ سُرُوْرِ الدُّنْيَا يَعْدِلُ صُحْبَةَ الإِخْوَانِ، وَلاَ غَمَّ فِيْهَا يَعْدِلُ عَنْهُمْ. وَجَرَّبْتُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْمُلْتَمِسِ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرُ الكَفَافِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الأذَى عَنْ نَفْسِهِ، وهُوَ يَسِيْرٌ مِنَ المَطْعَمِ وَالمَشْربِ إِذَا أُعِيْنَ بِصِحَّةٍ وَسَعَةٍ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً وُهِبَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِمَا فِيْهَا لَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ بِالقَلِيْلِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الحَاجَةَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ إِلاَّ مَا لِغَيْرِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ حَسْبُ.

---

١ الخريطة: وعاء من جلد.
٢ جنَّ اللَّيل: أظلم.

فَلَمَّا فَرَغَ الجُرَذُ مِنْ كَلاَمِهِ أَجَابَتْهُ السُّـــلَحْفَاةُ بِكَلاَمٍ رَقِيْقٍ وَقَالَتْ: قَدْ سَـــمِعْتُ كَلاَمَكَ وَمَا أَحْسَـنَ مَا تكلَّمْتَ بِهِ، إلاَّ أنِّي رَأَيْتُكَ تَذْكُرُ بقَايَا أُمُوْرٍ هِيَ فِي نَفْسِـكَ مِنْ حَيْثُ قِلَّةُ مَالِكَ وَسُوْءُ حَالِكَ وَاغْترابُكَ عَنْ مَوْطِنِكَ. فَاطْرَحْ ذَلِكَ عَنْ قَلْبِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ الكَلاَمِ لا يَتِمُّ إِلاَّ بِحُسْنِ العَمَلِ، وَأَنَّ المَرِيْضَ الَّذِي قَدْ عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِـــهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوَ بِهِ لَمْ يُغْنِ عِلْمُهُ بِهِ شَـــيئاً، وَلَمْ يَجِدْ لِدَائِهِ رَاحَةً وَلاَ خِفَّةً؛ فَاسْتَعْمِلْ رَأْيَكَ وَلاَ تَحْزَنْ لِقِلَّةِ المَالِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا المروءةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ، كَالأَسَـدِ الَّذِي يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضـــاً[١]. وَالغَنِيُّ الَّذِي لاَ مُرُوْءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ المَالِ، كَالكَلْبِ لاَ يُحْفَلُ بِهِ[٢] وَإِنْ طُوِّقَ وَخُلْخِلَ بِالذَّهَبِ.
فَلاَ تكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ، فَإِنَّ العَاقِلَ لاَ غُربَةَ لَهُ، كالأَسَـــدِ الَّذِي لاَ يَنْقَلِبُ إِلاَّ مَعَهُ قُوْتُهُ. فَلْتُحْسِــنْ تَعَهُّدَكَ[٣] لِنَفْسِـكَ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ جَاءَكَ الخَيْرُ يَطْلُبُكَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، كَمَا يَطْلُبُ الماءُ انْحِدارَهُ. وَإِنَّمَا جُعِلَ الفَضْــلُ لِلْحَازِمِ البَصِــيْرِ، وَأَمَّا الكَسْلاَنُ المُترَدِّدُ فَإِنَّ الفَضْلَ لاَ يَصْحَبُهُ. وَقَدْ قِيْلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلاَ بقَاءٌ:
ظِلِّ الغَمَامَةِ فِي الصَّيْفِ، وَخِلَّةِ[٤] الأَشْرَارِ، وَعِشْقِ النِّسَاءِ، وَالنَّبَأِ[٥] الكَاذِبِ، وَالمَالِ الكَثِيْرِ، فَالعَاقِلُ لاَ يَحْزَنُ لِقِلَّتِهِ وَلكِنَّ مَالَهُ عَقْلُهُ وَمَا قَدَّمَ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ.
فَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّه لاَ يُسْلَبُ مَا عَمِلَ، وَلاَ يُؤَاخَذُ بِشَيءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ. وَهُوَ خَلِيْقٌ أَلاَّ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ، فَإِنَّ المَوْتَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بَغْتَةً وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ أَجَلٌ مَعْلُوْمٌ؛ وَأَنْتَ عَنْ مَوْعِظَتِي غَنِيٌّ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ، وَلكِنْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْضِـيَ مِنْ حَقِّكَ فَأَنْتَ أَخُوْنَا وَمَا قِبَلَنَا[٦] مَبْذُوْلٌ لَكَ.
فَلَمَّا سَــمِعَ الغُرَابُ كَلاَمَ السُّـلَحْفَاةِ لِلْجُرَذِ، وَمَرْدُوْدَهَا عَلَيْهِ، وَإِلْطَافَهَا إِيَّاهُ فَرِحَ بِذَلِكَ وَقَالَ: لَقَدْ سَرَرْتِني وَأَنْعَمْتِ عَلَيَّ وَأَنْتِ جَدِيْرَةٌ أَنْ تَسُـرِّي نَفْسَـكِ بِمِثْلِ مَا سَـرَرْتِنِي، وَإِنَّ أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِشِـدَّةِ السُّـرُوْرِ مَنْ لاَ يَزَالُ رَبْعُهُ[٧] مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَصْــدِقَائِهِ مِنَ الصَّـــالِحِيْنَ مَعْمُوْراً، وَلاَ يَزَالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ يَسُـــرُّهُمْ وَيَسُـرُّوْنَهُ وَيَكُوْنُ مِنْ وَرَاءِ أُمُوْرِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ بِالمِرْصَـادِ؛ فَإِنَّ حُسْـنَ الثَّنَاءِ لاَ يَزَالُ صَـــاحِبُهُ فِي عَاقِبَتِهِ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ؛ فَإِنَّ الكَرِيْمَ إِذَا عَثَرَ لاَ يُقِيْلُ عَثْرَتَهُ[٨]، وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلاَّ الكِرَامُ، كَالفِيْلِ إِذَا وَحِلَ لاَ تُخْرِجُهُ إِلاَّ الفِيَلَةُ.

---

١ رابض: جالس في مأواه.
٢ لا يحفل به: لا يهتمّ له.
٣ تعهُّدك: تفقُّدك.
٤ خِلَّة: صداقة.
٥ النَّبأ: الخبر.
٦ قِبَلَنا: عندنا.
٧ ربعه: منزله.
٨ يقيل عثرته: يقيمه من سقطته.

فَبَيْنَما الغُرَابُ فِي كلاَمِهِ وَالثَّلاثَةُ مُسْتَأْنِسُوْنَ بَعْضُهُمْ بِبَعْض، إِذْ أَقْبَلَ نَحْوَهُمْ ظَبْيٌ يَسْعَى مَذْعُوراً[١]. فَذُعِرَتْ مِنْهُ السُّلْحْفَاةُ فَغَاصَتْ فِي المَاءِ، وَدخَلَ الجُرَذُ بَعْضَ الأَحْجَارِ، وَطَارَ الغُرَابُ فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ، وَانْتَهَى الظَّبْيُ إِلَى الماءِ فَشَرِبَ مِنْهُ يَسِيْراً، ثُمَّ وَقَفَ خَائِفاً يَلْتَفِتُ يَمِيْناً وشِمَالاً. ثُمَّ إِنَّ الغُرَابَ حَلَّقَ فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلْظَّبْيِ طَالِبٌ. فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئاً فَنَادَى الجُرَذَ وَالسُّلْحْفَاةَ فَخَرَجَا. فَقَالَتِ السُّلَحْفَاةُ لِلْظَّبِي حِيْنَ رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى المَاءِ وَلاَ يَقْرَبُهُ: اشْرَبْ إِنْ كَانَ بِكَ عَطَشٌ وَلاَ تَخَفْ، فَإِنَّهُ لاَ خَوْفَ عَلَيْكَ. فَدَنا الظَّبْيُ فَرَحَّبَتْ بِهِ السُّلْحْفَاةُ وَحَيَّتْهُ وَقَالَتْ لَهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ بِهَذِهِ الصَّحَارَى رَاتِعاً[٢]، فَلَمْ تَزَلِ الأَسَاوِرَةُ[٣] تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى رَأَيْتُ اليَوْمَ شَبَحاً فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصاً[٤]. قَالَتْ: لاَ تَخَفْ فَإِنَّا لَمْ نَرَ هَهُنَا قَانِصاً قَطُّ، وَنَحْنُ فِي هَذَا المَكَانِ مُجتَمِعُوْنَ نَتَحَدَّثُ وَنَتَآنسُ، وَنَحْنُ نَبْذُلُ لَكَ وُدَّنا وَمَكَانَنَا وَالمَاءُ وَالمرْعَى كَثِيْرٌ عِنْدَنَا فَارْغَبْ فِي صُحْبَتِنَا. فَأَقَامَ الظَّبْيُ مَعَهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ[٥] يَجْتَمِعُونَ فِيْهِ وَيَتَسَاقَطُوْنَ[٦] الأَحَادِيْثَ وَالأَخْبارَ.

فَبَيْنَمَا الغُرَابُ وَالجُرَذُ وَالسُّلَحْفَاةُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي العَرِيْشِ إِذْ غَابَ الظَّبْيُ فَتَوَقَّعُوْهُ[٧] سَاعَةً فَلَمْ يَأْتِ، فَلمَّا أَبْطَأَ[٨] أَشْفَقُوا[٩] أَنْ يَكُوْنَ قَدْ أَصابَهُ عَنَتٌ[١٠].

فَقَالَ الجُرَذُ وَالسُّلَحْفَاةُ للغُرَابِ: انْظُرْ هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِيْنَا شَيْئاً. فَحَلَّقَ الغُرَابُ فِي السَّماءِ فَنَظَرَ فَإِذَا الظَّبْيُ فِي الحَبَائِلِ مُقْتَنَصَاً[١١]. فَانْقضَّ مُسْرِعاً فَأَخْبَرَهُما بِذَلِكَ.

فَقَالَتِ السُّلَحْفَاةُ وَالغُرَابُ لِلْجُرَذِ: هَذَا أَمْرٌ لاَ يُرْجَى فِيْهِ غَيْرُكَ فَأَغِثْ[١٢] أَخَاكَ. فَسَعَى الجُرَذُ مُسْرِعاً فَأَتَى الظَّبْيَ فقَالَ لَهُ: كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هَذِهِ الوَرْطَةِ وَأَنْتَ مِنَ الأَكْيَاسِ[١٣]؟

---

١ المذعور: الخائف.
٢ راتع: آكل وشارب في خصب وسعة.
٣ الأساورة: جمع أسوار وهو الجيِّد الرَّمي بالسِّهام.
٤ القانص: الصَّيّاد.
٥ العريش: مكان يستظلُّ به.
٦ يتساقطون: يتبادلون.
٧ توقَّعوه: انتظروا مجيئه.
٨ أبطأ: تأخَّر.
٩ أشفقوا: خافوا.
١٠ عنت: الأمر الصَّعب والشَّاق.
١١ مقتَنص: مصطاد.
١٢ أغث: ساعد وأعن.
١٣ الأكياس: جمع كيِّس، وهو الظَّريف الفطن.

قَالَ الظَّبْيُ: مَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَلاَ يُجْدِي الكَيِّسُ مَعَ المَقَادِيْرِ شَيْئاً.
فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الحَدِيْثِ إِذْ وَافَتْهُما السُّلَحْفَاةُ فَقَالَ لها الظَّبْيُ: مَا أَصَبْتِ بِمَجِيْئِكِ إِلَيْنَا، فَإِنَّ القَانِصَ لَوِ انْتَهى إِلَيْنَا وَقَدْ قَطَعَ الجُرَذُ الحَبَائِلَ سَبَقْتُهُ عَدْواً.
ولِلْجُرَذِ أَحْجارٌ كَثِيْرَةٌ، وَالغُرَابُ يَطِيْرُ وَأَنْتِ ثَقِيْلَةٌ لاَ سَعْيَ لَكِ وَلاَ حَرَكَةَ وَأَخَافُ عَلَيْكِ القَانِصَ. قَالَتْ: لاَ عَيْشَ بَعْدَ فِرَاقِ الأَحِبَّةِ، وَإِذَا فَارَقَ الأَلِيْفُ أَلِيْفَهُ فَقَدْ سُلِبَ فُؤَادُهُ، وَحُرِمَ سُرُوْرُهُ، وَغُشِيَ علَى بَصَرِهِ. فَلَمْ يَنْتَهِ كَلاَمُهَا حَتَّى وَافَى[1] القَانِصُ وَوَافَقَ ذَلِكَ فَرَاغَ الجُرَذِ مِنْ قَطْعِ الشَّرَكِ. فَنَجَا الظَّبْيُ بِنَفْسِهِ وَطَارَ الغُرَابُ مُحَلِّقاً وَدَخَلَ الجُرَذُ بَعضَ الأَحْجَارِ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السُّلَحْفَاةِ.
وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً. فَنَظَرَ يَمِيْناً وَشَمالاً فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ السُّلَحْفَاةِ تَدِبُّ فَأَخَذَهَا وَرَبَطَهَا. فَلَمْ يَلْبَثِ الغُرَابُ وَالجُرَذُ وَالظَّبْيُ أَنِ اجتَمعُوا فَنَظَرُوا القَانِصَ قَدْ رَبَطَ السُّلَحْفَاةَ، فَاشْتَدَّ حُزْنُهُمْ وَقَالَ الجُرَذُ: مَا أَرَانَا نُجَاوِزُ عَقَبَةً[2] مِنَ البَلاَءِ إِلاَّ صِرْنَا إِلَى أَشَدَّ مِنْهَا، وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: لاَ يَزَالُ الإِنْسَانُ مُسْتَمِراً فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ يَعْثُرْ، فَإِذَا عَثَرَ لَجَّ[3] بِهِ العِثَارُ وَإِنْ مَشَى فِي جَدَدِ الأَرْضِ[4]. وَحَذَرِي عَلَى السُّلَحْفَاةِ خَيْرِ الأَصْدِقَاءِ الَّتِي خِلَّتُها لَيْسَتْ لِلْمُجَازَاةِ وَلاَ لالتِمَاسِ مُكَافَأَةٍ، وَلَكِنَّهَا خِلَّةُ الكَرَمِ وَالشَّرَفِ. خِلَّةٌ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ خِلَّةِ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ، خِلَّةٌ لاَ يُزِيْلُهَا إِلاَّ المَوْتُ. وَيْحٌ[5] لِهَذَا الجَسَدِ المُوَكَّلِ بِهِ البَلاَءُ الَّذِي لاَ يَزَالُ فِي تَصَرُّفٍ وَتَقَلُّبٍ، وَلاَ يَدُوْمُ لَهُ شَيءٌ وَلاَ يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ، كَمَا لاَ يَدُوْمُ لِلْطَّالِعِ مِنَ النُّجُوْمِ طُلُوْعٌ وَلاَ لِلآفِلِ[6] مِنْهَا أُفُوْلٌ، لَكِنْ لاَ يَزَالُ الطَّالِعُ مِنْهَا آفِلاً وَالآفِلُ طَالِعاً. وَكَمَا تَكُوْنُ آلاَمُ الكُلُوْمِ[7] وَانْتِقَاضُ[8] الجِرَاحَاتِ، كَذَلِكَ حَالِي أَنَا الَّذِي ذَكَّرَنِي هَذَا البَلاَءُ سَابِقَ أَحْوَالِي، كَالجُرْحِ المُنْدَمِلِ[9] تُصِيْبُهُ الضَّرْبَةُ فَيَجتَمِعُ عَلَيْهِ أَلمانِ، أَلَمُ الضَّرْبَةِ وَأَلَمُ الجُرْحِ. وَأَخْلِقْ بِمَنْ[10] فَقَدَ إِخْوَانَهُ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ أَنْ لاَ يَزَالَ مُنْقَصِمَ الظَّهْرِ[11] حَزِيْنَ النَّفْسِ.

---

١ وافى: جاء.
٢ العقبة: الطَّريق الصَّعب.
٣ لجَّ: تمادى.
٤ جدد الأرض: الغليظ المستوي من الأرض.
٥ ويح: ويل.
٦ الآفل: الغارب.
٧ الكلوم: الجراح.
٨ انتقاض: انتكاس.
٩ المندمل: الذي برئ.
١٠ أَخْلِقْ بمن: ما أخلقه أي ما أحقَّه.
١١ منقصم الظَّهر: منكسر.

فقَالَ الظَّبْيُ وَالغُرَابُ لِلجُرَذِ: إِنَّ حذَرَنا وَحذَرَكَ وَكَلامَكَ وَإِنْ كانَ بَليغاً لاَ يُغْنِي عَنِ السُّلَحْفَاةِ شَيْئاً؛ وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ: إِنَّمَا النَّاسُ عِنْدَ البَلاَءِ، وَذُوْ الأَمَانَةِ عِنْدَ الأَخْذِ وَالعَطَاءِ، وَالأَهْلُ وَالوَلَدُ عِنْدَ الفَاقَةِ، وَالإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَائِبِ[1]. قَالَ الجُرَذُ: أَرَى مِنَ الحِيْلَةِ أَنْ تذْهَبَ أَيُّهَا الظَّبْيُ فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ القَانِصِ كأَنَّكَ جَرِيْحٌ، وَيَقَعَ الغُرَابُ عَلَيْكَ كأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ، وَأَسْعَى أَناً فَأَكُوْنُ قَرِيْباً مِنَ القَانِصِ مُرَاقِباً لَهُ لَعَلَّهُ يَرْمِي مَا مَعَهُ مِنَ الآلَةِ، وَيَدَعُ السُّلَحْفَاةَ، وَيَقْصِدُكَ طَامِعاً فِيْكَ رَاجِياً تَحْصِيْلَكَ؛ فَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَفِرَّ عَنْهُ رُوَيْداً بِحَيْثُ لاَ يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ فِيْكَ، وَأَمْكِنْهُ[2] مِنْ أَخْذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ حَتَّى يَبْعُدَ عَنَّا. وَانْحُ مَعَهُ هَذَا النَّحْوَ[3] مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَلاَّ يَنْصَرِفَ إلاَّ وَقَدْ قَطَعْتُ الحَبَائِلَ عَنِ السُّلْحَفَاةِ وَأَنْجُو بِهَا. فَفَعَلَ الظَّبْيُ وَالغُرَابُ مَا أَمَرَهُما بِهِ الجُرَذُ، وَتَبِعَهُما القَانِصُ فَاسْتَطْرَدَ لَهُ[4] الظَّبْيُ حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الجُرَذِ وَالسُّلَحْفَاةِ، وَالجُرَذُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ الحَبَائِلِ حَتَّى قطَعَهَا وَنَجَا بِالسُّلَحْفَاةِ. وَعَادَ القَانِصُ مَجْهُوداً لاَغِباً[5] فَوَجَدَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً. فَفَكَّرَ فِي أَمْرِهِ مَعَ الظَّبْيِ فَظَنَّ أَنَّهُ خُوْلِطَ فِي عَقْلِهِ[6]، وَفَكَّرَ فِي الظَّبْيِ وَالغُرَابِ الَّذِي كَانَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ وَتَقْرِيْضِ حَبَائِلِهِ، فَاسْتَوْحَشَ مِنَ الأَرْضِ وَقَالَ: هَذِهِ أَرْضُ جِنٍّ أَوْ سَحَرَةٍ، فَرَجَعَ مُوَلِّياً لاَ يَلْتَمِسُ شَيْئاً وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ. وَاجْتَمَعَ الغُرَابُ وَالظَّبْيُ وَالجُرَذُ وَالسُّلحْفَاةُ إِلَى عَرِيْشِهِمْ سَالِمِيْنَ آمِنيْنَ كَأَحْسَنِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا الخَلْقُ مَعَ صِغَرِهِ وَضُعْفِهِ قَدْ قَدَرَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ مَرَابِطِ الهَلَكَةِ مَرَةً بَعْدِ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ، وَخُلُوصِهَا وَثَبَاتِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا، وَاسْتِمْتَاعِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ. فَالإِنْسَانُ الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ العَقْلَ وَالفَهْمَ، وَأُلْهِمَ الخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَمُنْحَ التَّمْيِيْزَ وَالمعْرِفَةَ أَوْلَى وَأَحْرَى بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّعَاضُدِ[7].

فَهَذَا مَثَلُ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَائْتِلاَفِهِمْ فِي الصُّحْبَةِ.

---

١ النَّوائب: المصائب.
٢ أمكنه: اجعله يتمكّن منك.
٣ انح معه هذا النَّحو: أي اجرِ معه هذا المجرى.
٤ استطرد له: أظهر له الانهزام مكيدة وحيلة.
٥ لاغب: تعب جدّاً.
٦ خولط في عقله: اختلّ عقله.
٧ التَّعاضد: التَّعاون.

بَابُ البُوْمِ وَالغِرْبَانِ

قَالَ دَبْشَـلِيمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُـوْفِ: قَدْ سَـمِعْتُ مَثَلَ إِخْوَانِ الصَّـفَاءِ وَتَعاوُنِهِمْ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ العَدُوِّ الَّذِي لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِ وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعاً وَمَلَقاً[١]، وَأَخْبِرْنِي عَنِ العَدُوِّ هَلْ يَصِـيْرُ صَـدِيْقاً؟ وَهَلْ يُوْثَقُ مِنْ أَمْرِهِ بِشَـيءٍ؟ وَكَيْفَ العَدَاوَةُ وَمَا ضَرَرُهَا؟ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَصْنَعَ إِذَا طَلَبَ عَدُوُّهُ مُصَالَحَتَهُ؟ قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: مَنِ اغْتَرَّ بِالعَدُوِّ الَّذِي لاَ يَزَالُ عَدُوّاً أَصَابَهُ مَا أَصَابَ اليُوْمَ مِنَ الغِرْبَانِ. قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ شَـجَرَةٌ مِنْ شَـجَرِ الدَّوْحِ[٢] فِيْهَا وَكْرُ أَلْفِ غُرَابٍ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ. وَكَانَ عِنْدَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ فِيْهِ أَلْفُ بُوْمَةٍ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْهُنَّ. فَخَرَجَ مَلِكُ البُوْمِ لِبَعْضِ غَدَوَاتِهِ وَرَوْحَاتِهِ[٣]، وَفِي نَفْسِـهِ العَدَاوَةُ لِمَلِكِ الغِرْبَانِ، وَفِي نَفْسِ الغِرْبَانِ وَمَلِكِهَا مِثْلُ ذَلِكَ لِلْبُوْمِ. فَأَغَارَ مَلِكُ البُوْمِ فِيْ أَصْـحَابِهِ عَلَى الغِرْبَانِ فِي أَوْكَارِهَا، فَقَتَلَ وسَـبَى[٤] مِنْهَا خَلْقاً كَثِيْراً، وَكَانَتْ الغَارَةُ لَيْلاً. فَلَما أَصْبَحَتِ الغِرْبَانُ اجتَمَعَتْ إِلَى مَلِكِهَا، فَقُلْنَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَا لَقِيْنَا اللَّيْلَةَ مِنْ مَلِكِ البُوْمِ، وَمَا مِنَّا إِلاَّ مَنْ أَصْـبَحَ قَتِيْلاً، أَوْ جَرِيْحاً، أَوْ مَكْسُـوْرَ الجَنَاحِ، أَوْ مَنْتُوْفَ الرِّيْشِ، أَوْ مَهْلُوْبَ[٥] الذَّنَبِ. وَأَشَـدُّ مَا أَصَابَنَا ضَرّاً جُرْأَتُهُنَّ عَلَيْنَا وَعِلْمُهُنَّ بِمَكَانِنَا، وَهُنَّ عَائِدَاتٌ إِلَيْنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَاتٍ عَنَّا لِعِلْمِهِنَّ بِمَكَانِنَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ لَكَ أَيُّهَا المَلِكُ فَانْظُرْ لَنَا وَلِنَفْسِـكَ. وَكَانَ فِي الغِرْبَانِ خَمْسَةٌ مُعْتَرَفٌ لهُنَّ بِحُسْنِ الرَّأْيِ يُسْنَدُ إِلَيْهِنَّ فِي الأُمُوْرِ وَتُلْقَى إِلَيْهِنَّ مَقَالِيْدُ الأَحْوَالِ. وَكَانَ المَلِكُ كَثِيْراً مَا يُشَـاوِرُهُنَّ فِي الأُمُوْرِ ويَأْخُذُ آرَاءَهُنَّ فِي الحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ[٦].

فَقَالَ المَلِكُ لِلأَوَّلِ مِنَ الخَمْسَةِ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا الأَمْرِ؟

قَالَ: رَأْيٌ قَدْ سَـبَقَتْنَا إِلَيْهِ العُلَمَاءُ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالَوا: لَيْسَ لِلْعَدُوِّ الحَنِقِ[٧] الَّذِي لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ إِلاَّ الهَرَبُ مِنْهُ.

قَالَ المَلِكُ لِلثَّانِي: مَا رَأْيُكَ أَنْتَ فِي هذَا الأَمْرِ؟

قَالَ: مَا رَأَى هَذَا مِنَ الهَرَبِ؟

---

١ الملق: التَّودُّد.
٢ الدَّوح: جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة.
٣ غدواته وروحاته: خروجه صباحاً ومساءً.
٤ سبى: أَسَرَ.
٥ مهلوب: منتوف.
٦ النَّوازل: المصائب والشَّدائد.
٧ الحنق: الشَّديد الغليظ.

قَالَ المَلِكُ: لاَ أرَى لَكُمَا ذَلِكَ رَأْياً أَنْ نَرْحَلَ عَنْ أَوْطَانِنَا وَنُخْلِيَهَا لِعَدُوِّنَا مِنْ أَوَّلِ نَكْبةٍ أَصَـــابَتْنَا مِنْهُ، وَلاَ يَنْبَغِي لَنَا ذَلِكَ فَنَكُوْنَ بِهِ لَهُمْ عَوْناً عَلَيْنَا، وَلَكِنْ نَجْمَعُ أَمْرَنَا وَنَسْـــتَعِدُّ لِعَدُوِّنَا، وَنُذْكِي[1] نَارَ الحَرْبِ فِيما بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُوِّنَا، وَنَحْتَرِسُ مِنَ الغِرَّةِ[2] إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْنَا، فَنَلْقَاهُ مُسْـــتَعِدِّيْنَ وَنُقَاتِلُهُ قِتَالاً غَيْرَ مُرَاجِعِيْنَ فِيْهِ وَلاَ حَامِيْنَ[3] مِنهُ، وَتَلْقَى أَطْرَافُنَا أَطْرَافَ العَدُوِّ وَنَتَحَرَّزُ[4] بِحُصُـــوْنِنَا وَنُدَافِعُ عَدُوَّنَا بِالأَنَاةِ[5] مَرَّةً وَبِالجِلاَدِ[6] أُخْرَى، حَيْثُ نُصِـــيْبُ فُرْصَـــتَنَا وَبُغْيَتَنَا وَقَدْ ثَنَيْنَا[7] عَدُوَّنَا عَنَّا.

ثُمَّ قَالَ المَلِكُ لِلثَّالِثِ: مَا رَأْيُكَ أَنْتَ.

قَالَ: لاَ أَرَى مَا قَالاَ وَلَكِنْ نَبُثُّ العُيُوْنَ[8]، وَنَبْعَثُ الجَوَاسِـــيْسَ، وَنُرسِـــلُ الطَّلاَئِعَ[9] بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدوِّنَا، فَنَعْلَمُ هلْ يُرِيْدُ صُـــلْحَنَا، أَمْ يُرِيْدُ حَرْبَنَا، أَمْ يُرِيْدُ الفِدْيَةَ؟

فَإِنْ رَأَيْنَا أَمْرَهُ أَمْرَ طَامِعٍ فِي مَالٍ لَمْ نكْرَهِ الصُّـــلْحَ عَلَى خَرَاجٍ[10] نُؤَدِّيْهِ إِلَيْهِ كُلِّ سَـــنَةٍ نَدْفَعُ بِهِ عَنْ أَنْفُسِـــنَا وَنَطْمَئِنُّ فِي أَوْطَانِنَا. فَإِنَّ مِنْ آرَاءِ المُلُوكِ إِذَا اشْتَدَّتْ شَوْكَةُ[11] عَدُوِّهِمْ فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِلاَدِهِمْ، أَنْ يَجْعَلُوا الأَمْوَالَ جُنَّةَ البِلاَدِ وَالمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ.

قَالَ المَلِكُ لِلرَّابِعِ: فَمَا رَأْيُكَ فِي هَذَا الصُّلْحِ؟

قَالَ: لاَ أَرَاهُ رَأْياً بَلْ أَنْ نُفَارِقَ أَوْطَانَنَا وَنَصْبِرَ عَلَى الغُرْبَةِ وَشِدَّةِ المعِيْشَةِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِـيْعَ أَحْسَـابَنَا وَنَخْضَـعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْـرَفُ مِنْهُ. مَعَ أَنَّ البُوْمَ لَوْ عَرَضْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِنَّ لِمَا رَضِيْنَ مِنَّا إِلاَّ بِالشَّطَطِ[12]، وَيُقَالُ فِي الأَمْثَالِ: قَارِبْ عَدُوَّكَ بَعْضَ المُقَارَبَةِ لِتَنَالَ حَاجَتَكَ، وَلاَ تُقَارِبْهُ كُلَّ المُقَارَبَةِ فَيَجْتَرِئَ عَلَيْكَ وَيُضْعِفَ جُنْدَكَ وَتَذِلَّ نَفْسُكَ. وَمِثْلُ ذَلِكَ مَثَلُ الخَشَبَةِ المَنْصُوْبَةِ فِي الشَّمْسِ إِذَا أَمَلْتَهَا قَلِيْلاً زَادَ ظِلُّهَا، وَإِذَا جَاوَزْتَ بِهَا الحَدَّ فِي إِمَالَتِكَهَا نَقَصَ الظِّلُّ. وَلَيْسَ عَدُوُّنَا رَاضِياً مِنَّا بِالدُّوْنِ فِي المُقَارَبَةِ، فَالرَّأْيُ لَنَا وَلَكَ المُحَارَبَةُ.

---

١ نذكي: نوقد.
٢ الغِرَّة: الغفلة.
٣ لا حامين: غير آنفين ولا يداخلنا عارٌ بذلك.
٤ نتحرَّز: نتحصَّن.
٥ الأناة: التأنِّي.
٦ الجلاد: الشِّدَّة والقوَّة والصَّبر.
٧ ثنينا: رددنا وأبعدنا.
٨ نبثُّ العيون: نوزِّع الرُّقباء والجواسيس.
٩ الطلائع: جماعات من الجيش ترسل للاستكشاف.
١٠ الخراج: الأتاوة وهي مبلغ من المال يعطى للعدو.
١١ شوكة: قدرة.
١٢ الشَّطط: مجاوزة الحدّ.

قَالَ المَلِكُ لِلْخَامِسِ: مَا تَقُوْلُ أنْتَ وَمَاذَا تَرَى؟ القِتَالُ أَمِ الصُّــلْحُ أَمِ الجَلاَءُ عَنِ الوَطَنِ؟
قَالَ: أَمَّا القِتَالُ فَلاَ سَبِيْلَ لِلْمَرْءِ إِلَى قِتَالِ مَنْ لاَ يَقْوَى عَلَيْهِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ نَفْسَـهُ وَعَدُوَّهُ وَقَاتَلَ مَنْ لاَ يَقْوَى عَلَيْهِ حَمَلَ نَفْسَـهُ عَلَى حَتْفِهَا[1]، مَعَ أَنَّ العَاقِلَ لاَ يَسْتَصْغِرُ عَدُوّاً. فَإِنَّ مَنِ اسْتَصْغَرَ عَدُوَّهُ اغْتَرَّ بِهِ، وَمَنِ اغْتَرَّ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ. وَأَنا لِلْبُوْمِ شَدِيْدُ الهَيْبَةِ وَإِنْ أَضْرَبْنَ[2] عَنْ قِتَالِنَا، وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُهَا قَبْلَ ذَلِكَ. فَإِنَّ الحَازِمَ لاَ يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنْ كَانَ بَعِيْداً لَمْ يَأْمَنْ سَــطْوَتَهُ، وَإِنْ كَانَ مُكْثِباً[3] لَمْ يَأْمَنْ وَثْبَتَهُ، وَإِنْ كَانَ وَحِيْداً لَمْ يَأْمَنْ مَكْرَهُ. وَأَحْزَمُ الأَقْوَامِ وَأَكْيَسُــهُمْ[4] مَنْ كَرِهَ القِتَالَ لأَجْلِ النَّفَقَةِ فِيْهِ. فَإِنَّ مَا دُوْنَ القِتَالِ النَّفَقَةُ فِيْهِ مِنَ الأَمْوَالِ والقَوْلِ والعَمَلِ. وَالقِتَالُ النَّفَقَةُ فِيْهِ مِنَ الأَنْفُسِ وَالأَبْدَانِ، وَرُبَّمَا اكْتُفِيَ عَنْهُ بِالنَّفَقَةِ اليَسِــيْرَةِ وَالكَلاَمِ اللَّيِّنِ. فَلاَ يَكُوْنَنَّ القِتَالُ لِلْبُوْمِ مِنْ رَأْيِكَ أَيُّهَا المَلِكُ، فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَ مَنْ لا يَقْوَى عَلَيْهِ فَقَدْ غَرَّرَ بِنَفْسِــهِ[5]. فَإِذَا كَانَ الملِكُ مُحْصِناً[6] لِلأَسْرَارِ، مُتَخَيِّراً لِلْوُزَرَاءِ، مَهِيْباً فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، بَعِيْداً مِنْ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ، كَانَ خَلِيْقاً أَلاَّ يُسْلَبَ صَحِيْحَ مَا أُوتِيَ مِنَ الخَيْرِ. وَأَنْتَ أَيُّهَا المَلِكُ كَذَلِكَ، وَالمَلِكُ يَزْدَادُ بِرَأْيِ وُزَرَائِهِ بَصِــيْرَةً كَمَا يَزِيْدُ البَحْرُ بِمُجَاوِرِهِ مِنَ الأَنْهَارِ.
وَقَدِ اسْتَشَرْتَنِي فِي أَمْرٍ، جَوَابُكَ مِنِّي عَنْهُ فِي بَعْضِهِ عَلَنِيٌّ وَقَدْ أَجَبْتُكَ بِهِ، وَفِي بَعْضِهِ سِرِّيٌّ. وَلِلأَسْرَارِ مَنَازِلُ مِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيْهِ الرَّهْطُ[7]، وَمِنْهَا مَا يُسْتَعَانُ فِيْهِ بِالقَوْمِ، وَمِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيْهِ الرَّجُلاَنِ. وَلَسْــتُ أَرَى لِهَذَا السِّــرِّ عَلَى قَدَرِ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُشَارَكَ فِيْهِ إِلاَّ أَرْبَعُ آذَانٍ وَلِسَانَانِ.
فَنَهَضَ الملِكُ مِنْ سَاعَتِهِ وَخَلاَ بِهِ فَاسْتَشَارَهُ. فَكَانَ أَوَّلُ ما سَأَلَهُ عَنْهُ المَلِكُ أَنَّهُ قَالَ: هَلْ تَعْلَمُ ابْتِدَاءَ العَدَاوَةِ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البُوْمِ. قَالَ: نَعَمْ. كَلِمَةٌ تَكَلَّمَ بِهَا غُرَابٌ.
قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ الغُرَابِ وَالكَرَاكِيِّ

---

١ حتفها: هلاكها وموتها.
٢ أضربن: امتنعن.
٣ المكثب: القريب.
٤ أكيسهم: أعقلهم وأفطنهم.
٥ غرَّر بنفسه: عرّضها للهلاك.
٦ المحصن: الكاتم.
٧ الرَّهط: الجماعة دون العشرة.

قَالَ الغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الكَرَاكِيِّ[١] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَلِكٌ فَأَجْمَعَتْ أَمْرَهَا عَلَى أَنْ تُملِّكَ عَلَيْهَا مَلِكَ البُوْمِ. فَبَيْنَمَا هِيَ فِي مَجْمَعِهَا إِذْ وَقَعَ لَهَا غُرَابٌ. فَقَالَتْ: لَوْ جَاءَنَا هَذَا الغُرَابُ فَاسْتَشَرْنَاهُ فِي أَمْرِنَا. فَلَمْ يَلْبَثْنَ دُوْنَ أَنْ جَاءَهُنَّ الغُرَابُ فَاسْتَشَرْنَهُ.

فَقَالَ: لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ بَادَتْ[٢] مِنَ الأَقَالِيمِ[٣]، وَفُقِدَ الطَّاوُوْسُ وَالبَطُّ وَالنَّعَامُ وَالحمَامُ مِنَ العَالَمِ لِمَا اضْطُرِرْتُنَّ إِلَى أَنْ تُملِّكْنَ عَلَيْكُنَّ البَوْمَ الَّتِي هِيَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ مَنْظَراً، وَأَسْوَءُهَا خَلْقَاً، وَأَقَلُّهَا عَقْلاً، وَأَشَدُّهَا غَضَباً، وَأَبْعَدُهَا مِنْ كُلِّ رَحْمَةٍ مَعَ عَمَاهَا ومَا بِهَا مِنَ العَشَا[٤] فِي النَّهَارِ وَنتْنِ رَائِحَتَهَا، حَتَّى لاَ يُطِيْقُ طَائِرٌ أَنْ يَتَقَرَّبَ مِنْهَا. وَأَشَدُّ مِنْ وَأَقْبَحُ أُمُوْرِهَا سَفَهُهَا[٥] وَسُوْءُ أَخْلاَقِهَا. إِلاَّ أَنْ تَرَيْنَ أَنْ تُملِّكْنَهَا وَتَكُنَّ أَنْتُنَّ تُدَبِّرْنَ الأُمُوْرَ دُوْنَهَا بِرَأْيِكُنَّ وَعُقُولِكُنَّ، فَإِنَّ وُزَرَاءَ المَلِكِ إِذَا كَانُوا صَالِحِيْنَ وَكَانَ يُطِيْعُهُمْ فِي آرَائِهِمْ لَمْ يَضُرَّ فِي مُلْكِهِ كَوْنُهُ جَاهِلاً وَاسْتَقَامَ أَمْرُهُ. كَمَا فَعَلَتِ الأَرْنَبُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ القَمَرَ مَلِكُهَا وَعَمِلَتْ بِرَأْيِهَا. قَالَتِ الطَّيْرُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ الأَرْنَبِ وَمَلِكِ الفِيلَةِ

قَالَ الغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ أَرْضاً مِنْ أَرَاضِي الفِيلَةِ تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا السِّنُوْنَ[٦] وَأَجْدَبَتْ[٧]، وَقَلَّ مَاؤُهَا، وَغَارَتْ عُيُوْنُهَا، وَذَوَى[٨] نَبْتُهَا، وَيَبِسَ شَجَرُهَا، فَأَصَابَ الفِيلَةَ عَطَشٌ شَدِيْدٌ. فَشَكَوْنَ ذَلِكَ إِلَى مَلِكِهِنَّ، فَأَرْسَلَ المَلِكُ رُسُلَهُ وَرُوَّادَهُ[٩] فِي طَلَبِ المَاءِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ. فَرَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّسُلِ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِمَكَانِ كَذَا عَيْناً يُقَالُ لَهَا عَيْنُ القَمَرِ كَثِيْرَةُ المَاءِ. فَتَوَجَّهَ مَلِكُ الفِيلَةِ بِأَصْحَابِهِ إِلَى تِلْكَ العَيْنِ لِيَشْرَب مِنْهَا هُوَ وَفِيلَتُهُ.

وَكَانَتِ العَيْنُ فِي أَرْضٍ لِلأَرَانِبِ، فَوَطِئْنَ[١٠] الأَرَانِبَ فِي أَجْحَارِهِنَّ، فَأَهْلَكْنَ مِنْهُنَّ كَثِيْراً. فَاجتَمَعَتِ الأَرَانِبُ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الفِيلَةِ. فَقَالَ: لِيُحْضِرْ مِنْكُنَّ كُلُّ ذِي رَأْيٍ رَأْيهُ.

فَتَقَدَّمَتْ أَرْنَبٌ مِنَ الأَرَانِبِ يُقَالُ لَهَا فَيْرُوْزُ، وَكَانَ المَلِكُ يَعْرِفُهَا بِحُسْنِ الرَّأْيِ

---

١ الكراكيُّ: جمع كركيّ وهو طائر من الأوزّ.
٢ بادت: فنيت وانقطعت.
٣ الأقاليم: البلاد.
٤ العشا: ضعف البصر ليلاً.
٥ السَّفَه: الطَّيش والخفّة والجهل.
٦ السِّنون: جمع سنة بمعنى الجدب والمحْل.
٧ أجدبت: قحطت وأمحلت.
٨ ذوى: ذَبُلَ.
٩ روَّاده: جمع رائد، وهو الرَّجل يرسله القوم ليتخيَّرَ لهم مكاناً.
١٠ وَطِئنَ: دُسْنَ.

فَقَالَتْ: إنْ رَأَى المَلِكُ أَنْ يَبْعَثَنِي إِلَى الفِيَلَةِ، ويُرْسِلَ مَعِي أَمِيْناً لِيَسْمَعَ وَيَرَى مَا أَقُوْلُ، وَيَرْفَعَهُ إِلَى المَلِك. فَقَالَ لَهَا المَلِكُ: أَنْتِ أَمِيْنَةٌ وَنَرْضَى بِقَوْلِكِ:، فَانْطَلِقِي إِلَى الفِيَلَةِ وَبَلِّغِي عَنِّي مَا تُرِيْدِيْنَ. وَاعْلَمِي أَنَّ الرَّسُـــوْلَ بِرَأْيِهِ وَعَقْلِهِ وَلِيْنِهِ وَفَضْــــلِهِ يُخْبِرُ عَنْ عَقْلِ المُرْسِـــلِ. فَعَلَيْكِ بِاللِّيْنِ وَالرِّفْقِ وَالحِلْمِ وَالتَّأَنِّي، فَإِنَّ الرَّسُوْلَ هُوَ الَّذِي يُلِيِّنُ الصُّدُوْرَ إِذَا رَفَقَ[1]، وَيُخَشِّنُ الصُّدُوْرَ إِذَا خَرِقَ[2].
ثُمَّ إِنَّ الأَرْنَبَ انْطَلَقَتْ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى الفِيَلَةِ. وَكَرِهَتْ أَنْ تَدْنُو مِنْهُنَّ مَخَافَةَ أَنْ يَطَأْنَهَا بِأَرْجُلِهِنَّ فَيَقْتُلْنَهَا، وَإِنْ كُنَّ غَيْرَ مُتَعَمِّدات، فَأَشْــرَفَتْ[3] عَلَى الجَبَلِ وَنَادَتْ مَلِكَ الفِيَلَةِ وَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ القَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ وَالرَّسُوْلُ غَيْرُ مَلُوْمٍ فِيمَا يُبَلِّغُ وَإِنْ أَغْلَظَ فِي القَوْلِ.
قَالَ مَلِكُ الفِيَلَةِ فَمَا الرِّسَالَةُ؟
قَالَتْ: يَقُوْلُ لَكَ إِنَّهُ مَنْ عَرَفَ فَضْـــلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضُّــعَفَاءِ فَاغْتَرَّ فِي ذَلِكَ بِالأَقْوِيَاءِ قِيَاسـاً لَهُمْ عَلَى الضُّـعَفاءِ، كَانَتْ قُوَّتُهُ وَبَالاً[4] عَلَيْهِ؛ وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْــلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدَّوَابِّ فَغَرَّكَ ذَلِكَ، فَعَمَدْتَ إِلَى العَيْنِ الَّتِي تُسَـمَّى بِاسْـمِي فَشَرِبْتَ مِنْهَا وَرَنَّقْتَهَا[5]، فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ فَأُنْذِرُكَ أَلاَّ تَعُوْدَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ؛ وَأَنَّهُ إِنْ فَعَلْتَ يُغَشِّي[6] عَلَى بَصَرِكَ وَيُتْلِفُ[7] نَفْسَكَ، وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِي فَهَلُمَّ إِلَى العَيْنِ مِنْ سَاعَتِكَ فَإِنَّهُ مُوَافِيْكَ[8] بِهَا.
فَعَجِبَ مَلِكُ الفِيَلَةِ مِنْ قَوْلِ الأَرْنَبِ، فَانْطَلَقَ إِلَى العَيْنِ مَعَ فَيْرُوْزَ الرَّسُولِ.
فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا رَأَى ضَوْءَ القَمَرِ فِيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ فَيْرُوْزُ الرَّسُوْلُ: خُذْ بِخُرْطُوْمِكَ مِنَ الماءِ فَاغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ.
فَأَدْخَلَ الفِيْلُ خُرْطُوْمَهُ فِي المَاءِ فَتَحَرَّكَ فَخُيِّلَ[9] إِلَى الفِيْلِ أَنَّ القَمَرَ ارْتَعَدَ[10].
فقَالَ: مَا شَأْنُ القَمَرِ ارْتَعَدَ أَتُرِيْنَهُ غَضِبَ مِنْ إِدْخَالِي خُرْطُوْمِي فِي المَاءِ؟
قَالَتْ فَيْرُوْزُ الأَرْنَبُ: نَعَمْ.
فَسَجَدَ الفِيْلُ لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ، وَشَرَطَ أَلاَّ يَعُوْدَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ وَلاَ أَحَدٌ مِنْ فِيَلَتِهِ.

---

١ رفق: لطف ولان.
٢ خَرِقَ: جهل وحمق.
٣ أشرفت: أطلَّت.
٤ الوبال: الهلاك والخراب.
٥ رنَّقتها: كدَّرتها وعكّرتها.
٦ يغشِّي: يلقي غشاوة.
٧ يتلف: يهلك.
٨ موافيك: ملاقيك.
٩ خُيِّلَ: توهَّم.
١٠ ارتعد: ارتجف من الخوف.

قَالَ الغُرَابُ: وَمَعَ مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ البُوْمِ فَإِنَّ فِيْهَا الخِبَّ وَالمَكْرَ وَالخَدِيْعَةَ، وَشَرُّ المُلُوْكِ المُخَادِعُ. وَمَنِ ابْتُلِيَ بِسُلْطَانٍ مُخَادِعٍ وَخَدَمَهُ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الأَرْنَبَ وَالصِّفْرِدَ حِيْنَ احْتكَمَا إِلَى السِّنَّوْرِ.

قَالَتْ الكَرَاكِيُّ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ الأَرْنَبِ وَالصِّفْرِدِ وَالسِّنَّوْرِ

قَالَ الغُرَابُ: كَانَ لِي جَارٌ مِنَ الصَّفَارِدَةِ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ قَرِيْبَةٍ مِنْ وَكْرِي، وَكَانَ يُكْثِرُ مُوَاصَلَتِي. ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَلَمْ أَعْلَمْ أَيْنَ غَابَ، وَطَالَتْ غَيْبَتُهُ عَنِّي. فَجَاءَتْ أَرْنَبٌ إِلَى مَكَانِ الصِّفْرِدِ فَسَكَنَتْهُ فَكَرِهْتُ أَنْ أُخَاصِمَ الأَرْنَبَ، فَلَبِثَتْ فِيْهِ زَمَاناً. ثُمَّ إِنَّ الصِّفْرِدَ عَادَ بَعْدَ زَمَانٍ فَأَتَى مَنْزِلَهُ فَوَجَدَ فِيْهِ الأَرْنَبَ فَقَالَ لَهَا: هَذَا المَكَانُ لِي فَانْتَقِلِي مِنْهُ. قَالَتِ الأَرْنَبُ: المَسْكَنُ لِي وَتَحْتَ يَدِي وَأَنْتَ مُدَّعٍ لَهُ. فَإِنْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فَاسْتَعْدِ عَلَيَّ[1]. قَالَ الصِّفْرِدُ: القَاضِي مِنَّا قَرِيْبٌ فَهَلُمِّي بِنَا إِلَيْهِ.

قَالَتِ الأَرْنَبُ: وَمَنِ القَاضِي؟

قَالَ الصِّفْرِدُ: إِنَّ بِسَاحِلِ البَحْرِ سِنَّوْراً مُتَعَبِّداً يَصُوْمُ النَّهَارَ، وَيَقُوْمُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَلاَ يُؤْذِي دَابَّةً، وَلاَ يُهَرِيْقُ دَماً. عَيْشُهُ مِنَ الحَشِيْشِ وَمِمَّا يَقْذِفُهُ إِلَيْهِ البَحْرُ. فَإِنْ أَحْبَبْتِ تَحَاكَمْنَا إِلَيْهِ وَرَضِيْنَا بِهِ. قَالَتِ الأَرْنَبُ: مَا أَرْضَانِي بِهِ إِذَا كَانَ كَمَا وَصَفْتَ، فَانْطَلَقَا إِلَيْهِ. فَتَبِعْتُهُما لأَنْظُرَ إِلَى حُكُوْمَةِ الصَّوَّامِ القَوَّامِ.

ثُمَّ إِنَّهُما ذَهَبَا إِلَيْهِ فَلَمَّا بَصُرَ السِّنَّوْرُ بِالأَرْنَبِ وَالصِّفْرِدِ مُقْبِلَيْنِ نَحْوَهُ انْتَصَبَ قَائِماً يُصَلِّي، وَأَظْهَرَ الخُشُوْعَ وَالتَّنَسُّكَ. فَعَجِبَا لِمَا رَأَيَا مِنْ حَالِهِ وَدَنَوا مِنْهُ هَائِبَيْنِ لَهُ، وَسَلَّمَا عَلَيْهِ، وَسَأَلاهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُما. فَأَمَرَهُما أَنْ يَقُصَّا عَلَيْهِ القِصَّةَ فَفَعَلا.

فَقَالَ لَهُما: قَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ، وَثَقُلَتْ أُذُنَايَ فَادْنُوَا مِنِّي فَأَسْمِعَانِي مَا تَقُوْلاَنِ، فَدَنَوا مِنْهُ وَأَعَادَا عَلَيْهِ القِصَّةَ وَسَأَلاهُ الحُكْمَ.

فَقَالَ: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُمَا وَأَنا مُبْتَدِئُكُمَا بِالنَّصِيْحَةِ قَبْلَ الحُكُوْمَةِ. فَأَنا آمُرُكُمَا بِتَقْوَى الله، وَأَلاَّ تَطْلُبَا إِلاَّ الحَقَّ، فَإِنَّ طَالِبَ الحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِحُ وَإِنْ قُضِيَ عَلَيْهِ، وَطَالِبَ البَاطِلِ مَخْصُوْمٌ وَإِنْ قُضِيَ لَهُ؛ وَلَيْسَ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُ شَيءٌ لاَ مَالٌ وَلاَ صَدِيْقٌ سِوَى العَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ. فَذُو العَقْلِ حَقِيْقٌ أَنْ يَكُوْنَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى وَيَعُوْدُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ غَداً، وَأَنْ يَمْقُتَ بِسَعْيِهِ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُوْرِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَةَ المَالِ عِنْدَ العَاقِلِ بِمَنْزِلَةِ المَدَرِ، وَمَنْزِلَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيمَا يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الخَيْرِ وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِهِ.

---

[1] استعدِ عليّ: استَعِنْ عليَّ بالشَّكوى.

ثُمَّ إِنَّ السِّنَّوْرَ لَمْ يَزَلْ يَقُصُّ عَلَيْهِمَا مِنْ جِنْسِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ حَتَّى أَنِسَا إِلَيْهِ وَأَقْبَلاَ عَلَيْهِ وَدَنَوا مِنْهُ، فَوَثَبَ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُما.
قَالَ الغُرَابُ: ثُمَّ إِنَّ البُوْمَ تَجْمَعُ مَعَ مَا وَصَــفْتُ لَكُنَّ مِنَ الشّؤْمِ سَــائِرَ العُيُوْبِ، فَلاَ يَكُوْنَنَّ تَمْلِيْكُ البُوْمِ مِنْ رَأْيِكُنَّ.
فَلَمَّا سَــمِعَ الكَرَاكِيُّ ذَلِكَ مِنْ كَلاَمِ الغُرَابِ أَضْــرَبْنَ عَنْ تَمْلِيْكِ البُوْمِ. وَكَانَ هُنَاك بُوْمٌ حَاضِرٌ قَدْ سَمِعَ مَا قَالُوا، فَقَالَ لِلْغُرَابِ: لَقَدْ وَتَرْتَنِي[1] أَعْظَمَ التِّرَةِ وَلاَ أَعْلَمُ أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي إِلَيْكَ سُوْءٌ أَوْجَبَ هَذَا.
وَبَعْدُ فَاعْلَمْ أَنَّ الفَأْسَ يُقْطَعُ بِهَا الشَّــجَرُ فَيَعُوْدُ يَنْبُتُ، وَالسَّــيْفَ يَقْطَعُ اللَّحْمَ ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَنْدَمِلُ، وَاللِّسَانُ لاَ يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ وَلاَ تُؤْسَى مَقَاطِعُهُ[2]، وَالنَّصْلُ[3] مِنَ السَّــهْمِ يَغِيْبُ فِي اللَّحْمِ ثُمَّ يُنْزَعُ فَيَخْرُجُ، وَأَشْــبَاهُ النَّصْــلِ مِنَ الكَلاَمِ إِذَا وَصَــلَتْ إِلَى القَلْبِ لَمْ تُنْزَعْ وَلَمْ تُسْــتَخْرَجْ. وَلِكُلِّ حَرِيْقٍ مُطْفِئٌ، فَلِلْنَّارِ المَاءُ، وَلِلسُّــمِّ الدَّوَاءُ، وَلِلْحُزْنِ الصَّــبْرُ، وَلِلْعِشْــقِ الفُرْقَةُ. وَنَارُ الحِقْدِ لاَ تَخْبُو[4] أَبَداً. وَقَدْ غَرَسْتُمْ مَعَاشِرَ الغِرْبَانِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ شَجَرَ الحِقْدِ وَالعَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ.
فَلَمَّا قَضَــى البُوْمُ مَقَالَتَهُ وَلَّى مُغْضَــباً، فَأَخْبَرَ مَلِكَ البُوْمِ بِمَا جَرَى وَبِكُلِّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الغُرَابِ.
ثُمَّ إِنَّ الغُرَابَ نَدِمَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ وَقَالَ: وَالله لَقَدْ خَرِقْتُ[5] فِي قَوْلِي الَّذِي جَلَبْتُ بِهِ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ عَلَى نَفْسِي وَقَوْمِي، وَلَيْتَنِي لَمْ أُخْبِرِ الكَرَاكِيَّ بِهَذِهِ الحَالِ، وَلَمْ أُعْلِمْهَا بِهَذَا الأَمْرِ. وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ قَدْ رَأَى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ وَعَلِمَ أَضْــعَافَ مَا عَلِمْتُ، فَمَنَعَهَا مِنَ الكَلاَمِ بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُ اتِّقَاءُ مَا لَمْ أَتَّقِ، وَالنَّظَرُ فِيمَا لَمِ أَنْظُرْ فِيْهِ مِنْ حِذَارِ العَواقِبِ. وَلاَ سِــيَّما إِذَا كَانَ الكَلاَمُ أَفْظَعَ كَلاَمٍ يَلْقَى مِنْهُ سَــامِعُهُ وَقَائِلُهُ المَكْرُوْهَ مِمَّا يُوْرِثُ الحِقْدَ وَالضَّــغِيْنَةَ، فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ تُسَــمَّى أَشْبَاهُ هَذَا الكَلاَمِ كَلاَماً وَلَكِنْ سِهَاماً.
وَإِنَّ الكَلاَمَ الرَّدِيءَ هُوَ الَّذِي يَرْمِي صَاحِبَهُ فِي الحِقْدِ وَالعَدَاوَةِ. وَالعاقِلُ إِنْ كَانَ واثِقاً بِقُوَّتِهِ وَفَضْــلِهِ لا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلُبَ العَدَاوَةَ عَلَى نَفْســهِ اتِّكَالاً عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالقُوَّةِ. كَمَا أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ التِّرْيَاقُ لا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْرَبَ السُّمَّ اتِّكَالاً عَلَى مَا عِنْدَهُ؛ وَصَاحِبُ العَمَلِ وَإِنْ قَصَّرَ بِهِ القَوْلُ فِي مُسْتَقْبَلِ الأَمْرِ كَانَ فَضْلُهُ بَيِّناً وَاضِحاً فِي العَاقِبَةِ وَالاِخْتَبارِ؛

---

١ وترتني: أصبتني بعداوة وحقد ومكروه.
٢ لا تؤسى مقاطعه: لا تداوى مواضع قطعه.
٣ النَّصل: حديد السَّهم ونحوه.
٤ تخبو: تنطفئ.
٥ خرقت: أساءت التّصرّف.

وَصَــاحِبُ حُسْــنِ القَوْلِ وَإِنْ أَعْجَبَ النَّاسَ مِنْهُ حُسْــنُ صِــفَتِهِ لِلأُمُوْرِ لَمْ تُحْمَدْ مَغَبَّةُ[١] أَمْرِهِ. وَأَنا صَاحِبُ القَوْلِ الَّذِي لاَ عَاقِبَةَ لَهُ مَحْمُوْدَةً. أَوَ لَيْسَ مِنْ سَفَهِي اجْتِرَائِي عَلَى التَّكَلُّمِ فِي أَمْرٍ لَمْ أَسْــتَشِــرْ فِيْهِ أَحَداً، وَلَمْ أَعْمِلْ فِيْهِ رَأْياً؟ وَمَنْ لَمْ يَسْــتَشِــرِ النُّصَــحَاءَ وَالأَوْلِيَاءَ وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ تكْرَارِ النَّظَرِ وَالرَّوِيَّةِ[٢] لَمْ يَغْتَبِطْ[٣] بِمَوَاقِعِ رَأْيِهِ. فَمَا كَانَ أَغْنَانِي عَمَّا كَسَــبْتُ يَوْمِي هَذَا وَمَا وَقَعْتُ فِيْهِ مِنَ الهَمِّ.

وَعَاتَبَ الغُرَابُ نَفْسَهُ بِهَذَا الكَلاَمِ وأَشْبَاهِهِ وَذَهَبَ.

هَذَا مَا سَــأَلْتَنِي عَنْهُ مِنِ ابْتِدَاءِ العَدَاوَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ البُوْمِ. وَأَمَّا القِتَالُ فَقَدْ عَلِمْتَ رَأْيِي فِيْهِ وَكَراهَتِي لَهُ، وَلكِنْ عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ وَالحِيْلَةِ غَيْرَ القِتَالِ مَا يَكُوْنُ فِيْهِ الفَرَجُ إِنْ شَــاءَ اللهُ تَعَالَى. فَإِنَّهُ رُبَّ قَوْمٍ قَدِ احْتَالُوا بِآرَائِهِمْ حَتَّى ظَفِرُوا بِمَا أَرَادُوا، وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيْثُ الجَمَاعَةِ الَّذِيْنَ ظَفِرُوا بِالنَّاسِــكِ وَأَخَذُوا عَرِيْضَــهُ[٤].

قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ الجَمَاعَةِ وَالنَّاسِكِ وَعَرِيْضِهِ

قَالَ الغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً اشْتَرَى عَرِيْضاً ضَخْماً لِيَجْعَلَهُ قُرْبَاناً، فَانْطَلَقَ بِهِ يَقُوْدُهُ، فَبَصُــرَ بِهِ قَوْمٌ مِنَ المَكَرةِ فَائْتَمَرُوا[٥] بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوْهُ مِنَ النَّاسِــكِ؛ فَعَرَضَ لَهُ أَحَدُهُمْ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا النَّاسِكُ مَا هَذَا الكَلْبُ الَّذِي مَعَكَ؟

ثُمَّ عَرَضَ لَهُ الآخَرُ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ: مَا هَذَا نَاسِكاً لأَنِ النَّاسِكَ لاَ يَقُوْدُ كَلباً.

فَلَمْ يَزَالُوا مَعَ النَّاسِكِ عَلَى هَذَا وَمِثْلِهِ حَتَّى لَمْ يَشُكَّ أَنّ الَّـذِي يَقُوْدُهُ كَلْـبٌ، وَأَنَّ الَّذِي بَاعَهُ إِيَّاهُ سَــحَرَ عَيْنَيْهِ. فَأَطْلَقَهُ مِنْ يَدِهِ فَأَخَذَهُ الجَمَاعَةُ المُحْتَالُوْنَ وَمَضَوْا بِهِ.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِمَا أَرْجُو أَنْ نُصِيْبَ[٦] مِنْ حَاجَتِنَا بِالرِّفْقِ وَالحِيْلَةِ، وَإِنِّي أُرِيْدُ مِنَ المَلِكَ أَنْ يَنْقُرَنِي[٧] عَلَى رُؤُوْسِ الأَشْهَادِ، وَيَنْتِفَ رَيْشِي وَذَنَبِي ثُمَّ يَطْرَحَنِي فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَيَرْتَحِلَ المَلِكُ وجُنُوْدُهُ إِلَى مَكَانِ كَذَا. فَإِنِّي أَرْجُو أَنِّي أَصْبِرُ وَأَطَّلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَمَوَاضِعِ تَحْصِيْنِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ، فَأُخَادِعُهُمْ وَآتِي إِلَيْكُمْ لِنَهْجُمَ عَلَيْهِمْ، وَنَنَالَ مِنْهُمْ غَرَضَنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

١ مغبَّة: عاقبة.
٢ الرَّوِيَّة: إطالة الفكرة.
٣ لم يغتبط: لم يجد نفسه سعيداً ومسروراً.
٤ عريضه: العريض من المعز ما أتى عليه سنة.
٥ ائتمروا: تشاوروا.
٦ نصيب: ننال.
٧ ينقرني: يعيبني ويضربني.

قَالَ المَلِكُ: أَتَطِيْبُ نَفْسُكَ لِذَلِكَ؟
قَالَ: نَعَمْ، وَكَيْفَ لاَ تَطِيْبُ نَفْسِـــي لِذَلِكَ وَفِيْهِ أَعْظَمُ الرَّاحَاتِ لِلْمَلِكِ وَجُنُودِهِ، فَفَعَلَ المَلِكُ بِالغُرَابِ مَا ذَكَرَ ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ.

فَلَمَّـا جَنَّ اللَّيْـلُ أَقْبَـلَ مَلِـكُ البُوْمِ وَجُنْـدُهُ لِيُوْقِعَ بِـالغِرْبَـانِ فَلَمْ يَجِـدْهُمْ وَهَمَّ بِالإِنْصِـــرَافِ. فَجَعَلَ الغُرَابُ يَئِنُّ وَيَهْمِسُ حَتَّى سَـــمِعَتْهُ البُوْمُ وَرَأَيْنَهُ يَئِنُّ، فَأَخْبَرْنَ مَلِكَهُنَّ بِذَلِكَ.

فَقَصَدَ نَحْوَهُ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الغِرْبَانِ. فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَمَرَ بُوْماً أَنْ يَسْأَلَهُ. فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ وَأَيْنَ الغِرْبَانُ؟

فَقَالَ: أَمَّا اسْـمِي فَفُلاَنٌ، وَأَمَّا مَا سَـأَلْتَنِي عَنْهُ فَإِنِّي أَحْسَـبُكَ تَرَى أَنَّ حَالي حَالُ مَنْ لاَ يَعْلَمُ الأَسْـرَارَ. فَقِيْلَ لِمَلِكِ البُوْمِ: هَذَا وَزِيْرُ مَلِكِ الغِرْبَانِ وَصَـاحِبُ رَأْيِهِ فَنَسْأَلُهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ مَا صُنِعَ؟

فَسُـئِلَ الغُرَابُ عَنْ أَمْرِهِ فَقَالَ: إِنَّ مَلِكَنَا اسْـتَشَـارَ جَمَاعَتَنَا فِيْكُنَّ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِمَحْضَـــرٍ مِنَ الأَمْرِ. فَقَالَ: أَيُّهَا الغِرْبَانُ مَا تَرَوْنَ فِي ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: أَيُّهَا المَلِكُ لاَ طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ البُوْمِ لأَنَّهُنَّ أَشَـدُّ بَطْشَـــاً وَأَحَدُّ قَلْباً مِنَّا، وَلَكِنْ أَرَى أَنْ نَلْتَمِسَ الصُّـــلْحَ ثُمَّ نَبْذُلَ الفِدْيَةَ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ قَبِلَتِ البُوْمُ ذَلِكَ مِنَّا وَإِلاَّ هَرَبْنَا فِي البِلاَدِ. وَإِذَا كَانَ القِتَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ البُوْمِ كَانَ خَيْراً لَهُنَّ وَشَـرّاً لَنَا، فَالصُّـلْحُ أَفْضَـلُ مِنَ الخُصُـوْمَةِ. وَأَمَرْتُهُنَّ بِالرُّجُوْعِ عَنِ الحَرْبِ، وَضَـرَبْتُ لَهُنَّ الأَمْثَالَ فِي ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَهُنَّ: إِنَّ العَدُوَّ الشَّدِيْدَ لاَ يَرُدُّ بَأْسَهُ شَيءٌ مِثْلُ الخُضُوْعِ لَهُ؛ أَلاَ تَرَيْنَ إِلَى الحَشِيْشِ كَيْفَ يَسْلَمُ مِنْ عَاصِفِ الرِّيْحِ لِلِيْنِهِ وَمَيْلِهِ مَعَهَا حَيْثُ مَالَتْ، وَالشَّجَرُ العَاتِي يُكْسَـــرُ بِهَا وَيُحْطَمُ. فَعَصَـــيْنَنِي فِي ذَلِكَ وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ القِتَالَ، واتَّهَمْنَنِي فِيمَا قُلْتُ وَقُلْنَ: إِنَّكَ قَدْ مَالأْتَ البُوْمَ عَلَيْنَا، ورَدَدْنَ قَوْلِي وَنَصِـيْحَتِي، وَعَذَّبْنَنِي بِهَذَا العَذَابِ، وتَرَكَنِي المَلِكُ وَجُنُوْدُهُ، وَارْتَحَلَ وَلاَ عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكُ البُوْمِ مَقَالَةَ الغُرَابِ قَالَ لِبَعْضِ وُزَرَائِهِ: مَا تَقُوْلُ فِي الغُرَابِ وَمَا تَرَى فِيْهِ؟ قَالَ: مَا أَرَى إِلاَّ المُعَاجَلَةَ لَهُ بِالقَتْلِ، فَإِنَّ هَذَا أَفْضَـــلُ عُدَدِ الغِرْبَانِ وَفِي قَتْلِهِ لَنَا رَاحَةٌ مِنْ مَكْرِهِ، وَفَقْدُهُ عَلَى الغِرْبَانِ شَـــدِيْدٌ. فَإِذَا قُتِلَ ثُلَّ مُلْكُهُمْ وَتَقَوَّضَ، وَمَا أَرَاهُ إِلاَّ فَتْحاً وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْكَ. وَيُقَالُ: مَنْ ظَفِرَ بِالسَّاعَةِ الَّتِي فِيْهَا يَنْجَحُ العَمَلُ ثُمَّ لاَ يُعَاجِلُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ فَلَيْسَ بِحَكِيْمٍ، فَإِنَّ الأُمُوْرَ مَرْهُونَةٌ بِأَوْقَاتِهَا؛ وَمَنْ طَلَبَ الأَمْرَ الجَسِـــيْمَ فَأَمْكَنَهُ ذَلِكَ فَأَغْفَلَهُ فَاتَهُ الأَمْرُ، وَهُوَ خَلِيْقٌ أَلاَّ تَعُوْدَ الفُرْصَـــةُ ثَانِيَةً، وَمَنْ وَجَدَ عَدُوَّهُ ضَـــعِيْفاً وَلَمْ يُنْجِزْ[١] قَتْلَهُ نَدِمَ إِذَا اسْتَقْوَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ.

---

١ يُنجز: يتمّ.

قَالَ المَلِكُ لِوَزِيْرٍ آخَرَ: مَا تَرَى أَنْتَ فِي هَذَا الغُرَابِ؟
قَالَ: أَرَى أَلاَّ تَقْتُلَهُ لأَنَّهُ قَدْ لَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ مَا تَرَاهُ، فَهُوَ خَلِيْقٌ أَنْ يَكُوْنَ دَلِيْلاً لَكَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ[١]، وَمُعِيْناً لَكَ عَلَى مَا فِيْهِ هَلاَكُهُمْ، وَإِنَّ العَدُوَّ الذَّلِيْلَ الَّذِي لاَ نَاصِرَ لَهُ أَهْلٌ لأَنْ يُؤَمَّنَ وَلاَ سِيَّما المُسْتَجِيْرِ الخَائِفِ. وَالعَدُوُّ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ المَنْفَعَةُ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ لَهَا أَهْلٌ لأَنْ يُصْفَحَ عَنْهُ بِسَبِبَها، كَالتَّاجِرِ الَّذِي عَطَفَ عَلَى سَارِقٍ لإِصْطِلاَحِهِ مَعَ امْرَأَتِهِ بِسَبِبِهِ.
قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ التَّاجِرِ وامْرَأَتِهِ وَالسَّارِقِ
قَالَ الوَزِيْرُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ تَاجِرٌ كَثِيْرُ المَالِ وَالمَتَاعِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَحْشَةٌ[٢]. وَإِنَّ سَارِقاً تَسَوَّرَ[٣] بَيْتَ التَّاجِرِ، فَدَخَلَ فَوَجَدَهُ نَائِماً وَوَجَدَ امْرَأَتَهُ مُسْتَيْقِظَةً فَذُعِرَتْ مِنَ السَّارِقِ، وَوَثَبَتْ إِلَى التَّاجِرِ فَالتَزَمَتْهُ وَأَيْقَظَتْهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَجْرِي بَيْنَهُما كَلاَمٌ، فَاسْتَيْقَظَ التَّاجِرُ وَتَكَالَما وانْحَلَّتِ الوَحْشَةُ مِنْ بَيْنِهِمَا. ثُمَّ بَصُرَ بِالسَّارِقِ فَقَالَ: أَيُّها السَّارِقُ أَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا أَخَذْتَ مِنْ مَالِي وَمَتَاعِي وَلَكَ الفَضْلُ بِمَا أَصْلَحْتَ بَيْنَنَا.
قَالَ مَلِكُ البُوْمِ لِوَزِيْرٍ آخَرَ مِنْ وُزَرَائِهِ: مَا تَقُوْلُ فِي أَمْرِ الغُرَابِ؟
قَالَ: أَرَى أَنْ تَسْتَبْقِيَهُ وَتُحْسِنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ خَلِيْقٌ أَنْ يَنْصَحَكَ. وَالعَاقِلُ يَرَى مُعَادَاةَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بَعْضاً ظَفَراً حَسَناً، وَيَرَى اشْتِغَالَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بِبَعْضٍ خَلاَصاً لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ وَنَجَاةً كَنَجَاةِ النَّاسِكِ مِنَ اللِّصِّ وَالشَّيْطَانِ حِيْنَ اخْتَلَفَا عَلَيْهِ.
قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ النَّاسِكِ وَاللِّصِّ والشَّيْطَانِ
قَالَ الوَزِيْرُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً أَصَابَ مِنْ رَجُلٍ بقَرَةً حَلُوْبَةً فَانْطَلَقَ بِهَا يَقُوْدُهَا إِلَى مَنْزِلِهِ، فَعَرَضَ لَهُ لِصٌّ أَرَادَ سَرِقَتَها، وتَبِعَهُ شَيْطَانٌ يُرِيْدُ اخْتِطَافَهُ وَقَدْ تَزَيَّا لَهُ بِزِيِّ إِنْسَانٍ.
فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلِّصِّ: مَنْ أَنْتَ؟
قَالَ: أَنَا اللِّصُّ أُرِيْدُ أَنْ أَسْرِقَ هَذِهِ البَقَرَةَ مِنَ النَّاسِكِ إِذَا نَامَ فَمَنْ أَنْتَ؟
قَالَ: أَنَا الشَّيْطَانُ أُرِيْدُ اخْتِطَافَهُ إِذَا نَامَ وَأَذْهَبُ بِهِ. فَانْتَهَيَا عَلَى هَذَا إِلَى المَنْزِلِ فَدَخَلَ النَّاسِكُ مَنْزِلَهُ وَدَخَلا خَلْفَهُ، وَأَدْخَلَ البَقَرَةَ فَرَبَطَهَا فِي زَاوِيَةِ المَنْزِلِ وَتَعَشَّى وَنَامَ.

١ عوراتهم: مواضع الخلل فيهم.
٢ الوحشة: المقاطعة والنّفار.
٣ تسوَّر: تسلَّق، وثب، صعد.

فَأَقْبَلَ اللِّصُّ وَالشَّـيْطَانُ يَأْتَمِرَانِ فِيْهِ، وَاخْتَلَفَا عَلَى مَنْ يَبْدَأُ بِشُـغْلِهِ أَوَّلاً. فَقَالَ الشَّـيْطَانُ: إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِأَخْذِ البَقَرَةِ رُبَّمَا اسْـتَيْقَظَ وَصَـاحَ وَاجتَمَعَ النَّاسُ فَلاَ أَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهِ فَانْتَظِرْنِي رَيْثَمَا آخُذُهُ وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيْدُ.
فَأَشْفَقَ[1] اللِّصُّ إِنْ بدَأَ الشَّيْطَانُ بِاخْتِطَافِهِ أَنْ يَسْتَيْقِظَ فَلاَ يَقْدِرَ عَلَى أَخْذِ البقَرَةِ.
فَقَالَ: لاَ بَلْ أَنْظِرْنِي[2] أَنْتَ حَتَّى آخُذُ البَقَرَةَ وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيْدُ.
قَالَ الشَّيْطَانُ: رُوَيْداً[3] حَتَّى يَسْتَغْرِقَ النَّاسُ فِي النَّوْمِ فَنَظْفَرَ بِهِمَا جَمِيْعاً.
فَلَمْ يَزَالاَ فِي المُجَادَلَةِ هَكَذا حَتَّى نَادَى اللِّصُّ: أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ فَهَذَا الشَّـيْطَانُ يُرِيْدُ اخْتِطَافَكَ، وَنَادَى الشَّيْطَانُ: أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ فَهَذَا اللِّصُّ يُرِيْدُ أَنْ يَسْرِقَ بقَرَتَكَ. فَانْتَبَهَ النَّاسِكُ وَجِيْرَانُهُ بِأَصْوَاتِهِمَا وَهَرَبَ الخَبِيْثَانِ.
فَقَالَ الوَزِيْرُ الأَوَّلُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِ الغُرَابِ: أَظُنُّ أَنَّ الغُرَابَ قَدْ خَدَعَكُنَّ وَوَقَعَ كَلاَمُهُ فِي نَفْسِ الغَبِيِّ مِنْكُنَّ مَوْقِعَهُ، فَتُرِدْنَ أَنْ تَضَعْنَ الرَّأْيَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ.
فَمَهْلاً مَهْلاً أَيُّهَا المَلِكُ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ، وَلاَ يَكُوْنَنَّ لِمَا تَسْـمَعُ أَشَدَّ تَصْـدِيْقاً مِنْكَ لِمَا تَرَى، كَالرَّجُلِ الَّذِي كَذَّبَ بِمَا رَأَى وَ صَدَّقَ بِمَا سَمِعَ وَانْخَدَعَ بِالمُحَالِ. قَالَ المِلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي انْخَدَعَ بِالمُحَالِ
قَالَ الوَزِيْرُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ نَائِماً وَحْدَهُ إِحْدَى اللَّيَالي فِي بَيْتِهِ، وَإِذَا لُصُـوْصٌ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْهِ البَيْتَ وَأَخَذُوا فِي جَمْعِ مَا فِيْهِ مِنَ المَتَاعِ حَتَّى أَفْضَـوْ إِلَى حَيْثُ هُوَ نَائِمٌ. فَانْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وَخَافَ أَنْ يَقُوْمَ إِلَيْهِمْ حِذَارَ أَنْ يَبْطُشُـوا بِهِ، وَكَانَ لِلْحُجْرَةِ الَّتِي هُوَ فِيْهَا بَابٌ آخَرُ إِلَى الطَّرِيْقِ. فَقَالَ فِي نَفْسِـهِ: الرَّأْيُ أَلاَّ أُشْـعِرَهُمْ بِانْتِبَاهِي وَلاَ أَذْعَرَهُمْ حَتَّى يَفْرَغُوا مِمَّا يُرِيْدُوْنَ أَخْذَهُ، وَيُخْرِجُوْهُ إِلَى حَيْثُ يُرِيْدُوْنَ احْتِمَالَهُ، فَأَخْرُجُ مِنَ البَابِ الآخَرِ وَأَدْعُو الجِيْرَانَ فَنَفْجَأُهُمْ وَنُوْقِعُ بِهِمْ. فَلَبِثَ عَلَى فِرَاشِـهِ مُتَنَاوِماً[4] حَتَّى فَرَغَ اللُّصُـوصُ مِمَّا أَرَادُوا جَمْعَهُ، وَخَرَجُوا يُرِيْدُوْنَ حَمْلَهُ؛ فَهَمَّ الرَّجُلُ بِالقِيَامِ فشَـعَرُوا بِحَرَكَةٍ مِنْهُ، فَهَمَسَ إِلَيْهِمْ رَئِيْسُهُمْ أَنْ قِفُوا وَلاَ تَرْتَاعُوا وَتَعَالَوا نَحْتَلْ لَهُ بِحِيْلَةٍ نَخْدَعُهُ بِهَا وَلاَ يَذْهَبُ تَعَبُنَا ضِيَاعَاً، وَأَنا الآنَ رَافِعٌ صَوْتِي وَمُخَاطِبُكُمْ بِشَيءٍ فَصَوِّبُوا فِيْهِ رَأْيِي وَأَجِيْبُوْنِي إِلَيْهِ. قَالُوا: نَعَمْ.

١ أشفق: خاف.
٢ أنظرني: أمهلني.
٣ رويداً: مهلاً
٤ متناوم: متظاهر بالنَّوم.

فَرَفَعَ اللِّصُّ صَوْتَهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُ الرَّجُلُ، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: إِنِّي أَرَى هَذِهِ الأَحْمَالَ ثَقِيْلَةً شَــاقَّةً وَمَا أَرَى قِيْمَتَهَا تَفِي بِحَمْلِهَا[1] وَالمُخَاطَرَةِ فِيْهَا، وَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ سَــيِّئُ الحَالِ وَقَدْ أَخَذَتْنِي عَلَيْهِ الشَّــفْقَةُ وَالرَّأْفَةُ، وراجَعْتُ رَأْيِي فِيْهِ فَرَأَيْتُ أَنْ نَدَعَ لَهُ مَتَاعَهُ، فَإِنَّهُ يُحْسَبُ عَلَيْنَا سَرِقَةً وَمَا هُوَ بِشَيءٍ يَسْتَحِقُّ العَنَاءَ وَلاَ لَنَا فِيْهِ كَبِيْرُ فَائِدَةٍ. وَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ بَعْضِ مَشَاهِيْرِ اللُّصُوْصِ يَقُوْلُ: مَنْ عَفَّ عَنْ مَتَاعِ فَقِيْرٍ فَلَمْ يَسْرِقْهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ غَفَرَ لَهُ ذَلِكَ سَرِقَةَ مِئَةِ غَنِيٍّ.
وَإِنَّ أَوْلَى السَّــرِقَةِ وَأَحَلَّهَا سَــرِقَةُ الأَغْنِيَاءِ، وَلاَ سِــيَّما ذَوِي البُخْلِ وَالحِرْصِ مِنْهُمْ، الَّذِيْنَ مَا بُيُوْتُهُمْ وَخَزَائِنُهُمْ إِلاَّ مَدَافِنُ لأَمْوَالٍ حَبَسُــوْهَا فَلاَ انْتَفَعُوا بِهَا وَلاَ تَرَكُوْهَا لِلنَّاسِ. فَهَلُمَّ بِنَا إِلَى أَحَدِ هَؤُلاَءِ ودَعُوا هَذَا الحُطَامَ الَّذِي لاَ خَيْرَ فِيْهِ، وَاغْتَنِمُوا أَجْرَ هَذَا الرَّجُلِ المِسْكِيْنِ. فَقَالُوا كُلُّهُمْ: صَدَقْتَ وَأَحْسَنْتَ، وَتَظَاهَرُوا أَنَّهُمْ يَفُكُّوْنَ الأَحْمَالَ وَخَرَجُوا وَكَمَنُوا يَنْتَظِرُوْنَ نَوْمَ الرَّجُلِ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لِمَا سَــمِعَ كَلاَمَهُمْ وَثِقَ بِهِ واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا فَسَــكَنَ وَنَامَ. وَلَبِثَ اللُّصُوْصُ حَتَّى أَيْقَنُوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ فَثَارُوا إِلَى الأَحْمَالِ فَاحْتَمَلُوْهَا وَفَازُوا بِهَا.
وَإِنَّمَا ضَــرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ إِرَادَةَ أَلاَّ تَكُوْنَ كَذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَذَّبَ بِمَا رَأَى وَصَدَّقَ بِمَا سَمِعَ. فَلَمْ يَلْتَفِتِ الملِكُ إِلَى قَوْلِهِ وَأَمَرَ بِالغُرَابِ أَنْ يُحْمَلَ إِلَى مَنَازِلِ البُوْمِ وَيُكْرَمَ وَيُسْــتَوْصَــى بِهِ خَيْراً. ثُمَّ إِنَّ الغُرَابَ قَالَ لِلْمَلِكِ يَوْماً وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ البُوْمِ وَفِيْهِنَّ الوَزِيْرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ:
أَيُّها المَلِكُ قَدْ عَلِمْتَ مَا جَرَى عَلَيَّ مِنَ الغِرْبَانِ وَإِنَّهُ لاَ يَسْتَرِيْحُ قَلْبِي دُوْنَ الأَخْذِ بِثَأْرِي مِنْهُنَّ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي ذَلِكَ فَإِذَا بِي لاَ أَقْدِرُ عَلَى مَا رُمْتُ لأَنِّي غُرَابٌ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ العلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يُحْرِقَهَا فَقَدْ قَرَّبَ اللهِ أَعْظَمَ القِرْبَانِ لاَ يَدْعُو عِنْدَ ذَلِكَ بِدَعْوَةٍ إِلاَّ اسْــتُجِيْبَ لَهُ؛ فَإِنْ رَأَى المِلِكُ أَنْ يَأْمُرَنِي فَأُحْرِقَ نَفْسِي وَأَدْعُوَ رَبِّي أَنْ يُحوِّلَنِي بُوْماً فَأَكُوْنَ أَشَدَّ عَدَاوَةً لِلْغِرْبَانِ، وَأَقْوَى بَأْساً عَلَيْهِنَّ لَعَلِّي أَنْتَقِمُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ الوَزِيْرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ: مَا أَشْبَهَكَ فِي خَيْرِ مَا تُظْهِرُ وَشَــرِّ مَا تُضْــمِرُ بِالخَمْرَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعْمِ وَالرِّيْحِ المُنْقَعِ فِيْهَا السُّـمُّ. أَرَأَيْتَ لَوْ أَحْرَقْنَا جِسْـمَكَ بِالنَّارِ أَنَّ جَوْهَرَكَ وَطَبْعَكَ مُتَغَيِّرٌ؟ أَوْ لَيْسَــتْ أَخْلاَقُكَ تَدُوْرُ مَعَكَ حَيْثُ دُرْتَ، وَتَصِيْرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْلِكَ وَطِيْنَتِكَ؟ كَالفَأْرَةِ الَّتِي خُيِّرَتْ فِي الأَزْوَاجِ بَيْنَ الشَّــمْسِ وَالرِّيْحِ وَالسَّــحَابِ وَالجَبَلِ فَلَمْ تَزَلْ تَتَخَيَّرُهُمْ، حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِهَا وَتَزَوَّجَتِ الجُرَذَ. قِيْلَ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

[1] تفي بحملها: توازيه.

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ نَاسِــكٌ مُسْــتَجَابُ الدَّعْوَةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسٌ عَلَى سَـــاحِلِ البَحْرِ إِذْ مَرَّتْ بِهِ حِدَأَةٌ[١] فِي رِجْلِهَا دِرْصُ[٢] فَأْرَةٍ. فَوَقَعَتْ مِنْهَا عِنْدَ النَّاسِــكِ وَأَدْرَكَتْهُ لَهَا رَحْمَةٌ فَأَخَذَهَا وَلَفَّهَا فِي وَرَقَةٍ وَذَهَبَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ. ثُمَّ خَافَ أَنْ تَشُــقَّ عَلَى أَهْلِهِ تَرْبِيَتُها فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحوِّلَهَا جَارِيَةً، فَتَحوَّلَتْ جَارِيَةً حَسْــنَاءَ. فَانْطَلَقَ بِهَا إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ لَهَا: هَذِهِ ابْنَتِي فَاصْــنَعِي مَعَهَا صَــنِيْعَكِ بِوَلَدِي.

فَلَمَّا كَبِرَتْ قَالَ لَهَا النَّاسِكُ: يَا بُنَيَّةُ اخْتَارِي مَنْ أَحْبَبْتِ حَتَّى أُزَوِّجَكِ إِيَّاهُ.

فَقَالَتْ: أَمَّا إِذَا خَيَّرْتَنِي فَإِنِّي أَخْتَارُ زَوْجاً يَكُوْنُ أَقْوَى الأَشْيَاءِ.

فَقَالَ النَّاسِــكُ: لَعَلَّكِ تُرِيْدِيْنَ الشَّــمْسَ. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الشَّــمْسِ فَقَالَ: أَيُّهَا الخَلْقُ العَظِيْمُ، لِي جَارِيَةٌ وَقَدْ طَلَبَتْ زَوْجاً يَكُوْنُ أَقْوَى الأَشْيَاءِ فَهَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجُهَا؟

فَقَالَتِ الشَّــمْسُ: أَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، السَّــحَابِ الَّذِي يُغطِّيْنِي وَيَرُدُّ جِرْمَ[٣] شُعَاعِي وَيَكْسِفُ أَشِعَّةَ أَنْوَارِي.

فَذَهَبَ النَّاسِكُ إِلَى السَّــحَابِ فَقَالَ لَهُ مَا قَالَ لِلشَّــمْسِ. فَقَالَ السَّــحَابُ: وَأَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، فَاذْ هَبْ إِلَى الرِّيْحِ الَّتِي تُقْبِلُ بِي وَ تُدْبِرُ وَ تَذْ هَبُ بِي شَرْقاً وغَرْباً.

فَجَاءَ النَّاسِكُ إِلَى الرِّيْحِ فَقَالَ لَهَا كَقَوْلِهِ لِلسَّحَابِ. فَقَالَتْ: وَأَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الجَبَلِ الَّذِي لاَ اَقْدِرُ عَلَى تَحْرِيْكِهِ.

فَمَضَـــى إِلَى الجَبَلِ فَقَالَ لَهُ القَوْلَ فَأَجَابَهُ الجَبَلُ وَقَالَ لَهُ: أَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الجُرَذِ الَّذِي لاَ أَسْتَطِيْعُ الامْتِنَاعَ مِنْهُ إِذَا خَرَقَنِي وَاتَّخَذَنِي مَسْكَناً.

فَانْطَلَقَ النَّاسِكُ إِلَى الجُرَذِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجٌ هَذِهِ الجَارِيَةَ؟

فَقَالَ: وَكَيْفَ أَتزوَّجُهَا وَمَسْكَنِي ضَيِّقٌ؟ وَإِنَّمَا يَتَزَوَّجُ الجُرَذُ الفَأْرَةَ؟

فَدَعَا النَّاسِكُ رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا فَأْرَةً كَمَا كَانَتْ وَذَلِكَ بِرِضَى الجَارِيَةِ. فَأَعَادَهَا اللهُ إِلَى عُنْصُرِهَا[٤] الأَوَّلِ فَانْطَلَقَتْ مَعَ الجُرَذِ.

فَهَذَا مَثَلُكَ أَيُّهَا المُخَادِعُ. فَلَمْ يَلْتَفِتْ مَلِكُ البُوْمِ إِلَى ذَلِكَ القَوْلِ، وَرَفَقَ بِالغُرَابِ وَلَمْ يَزْدَدْ إِلاَّ إِكْرَاماً. حَتَّى إِذَا طَابَ عَيْشُــهُ وَنَبَتَ رِيْشُــهُ وَاطَّلَعَ عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ، رَاغَ رَوْغَةً[٥] فَأَتَى أَصْحَابَهُ بِمَا رَأَى وَسَمِعَ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ فَرَغْتُ مِمَّا كُنْتُ أُرِيْدُ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيْعَ.

---

١ الحدأة: طائر جارح يصطاد الفئران والجرذان، تطلق عليه العامة اسم «الشُّوحة».

٢ الدِّرص: ولد الفأرة.

٣ الجِرْمُ: الجسد، والجمع أجرام. والجريم: العظيم الجِرْم.

٤ العنصر: الأصل.

٥ راغ روغة: احتال بحيلة مكر وخداع.

قَالَ لَهُ: أَنَا وَالجُنْدُ تَحْتَ أَمْرِكَ فَاحْتكِمْ كَيْفَ شِئْتَ.

قَالَ الغُرَابُ: إِنَّ البُوْمَ بِمَكَانِ كَذَا فِي جَبَلٍ كَثِيْرِ الحَطَبِ، وَفِي ذَلِكَ المَوْضِعِ قَطِيْعٌ مِنَ الغَنَمِ مَعَ رَجُلٍ رَاعٍ، وَنَحْنُ مُصِيْبُوْنَ[1] هُنَاكَ نَاراً وَنُلْقِيْهَا فِي أَثْقَابِ[2] البُوْمِ، وَنَقْذِفُ عَلَيْهَا مِنْ يَابِسِ الحَطَبِ، وَنَتَرَوَّحُ عَلَيْهَا[3] ضَرْباً بِأَجْنِحَتِنَا حَتَّى تَضْطَرِمَ النَّارُ فِي الحَطَبِ فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُنَّ احْتَرَقَ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ مَاتَ بِالدُّخَانِ مَوْضِعَهُ.

فَفَعَلَ الغِرْبَانُ ذَلِكَ فَأَهْلَكْنَ البُوْمَ قَاطِبَةً[4]، وَرَجَعْنَ إِلَى مَنَازِلِهِنَّ سَالِمَاتٍ آمِنَاتٍ.

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الغِرْبَانِ قَالَ لِذَلِكَ الغُرَابِ: كَيْفَ صَبَرْتَ عَلَى صُحْبَةِ البُوْمِ وَلاَ صَبْرَ لِلأَخْيَارِ عَلَى صُحْبَةِ الأَشْرَارِ؟

قَالَ الغُرَابُ: إِنَّ مَا قُلْتَهُ أَيُّهَا المَلِكُ لَكَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَذْعُ النَّارِ أَيْسَرُ عَلَى المَرْءِ مِنْ صُحْبَةِ الأَشْرَارِ وَالإِقَامَةِ مَعَهُمْ، وَلكِنَّ العَاقِلَ إِذَا أَتَاهُ الأَمْرُ الفَظِيْعُ العَظِيْمُ الَّذِي يَخَافُ مِنْ عَدَمِ تَحَمُّلِهِ الجَائِحَةَ[5] عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ أَنْ يُعْقِبَهُ صَبْرُهُ حُسْنَ العَاقِبَةِ وَكَثِيْرَ الخَيْرِ؛ فَلَمْ يَجِدْ لِذَلِكَ أَلَماً، وَلَمْ تكْرَهْ نَفْسُهُ الخُضُوْعَ لِمَنْ هُوَ دُوْنَهُ حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ، فَيَغْتَبِطَ بِخَاتِمَةِ أَمْرِهِ وَعَاقِبَةِ صَبْرِهِ.

فَقَالَ المَلِكُ: أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُوْلِ البُوْمِ.

قَالَ الغُرَابُ: لَمْ أَجِدْ فِيْهِنَّ عَاقِلاً إِلا الَّذِي كَانَ يَحُثُّهُنَّ عَلَى قَتْلِي، وَكَانَ حَرَّضَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ مِرَاراً، فَكُنَّ أَضْعَفَ شَيءٍ رَأْياً، فَلَمْ يَنْظُرْنَ فِي أَمْرِي، وَيَذْكُرْنَ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذَا مَنْزِلَةٍ فِي الغِرْبَانِ، وَأَنِّي أُعَدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْنَ مَكْرِي وَحِيْلَتِي، وَلاَ قَبِلْنَ مِنَ النَّاصِحِ الشَّفِيْقِ، وَلاَ أَخْفَيْنَ دُوْنِي أَسْرَارَهُنَّ. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُحصِّنَ أُمُوْرَهُ مِنْ أَهْلِ النَّمِيْمَةِ، وَلاَ يُطْلِعَ أَحَداً مِنْهُمْ عَلَى مَوَاضِعَ سِرِّهِ.

وَقَدْ قِيْلَ: يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ عَدُوِّهِ فِي كُلِّ شَيءٍ حَتَّى فِي المَاءِ الَّذِي يَشْرَبُهُ وَيَغْتَسِلُ بِهِ، وَالفِرَاشِ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ، وَالحُلَّةِ الَّتِي يَلْبَسُهَا، وَالدَّابَّةِ الَّتِي يَرْكَبُهَا، وَلاَ يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ إِلاَّ الثِّقَةَ الأَمِيْنَ السَّالِمَ البَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَيَكُوْنَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُ، لأَنَّ عَدُوَّهُ لاَ يَتَوصَّلُ إِلَيْهِ إِلاَّ مِنْ جِهَةِ ثِقَاتِهِ، فَرُبَّما كَانَ أَحَدُهُمْ لِعَدُوِّهِ صَدِيْقاً فَيَصِلُ العَدُوُّ إِلَى مُرَادِهِ مِنْهُ.

---

١ مصيبون: واجدون.

٢ أثقاب: جمع ثقب، وهو الخرق النَّافذ.

٣ نتروَّح عليها: نجلب عليها الرِّيح.

٤ قاطبة: أي جميعاً.

٥ الجائحة: الشِّدَّة والمصيبة.

فَقَالَ المَلِكُ: مَا أَهْلَكَ البُوْمَ فِي نَفْسِــــي[1] إلاَّ البَغْيُ[2]، وَضُـــعْفُ رَأْيِ المَلِكِ وَمُوَافَقَتُهُ وُزَرَاءَ السُّـوْءِ. فَقَالَ الغُرَابُ: صَـدَقْتَ أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّهُ قَلَّمَا ظَفِرَ أَحَدٌ بِغِنَىً وَلَمْ يَطْغَ[3]، وَقَلَّمَا حَرِصَ الرَّجُلُ عَلَى النِّسَاءِ وَلَمْ يَفْتَضِحْ، وَقَلَّ مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الطَّعَامِ وَلَمْ يَمْرَضْ، وَقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَرَاءِ السُّـــوْءِ وَسَــلِمَ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي المَهَالِكِ. وَكَانَ يُقَالُ: لاَ يَطْمَعَنَّ ذُو الكِبْرِ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ، ولاَ الخَبُّ فِي حُسْنِ الصَّدِيْقِ، وَلاَ السَّيِّءُ الآدَابِ فِي الشَّرَفِ، وَلاَ الشَّحِيْحُ فِي البرِّ، وَلاَ الحَرِيْصُ فِي قِلَّةِ الذُّنُوْبِ، وَلاَ المَلِكُ المُخْتَالُ[4] المُتَهَاوِنُ بِالأُمُوْرِ، الضَّعِيْفُ الوُزَرَاءِ فِي ثَبَاتِ مُلْكِهِ وَصَلاَحِ رَعِيَّتِهِ.

قَالَ المَلِكُ: لَقَدِ احْتَمَلْتَ مَشَقَّةً شَدِيْدَةً فِي تَصَنُّعِكَ لِلْبُوْمِ وَتَضَرُّعِكَ إِلَيْهِنَّ.

قَالَ الغُرَابُ: إِنَّهُ مَنِ احْتَملَ مَشَــقَّةً يَرْجُو نَفْعَهَا، وَنَحَّى[5] عَنْ نَفْســهِ الأَنفَةَ[6] وَالحَمِيَّةَ[7]، وَوَطَّنَهَا[8] عَلَى الصَّـبْرِ حَمِدَ غِبَّ[9] رَأْيِهِ؛ وَإِنَّهُ يُقَالُ: لَوْ أَنَّ رَجُلاً حَمَلَ عَدُوَّهُ عَلَى عُنُقِهِ وَهُوَ يَرْجُو هَلاَكَهُ وَرَاحَتَهُ مِنْهُ لَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُ خَفِيْفاً هيِّنَاً، كَمَا صَــبَرَ الأَسْــوَدُ عَلَى حَمْلِ مَلِكِ الضَّــفَادِعِ عَلَى ظَهْرِهِ وَشَــبِعَ بِذَلِكَ وَعَاشَ.

قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ الأَسْودِ وَمَلِكِ الضَّفَادِعِ

قَالَ الغُرَابُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسْـوَدَ مِنَ الحَيَّاتِ كَبِرَ وَضَـعُفَ بَصَـرُهُ وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْداً وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى طَعَامٍ. وَإِنَّهُ انْسَابَ[10] يَلْتَمِسُ شَيْئاً يَعِيْشُ بِهِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنٍ كَثِيْرةِ الضَّـــفَادِعِ قَدْ كَانَ يَأْتِيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَيُصِــيْبُ مِنْ ضَـــفَادِعِهَا رِزْقَهُ. فَرَمَى نَفْسَـــهُ قَرِيْباً مِنْهُنَّ مُظْهِراً لِلْكَآبَةِ وَالحُزْنِ. فَقَالَ لَهُ أَحَدُهَا: مَالِي أَرَاكَ أَيُّهَا الأَسْوَدُ كَئِيْبَاً حَزِيْنَاً؟ قَالَ: وَمَنْ أَحْرَى[11] بِطُوْلِ الحُزْنِ مِنِّي؟ وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُ مَعِيْشَـتِي مِمَّا كُنْتُ أُصِـيْبُ مِنَ الضَّـفَادِعِ، فَابْتُلِيْتُ بِبَلاَءٍ حَرُمَتْ عَلَيَّ الضَّــفَادِعُ مِنْ أَجْلِهِ حَتَّى إِنِّي إِذَا التَقَيْتُ بِبَعْضِـــهَا لاَ أَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِهِ.

---

١ نفسي: رأيي.
٢ البغي: الظلم.
٣ لم يطغ: لم يبطر. ولم يجاوز الحدَّ.
٤ المختال: المتكبّر.
٥ نحّى: أبعد.
٦ الأنفة: عزَّة النَّفس.
٧ الحميَّة: النَّخوة والمروءة.
٨ وطَّنها: ثبّتها.
٩ غبّ: عاقبة.
١٠ انساب: الانسياب سير الحيَّة
١١ أحرى: أولى وأجدر.

فَانْطَلَقَ الضِّفْدَعُ إِلَى مَلِكِ الضَّفَادِعِ فَبشَّرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الأَسْوَدِ. فَأَتَى مَلِكُ الضَّفَادِعِ إِلَى الأَسْوَدِ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ كَانَ أَمْرُكَ؟
قَالَ سَعَيْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ فِي طَلَبِ ضِفْدَعٍ وَذَلِكَ عِنْدَ المَسَاءِ، فَاضْطَرَرْتُهُ إِلَى بَيْتِ نَاسِكٍ وَدَخَلْتُ فِي أَثَرِهِ فِي الظُّلْمَةِ، وَفِي البَيْتِ ابْنٌ لِلنَّاسِكِ فَأَصَبْتُ إِصْبَعَهُ فَظَنَنتُ أَنَّها الضِّفْدِعُ فَلَدَغْتُهُ فَمَاتَ؛ فَخَرَجْتُ هَارِباً، فَتَبِعَنِي النَّاسِكُ فِي أَثَرِي وَدَعَا عَلَيَّ ولَعَنَّنِي وَقَالَ: كَمَا قَتَلْتَ ابْنِي البَرِيءِ ظُلْماً وَتَعَدِّياً أَدْعُو عَلَيْكَ أَنْ تَذِلَّ وَتَصِيْرَ مَرْكَباً لِمَلِكَ الضَّفَادِعِ، فَلاَ تَسْتَطِيْعَ أَخْذَهَا وَلاَ أَكْلَ شَيءٍ مِنْهَا إِلاَّ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْكَ مَلِكُهَا.
فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ لَتَرْكَبَنِي مُقِرّاً بِذَلِكَ رَاضِياً بِهِ. فَرَغِبَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ فِي رُكُوْبِ الأَسْوَدِ، وَظَنَّ أَن ذَلِكَ فَخْرٌ لَهُ وَشَرَفٌ وَرِفْعَةٌ، فَرَكِبَهُ وَاسْتَطَابَ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُ الأَسْوَدُ: قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا المَلِكُ أَنِّي مَحْرُوْمٌ فَاجْعَلْ لِي رِزْقاً أَعِيْشُ بِهِ.
قَالَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ: لَعَمْرِي لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ رِزْقٍ يَقُوْمُ بِكَ إِذَا كُنْتَ مَرْكَبِي، فَأَمَرَ لَهُ بِضِفْدَعَيْنِ يُؤْخَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيُدْفَعَانِ إِلَيْهِ. فَعَاشَ بِذَلِكَ وَلَمْ يَضُرَّهُ خُضُوْعُهُ لِلْعَدُوِّ الذَّلِيْلِ، بَل انْتَفَعَ بِذَلِكَ وَصَارَ لَهُ رِزْقاً وَمَعِيْشَةً.
وَكَذَلِكَ كَانَ صَبْرِي عَلَى مَا صَبَرْتُ عَلَيْهِ التِمَاساً لِهَذَا النَّفْعِ العَظِيْمِ الَّذِي اجتَمَعَ لَنَا فِيْهِ الأَمْنُ وَهَلاَكُ العَدُوِّ وَالرَّاحَةُ مِنْهُ. وَوَجَدْتُ صَرْعَةَ[1] اللِّيْنِ وَالرِّفْقِ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ اسْتِئْصَالاً لِلْعَدُوِّ مِنْ صَرْعَةِ المُكَابَرَةِ وَالعِنَادِ. فَإِنَّ النَّارَ لاَ تُزِيْدُ بِحِدَّتِهَا وَحَرِّهَا إِذَا أَصَابَتِ الشَّجَرَةَ عَلَى أَنْ تُحْرِقَ مَا فَوْقَ الأَرْضِ مِنْهَا. وَالمَاءُ بِلِيْنِهِ وَبَرْدِهِ يَسْتَأْصِلُ مَا تَحْتَ الأَرْضِ مِنْهَا. وَيُقَالُ: أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ لاَ يُسْتَقَلُّ قَلِيْلُهَا: النَّارُ وَالمَرَضُ والعَدُوُّ وَالدَّيْنُ.
قَالَ الغُرَابُ: وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ رَأْيِ المَلِكِ وَأَدَبِهِ وَسَعَادَةِ جَدِّهِ. وَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: إِذَا طَلَبَ اثْنَانِ أَمْراً ظَفِرَ بِهِ مِنْهُما أَفْضَلُهُما مُرُوْءَةً، فَإِنِ اعْتَدَلاَ فِي المُرُوْءَةِ فَأَشَدُّهُما عَزْماً، فَإِنِ اسْتَوَيَا فِي العَزْمِ فَأَسْعَدُهُمَا جَدّاً.
وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ حَارَبَ المَلِكَ الحَازِمَ الأَرِيْبَ[2] المُتضَرِّعَ[3] الَّذِي لاَ تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ، وَلاَ تُدْهِشُهُ الضَّرَّاءُ، كَانَ هُوَ دَاعِيَ الحَتْفِ[4] إِلَى نَفْسِهِ. وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِثْلَكَ أَيُّهَا المَلِكُ العَالِمُ بِفُرُوْضِ الأَعْمَالِ وَمَواضِعِ الشِّدَّةِ وَاللِّيْنِ وَالغَضَبِ وَالرِّضَى وَالمُعَاجَلَةِ وَالأَنَاةِ[5]، النَّاظِرُ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَغَدِهِ وَعَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ.

---

١ صرعة: هلاك.
٢ الأريب: العاقل الحاذق.
٣ المتضرِّع: الحسنُ النَّظر.
٤ الحتف: الهلاك والموت.
٥ الأناة: التَّأنِّي والرِّفق.

قَالَ المَلِكُ لِلْغُرَابِ: بَلْ بِرَأْيِكَ وَعَقْلِكَ وَنَصِيْحَتِكَ وَيُمْنِ طَالِعِكَ كَانَ ذَلِكَ، فَإِنَّ رَأْيَ الرَّجُلِ الوَاحِدِ العَاقِلِ الحَازِمِ أَبْلَغُ فِي هَلاَكِ العَدُوِّ مِنَ الجُنُوْدِ الكَثِيْرَةِ مِنْ ذَوِي البَأْسِ وَالنَّجْدَةِ وَالعَدَدِ وَالعُدَّةِ، وَإِنَّ مِنْ عَجِيْبِ أَمْرِكَ عِنْدِي طُوْلَ لُبْثِكَ بَيْنَ ظَهْرَانَيِّ البُوْمِ تَسْمَعُ الكَلاَمَ الغَلِيْظَ ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ بِكَلِمَةٍ. قَالَ الغُرَابُ: لَمْ أَزَلْ مُتَمَسِّكاً بِأَدَبِكَ أَيُّها المَلِكُ أَصْحَبُ البَعِيْدَ وَالقَرِيْبَ بِالرِّفْقِ وَاللِّيْنِ وَالمُبَالَغَةِ وَالمُؤَاتَاةِ.

قَالَ المَلِكُ: أَصْبَحْتُ وَقَدْ وَجَدْتُكَ صَاحِبَ العَمَلِ، وَوَجَدْتُ غَيْرَكَ مِنَ الوُزَرَاءِ أَصْحَابَ أَقَاوِيْلَ لَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ حَمِيْدَةٌ، فَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِكَ مِنَّةً عَظِيْمَةً لَمْ نَكُنْ قَبْلَهَا نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلاَ النَّوْمِ حَتَّى يَبْرَأَ، وَلاَ الرَّجُلَ الشَّرِهَ الَّذِي قَدْ أَطْعَمَهُ سُلْطَانُهُ فِي مَالٍ وَعَمَلٍ فِي يَدِهِ حَتَّى يُنْجِزَهُ لَهُ، وَلاَ الرَّجُلَ الَّذِي قَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ عَدُوُّهُ وَهُوَ يَخَافُهُ صَبَاحاً وَمَسَاءً حَتَّى يَسْتَرِيْحَ مِنْهُ قَلْبُهُ. وَمَنْ وَضَعَ الحِمْلَ الثَّقِيْلَ عَنْ يَدِهِ أَرَاحَ نَفْسَهُ، وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ ثَلَجَ صَدْرُهُ.

قَالَ الغُرَابُ: أَسْأَلُ اللهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ أَنْ يُمَتِّعَكَ بِسُلْطَانِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ صَلاَحَ رَعِيَّتِكَ، وَيُشْرِكَهُمْ فِي قُرَّةِ العَيْنِ بِمُلْكِكَ. فَإِنَّ المَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مُلْكِهِ قُرَّةُ عُيُوْنِ رَعِيَّتِه، فَمَثَلُهُ مَثَلُ زَنَمَةِ العَنْزِ الَّتِي يَمُصُّهَا الجَدْيُ وَهُوَ يَحْسَبُهَا حَلْمَةَ الضَّرْعِ فَلاَ يُصَادِفُ فِيْهَا خَيْراً.

قَالَ المَلِكُ: أَيُّهَا الوَزِيْرُ الصَّالِحُ كَيْفَ كَانَتْ سِيْرَةُ البُوْمِ وَمَلِكِهَا فِي حُرُوْبِهَا وَفِيمَا كَانَتْ فِيْهِ مِنْ أُمُوْرِهَا؟

قَالَ المَلِكُ: وَأَيُّ خَصْلَةٍ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَى عَقْلِه؟

قَالَ: خَلَّتَانِ إِحْدَاهُما: رَأْيُهُ فِي قَتْلِي، وَالأُخْرَى: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ صَاحِبَهُ نَصِيْحَتَهُ وَإِنِ اسْتَقَلَّهَا، وَلَمْ يَكُنْ كَلاَمُهُ كَلاَمَ عُنْفٍ وَقَسْوَةٍ، وَلَكِنَّهُ كَلاَمُ رِفْقٍ وَلِيْنٍ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ عُيُوْبِهِ وَلاَ يُصَرِّحُ بِحَقِيْقَةِ الحَالِ، بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الأَمْثَالَ وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ غَيْرِه، فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ فَلاَ يَجِدُ مَلِكُهُ إِلَى الغَضَبِ عَلَيْهِ سَبِيْلاً. وَكَانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُوْلُ لِمَلِكِهِ أَنَّهُ قَالَ: لاَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيْمٌ لاَ يَظْفَرُ بِهِ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ قَلِيْلٌ وَلاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالحَزْمِ. فَإِنَّ المُلْكَ عَزِيْزٌ فَمَنْ ظَفِرَ بِه فَلْيُحْسِنْ حِفْظَهُ وَتَحْصِيْنَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيْلَ: إِنَّهُ فِي قِلَّةِ بَقَائِهِ بِمَنْزِلَةِ قِلَّةِ بَقَاءِ الظِّلِّ عَنْ وَرَقِ النَّيْلُوْفَرِ، وَهُوَ فِي خِفَّةِ زَوَالِهِ وَسُرْعَةِ إِقْبَالِهِ وَإِدْبَارِهِ كَالرِّيْحِ، وَفِي قِلَّةِ ثَبَاتِهِ كَاللَّبِيْبِ مَعَ اللِّئَامِ، وَفِي سُرْعَةِ اضْمِحْلاَلِهِ كَحَبَابِ المَاءِ مِنْ وَقْعِ المَطَرِ.

فَهَذَا مَثَلُ أَهْلِ العَدَاوَةِ الَّذِيْنَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِمْ وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّداً وَتَضَرُّعاً.

بَابُ القِرْدِ وَالغَيْلَمِ[1]

قَالَ دَبْشَــلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُــوْفِ: قَدْ سَــمِعْتُ هَذَا المَثَلَ فَاضْــرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الحَاجَةَ فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا أَضَاعَهَا.

قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: إِنَّ طَلَبَ الحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنَ الاِحْتِفَاظِ بَهَا، وَمَنْ ظَفِرَ بِالحَاجَةِ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ القِيَامَ بِهَا أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الغَيْلَمَ.

قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّ قِرْداً كَانَ مَلِكَ القِرَدَةِ يُقَالُ لَهُ مَاهِرٌ، وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ. فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شَــابٌّ مِنْ بَيْتِ المَمْلَكَةِ فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَأَخَذَ مَكَانَهُ، فَخَرَجَ هَارِباً عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ فَوَجَدَ شَجَرَةً مِنْ شَجَرِ التِّيْنِ فَارْتَقى إِلَيْهَا وَجَعَلَهَا مُقَامَهُ[2]. فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ التِّيْنِ إِذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تِيْنَةٌ فِي المَاءِ فَسَمِعَ لَهَا صَوْتاً وَإِيْقَاعاً، فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَرْمِي فِي المَاءِ فَأَطْرَبَهُ ذَلِكَ، فَأَكْثَرَ مِنْ تَطْرِيْحِ التِّيْنِ في المَاءِ. وَثَمَّ غَيْلَمٌ كُلَّمَا وَقَعَتْ تِيْنَةٌ أَكَلَهَا. فَلَمّا كَثُرَ ذَلِكَ ظَنَّ أَنَّ القِرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَجْلِهِ، فَرَغِبَ فِي مُصَــادَقَتِهِ وَأَنِسَ إِلَيْهِ وَكَلمهُ، وَأَلِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُما صَــاحِبَهُ. وَطَالَتْ غَيْبَةُ الغَيْلَمِ عَنْ زَوْجَتِهِ فَجَزِعَتْ عَلَيْهِ وَشَــكَتْ ذَلِكَ إِلَى جَارَةٍ لَهَا، وَقَالَتْ: قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُوْنَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوْءٍ فَاغْتَالَهُ.

فَقَالَتْ لَهَا: إِنَّ زَوْجَكِ فِي السَّــاحِلِ قَدْ أَلِفَ قِرْداً وَأَلِفَهُ القِرْدُ، فَهُوَ مُوَاكِلُهُ وَمُشَــارِبُهُ، وهُوَ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْكِ، وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُقِيْمَ عِنْدَكَ حَتَّى تَحْتَالِي لِهَلاَكِ القِرْدِ.

قَالَتْ: وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟

قَالَتْ جَارَتُها: إِذَا وَصَــلَ إِلَيْكَ فتَمَارَضِــي، فَإِذَا سَــأَلَكِ عَنْ حَالِكِ فَقُوْلِي إِنَّ الأَطِبَّاءَ وَصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ.

ثُمَّ إِنَّ الغَيْلَمَ انْطَلَقَ بَعْدَ مُدَّةٍ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ سَيِّئَةَ الحَالِ مَهْمُوْمَةً فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ هَكَذَا، فَأَجَابَتْهُ جَارَتُها وَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجَتَكَ مَرِيْضَــةٌ مِسْــكِيْنَةٌ، وَقَدْ وَصَفَ لَهَا الأَطِبَّاءُ قَلْبَ قِرْدٍ وَلَيْسَ دَوَاءٌ سِوَاهُ. قَالَ الغَيْلَمُ: هَذَا أَمْرٌ عَسِيْرٌ، مِنْ أَيْنَ لَنَا قَلْبُ قِرْدٍ وَنَحْنُ فِي المَاءِ؟ وَبَقِيَ مُتَحَيِّراً. ثُمَّ قَالَ فِي نَفْسِــهِ: مَا لِي قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ أَنْ أَغْدُرَ بِخَلِيْلِي وَصَاحِبِي، وَإِثْمُهُ عِنْدِي شَدِيْدٌ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ هَلاَكُ زَوْجَتِي، لأَنَّ الزَّوْجَةَ الصَّــالِحَةَ لاَ يَعْدِلُهَا شَــيءٌ، لأَنَّهَا عَوْنٌ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

---

١ الغيلم: ذكر السُّلحفاة.

٢ موضع إقامته.

ثُمَّ عَادَ إِلَى السَّاحِلِ حَزِيْناً كَئِيْباً مُفَكِّراً فِي نَفْسِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ. فَقَالَ لَهُ القِرْدُ: يَا أَخِي مَا حَبَسَكَ عَنِّي؟ قَالَ لَهُ الغَيْلَمُ: مَا حَبَسَنِي عَنْكَ إِلاَّ حَيَائِي مِنْكَ فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أُكَافِئُكَ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَيَّ، وَأُرِيْدُ أَنْ تُتِمَّ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ بِزِيَارَتِكَ لِي فِي مَنْزِلِي، فَإِنِّي سَاكِنٌ فِي جَزِيْرَةٍ طَيِّبَةِ الفَاكِهَةِ. فَارْكَبْ ظَهْرِي لأَسْبَحَ بِكَ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَلْتَمِسُهُ المَرْءُ مِنْ أَخِلاَّئِهِ أَنْ يَغْشَوْا مَنْزِلَهُ وَيَنَالُوا مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَيَعْرِفَهُمْ أَهْلَهُ وَوَلَدُهُ وَجِيْرَانُهُ. وَأَنْتَ لَمْ تَطَأْ مَنْزِلِي وَلَمْ تَذُقْ لِي طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً، وَذَلِكَ مَنْقَصَةٌ وَعَارٌ عَلَيَّ. قَالَ لَهُ القِرْدُ: وَمَا يُرِيْدُ المَرْءُ مِنْ خَلِيْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَبْذُلَ لَهُ وُدَّهُ وَيُصْفِيَ لَهُ قَلْبَهُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَفُضُوْلٌ.

قَالَ الغَيْلَمُ: نَعَمْ غَيْرَ أَنَّ الاجْتِمَاعَ عَلَى الطَّعَامِ والشَّرَابِ آكَدُ لِلْمَوَدَّةِ وَالأُنْسِ، لأَنَّا نَرَى الدَّوَابَّ إِذَا اغْتَلَفَتْ مَعاً أَلِفَ بَعْضُهَا بَعْضاً. وَكَانَ يُقَالُ: لاَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلِجَّ عَلَى إِخْوَانِهِ فِي المَسْأَلَةِ، فَإِنَّ العِجْلَ إِذَا أَكْثَرَ مَصَّ ضَرْعِ أُمِّهِ نَطَحَتْهُ.

فَرَغِبَ القِرْدُ فِي الذَّهَابِ مَعَهُ فَقَالَ: حُبّاً وَكَرَامَةً، وَنَزَلَ فَرَكِبَ ظَهْرَ الغِيْلَمِ فَسَبَحَ بِهِ.

حَتَّى إِذَا تَجَاوَزَ قَلِيْلاً عَرَضَ لَهُ قُبْحُ مَا أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الغَدْرِ، فَنَكَسَ رَأْسَهُ وَوَقَفَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ أَغْدُرُ بِخَلِيْلِي لِكَلِمَةٍ قَالَتْهَا امْرَأَةٌ مِنَ الجَاهِلاَتِ، وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ جَارَتِي قَدْ خَدَعَتْنِي وَكَذَبَتْ بِمَا رَوَتْ عَنِ الأَطِبَّاءِ. فَإِنَّ الذَّهَبَ يُجَرَّبُ بِالنَّارِ، وَالرِّجَالَ بِالأَخْذِ وَالعَطَاءِ، وَالدَّوَابَّ بِالحَمْلِ وَالجَرْيِ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُجَرِّبَ مَكْرَ النِّسَاءِ، وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى كَيْدِهِنَّ وَكَثْرَةِ حِيَلِهِنَّ.

فَقَالَ لَهُ القِرْدُ: مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمّاً؟

قَالَ الغَيْلَمُ: إِنَّمَا هَمِّيَ لأَنِّي ذَكَرْتُ أَنَّ زَوْجَتِي شَدِيْدَةُ المَرضِ، وَذَلِكَ يَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيْرٍ مِمَّا أُرِيْدُ أَنْ أَبْلُغَهُ مِنْ كَرَامَتِكَ وَمُلاَطَفَتِكَ.

قَالَ القِرْدُ: إِنَّ الَّذِي أَعْرِفُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى كَرَامَتِي يَكْفِيْكَ مَؤُوْنَةَ التَكَلُّفِ.

قَالَ الغَيْلَمُ: أَجَلْ

وَمَضَى بِالقِرْدِ سَاعَةً ثُمَّ تَوَقَّفَ بِهِ ثَانِيَةً. فَسَاءَ ظَنُّ القِرْدِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا احْتِبَاسُ الغَيْلَمِ وَإِبْطَاؤُهُ إِلاَّ لأَمْرٍ، وَلَسْتُ آمِناً أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ قَدْ تَغَيَّرَ لِي وَحَالَ عَنْ مَوَدَّتِي فَأَرَادَ بِي سُوءاً؛ فَإِنَّهُ لاَ شَيءَ أَخَفُّ وَأَسْرَعُ تَقَلُّباً مِنَ القَلْبِ. وَقَدْ يُقَالُ: يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلاَّ يَغْفُلَ عَنِ التِمَاسِ مَا فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوَانِهِ وَصَدِيْقِهِ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكَلِمَةٍ وَعِنْدَ القِيَامِ وَالقُعُودِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي القُلُوبِ. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: إِذَا دَخَلَ قَلْبَ الصَّدِيْقِ مِنْ صَدِيقِهِ رِيْبَةٌ فَلْيَأْخُذْ بِالحَزْمِ فِي التَّحَفُّظِ مِنْهُ، وَلْيَتَفَقَّدْ ذَلِكَ فِي لَحْظَاتِهِ وَحَالاَتِهِ، فَإِنْ كَانَ يَظُنُّ حَقّاً ظَفِرَ بِالسَّلاَمَةِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً ظَفِرَ بِالحَزْمِ وَلَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلَمِ: مَا يَحْبِسُكَ؟ وَمَالِي أَرَاكَ مُهْتَمّاً كَأَنَّكَ تُحدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى؟
قَالَ: يُهِمُّنِي أَنَّكَ تَأْتِي مَنْزِلِي فَلاَ تَجِدُ أَمْرِي كَمَا أُحِبُّ لأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيْضَةٌ.
قَالَ القِرْدُ: لاَ تَغْتَمَّ[1] فَإِنَّ الغَمَّ لاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً، وَلَكِنِ التَمِسْ مَا يُصْلِحُ زَوْجَتَكَ مِنَ الأَدْوِيَةِ وَالأَغْذِيَةِ. فَإِنَّهُ يُقَالُ: لِيَبْذُلْ ذَوُو المَالِ مَا لَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ!
فِي الصَّدَقَةِ، وَفِي وَقْتِ الحَاجَةِ، وَعَلَى البَنِيْنَ، وَعَلَى الأَزْوَاجِ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كُنَّ صَالِحَاتٍ. قَالَ الغَيْلَمُ: صَدَقْتَ، وَقَدْ قَالَتِ الأَطِّبَّاءُ: إِنَّهُ لاَ دَوَاءَ لَهَا إِلاَّ قَلْبُ قِرْدٍ.
فَقَالَ القِرْدُ فِيْ نَفْسِهِ: وَاسَوْأَتَاهُ[2]! لَقَدْ أَدْرَكَنِي الحِرْصُ وَالشَّرَهُ عَلَى كِبَرِ سِنِّي حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرٍّ وَرْطَةٍ[3]، وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: يَعِيْشُ القَانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيْحاً مُطْمَئِنّاً وَذُو الحِرْصِ وَالشَّرَهِ يَعِيْشُ ما عَاشَ في تَعَبٍ وَنَصَبٍ[4]؛ وَإِنِّي قَدِ احْتَجْتُ الآنَ إِلَى عَقْلِي فِي التِمَاسِ المَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيْهِ.
ثُمَّ قَالَ لِلَغيْلَمِ: وَمَا مَنَعَكَ أَصْلَحَكَ اللهُ أَنْ تُعْلِمَنِي عِنْدَ مَنْزِلِي حَتَّى كُنْتُ أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي، فَإِنَّ هذهِ سُنَّةٌ[5] فِيْنَا مَعَاشِرَ القِرَدَةِ إِذَا خَرَجَ أَحَدُنا لِزِيَارَةِ صَدِيْقٍ لَهُ خَلَّفَ[6] قَلْبَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ أَوْ فِي مَوْضِعِهِ، لِنَنْظُرَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُرَمِ المُزْوْرِ[7] وَلَيْسَ قُلُوْبُنَا مَعَنَا.
قَالَ الغَيْلَمُ: وَأَيْنَ قَلْبُكَ الآنَ؟
قَالَ: خَلَّفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ حَتَّى آتِيَكَ بِهِ.
فَفَرِحَ الغَيْلَمُ بِذَلِكَ وَقَالَ: لَقَدْ وَافَقَنِيَ صَاحِبِي بِدُوْنِ أَنْ أَغْدُرَ بِهِ. ثُمَّ رَجَعَ بِالقِرْدِ إِلَى مَكَانِه، فَلَمَّا قَارَبَ السَّاحِلَ وَثَبَ عَلَى ظَهْرِهِ فَارْتَقَى الشَّجَرَةَ. فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الغَيْلَمِ نَادَاهُ يَا خَلِيْلِي احْمِلْ قَلْبَكَ وَانْزِلْ فَقَدْ حَبَسْتَنِي.
فَقَالَ القِرْدُ: هَيْهَاتَ أَتَظُنُّ أَنِّي كَالحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلاَ أُذُنَانِ؟
قَالَ الغَيْلَمُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ الأَسَدِ وَابْنِ آوَى وَالحِمَارِ

---

١ لا تغتمّ: لا تحزن.
٢ واسوأتاه: السَّوأة: الأمر القبيح.
٣ ورطة: مأزق.
٤ النَّصب: التَّعب الشَّديد.
٥ سُنَّة: طريقة.
٦ خلَّف: ترك.
٧ حرم المزور: نساؤه.

قَالَ القِرْدُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ أَسَــدٌ فِي أَجَمَةٍ[1]، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُ آوَى يَأْكُلُ مِنْ فَضَلاتِ طَعَامِهِ. فَأَصَابَ الأَسَدَ جَرَبٌ وَضَعُفَ شَدِيْداً وَجُهِدَ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّيْدَ.
فَقَالَ لَهُ ابْنُ آوَى: مَا بَالُكَ يَا سَيِّدَ السِّبَاعِ قَدْ تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُكَ؟
قَالَ: هَذَا الجَرَبُ الَّذِي قَدْ جَهَدَنِي[2] وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلاَّ قَلْبُ حِمَارٍ وَأُذُنَاهُ.
قَالَ ابنُ آوَى: مَا أَيْسَــرَ هَذَا، وَقَدْ عَرَفْتُ بِمَكَانِ كَذَا حِمَاراً مَعَ قَصَّــارٍ[3] يَحْمِلُ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ وَأَنا آتِيْكَ بِهِ.
ثُمَّ دَلفَ[4]: إِلَى الحِمَارِ فَأَتَاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: مَا لِي أَرَاكَ مَهْزُوْلاً[5]؟
قَالَ: لِسُوْءِ تَدْبِيْرِ صَاحِبِي، فَإِنَّهُ لاَ يَزَالُ يُجِيْعُ بَطْنِي وَيُثْقِلُ ظَهْرِي. وَمَا تَجتَمِعُ هَاتَانِ الحَالَتَانِ عَلَى جِسْمٍ إِلاَّ أَنْحَلَتَاهُ[6] وَأَسْقَمَتَاهُ[7].
فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ تَرْضَى المُقَامَ مَعَهُ عَلَى هَذَا؟
قَالَ: مَا لِي حِيْلَةٌ لِلْهَرَبِ مِنْهُ، فَلَسْــتُ أَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ إِلاَّ أَضَــرَّ بِي إِنْسَــانٌ فَكَدَّنِي[8] وَأَجَاعَنِي. قَالَ ابْنُ آوَى: فَأَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَكَانٍ مَعْزُوْلٍ عَنِ النَّاسِ لاَ يَمُرُّ بِهِ إِنْسَــانٌ، خَصِــيْبِ المَرْعَى، فِيْهِ عَانَةٌ[9] مِنَ الحُمْرِ[10] تَرْعَى آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً.
قَالَ الحِمَارُ: وَمَا يَحْبِسُــنَا عَنْهَا فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهَا. فَانْطَلَقَ بِهِ نَحْوَ الأَسَــدِ، وَتَقَدَّمَ ابْنُ آوَى وَدَخَلَ الغَابَةَ عَلَى الأَسَــدِ فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِ الحِمَارِ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَأَرَادَ أَنْ يَثِبَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَسْــتَطِعْ لِضُــعْفِهِ، وَتَخَلَّصَ الحِمَارُ مِنْهُ فَأَفْلَتَ هَلِعاً[11] عَلَى وَجْهِهِ.
فَلَمَّا رَأَى ابْنُ آوَى أَنَّ الأَسَدَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الحِمَارِ، قَالَ: يَا سَيِّدَ السِّبَاعِ أَعَجِزْتَ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ؟
فَقَالَ لَهُ: إِنْ جِئْتَنِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى فَلَنْ يَنْجُوَ مِنِّي أَبداً.
فَمَضَى ابْنُ آوَى إِلَى الحِمَارِ فَقَالَ لَهُ: مَا الَّذِي جَرَى عَلَيْكَ.
إِنَّ أَحَدَ الحُمُرِ رَآكَ غَرِيْباً فَخَرَجَ يَتَلَقَّاكَ مُرَحِّباً بِكَ وَلَوْ ثَبَتَّ لآنَسَكَ وَمَضَى بِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ.

---

١ الأجمة: الشَّجر الكثيف الملتفّ.
٢ جهدني: أتعبني.
٣ القصَّار: مبيِّض الثِّياب.
٤ دلف: اقترب.
٥ مهزولاً: ضعيفاً.
٦ أنحلتاه: أصابتاه بالضَّعف والهزال.
٧ أسقمتاه: أصابتاه بالمرض والسَّقم.
٨ كدَّني: أتعبني.
٩ عانة: جماعة.
١٠ الحُمُر: الحمير.
١١ الهلع: الخائف.

فَلَمَّا سَـــمِعَ الحِمَارُ ذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ رَأَى أَسَـــداً قَطُّ صَـــدَّقَ مَا قَالَهُ ابْنُ آوَى وَأَخَذَ طَرِيْقَهُ إِلَى الأَسَدِ. فَسَبَقَهُ ابْنُ آوَى إِلَى الأَسَدِ وَأَعْلَمَهُ بِمَكَانِهِ وَقَالَ لَهُ: اسْتَعِدَّ لَهُ فَقَدْ خَدَعْتُهُ لَكَ فَلاَ يُدْرِكَنَّكَ الضَّـــعْفُ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ[1]، فَإِنَّهُ إِنْ أَفْلَتَ لَنْ يَعُوْدَ مَعِي أَبَداً، وَالفُرَصُ لاَ تُصَـــابُ[2] فِي كُلِّ وَقْتٍ. فَجَاشَ[3] جَأْشُ الأَسَـــدِ[4] لِتَحْرِيْضِ ابْنِ آوَى لَهُ وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِـــعِ الحِمَارِ، فَلَمَّا بَصُـــرَ بِهِ عَاجَلَهُ بِوَثْبَةٍ افْتَرَسَهُ بِهَا. ثُمَّ قَالَ: قَدْ ذَكَرَتِ الأَطِّبَّاءُ أَنَّهُ لاَ يُؤْكَلُ إِلاَّ بَعْدَ الاغْتِسَالِ وَالطُّهُوْرِ. فَاحْتَفِظْ بِهِ حَتَّى أَعُوْدَ فآكُلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ وَأَتْرُكَ مَا سِوَى ذَلِكَ قُوْتاً لَكَ.

فَلَمَّا ذَهَبَ الأَسَـــدُ لِيَغْتَسِـــلَ عَمَدَ ابْنُ أوى إِلَى الحِمَارِ فَأَكَلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ رَجَاءَ أَنْ يَتَطَيَّرَ[5] الأَسَدُ مِنْهُ فَلاَ يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئاً.

ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ فَقَالَ لابْنِ آوَى: أَيْنَ قَلْبُ الحِمَارِ وَأُذُنَاهُ؟

قَالَ ابْنُ آوَى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَ مَا أَفْلَتَ وَنَجَا مِنَ الهَلَكَةِ!!

وَإِنَّمَا ضَـــرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَل لِتَعْلَمَ أَنِّي لَسْـــتُ كَذلِكَ الحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابنُ آوَى أَنَّه لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ ولاَ أُذُنَانِ. وَلَكِنَّكَ احْتَلْتَ عَلَيَّ وَخَدَعْتَنِي فَخَدَعْتُكَ بِمِثْلِ خَدِيْعَتِكَ وَاسْتَدْرَكْتُ[6] فَارِطَ أَمْرِي[7].

وَقَدْ قِيْلَ: إِنَّ الَّذِي يُفْسِدُهُ الحِلْمُ لاَ يُصْلِحُهُ إِلاَّ العِلْمُ.

قَالَ الغَيْلَمُ: صَـــدَقْتَ! إِلاَّ أَن الرَّجُلَ الصَّـــالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِهِ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً لَمْ يَسْـــتَحِ أَنْ يُؤَدَّبَ لِصِـــدْقِهِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَإِنْ وَقَعَ فِي وَرْطَةٍ أَمْكَنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا بِحِيْلَتِهِ وَعَقْلِهِ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَعْثُرُ عَلَى الأَرْضِ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُ فِي نُهُوضِهِ. فَهَذَا مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الحَاجَةَ فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا أَضَاعَهَا.

---

١ النَّوبة: المرَّة.
٢ تصاب: تُدرك، تأتي.
٣ جاش: هاج.
٤ جأش الأسد: حميّته.
٥ يتطيَّر: يتشاءم.
٦ استدركت: تلافيت.
٧ فارط أمري: ما زللت به.

بَابُ النَّاسِكِ وَابْنِ عِرْسٍ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لَبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ العَجْلاَنِ فِي أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلاَ نَظَرٍ فِي العَوَاقِبِ[١].

قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: إِنَّه مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ مُتَثَبِّتاً لَمْ يَزَلْ نَادِماً وَيَصِيْرُ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ مِنْ قَتْلِ ابْنِ عِرْسٍ وَقَدْ كَانَ لَهُ وَدُوْداً.

قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً مِنَ النُّسَّاكِ كَانَ بِأَرْضِ جُرْجَانَ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ لَهَا مَعَهُ صُحْبَةٌ. فَمَكَثَا زَمَاناً لَمْ يُرْزَقَا ولَداً. ثُمَّ حَمَلَتْ بَعْدَ الإِيَاسِ، فَسُرَّتِ المَرْأَةُ وَسُرَّ النَّاسِكُ بِذَلِكَ، وَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكُوْنَ الحَمْلُ ذَكَراً.

وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ: أَبْشِرِي فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُوْنَ غُلاَماً فِيْهِ لَنَا مَنَافِعُ وَقُرَّةُ عَيْنٍ أَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الأَسْمَاءِ وَأُحْضِرُ لَهُ جَمِيْعَ المُؤَدِّبِيْنَ.

فَقَالَتِ المَرْأَةُ: مَا يَحْمِلُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى أَنْ تَتَكَلَّمَ بِمَا لاَ تَدْرِي أَيَكُوْنُ أَمْ لاَ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ النَّاسِكَ الَّذِي أَهْرَقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ وَالعَسَلَ.

قَالَ لَهَا وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ النَّاسِكِ المَخْدُوْعِ

قَالَتْ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكاً كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ رَجُلٍ تَاجِرٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ رِزْقٌ مِنَ السَّمْنِ وَالعَسَلِ، وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْهُ قُوْتَهُ وَحَاجَتَهُ وَيَرْفَعُ البَاقِيَ وَيَجْعَلُهُ فِي جَرَّةٍ، فِيُعَلِّقُهَا فِي وَتَدٍ فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ حَتَّى امْتَلأَتْ.

فَبَيْنَمَا النَّاسِكُ ذَاتَ يَوْمٍ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ وَالعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ وَالجَرَّةُ مُعَلَّقَةٌ فَوْقَ رَأْسِهِ تَفَكَّرَ فِي غَلاَءِ السَّمْنِ وَالعَسَلِ. فَقَالَ: سَأَبِيْعُ مَا فِي هَذِهِ الجَرَّةِ بِدِيْنَارٍ وَأَشْتَرِي بِهَا عَشْرَ أَعْنُزٍ، فَيَحْبَلْنَ وَيَلِدْنَ فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ مَرَّةً. وَلاَ تَلْبَثُ إِلاَّ قَلِيْلاً حَتَّى تَصِيْرَ مَعْزاً كَثِيْراً إِذَا وَلَدَتْ أَوْلاَدُهَا. ثُمَّ حَرَّرَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ بِسَنِيْنَ فَوَجَدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمائَةِ عَنْزٍ. فَقَالَ: أَنَا أَشْتَرِي بِهَا مِئَةً مِنَ البَقَرِ بِكُلِّ أَرْبَعِ أَعْنُزٍ ثَوْراً أَوْ بَقَرَةً، وَأَشْتَرِي أَرْضاً وَبِذْراً وَأَسْتَأْجِرُ أَكَرَةً، وَأَزْرَعُ عَلَى الثِّيْرَانِ وَأَنْتَفِعُ بِأَلْبَانِ الإِنَاثِ وَنِتَاجِهَا فَلاَ تَأْتِي عَلَيَّ خَمْسُ سِنِيْنَ إِلاَّ وَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الزَّرْعِ مَالاً كثيراً، فَأَبْنِي بَيْتاً فَاخِراً وَأَشْتَرِي إِمَاءً وَعَبِيْداً، وَأَتَزَوَّجُ امْرَأَةً صَالِحَةً جَمِيْلَةً فَتَحْمِلُ ثُمَّ تَأْتِي بِغُلاَمٍ سَرِيٍّ نَجِيْبٍ، فَأَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الأَسْمَاءِ.

١ العواقب: النتَّائج.

فَإِذَا تَرَعْرَعَ أَدَّبْتُهُ، وَأَحْسَنْتُ تَأْدِيْبَهُ وَأُشَدِّدُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ فَإِنْ قَبِلَ مِنِّي وَإِلاَّ ضَرَبْتُهُ بِهَذِهِ العُكَّازَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الجَرَّةِ فَكَسَرَهَا فَسَالَ مَا فِيْهَا عَلَى وَجْهِهِ. وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَل لِكَيْ لاَ تَعْجَلَ بِذِكْرِ مَا لاَ يَنْبَغِي ذِكْرُهُ، وَمَا لاَ تَدْرِي أَيَصِحُّ أَمْ لا يَصِحُّ، وَلَكِنِ ادْعُ رَبَّكَ وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ التَّصَاوِيْرَ فِي الحَائِطِ إِنَّمَا هِيَ مَا دَامَ بِنَاؤُهُ قَائِماً، فَإِذَا وَقَعَ وَتَهَدَّمَ لَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهَا. فَاتَّعَظَ النَّاسِكُ بِمَا حَكَتْ زَوْجَتُهُ.

ثُمَّ إِنَّ المَرْأَةَ وَلَدَتْ غُلاَماً جَمِيْلاً، فَفَرِحَ بِهِ أَبُوْهُ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ حَانَ لَهَا أَنْ تَغْتَسِلَ. فَقَالَتْ المَرْأَةُ لِلنَّاسِكِ: اقْعُدْ عِنْدَ ابْنِكَ حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى الحَمَّامِ فَأَغْتَسِلَ وَأَعُوْدَ، ثُمَّ إِنَّهَا انْطَلَقَتْ إِلَى الحَمَّامِ وَخَلَّفَتْ زَوْجَهَا وَالغُلاَمَ.

فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ رَسُوْلُ المَلِكِ يَسْتَدْعِيْهِ وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُخَلِّفُهُ عِنْدَ ابْنِهِ غَيْرَ ابْنِ عِرْسٍ دَاجِنٍ[1] عِنْدَهُ، كَانَ قَدْ رَبَّاهُ صَغِيْراً فَهُوَ عِنْدَهُ عَدِيْلُ[2] وَلَدِهِ. فَتَرَكَهُ النَّاسِكُ عِنْدَ الصَّبِيِّ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمَا البَيْتَ، وَذَهَبَ مَعَ الرَّسُوْلِ. فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ أَحْجَارِ البَيْتِ حَيَّةٌ سَوْدَاءُ، فَدَنَتْ مِنَ الغُلاَمِ فَضَرَبَهَا ابْنُ عِرْسٍ فَوَثَبَتْ عَلَيْهِ فَقَتَلَهَا ثُمَّ قَطَّعَهَا وَامْتَلأَ فَمُهُ مِنْ دَمِهَا.

ثُمَّ جَاءَ النَّاسِكُ وَفَتَحَ البَابَ فَالتَقَاهُ ابْنُ عِرْسٍ كَالمُشِيْرِ لَهُ بِمَا صَنَعَ مِنْ قَتْلِ الحَيَّةِ.

فَلَمَّا رَآهُ مُلَوَّثاً بالدَّمِ وَهُوَ مَذْعُوْرٌ طَارَ عَقْلُهُ وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ خَنَقَ وَلَدَهُ، وَلَمْ يَتَثَبَّتْ[3] فِي أَمْرِهِ وَلَمْ يَتَرَوَّ[4] فِيْهِ، حَتَّى يَعْلَمَ حَقِيْقَةَ الحَالِ وَيَعْمَلَ بِغَيْرِ مَا ظَنَّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ عَجَّلَ عَلَى ابْنِ عِرْسٍ وَضَرَبَهُ بِعُكَّازَةٍ كَانَتْ فِي يَدِهِ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَمَاتَ.

وَدَخَلَ النَّاسِكُ فَرَأَى الغُلاَمَ سَلِيْماً حَيَّاً وَعِنْدَهُ أَسْوَدُ مُقَطَّعٌ. فَلَمَّا عَرَفَ القِصَّةَ وَتَبَيَّنَ لَهُ سُوْءُ فِعْلِهِ فِي العَجَلَةِ لَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ: لَيْتَنِي لَمْ أُرْزَقْ هَذَا الوَلَدَ وَلَمْ أَغْدُرْ هَذَا الغَدْرَ.

وَدَخَلَتْ امْرَأَتُهُ فَوَجَدَتْهُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟

فَأَخْبَرَهَا بِالخَبَرِ مِنْ حُسْنِ فِعْلِ ابْنِ عِرْسٍ وَسُوْءِ مُكَافَأَتِهِ لَهُ. فَقَالَتْ: هَذِهِ ثَمْرَةُ العَجَلَةِ، لأَنَّ الأَمْرَ إِذَا فَرَطَ مِثْلُ الكَلاَمِ إِذَا خَرَجَ وَالسَّهْمِ إِذَا مَرَقَ[5] لاَ مَرَدَّ لَهُ. فَهَذَا مَثَلُ مَنْ لاَ يَتَثَبَّتُ فِي أَمْرِهِ بَلْ يَفْعَلُ أَغْرَاضَهُ بِالسُّرْعَةِ.

---

١ داجن: ما ألف البيوت من الحيوانات.
٢ عديل: نظير ومثيل.
٣ لم يتثبّت: لم يتأكّد.
٤ لم يتروَّ: لم يتأنَّ ويتفكَّر.
٥ مرق: نفذ في الرَّمِيَّة.

بَابُ الجُرَذِ وَالسِّنَّوْرِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ رَجُلٍ كَثُرَ أَعْدَاؤُهُ وَأَحْدَقُوا[1] بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَشْــرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الهَلاَكِ، فَالْتَمَسَ النَّجَاةَ وَالمَخْرَجَ بِمُوَالاَةِ[2] بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَمُصَـالَحَتِهِ، فَسَلِمَ مِنَ الخَوْفِ وَأَمِنَ، ثُمَّ وَفَى لِمَنْ صَـــالَحَهُ مِنْهُمْ. وَأَخْبِرْنِي عَنْ مَوْضِـــعِ الصُّـــلْحِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ.

قَالَ الفَيْلسُـــوْفُ: إِنَّ المَوَدَّةَ وَالعَدَاوةَ لاَ تَثْبُتَانِ عَلَى حَالَةٍ أَبَداً، وَرُبَّمَا حَالَت[3] المودَّةُ إِلَى العَداوَةِ وِلايَةً وَصَـــدَاقَةً، ولِهَذَا حَوَادِثُ وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ. وَذُو الرَّأْيِ يُحْدِثُ لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ رَأْياً جَدِيْداً. أَمَّا مِنْ قِبَلِ العَدُوِّ فَبِالبَأْسِ[4]، وَأَمَّا مِنْ قِبَلِ الصِّدِيْقِ فَبِالإِسْــتِئْنَاسِ. وَلاَ تَمْنَعُ ذَا العَقْلِ عَدَاوَةٌ كَانَتْ فِي نَفْسِـــهِ لِعَدُوِّهِ مِنْ مُقَارَبَتِهِ والاسْــتِنْجَادِ[5] بِهِ عَلَى دَفْعِ مَرْهُوْبٍ أَوْ جَرِّ مَرْغُوْبٍ، وَمَنْ عَمِلَ فِي ذَلِكَ بِالحَزْمِ ظَفِرَ بِحَاجَتِهِ. وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الجُرَذِ وَالسِّــنَّوْرِ حِيْنَ وَقَعَا فِي الوَرْطَةِ فَنَجَوا بِاصْطِلاَحِهِمَا جَمِيْعاً مِنَ الوَرْطَةِ وَالشِّدَّةِ.

قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ بِيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيْمَةً كَانَ فِي أَصْلِهَا جُحْرُ سِنَّوْرٍ يُقَالُ لَهُ رُوْمِيٌّ، وَكَانَ قَرِيْباً مِنْهُ جُحْرُ جُرَذٍ يُقَالُ لَهُ فَرِيْدُوْنُ، وَكَانَ الصَّيَّادُوْنَ كَثِيْراً مَا يَتَدَاوَلُوْنَ[6] ذَلِكَ المَكَانَ يَصِيْدُوْنَ فِيْهِ الوَحْشَ وَالطَّيْرَ. فَأَتَى ذَاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ فَنَصَبَ حِبَالَتَهُ[7] قَرِيْباً مِنْ مَوْضِـــعِ رُوْمِيٍّ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَعَ فِيْهَا. فَخَرَجَ الجُرَذُ يَدِبُّ وَيَطْلُبُ مَا يَأْكُلُ وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُوْمِيٍّ.

فَبَيْنَمَا هُوَ يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بِهِ فِي الشَّرَكِ فَسُرَّ وَاسْتَبْشَرَ. ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى خَلْفَهُ ابْنَ عِرْسٍ يُرِيْدُ أَخْذَهُ وَفِي الشَّـــجَرَةِ يَوْماً يُرِيْدُ اخْتِطَافَهُ. فَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ وَخَافَ إِنْ رَجَعَ وَرَاءَهُ أَخَذَهُ ابْنُ عِرْسٍ، وَإِنْ ذَهَبَ يَمِيْناً أَوْ شِــمَالاً اخْتَطَفَهُ البُوْمُ، وَإِنْ تَقَدَّمَ أَمَامَهُ افْتَرَسَهُ السِّنَّوْرُ. فَقَالَ فِيْ نَفْسِهِ: هَذَا بَلاَءٌ قَدِ اكْتَنَفَنِي[8] وَشُرُوْرٌ تَظَاهَرَتْ[9] عَلَيَّ وَمِحَنٌ قَدْ أَحَاطَتْ بِي.

---

١ أحدقوا: أحاطوا.
٢ الموالاة: المصادقة.
٣
٤ البأس: الشِّدّة والقوَّة.
٥ الاستنجاد: طلب العون والنَّجدة.
٦ يتداولون: يأتون مراراً
٧ حبالته: شركه. فخُّه.
٨ اكتنفني: أحاط بي.
٩ تظاهرت: تعاونت.

وَبَعْدَ ذَلِكَ فَمَعِي عَقْلِي فَلاَ يُفْزِعُنِي أَمْرِي، وَلاَ يَهُوْلُنِي[١] شَــأْنِي، وَلاَ يَلْحَقُنِي الدَّهْشُ[٢]، وَلاَ يَذْهَبُ قَلْبِي شَـعَاعاً[٣]؛ فَالعَاقِلُ لاَ يَفْرَقُ[٤] عِنْدَ سَـدَادِ رَأْيِهِ، وَلاَ يَعْزُبُ[٥] عَنْهُ ذِهْنُهُ عَلَى حَالٍ. وَإِنَّمَا العَقْلُ شَبِيْهٌ بِالبَحْرِ الَّذِي لاَ يُدْرَكُ غَوْرُهُ[٦]، ولاَ يَبْلُغُ البَلاَءُ مِنْ ذِي الرَّأْيِ مَجْهُوْدَهُ فَيُهْلِكُهُ. وَتَحَقُّقُ الرَّجَاءِ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ مَبْلَغاً يُبْطِرُهُ وَيُسْـكِرُهُ فَيَعْمَى عَلَيْهِ[٧] أَمْرُهُ. وَلَسْـتُ أَرَى لِيْ مِنْ هَذَا البَلاَءِ مَخْلَصـاً إِلاَّ مُصَـالَحَةَ السِّـنَّورِ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ مِنَ البَلاَءِ مِثْلُ مَا قَدْ نَزَلَ بِي أَوْ بَعْضُـهُ، وَلَعَلَّنَا إِنْ سَـمِعَ كَلاَمِي الَّذِي أُكَلِّمُهُ بِهِ وَوَعَى[٨] عَنِّي صَـحِيْحَ خِطَابِي وَمَحْضُ صِـدْقِي الَّذِي لاَ خِلاَفَ فِيْهِ وَلاَ خِدَاعَ مَعَهُ، فَهِمَهُ وَطَمِعَ فِي مَعُوْنَتِي إِيَّاهُ جَمِيْعاً.

ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ دَنَا مِنَ السِّنَّوْرِ فَقَال لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ؟

قَالَ لَهُ السِّنَّوْرُ: كَمَا تُحِبُّ فِي ضَنْكٍ[٩] وَضِيْقٍ.

قَالَ: وَأَنَا اليَوْمَ شَرِيْكُكَ فِي البَلاَءِ، وَلَسْتُ أَرْجُو لِنَفْسِي خَلاَصاً إِلاَّ بِالَّذِي أَرْجُو لَكَ فِيْهِ الخَلاَصَ، وَكَلاَمِي هَذَا لَيْسَ فِيْهِ كَذِبٌ وَلاَ خَدِيْعَةٌ، وَابْنُ عِرْسٍ هَا هُوَ كَامِنٌ لي وَالبُوْمُ يَرْصُدُنِي وَكِلاَهُما لِي وَلَكَ عَدُوٌّ؛ وَإِنِّي وَإِيَّاكَ وَإِنْ كُنَّا مُخْتَلِفَي الطِّبَاعِ لكِنَّنا مُتَّفِقا الحالَةِ. وَالَّذِيْنَ حَالَتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَطِبَاعُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ تَجْمَعُهُمُ الحَالَةُ وَإِنْ فَرَّقَتْهُمُ الطِّبَاعُ، فَإِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِيَ الأَمَانَ قَطَّعْتُ حَبَائِلَكَ وَخَلَّصْتُكَ مِنْ هَذِهِ الوَرْطَةِ.

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ تَخَلَّصَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صَاحِبِهِ كَالسَّفِيْنَةِ وَالرُّكَّابِ فِي البَحْرِ، فَبِالسَّفِيْنَةِ يَنْجَوْنَ وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِيْنَةُ.

فَلَمَّا سَمِعَ السِّـنَّوْرُ كَلاَمَ الجُرَذِ وَعَرَفَ أَنَّهُ صَـادِقٌ قَالَ لَهُ: إِنَّ قَوْلَكَ هَذَا لَشَـبِيْهٌ بِالحَقِّ وَأَنَا أَيْضَـاً رَاغِبٌ فِيمَا أَرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِـي بِهِ الخَلاَصَ، ثُمَّ إِنِّي إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ سَأَشْكُرُكَ مَا بَقِيْتُ.

قَالَ الجُرَذُ: فَإِنِّي سَأَدْنُو مِنْكَ فَأَقْطَعُ الحَبَائِلَ كُلَّهَا إِلاَّ حَبْلاً وَاحِداً أُبْقِيْهِ لأَسْتَوْثِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ، وَأَخَذَ فِي تَقْرِيْضِ حَبَائِلِهِ.

---

١ يهولني: يفزعني.
٢ الدَّهش: الحيرة.
٣ الشَّعاع: المتفرِّق من الخوف.
٤ يفرق: يخاف.
٥ يعزب: يبعد ويغيب.
٦ غوره: قعره وقراره.
٧ يعمى عليه: يلتبس.
٨ وعى: حفظ.
٩ الضَّنك: الضِّيق والضَّعف الشَّديد.

ثُمَّ إِنَّ البُوْمَ وَابْنَ عِرْسٍ لمَّا رَأَيَا دُنُو الجُرَذِ مِنَ السِّنَّوْرِ أَيِسَا مِنْهُ وَانْصَرَفَا.
ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ أَبْطَأَ عَلَى رُوْمِيٍّ فِي قَطْعِ الحَبَائِلِ. فَقَالَ لَهُ: مَا لِي لاَ أَرَاكَ جَادّاً فِي قَطْعِ حَبَائِلِي؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ وَتَوَانَيْتَ[1] فِي حَاجَتِي، فَمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِيْنَ، فَإِنَّ الكَرِيْمَ لاَ يَتَوانَى فِي حَقِّ صَاحِبِهِ، وَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سَابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الفَائِدَةِ والنَّفْعِ مَا قَدْ رَأَيْتَ، وَأَنْتَ حَقِيْقٌ[2] أَنْ تُكَافِئَنِي بِذَلِكَ وَلاَ تَذْكُرَ العَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَالَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصُّلْحِ حَقِيْقٌ أَنْ يُنْسِيَكَ ذَلِكَ مَعَ مَا فِي الوَفَاءِ مِنَ الفَضْلِ وَالأَجْرِ وَمَا فِي الغَدْرِ مِنْ سُوْءِ العَاقِبَةِ.
فَإِنَّ الكَرِيْمَ لاَ يَكُوْنُ إِلاَّ شَكُوْراً غَيْرَ حَقُوْدٍ تُنْسِيْهِ الخَلَّةُ[3] الوَاحِدَةُ مِنَ الإِحْسَانِ الخِلاَلَ الكَثِيْرَةَ مِنَ الإِسَاءَةِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ أَعْجَلَ العُقُوْبَةِ عُقُوْبَةُ الغَدْرِ، وَمَنْ إِذَا تُضُرِّعَ إِلَيْهِ وَسُئِلَ العَفْوَ فَلَمْ يَرْحَمْ وَلَمْ يَعْفُ فَقَدْ غَدَرَ.
قَالَ الجُرَذُ: إِنَّ الصَّدِيْقَ صَدِيْقَانِ، طَائِعٌ وَمُضْطَرٌّ، وَكِلاَهُما يَلْتَمِسَانِ المَنْفَعَةَ وَيَحْتَرِسَانِ مِنَ المَضَرَّةِ. فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ وَيُؤْمَنُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ. وَأَمَّا المضْطَرُّ فَفِي بَعْضِ الأَحْوَالِ يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ[4] وَفِي بَعْضِهَا يُتَحَذَّرُ مِنْهُ. وَلاَ يَزَالُ العَاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعْضَ حَاجَاتِهِ لِبعضِ مَا يَتَّقِي وَيَخَافُ. وَلَيْسَ غَايَةُ التَّوَاصُلِ مِنْ كُلٍّ مِنَ المُتواصِلَيْنِ إِلاَّ طَلَبَ عَاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوْغَ مَأْمُوْلِهِ، وَأَنَا وَافٍ لَكَ بِمَا وَعَدْتُكَ وَمُحْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ أَخَافُكَ تَخَوُّفَ أَنْ يُصِيْبَنِي مِنْكَ مَا أَلْجَأَنِي خَوْفُهُ إِلَى مُصَالَحَتِكَ، وَأَلْجَأَكَ إِلَى قُبُوْلِ ذَلِكَ مِنِّي، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِيْناً[5]، فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ فِي حِيْنِهِ فَلاَ حُسْنَ لِعَاقِبَتِهِ. وَأَنَا قَاطِعٌ حَبَائِلَكَ كلَّهَا غَيْرَ أَنِّي تَارِكٌ عُقْدَةً أَرْتَهِنُكَ بِهَا وَلاَ أَقْطَعُهَا إِلاَّ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيْهَا عَنِّي مَشْغُوْلٌ وَذَلِكَ عِنْدَ مُعَايَنَتِي الصَّيَّادَ.
ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حَبَائِلِ السِّنَّوْرِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ وَافَى الصَّيَّادُ فَقَالَ لَهُ السِّنَّوْرُ: الآنَ جَاءَ وَقْتُ الجِدِّ فِي قَطْعِ حَبَائِلِي. فَجَهَدَ الجُرَذُ نَفْسَهُ فِي القَرْضِ حَتَّى إِذَا فَرَغَ وَثَبَ السِّنَّوْرُ إِلَى الشَّجَرَةِ عَلَى دَهَشٍ مِنَ الصَّيَّادِ، وَدَخَلَ الجُرَذُ بَعْضَ الأَحْجَارِ، وَجَاءَ الصَّيَّادُ فَأَخَذَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً ثُمَّ انْصَرَفَ خَائِباً.

---

١ توانيت: تهاونت.
٢ حقيق: أهل وجدير.
٣ الخَلَّة: الصِّفة والخصلة.
٤ يُسترسل إليه: يُطمَأَنُّ إليه.
٥ حيناً: وقتاً.

ثُمَّ إِنَّ الجُرَذَ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَرِهَ أَنْ يَدْنُوَ مِنَ السِّنَّوْرِ. فَنَادَاهُ السِّنَّوْرُ: أَيُّهَا الصَّدِيْقُ النَّاصِحُ ذُو البَلاَءِ الحَسَنِ[١] عِنْدِي، مَا مَنَعَكَ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيَّ لأُجَازِيَكَ[٢] بِأَحْسَنِ مَا أَسْدَيْتَ[٣] إِلَيَّ، هَلُمَّ إِلَيَّ وَلاَ تَقْطَعْ إِخَائِي[٤]، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّخَذَ صَدِيْقاً وَقَطَعَ إِخَاءَهُ وَأَضَاعَ صَدَاقَتَهُ حُرِمَ ثَمَرَةَ إِخَائِهِ وَأَيِسَ مِنْ نَفْعِهِ الإِخْوَانُ وَالأَصْدِقاءُ، وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي[٥] لاَ تُنْسَى وَأَنْتَ حَقِيْقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ مُكَافَأَةَ ذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي، وَلاَ تَخَافَ مِنِّي شَيْئاً وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قِبَلِي لَكَ مَبْذُوْلٌ.
ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صَدِيْقِهِ فِيمَا قَالَ. فَنَادَاهُ الجُرَذُ رُبَّ صَدَاقَةٍ ظَاهِرَةٍ بَاطِنُهَا عَدَاوَةٌ كَامِنَةٌ وَهِيَ أَشَدُّ مِنَ العَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِسْ مِنْهَا وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نَابَ الفِيْلِ الهَائِجِ ثُمَّ يَغْلِبُهُ النُّعَاسُ، فَيَسْتَيْقِظُ تَحْتَ فَرَاسِنِ[٦] الفِيْلِ فَيَدُوْسُهُ وَيَقْتُلُهُ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيْقُ صَدِيْقاً لِمَا يُرْجَى مِنْ صِدْقِهِ وَنَفْعِهِ، وَسُمِّيَ العَدُوُّ عَدُوّاً لِمَا يُخَافُ مِن اعْتِدَائِهِ وَضَرَرِهِ. وَالعَاقِلُ إِذَا رَجَا نَفْعَ العَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّدَاقَةَ، وَإِذَا خَافَ ضَرَّ الصَّدِيْقِ أَظْهَرَ لَهُ العَدَاوَةَ. أَلا تَرَى تَتَبُّعَ البَهَائِمِ أُمَّاتِهَا[٧] رَجَاءَ أَلْبَانِهَا، فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ انْصَرَفتْ عَنْهَا. وَرُبَّما قَطَعَ الصَّدِيْقُ عَنْ صَدِيْقِهِ بَعْضَ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنْهُ، فَلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ لأَنَّ أَصْلَ أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَدَاوَةً. فَأَمَّا مَنْ كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَدَاوَةً جَوْهَرِيّةً ثُمَّ أَحَدَثَ صَدَاقَةً لِحَاجَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ، فإِنَّهُ إِذَا زَالَتِ الحَاجَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ زَالَتْ صَدَاقَتُهُ، فَتَحَوَّلَتْ وَصَارَتْ إِلَى أَصْلِ أَمْرِهِ كَالمَاءِ الَّذِي يَسْخُنُ بِالنَّارِ، فَإِذَا رُفِعَ عَنْهَا عَادَ بَارِداً. وَلَيْسَ مِنْ أَعْدَائِي عَدُوٌّ أَضَرَّ لِي مِنْكَ، وَقَدِ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حَاجَةٌ إِلَى مَا أَحْدَثْنَا مِنَ المُصَالَحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الأَمْرُ الَّذِي احْتَجْتَ إِليَّ وَاحْتَجْتُ إِلَيْكَ فِيْهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَكُوْنَ مَعَ ذَهَابِهِ عَوْدَةُ العَدَاوَةِ، وَلاَ خَيْرَ لِلضَّعِيْفِ فِي قُرْبِ العَدُوِّ القَوِيِّ، وَلاَ لِلذَّلِيْلِ فِي قُرْبِ العَدُوِّ العَزِيْزِ. وَلاَ أَعْلَمُ لَكَ قِبَلِي حَاجَةً إِلاَّ أَنْ تَكُوْنَ تُرِيْدُ أَكْلِي، وَلاَ أَعْلَمُ لِي قِبَلَكَ حَاجَةً وَلَيْسَ عِنْدِي بِكَ ثِقَةٌ، فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الضَّعِيْفَ المُحْتَرِسَ مِنَ العَدُوِّ القَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى السَّلاَمَةِ مِنَ القَوِيِّ إِذَا اغْتَرَّ بِالضَّعِيْفِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ. وَالعَاقِلُ يُصَالِحُ عَدُوَّهُ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ وَيُصَانِعُهُ[٨] وَيُظْهِرُ لَهُ وُدَّهُ وَيُرِيْهِ مِنْ نَفْسِهِ الاِسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ، إِذَا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدّاً، ثُمَّ يُعَجِّلُ الاِنْصِرَافَ عَنْهُ حِيْنَ يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً.

---

١ البلاء الحسن: الصَّنيع الحسن.
٢ لأجازيك: لأكافئك.
٣ أسديت: أحسنت.
٤ إخائي: أخوَّتي وصداقتي.
٥ يدك عندي: نعمتك.
٦ فراسن: جمع فِرْسِن وهو للفيل والجمل كالقدم للإنسان.
٧ أمّاتها: جمع أمّ. يقال: أمَّات للبهائم، وأمَّهات للنَّاس.
٨ يصانعه: يداريه.

وَاعْلَمْ أَنَّ سَرِيْعَ الإسْتِرْسَالِ لاَ تُقَالُ عَثْرَتُهُ[1]، وَالعَاقِلُ يَفِي لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلاَ يَثِقُ بِهِ كُلَّ الثِّقَةِ، وَلاَ يَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ القُرْبِ مِنْهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ مَا اسْتَطَاعَ. وَأَنا أَوَدُّكَ مِنْ بَعِيْدٍ وَأُحِبُّ لَكَ مِنَ البَقَاءِ وَالسَّلاَمَةِ مَا لَمْ أَكُنْ أُحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تُجَازِيَنِي عَلَى صَنِيْعِي إلاَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ إِذْ لاَ سَبِيْلَ إِلَى اجْتِمَاعِنَا وَالسَّلاَمُ.

بَابُ المَلِكِ وَالطَّائِرِ فَنْزَةَ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ التِّرَاتِ[2] الَّذِيْنَ لاَ بُدَّ لِبَعْضِهِمْ مِن اتِّقَاءِ بَعْضٍ.

قَالَ بَيْدَبَا: زَعَمُوا أَنَّ مَلِكاً مِنْ مُلُوْكِ الهِنْدِ كَانَ يُقَالُ لَهُ بَرِيْدُوْنُ، وَكَانَ لَهُ طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ فَنْزَةُ، وَكَانَ لَهُ فَرْخٌ. وَكَانَ هَذَا الطَّائِرُ وَفَرْخُهُ يَنْطِقَانِ بِأَحْسَنِ مَنْطِقٍ، وَكَانَ المَلِكُ بِهِمَا مُعْجَباً، فَأَمَرَ بِهِمَا أَنْ يُجْعَلاَ عِنْدَ امْرَأَتِهِ وَأَمَرَهَا بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا.

وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ المَلِكِ كَانَتْ حَامِلاً، فَوَلَدَتْ غُلاَماً فَأَلِفَ الفَرْخُ الغُلاَمَ وَكِلاَهُما طِفْلاَنِ يَلْعَبَانِ جَمِيْعاً. وَكَانَ فَنْزَةُ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الجَبَل فَيَأْتِي بِفَاكِهَةٍ لاَ تُعْرَفُ، فَيُطْعِمُ ابْنَ المَلِكِ شَطْرَهَا، وَيُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَهَا. فَأَسْرَعَ ذَلِكَ فِي نَشْأَتِهِمَا وَشَبَابِهِمَا، وَبَانَ عَلَيْهِمَا أَثَرُهُ عِنْدَ المَلِكِ، فَازْدَادَ لِفَنْزَةَ إِكْرَاماً وَتَعْظِيْماً وَمَحَبَّةً. حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنَ الأَيَّامِ وَفَنْزَةُ غَائِبٌ فِي اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ وَفَرْخُهُ فِي حِجْرِ الغُلاَمِ حَدَثَ مِنَ الفَرْخِ مَا أَغْضَبَ الغُلاَمَ، فَأَخَذَهُ فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ فَمَاتَ.

ثُمَّ إِنَّ فَنْزَةَ أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرْخَهُ مَقْتُوْلاً فَصَاحَ وَحَزِنَ وَقَالَ: قُبْحاً لِلْمُلُوْكِ الَّذِيْنَ لاَ عَهْدَ لَهُمْ وَلاَ وَفَاءَ!! وَيْلٌ لِمَنْ ابْتُلِي بِصُحْبَةِ المُلُوْكِ الَّذِيْنَ لاَ ذِمَّةَ لَهُمْ وَلاَ حُرْمَةَ، وَلاَ يُحِبُّوْنَ أَحَداً وَلاَ يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ إِلاَّ إِذَا طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ غَنَاءٍ[3]، وَاحْتَاجُوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ فَيُكْرِمُوْنَهُ لِذَلِكَ. فَإِذَا ظَفِرُوا بِحَاجَتِهِمْ مِنْهُ فَلاَ وُدَّ وَلاَ إِخَاءَ وَلاَ إِحْسَانَ وَلاَ غُفْرَانَ ذَنْبٍ وَلاَ مَعْرِفَةَ حَقٍّ. هُمُ الَّذِيْنَ أَمْرُهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى الرِّيَاءِ وَالفُجُوْرِ، وَهُمْ يَسْتَصْغِرُوْنَ مَا يَرْتَكِبُوْنَهُ مِنْ عَظِيْمِ الذُّنُوْبِ، وَيَسْتَعْظِمُوْنَ اليَسِيْرَ إِذَا خُوْلِفَتْ فِيْهِ أَهْوَاؤُهُمْ. وَمِنْهُمْ هَذَا الكَفُوْرُ الَّذِي لاَ رَحْمَةَ لَهُ، الغَادِرُ بِإِلْفِهِ وَأَخِيْهِ.

---

١ لا تُقَال عثرته: لا ينهض منها.
٢ أهل التِّرات: أهل العداوات والثَّارات، والتِّرة: الثَّأر.
٣ غناء: منفعة.

ثُمَّ وَثَبَ فِي شِـدَّةِ حَنَقِهِ عَلَى وَجْهِ الغُلاَمِ فَفَقَأَ عَيْنَيْهِ. ثُمَّ طَارَ فَوَقَفَ عَلَى شَـجَرةٍ عَالِيَةٍ.

وَبَلَغَ المَلِكُ ذَلِكَ فَجَزِعَ[١] أَشَـدَّ الجزَعِ، ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ فَيُهْلِكَهُ. فَرَكِبَ مِنْ سَـاعَتِهِ وَتَوَجَّهَ إِلَى نَاحِيَةِ الطَّائِرِ حَتَّى وَقَفَ قَرِيْباً مِنْهُ وَنَادَاهُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ آمِنٌ فَانْزِلْ يَا فَنْزَةُ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّها المَلِكُ إِنَّ الغَادِرَ مَأْخُوْذٌ بِغَدْرِهِ، وَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأَهُ عَاجِلُ العُقُوْبَةِ لَمْ يُخْطِئْهُ الآجِلُ، حَتَّى إِنَّهُ يُدْرِكُ الأَعْقَابَ[٢] وَأَعْقَابَ الأَعْقَابِ، وَإِنَّ ابْنَكَ غَدَرَ بَابْنِي فَعَجَّلْتُ لَهُ العُقُوْبَةَ.

قَالَ المَلِكُ: قَدْ لَعَمْرِي غَدَرَ ابْنِي بِابْنِكَ وَقَدْ تَنَاصَـفْنَا جَمِيْعاً، فَلَيْسَ لَكَ قِبَلَنَا[٣] وَلَيْسَ لَنَا قِبَلَكَ وِتْرٌ[٤] مَطْلُوْبٌ، فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِناً وَلاَ تَخَفْ.

قَالَ فَنْزَةُ: لَسْتُ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبداً، فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدْ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ المَوْتُوْرِ[٥]، فَإِنَّهُ لاَ يَزِيْدُكَ لُطْفُ الحَقُوْدِ وَلِيْنُهُ وَتكْرِمَتُهُ إِيَّاكَ إِلاَّ وَحْشَـةً مِنْهُ وَسُـوْءَ ظَنٍّ بِهِ. فَإِنَّكَ لاَ تَجِدُ لِلْحَقُوْدِ المَوْتُوْرِ أَمَاناً هُوَ أَوْثَقُ لَكَ مِنَ الذُّعْرِ[٦] مِنْهُ، وَلاَ أَجْوَدُ مِنَ البُعْدِ عَنْهُ، وَالاِتِقَاءُ لَهُ أَوْلَى. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِنَّ العَاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ أَصْـدِقَاءَ، وَالإِخْوَةَ رُفَقَاءَ، وَالأَزْوَاجَ أُلْفَاءَ، وَالبَنِيْنَ ذِكْراً، وَالبَنَاتِ خُصَـمَاءَ، وَالأَقَارِبَ غُرَمَاءَ[٧]، وَيَعُدُّ نَفْسَـهُ فَرِيْداً وَحِيْداً. وَأَنا الفَرِيْدُ الوَحِيْدُ الغَرِيْبُ الطَّرِيْدُ[٨] قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ عِبْئاً ثَقِيْلاً لاَ يَحْمِلُهُ مَعِي أَحَدٌ، وَأَنا ذَاهِبٌ فَعَلَيْكَ مِنِّي السَّلاَمُ.

قَالَ لَهُ المَلِكُ: إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدِ اجْتَزَيْتَ[٩] مِنَّا فِيمَا صَـنَعْنَاهُ بِكَ، أَوْ كَانَ صَـنِيْعُكَ بِنَا مِنْ غَيْرِ ابْتِدَاءٍ مِنَّا بِالغَدْرِ كَانَ الأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ، وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ قَدْ بَدَأْنَاكَ فَمَا ذَنْبُكَ؟ وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثِّقَةِ بِنَا؟ هَلُمَّ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ آمِنٌ.

قَالَ فَنْزَةُ: أَعْلَمْ أَنَّ الأَحْقَادَ لَهَا فِي القُلُوبِ مَوَاضِـعُ مُمكَّنَةٌ مُوْجِعَةٌ، فَالأَلْسُـنُ لاَ تَصْـدُقُ فِي خَبَرِهَا عَنِ القُلُوْبِ، وَالقَلْبُ أَعْدَلُ شَـهَادَةً عَلَى اللِّسَـانِ مِنَ اللِّسَـانِ عَلَى القَلْبِ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ قَلْبِي لاَ يَشْهَدُ لِلِسَانِكَ بِصِدْقِهِ وَلاَ قَلْبَكَ لِلِسَانِي.

قَالَ المَلِكُ: أَلاَ تَعْلَمُ أَنَّ الضَّغَائِنَ وَالأَحْقَادَ تَكُوْنُ بَيْنَ كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ؟ فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ كَانَ عَلَى إِمَاتَةِ الحِقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ.

---

١ جزع: حزن.
٢ الأعقاب: النَّسل (الأولاد والأحفاد).
٣ قبلنا: عندنا.
٤ وتر: ثأر.
٥ الموتور: مَنْ قُتل له قتيل فلم يدرك ثأره.
٦ الذُّعر: الخوف.
٧ الغرماء: الخصماء.
٨ الطَّريد: الهارب والمنفيّ.
٩ اجتزيت: أخذت الجزاء.

قَالَ فَنْزَةُ: إِنَّ ذَلِكَ لَكَمَا ذَكَرْتَ، وَلَكِنْ لاَ يَنْبَغِي لِذِي الرَّأْيِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ المَوْتُوْرَ الحَقُوْدَ نَاسٍ مَا وُتِرَ بِهِ أَوْ مَصْـــرُوْفٌ عَنْهُ. وَذُو الرَّأْيِ يَتَخَوَّفُ المَكْرَ وَالخَدِيْعَةَ وَالحِيَلَ، ويَعْلَمُ أَنَّ كَثِيْراً مِنَ العَدُوِّ لاَ يُسْتَطَاعُ بِالشِّدَّةِ وَالمُكَابَرَةِ حَتَّى يُصَادَ بِالرِّفْقِ وَالمُلاَيَنَةِ، كَمَا يُصْطَادُ الفِيْلُ الوَحْشِيُّ بِالفِيْلِ الدَّاجِنِ[1].

قَالَ المَلِكُ: إِنَّ العَاقِلَ الكَرِيْمَ لاَ يَتْرُكُ إِلْفَهُ، وَلاَ يَقْطَعُ إِخْوَانَهُ، وَلاَ يُضَـــيِّعُ الحِفَاظَ[2] وَإِنْ هُوَ خَافَ عَلَى نَفْسِـــهِ، حَتَّى إِنَّ هَذَا الخُلُقَ يَكُوْنُ في أَوْضَـــعِ الدَّوَابِّ مَنْزِلَةً.

فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّعَّابِيْنَ يَلْعَبُوْنَ بِالكِلاَبِ ثُمَّ يَذْبَحُوْنَهَا وَيَأْكُلُوْنَهَا، وَيَرَى الكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلِفَهُمْ ذَلِكَ فَيَمْنَعُهُ مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ إِلْفَتُهُ إِيَّاهُمْ.

قَالَ فَنْزَةُ: إِنَّ الأَحْقَادَ مَخُوْفَةٌ حَيْثُ كَانَتْ، وَأَخْوَفُهَا وَأَشَـــدُّهَا مَا كَانَ فِي أَنْفُسِ المُلُوْكِ؛ فَإِنَّ المُلُوْكَ يَدِيْنُوْنَ[3] بِالانْتِقَامِ، وَيَرَوْنَ الدَّرَكَ[4] وَالطَّلَبَ بِالوَتْرِ مَكْرُمَةً وَفَخْراً، وَإِنَّ العَاقِلَ لاَ يَغْتَرُّ[5] بِسُكُوْنِ الحِقْدِ إِذَا سَكَنَ. فَإِنَّمَا مَثَلُ الحِقْدِ فِي القَلْبِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُحرِّكاً مَثَلُ الجَمْرِ المَكْنُوْنِ مَا لَمْ يَجِدْ حَطَباً. فَلَيْسَ يَنْفَكُّ الحِقْدُ مُطَّلِعاً إِلَى العِلَلِ كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الحَطَبَ. فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَرَ[6] اسْتِعَارَ النَّارِ فَلاَ يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلاَمٍ، وَلاَ لِيْنٌ، وَلاَ رِفْقٌ، وَلاَ خُضُوْعٌ، وَلاَ تَضَرُّعٌ، وَلاَ مُصَـــانَعَةٌ ، وَلاَ شَـــيءٌ دُوْنَ تَلَفِ الأَنْفُسِ وَذَهَابِ الأَرْوَاحِ؛ مَعَ أَنَّهُ رُبَّ وَاتِرٍ يَطْمَعُ فِي مُرَاجَعَةِ المُوْتُوْرِ لِمَا يَرْجُو أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ وَالدَّفْعِ عَنْهُ، وَلَكِنِّي أَنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَقْدِرَ عَلَى شَيءٍ يَذْهَبُ بِهِ مَا فِي نَفْسِكَ.

وَبَعْدُ فَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ لِي عَلَى مَا تَقُوْلُ مَا كَانَ ذَلِكَ عَنِّي مُغْنِياً أَيْضاً، وَلاَ أَزَالُ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَـــةٍ وَسُـــوْءِ ظَنٍّ مَا اصْـــطَحَبْنَا[7]، فَلَيْسَ الرَّأْيُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِلاَّ الفِرَاقُ وَأَنا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ.

قَالَ المَلِكُ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لاَ يَسْتَطِيْعُ أَحَدٌ لأَحَدٍ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً، وَأَنَّهُ لاَ شَيءَ مِنَ الأَشْيَاءِ صَغِيْراً وَلاَ كَبِيْراً يُصِيْبُ أَحَداً إِلاَّ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مَعْلُوْمٍ، وَكَمَا أَنَّ خَلْقَ مَا يُخْلَقُ وَوِلاَدَةَ مَا يُوْلَدُ وَبَقَاءَ مَا يَبْقَى لَيْسَ لِلْخَلاَئِقِ مِنْهُ شَـــيءٌ، كَذَلِكَ فَنَاءُ مَا يَفْنَى وَهَلاَكُ مَا يَهْلِكُ. وَلَيْسَ لَكَ فِي الَّذِي فَعَلْتَ بِابْنِي ذَنْبٌ وَلاَ لاِبْنِي فِيمَا صَنَعَ بِابْنِكَ ذَنْبٌ، إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدَراً مَقْدُوْراً، وَكِلاَنا لَهُ عِلَّةٌ وَسَـــبَبٌ فَلاَ نُؤَاخَذُ بِمَا أَتَانَا بِهِ القَدَرُ.

---

١ الدَّاجن: الأليف.
٢ الحفاظ: المحافظة والمراعاة.
٣ يدينون: يجعلون دينهم الانتقام.
٤ الدَّرك: اللّحاق.
٥ يغترّ: ينخدع.
٦ استعر: اضطرم.
٧ اصطحبنا: مدَّة اصطحابنا.

قَالَ فَنْزَةُ: إِنَّ القَدَرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ، لَكِنْ لاَ يَمْنَعُ ذَلِكَ الحَازِمَ مِنْ تَوَقِّي المَخَاوِفِ وَالاحْتِراسِ مِنَ المَكَارِهِ، وَإِلاَّ كَانَ المَرِيْضُ غَيْرَ مُصِيْبٍ فِي طَلَبِهِ الطَّبِيْبَ، وَكَانَ أَهْلُ المَصَائِبِ يَتْرُكُوْنَ النَّظَرَ فِيْمَا فِيْهِ الفَرَجُ لَهُمْ. وَلاَ يَنْفَعُ الحَذَرُ وَالاحْتِراسُ مَعَ القَضَاءِ، لَكِنَّ العَاقِلَ يَجْمَعُ مَعَ التَّصْدِيْقِ بِالقَدَرِ الأَخْذَ بِالحَزْمِ وَالقُوَّةِ لَعَلَّ مَا يَسْتَسْلِمْ إِلَيْهِ لاَ يَكُوْنُ مَقْدُوْراً عَلَيْهِ، وَأَنا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ مَا فِي نَفْسِكَ. وَالأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيْرٍ، لأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ابْنِي وَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ ابْنِكَ، وَأَنْتَ تُرِيْدُ أَنْ تَشْتَفِي بِقَتْلِي وَتَخْتِلَنِي[1] عَنْ نَفْسِي، وَالنَّفْسُ تَأْبَى المَوْتَ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: الفَاقَةُ[2] بَلاَءٌ، وَالحُزْنُ بَلاَءٌ، وَقُرْبُ العَدْوِّ بَلاَءٌ، وَفِرَاقُ الأَحِبَّةِ بَلاَءٌ، وَالسَّقَمُ بَلاَءٌ، وَالهَرَمُ[3] بَلاَءٌ، وَرَأْسُ البَلاَيَا كُلِّهَا المَوْتُ. وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي نَفْسِ المُوْجَعِ
الحَزِيْنِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ مَا بِهِ. فَأَنَا مِمَّا فِي نَفْسِي عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ لِلْمَثَلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ ذَلِكَ، وَلاَ خَيْرَ لِي فِي صُحبَتِكَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيْعِي وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيْعَ ابْنِكَ بِابْنِي إِلاَّ أَحْدَثَ ذَلِكَ لِقُلُوْبِنَا تَغْيِيْراً.

قَالَ المَلِكُ: لاَ خَيْرَ فِي مَنْ لاَ يَسْتَطِيْعُ الإِعْرَاضَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَلاَ يَنْسَاهُ وَيُهْمِلُهُ، بِحَيْثُ لاَ يَذْكُرُ مِنْهُ شَيْئاً وَلاَ يَكُوْنُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعٌ.

قَالَ فَنْزَةُ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي بَاطِنِ قَدَمِهِ قَرْحَةٌ[4] إِنْ هُوَ حَرَصَ عَلَى المَشْيِ لاَ بُدَّ أَنْ تُنْكَأَ[5] قَرْحَتُهُ، وَالرَّجُلَ الأَرْمَدَ العَيْنِ إِذَا اسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيْحَ تَعَرَّضَ لأَنْ تَزْدَادَ رَمَداً، وَكَذَلِكَ الوَاتِرُ إِذَا دَنَا مِنَ المَوْتُوْرِ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلاَكِ. وَلاَ يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا إِلاَّ تَوَقِّي المهَالِكِ وَالمتَالِفِ، وَتَقْدِيْرُ الأُمُوْرِ وَقِلَّةُ الاتِّكَالِ عَلَى الحَوْلِ وَالقُوَّةِ، وَقِلَّةُ الاغْتِرَارِ بِمَنْ لاَ يَأْمَنُ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّكَلَ عَلَى قُوَّتِهِ فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيْقَ المَخُوْفَ فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ[6] نَفْسِهِ. وَمَنْ لاَ يُقَدِّرُ لِطَاقَتِهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَحَمَّلَ نَفْسَهُ مَا لاَ تُطِيْقُ وَلاَ تَحْمِلُ فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ. وَمَنْ لَمْ يُقَدِّرْ لُقْمَتَهُ وَعَظَّمَهَا فَوْقَ مَا يَسَعُ فُوْهُ[7] فَرُبَّمَا غَصَّ بِهَا فَمَاتَ. وَمَنْ اغْتَرَّ بِكَلاَمِ عَدُوِّهِ وَانْخَدَعَ لَهُ وَضَيَّعَ الحَزْمَ فَهُوَ أَعْدَى[8] لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ. وَلَيْسَ لأَحَدٍ النَّظَرُ فِي القَدَرِ الَّذِي لاَ يَدْرِي مَا يَأْتِيْهِ مِنْهُ وَلاَ مَا يُصْرَفُ عَنْهُ. وَلَكِنْ عَلَيْهِ العَمَلُ بِالحَزْمِ، وَالأَخْذُ بِالقُوَّةِ، وَمُحاسَبَةُ نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ.

---

١ تختلني: تخدعني.
٢ الفاقة: الفقر والحاجة.
٣ الهرم: الشَّيخوخة.
٤ قرحة: جراحة متقادمة.
٥ تنكأ: تقشر.
٦ حتف: هلاك.
٧ فوه: فمه.
٨ أعدى: أشدّ عداوة.

وَالعَاقِلُ لاَ يَثِقُ بِأَحَدٍ مَا اسْــتَطَاعَ، وَلاَ يُقِيْمُ عَلَى خَوْفٍ يَجِدُ عَنْهُ مَذْهَباً[١]. وَأَنا كَثِيْرُ المَذَاهِبِ وَأَرْجُو أَلاَّ أَذْهَبَ وَجْهاً إِلاَّ أَصَــبْتُ فِيْهِ مَا يُغْنِينِي. فَإِنَّ خِلاَلاً[٢] خَمْساً مَنْ تَزَوَّدَهُنَّ كَفَيْنَهُ فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَآنسْنَهُ فِي كُلِّ غُرْبَةٍ، وَقَرَّبْنَ لَهُ البَعِيْدَ، وَأَكْسَــبْنَهُ المَعَاشَ وَالإِخْوَانَ أُوْلاَهُنَّ: كَفُّ الأَذَى، وَالثَّانِيَةُ: حُسْــنُ الأَدَبِ، وَالثَّالِثَةُ: مُجَانَبَةُ الرِّيَبِ[٣] وَالرَّابِعَةُ: كَرَمُ الخُلُقِ، وَالخَامِسَةُ: النُّبْلُ[٤] فِي العَمَلِ، وَإِذَا خَافَ الإِنْسَــانُ عَلَى نَفْسِــهِ شَــيْئاً طَابَتْ نَفْسُــهُ عَنِ المَالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ وَالوَطَنِ، فَإِنَّهُ يَرْجُو الخَلَفَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلاَ يَرْجُو عَنِ النَّفْسِ خَلَفاً؛ وَشَــرُّ المَالِ مَا لاَ إِنْفَاقَ مِنْهُ، وَشَــرُّ الأَزْوَاجِ الَّتِي لا تُؤَاتِي بَعْلَهَا[٥]، وَشَــرُّ الوَلَدِ العَاصِــي العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَشَــرُّ الإِخْوَانِ الخَاذِلُ لأَخِيْهِ عِنْدَ النَّكَبَاتِ وَالشَّــدَائِدِ وَالَّذِي يُحْصِي السَّيِّئَاتِ وَيَتْرُكُ الحَسَنَاتِ، وَشَرُّ المُلُوْكِ الَّذِي يَخَافَهُ البَرِيءُ وَلاَ يُوَاظِبُ عَلَى حِفْظِ أَهْلِ مَملَكَتِهِ، وَشَرُّ البِلاَدِ بِلاَدٌ لاَ خِصْبَ فِيْهَا وَلاَ أَمْنَ.
وَإِنَّهُ لاَ أَمْنَ لِي عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ وَلاَ طُمَأْنِيْنَةَ لِي فِي جِوَارِكَ. ثُمَّ وَدَّعَ المَلِكَ وَطَارَ.
فَهَذَا مَثَلُ ذَوِي الأَوْتَارِ الَّذِيْنَ لاَ يَنْبَغِي لِبَعْضِهِمْ أَنْ يَثِقَ بِبَعْضٍ.

بَابُ الأَسَدِ وَابْنِ آوَى النَّاسِكِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ المَلِكِ الَّذِي يُرَاجِعُ مَنْ أَصَابَتْهُ مِنْهُ عُقُوْبَةٌ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ، أَوْ جَفْوَةٌ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ.
قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: إِنَّ المَلِكَ لَوْ لَمْ يُرَاجِعْ مَنْ أَصَابَتْهُ مِنْهُ جَفْوَةٌ عَنْ ذَنْبٍ، ظُلِمَ أَوْ لَمْ يُظْلَمْ، لأَضَــرَّ ذَلِكَ بِالأُمُوْرِ، وَلَكِنَّ المَلِكَ حَقِيْقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالِ مَنْ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ وَيَخْبُرَ مَا عِنْدَهُ مِنَ المنَافِعِ، فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُوْثَقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمَانَتِهِ فَإِنَّ المَلِكَ حَقِيْقٌ بِالحِرْصِ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ. فَإِنَّ المُلْكَ لاَ يُسْــتَطَاعُ ضَــبْطُهُ إِلاَّ مَعَ ذَوِي الرَّأْيِ وَهُمُ الوُزَرَاءُ وَالأَعْوَانُ. وَلاَ يُنْتَفَعُ بِالوُزَرَاءِ وَالأَعْوَانِ إِلاَّ بِالمَودَّةِ وَالنَّصِيْحَةِ، وَلاَ مَوَدَّةَ وَلاَ نَصِيْحَةَ إِلاَّ لِذَوِي الرَّأْيِ وَالعَفَافِ. وَأَعْمَالُ السُّلْطَانِ كَثِيْرَةٌ، وَالَّذِيْنَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ مِنَ العُمَّالِ وَالأَعْوَانِ كَثِيْرُوْنَ. وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ مَا ذَكَرْتُ مِنَ النَّصِيْحَةِ وَالعَفَافِ قَلِيْلٌ. فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُخْبِرَ وُزَرَاءَهُ وَذَوِي رَأْيِهِ،

١ مذهب: طريق.
٢ الخِلال: الخصال.
٣ الرِّيب: الشُّكوك.
٤ النُّبل: النَّجابة والذَّكاء.
٥ بعلها: زوجها.

وَيَرَى مَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيْرِ وَمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ. فَإِذَا اسْتَقَرَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يَصْلُحُ أَنْ يُفَكِرَّ فِيْهِ وَيُدَبِّرَهُ، وَأَلاَّ يُوَجِّهَ إِلَى الأَعْمَالِ إِلاَّ مَنْ يَثِقُ بِدِيْنِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعِفَّتِهِ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْفَاذُ[1] مَنْ يَثِقُ بِهِ لِلْكَشْفِ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَتَفَقُّدِ أُمُوْرِهِمْ بِالسِّرِّ الخَفِيِّ حَتَّى لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلاَ إِسَاءَةُ مُسِيْءٍ. فَإِنَّ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ تَهَاوَنَ المُحْسِنُ واجتَرَأَ المُسِيءُ، وَفِي عُرْضٍ[2] ذَلِكَ تَهْلَكُ الرَّعِيَّةُ وَيَفْسُدُ المُلْكُ. وَالمثَلُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الأَسَدِ وَابنِ آوَى النَّاسِكِ.

قَالَ المَلِكُ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ آوَى كَانَ يَسْكُنُ فِي بَعْضِ الدِّحَالِ[3]، وكَانَ مُتَزَهِّداً مُتَعَفِّفاً مَعَ بَنَاتِ آوى وَذِئَابٍ وثَعَالَبَ، ولَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ مَا يَصْنَعْنَ وَلاَ يُغِيْرُ كَمَا يُغِرْنَ، وَلاَ يُهَرِيْقُ دَماً، وَلاَ يَأْكُلُ لَحْماً، وَلاَ يَظْلِمُ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فَخَاصَمَتْهُ تِلْكَ السِّبَاعُ وَقُلْنَ: نَحْنُ لاَ نَرَى سِيْرَتَكَ وَلاَ رَأْيَكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزَهُّدِكَ مَعَ أَنَّ تَزَهُّدَكَ لاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً، وَأَنْتَ لاَ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَكُوْنَ إِلاَّ كَأَحَدِنَا تَسْعَى مَعَنَا وَتَفْعَلُ فِعْلَنَا، وَأَيُّ شَيءٍ يُشْبِهُ كَفَّكَ عَنِ الدِّمَاءِ، وَعَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ؟

قَالَ ابنُ آوَى: إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكُنَّ لاَ تُؤَثِّمُنِي إِذَا لَمْ أُؤَثِّمْ نَفْسِي، لأَنَّ الآثَامَ لَيْسَتْ مِنْ قِبَلِ الأَمَاكِنِ وَالأَصْحَابِ، وَلَكِنَّهَا مِنْ قِبَلِ القُلُوْبِ وَالأَعْمَالِ. وَلَوْ كَانَ صَاحِبُ المَكَانِ الصَّالِحِ يَكُوْنُ عَمَلُهُ فِيْهِ صَالِحاً، وصَاحِبُ المَكَانِ السَّيِّءِ يَكُوْنُ عَمَلُهُ فِيْهِ سَيِّئاً، كَانَ حِيْنَئِذٍ مَنْ قَتَلَ النَّاسِكَ فِي مِحْرَابِهِ لَمْ يَأْثَمْ، وَمَنِ اسْتَحْيَاهُ فِي مَعْرَكَةِ القِتَالِ أَثِمَ. وَإِنِّي إِنَّمَا صَحِبْتُكُنَّ بِنَفْسِي وَلَمْ أَصْحَبْكُنَّ بِقَلْبِي وَأَعْمَالِي، لأَنِّي أَعْرِفُ ثَمَرَةَ الأَعْمَالِ فَلَزِمْتُ حَالِي. وَإِنَّمَا صَحِبْتُكُنَّ مَوَدَّةً مِنِّي لَكُنَّ، فَإِنْ كَانَتْ صُحْبَتِي تَضُرُّكُنَّ فَالأَمَاكِنُ وَالمَوَاضِعُ كَثِيْرَةٌ.

وَثَبَتَ ابْنُ آوى عَلَى حَالِهِ تِلْكَ وَاشْتَهَرَ بِالنُّسْكِ والتَّزَهُّدِ حَتَّى بَلَغَ ذَلِكَ أَسَداً كَانَ مَلِكَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، فَرَغِبَ فِيْهِ لِمَا بَلَغَهُ عَنْهُ مِنَ العَفَافِ وَالنَّزَاهَةِ وَالزُّهْدِ وَالأَمَانَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَسْتَدْعِيْهِ. فَلَمَّا حَضَرَ كَلَّمَهُ وآنسَهُ فَوَجَدَهُ فِي جَمِيْعِ أُمُورِهِ عَلَى غَرَضِهِ. ثُمَّ دَعَاهُ بَعْدَ أَيَّامٍ إِلَى صُحْبَتِهِ وَقَالَ لَهُ: تَعْلَمُ أَنَّ عُمَّالِي كَثِيْرٌ وَأَعْوَانِي جَمٌّ غَفِيْرٌ وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ إِلَى الأَعْوَانِ مُحْتَاجٌ، وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ عَفَافٌ وَأَدَبٌ وَعَقْلٌ وَدِيْنٌ، وَقَدِ اخْتَبَرْتُكَ فَوَجَدْتُكَ كَذَلِكَ فَازْدَدْتُ فِيْكَ رَغْبَةً، وَأَنا مُوَلِّيْكَ مِنْ عَمَلِي جَسِيْماً، وَرَافِعُكَ إِلَى مَنْزِلَةٍ شَرِيْفَةٍ، وَجَاعِلُكَ مِنْ خَاصَّتِي.

---

١ إنفاذ: إرسال.

٢ عُرْض: جانب.

٣ الدِّحال: جمع دَحْل وهو ثقب فَمُهُ ضيِّق وأسفله متَّسع.

قَالَ ابنُ آوى: إنَّ المُلُوْكَ أَحِقَّاءُ[1] بِاخْتِيَارِ الأَعْوَانِ فِيمَا يَهْتَمُّوْنَ بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأُمُوْرِهِمْ مِمَّنْ لَهُمُ الخِبْرَةُ بِذَلِكَ، وَهُمْ أَحْرَى[2] أَلاَّ يُكْرِهُوا عَلَى ذَلِكَ أَحَداً، فَإِنَّ المُكْرَهَ لاَ يَسْتَطِيْعُ المُبَالَغَةَ فِي العَمَلِ. وَإِنِّي لِعَمَلِ السُّلْطَانِ كَارِهٌ وَلَيْسَ لِي بِهِ تَجْرِبَةٌ وَلاَ بِالسُّلطَانِ رِفْقٌ[3]. وَأَنْتَ مَلِكُ السِّبَاعِ وَعِنْدَكَ مِنْ أَجْنَاسِ الوُحُوْشِ عَدَدٌ كَثِيْرٌ فِيْهِمْ أَهْلُ نُبْلٍ وَقُوَّةٍ وَلَهُمْ عَلَى العَمَلِ حِرْصٌ وَعِنْدَهُمْ بِهِ وَبِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ، فَإِنِ اسْتَعْمَلْتَهُمْ أَغْنَوْا[4] عَنْكَ واغْتَبطُوا[5] لأَنْفُسِهِمْ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.
قَالَ الأَسَدُ: دَعْ عَنْكَ هَذَا فَإِنِّي غَيْرُ مُعْفِيْكَ مِنَ العَمَلِ. قَالَ ابْنُ آوَى: إِنَّمَا يُقْدِمُ عَلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ غَيْرَ هَائِبٍ رَجُلاَنِ لَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُما: إِمَّا مُصَانِعٌ[6] يَنَالُ حَاجَتَهُ بِفُجُوْرِهِ وَيَسْلَمُ بِمُصَانَعَتِهِ، وَإِمَّا هَيِّنٌ[7] لاَ يَحْسُدُهُ أَحَدٌ. وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالصِّدْقِ وَالعَفَافِ غَيْرَ خَالِطٍ ذَلِكَ بِمُصَانَعَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذَلِكَ، لأَنَّهُ يَجتَمِعُ عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ وَصَدِيْقُهُ بِالعَدَاوَةِ وَالحَسَدِ. أَمَّا الصَّدِيْقُ فَيُنَافِسُهُ فِي مَنْزِلَتِهِ، وَيَبْغِي علَيْهِ فِيْهَا، وَيُعَادِيْهِ لأَجْلِهَا، وَيَشِي عَلَيْهِ كَذِباً. فَإِذَا لَقِيَتِ الوِشَايَةُ أُذُناً وَاعِيةً[8] مِنَ المَلِكِ كَانَ فِي ذَلِكَ هَلاَكُهُ. وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطَانِ فَيَضْطَغِنُ[9] عَلَيْهِ لِنَصِيْحَتِهِ لِسُلْطَانِهِ وَإِغْنَائِهِ عَنْهُ، فَيَعْمَلُ عَلَى هَلاَكِهِ وَيَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُوْنِ، فَإِذَا اجتَمَعَ عَلَيْهِ هَذَانِ الصِّنْفَانِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلاَكِ.
قَالَ الأَسَدُ: لاَ يَكُوْنَنَّ بَغْيُ أَصْحَابِي عَلَيْكَ وَحَسَدُهُمْ إِيَّاكَ وَعَدَاوَةُ أَعْدَائِي لَكَ مِمَّا يَعْرِضُ فِي نَفْسِكَ، فَأَنْتَ مَعِي وَأَنا أَكْفِيْكَ ذَلِكَ وَأَبْلُغُ بِكَ مِنْ دَرَجَاتِ الكَرَامَةِ وَالإِحْسَانِ عَلَى قَدَرِ هِمَّتِكَ. قَالَ ابنُ آوَى: إِنْ كَانَ المَلِكُ يُرِيْدُ الإِحْسَانَ إِليَّ فَلْيَدَعْنِي فِي هَذِهِ البَرِّيَّةِ أَعِيْشُ آمِناً، قَلِيْلَ الهَمِّ، رَاضِياً بِعَيْشِي مِنَ المَاءِ وَالعُشْبِ، فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَ السُّلْطَانِ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الأَذَى وَالخَوْفِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لاَ يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِ في طُوْلِ عُمْرِهِ، وَأَنَّهُ يَتَّصِلُ إِلَيْهِ النَّفْعُ سَاعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ هُوَ فِي الخَوْفِ سَرْمَداً[10]. وَإِنَّ قَلِيْلاً مِنَ العَيْشِ فِي أَمْنٍ وَطُمَأْنِيْنَةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيْرٍ مِنَ العَيْشِ فِي خَوْفٍ وَنَصَبٍ[11].

---

١ أحقَّاء: جديرون.
٢ أحرى: أولى.
٣ رفق: حسن تصرُّف.
٤ أغنوا عنك: نفعوك.
٥ اغتبطوا: فرحوا.
٦ مصانع: مداهن، مدار، مدلّس.
٧ هيِّن: ذليل.
٨ أذن واعية: قابلة لما تسمع.
٩ يضطغن: يحقد.
١٠ سرمدا: أبداً.
١١ النَّصب: التَّعب.

قَالَ الأَسَدُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ فَلاَ تَخَفْ شَيْئاً مِمَّا أَرَاكَ تَخَافُ مِنْهُ، وَلَسْتُ أَجِدُ بُدّاً مِنَ الاِسْتِعَانَةِ بِكَ فِي أَمْرِي.
قَالَ ابْنُ آوَى: أَمَّا إِذَا أَبَى المَلِكُ إِلاَّ ذَلِكَ فَلْيَجْعَلِ المَلِكُ لِي عَهْداً إِنْ بَغَى عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِمَّنْ هُوَ فَوْقِي مَخَافَةً عَلَى مَنْزِلَتِهِ، أَوْ مِمَّنْ هُوَ دُوْنِي لِيُنَازِعَنِي عَلَى مَنْزِلَتِي، فَذَكَرَ عِنْدَ المَلِكِ مِنْهُمْ ذَاكِرٌ بِلِسَانِهِ، أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ مَا يُرِيْدُ بِهِ تَحْرِيْشَ[1] المَلِكِ عَلَيَّ، أَلاَّ يَعْجَلَ فِي أَمْرِي، وَأَنْ يَتَثَبَّتَ فِيمَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ، وَيُذْكَرُ عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَفْحَصُ عَنْهُ ثُمَّ لِيَصْنَعَ مَا بَدَا لَهُ. فَإِذَا وَثِقْتُ مِنْهُ بِذَلِكَ أَعَنْتُهُ بِنَفْسِي فِيمَا يَجِبُ إِطَاعَةً لَهُ وَعَمِلْتُ لَهُ فِيمَا أَوْلاَنِي بِنَصِيْحَةٍ وَاجْتِهَادٍ، وَحَرَصْتُ عَلَى أَلاَّ أَجْعَلَ لَهُ عَلَى نَفْسِي سَبِيْلاً.
قَالَ الأَسَدُ: لَكَ عَلَيَّ ذَلِكَ وَزِيَادَةٌ. ثُمَّ وَلاَّهُ خَزَائِنَهُ وَاخْتَصَّ بِهِ دُوْنَ أَصْحَابِهِ وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ.
فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابُ الأَسَدِ ذَلِكَ غَاظَهُمْ وَسَاءَهُمْ، فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُحرِّشُوا عَلَيْهِ الأَسَدَ.
وَكَانَ الأَسَدُ قَدِ اسْتَطَابَ لَحْماً فَعَزَلَ مِنْهُ مِقْدَاراً وَأَمَرَ ابْنَ آوَى بِالاِحْتِفَاظِ بِهِ، وَأَنْ يَرْفَعَهُ فِي أَحْصَنِ مَوْضِعِ طَعَامِهِ وَأَحْرَزِهِ[2] لِيُعَادَ عَلَيْهِ. فَأَخَذُوْهُ مِنْ مَوْضِعِهِ وَحَمَلُوْهُ إِلَى بَيْتِ ابْنُ آوَى، فَخَبَّؤُوْهُ فِيْهِ وَلاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ. ثُمَّ حَضَرُوا يُكَذِّبُوْنَهُ إِذَا جَرَتْ فِي ذَلِكَ حَالٌ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ دَعَا الأَسَدُ بِغَدَائِهِ فَفَقَدَ ذَلِكَ اللَّحْمَ والتمَسَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ. وَابْنُ آوَى لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صُنِعَ فِي حَقِّهِ مِنَ المَكِيْدَةِ وَهُوَ غَائِبٌ فِي خِدْمَةِ الأَسَدِ وَأَشْغَالِهِ. فَحَضَرَ الَّذِيْنَ عَمِلُوا المكِيْدَةَ وَقَعَدُوا فِي المَجْلِسِ. ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ وَشَدَّدَ فِيْهِ وَفِي السُّؤَالِ عَنْهُ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ المُخْبِرِ النَّاصِحِ: إِنَّهُ لاَ بُدَّ لَنَا أَنْ نُخْبِرَ المَلِكَ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ وَإِنْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ. وَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ آوَى هُوَ الَّذِي ذَهَبَ بِاللَّحْمِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيأْكُلَهُ دُوْنَ المَلِكِ.
قَالَ الآخَرُ: مَا أَرَاهُ يَفْعَلُ هَذَا. وَلَكِنِ انْظُروا وَافْحَصُوا فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الخَلاَئِقِ شَدِيْدَةٌ.
فَقَالَ الآخَرُ: لَعَمْرِي مَا تَلْبَثُ السَّرائِرُ[3] أَنْ تُعْرَفَ، وَأَظُنُّكُمْ إِنْ فَحَصْتُمْ عَنْ هَذَا وَجَدْتُمُ اللَّحْمَ فِي بَيْتِ ابْنِ آوَى. وَكُلَّ شَيْءٍ يُذْكَرُ مِنْ عُيُوْبِهِ وَخِيَانَتِهِ نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ.
قَالَ الآخَرُ: لَئِنْ وَجَدْنَا هَذَا حَقاً لَمْ تَكُنْ بِالخِيَانَةِ فَقَطْ، وَلَكِنْ مَعَ الخِيَانَةِ كُفْرُ النِّعْمَةِ وَالجَرَاءَةُ عَلَى المَلِكِ.

---

١ تحريش: تهييج، تقليب.
٢ أحرزه: أمنعه.
٣ السَّرائر: الخفايا.

قَالَ الآخَرُ: أَنْتُمْ أَهْلُ الفَضْلِ لاَ أَستَطِيْعُ أَنْ أُكَذِّبَكُمْ، وَلَكِنْ سَيَبِيْنُ هَذَا لَوْ أَرْسَلَ المَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ يُفَتِشُهُ.
قَالَ الآخَرُ: إِنْ كَانَ المَلِكُ مُفَتِشاً مَنْزِلَهُ فَلْيَعْجَلْ، فَإِنَّ عُيُوْنَهُ وَجَواسِيْسَهُ مَبْثُوْثَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ.
وَلَمْ يَزَالُوا فِي هَذَا الكَلاَمِ وَأَشْبَاهِهِ حَتَّى وَقَعَ نَفْسِ الأَسَدِ، فَأَمَرَ بابْنِ آوَى فَحَضَر.
فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ اللَّحْمُ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِالاحْتِفَاظِ بِهِ؟ قَالَ: دَفَعْتُهُ إِلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ لِيُقَرِّبَهُ إِلَى المَلِكِ. فَدَعَا الأَسَدُ بِصَاحِبِ الطَّعَامِ وَكَانَ مِمَّنْ شَايَعَ وَبَايَعَ مَعَ القَوْمِ عَلَى ابْنِ آوَى فَقَالَ: ما دَفَعَ إِلَيَّ شَيْئاً. فَأَرْسَلَ الأَسَدُ أَمِيْناً إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى لِيُفَتِّشَهُ، فَوَجَدَ فِيْهِ ذَلِكَ اللَّحْمَ فَأَتَى بِهِ الأَسَدَ. فَدَنَا مَنَ الأَسَدِ ذِئْبٌ لَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّمُ فِي شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ العُدُوْلِ الَّذِيْنَ لاَ يَتَكَلَّمُوْنَ فِيمَا لاَ يَعْلَمُونَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ. فَقَالَ: بَعْدَ أَنِ اطَّلَعَ المَلِكُ عَلَى خِيَانَةِ ابْنِ آوَى لاَ يَعْفُونَّ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْهُ لَمْ يَطَّلِعِ المَلِكُ بَعْدَهَا عَلَى خِيَانَةِ خَائِنٍ وَلاَ ذَنْبِ مُذْنِبٍ.
فَأَمَرَ الأَسَدُ بَابْنِ آوَى أَنْ يُحْرَجَ وَإِنْ لَمْ يُحْتَفَظْ بِهِ.
فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَاءِ المَلِكِ: إِنِّي لأَعْجَبُ مِنْ رَأْيِ المَلِكِ وَمَعْرَفَتِهِ بِالأُمُوْرِ كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُ هَذَا وَلَمْ يَعْرِفْ خِبَّهُ وَمُخَادَعَتَهُ. وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنِّي أَرَاهُ سَيَصْفَحُ عَنْهُ بَعْدَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ.
فَأَرْسَلَ الأَسَدُ بَعْضَهُمْ رَسُوْلاً إِلَى ابْنِ آوَى يَلْتَمِسُ مِنْهُ العُذْرَ عَنْ أَمْرِهِ.
فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُوْلُ بِرِسَالَةٍ كَاذِبَةٍ اخْتَلَقَهَا. فَغَضِبَ الأَسَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِابْنِ آوَى أَنْ يُقْتَلَ.
فَعَلِمَتْ أُمُّ الأَسَدِ أَنَّهُ قَدْ عَجِلَ فِي أَمْرِهِ فَأَرْسَلَتْ إِلَى الَّذِيْنَ أُمِرُوا بِقَتْلِهِ أَنْ يُرْجِئُوْهُ. وَدَخَلَتْ عَلَى ابْنِهَا فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ بِأَيِّ ذَنْبٍ أَمَرْتَ بِقَتْلِ ابْنِ آوَى؟ فَأَخْبَرَهَا بِالأَمْرِ.
فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ عَجِلْتَ وَإِنَّمَا يَسْلَمُ العَاقِلُ مِنَ النَّدامَةِ بِتَرْكِ العَجَلَةِ بِالتَّثَبُّتِ؛ وَالعَجَلَةُ لاَ يَزَالُ صَاحِبُهَا يَجتَنِي ثَمَرَةَ النَّدَامَةِ بِسَبَبِ ضُعْفِ الرَّأْيِ. وَمَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي أُمُوْرِهِ نَظَرَ مُفَكِّرٍ كَانَ نَظَرُهُ كَنَظَرِ الَّذِي يَكُوْنُ بِعَيْنَيْهِ سَبَلٌ فَيُخَيَّلُ لَهُ أَنَّ أَمَامَهُما كَهَيْئَةِ شَعْرَةٍ، وَكَانَ كَالرَّجُلِ الجَاهِلِ الَّذِي يَسْمَعُ صَوْتَ البَعُوْضَةِ فِي اللَّيْلِ فَيَظُنُّهَا لِشِدَّةِ صَوْتِهَا شَيْئاً، فَإِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِشَيءٍ.
وَلَيْس أَحَدٌ أَحْوَجَ إِلَى التُّؤَدَةِ وَالتَّثَبُّتِ مِنَ المُلُوْكِ. فَإِنَّ المَرْأَةَ بِزَوْجِهَا، وَالوَلَدَ بِوَالِدَيْهِ، وَالمُتعلِّمَ بِالمُعَلِّمِ، وَالجُنْدَ بِالقَائِدِ، وَالنَّاسِكَ بِالدِّيْنِ، وَالعَامَّةَ بِالمُلُوْكِ، وَالمُلُوْكَ بِالتَّقْوَى، والتَّقْوَى بِالعَقْلِ، وَالعَقْلَ بِالتَّثَبُّتِ وَالأَنَاةِ. وَرَأْسُ الحَزْمِ لِلْمَلِكِ مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهِ وَإِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، واتِّهَامُهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فإِنَّهُ لَوْ وَجَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى هَلاَكِ بَعْضٍ سَبِيْلاً لَفَعَلَ،

وَقَدْ جرَّبْتَ ابْنَ آوَى وَبَلَوْتَ رَأْيَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمُرُوْءَتَهُ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَادِحاً لَهُ رَاضِياً عَنْهُ. وَقَدْ اتَّهَمْتَهُ بِشَيءٍ لاَ صِحَّةَ لَهُ وَلاَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ عَمَلُ أَهْلِ الكَذِبِ وَالحَسَدِ وَالخِيَانَةِ مِنْ وُزَرَائِكَ، لأَنَّ المَلِكَ إِذَا تَهَاوَنَ فِي أَمْرِ وُزَرَائِهِ وَتَغَافَلَ عَنْهُمْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مَا تُكْرَهُ عَاقِبَتُهُ. وَالمَلِكُ أَخْبَرُ مِنْ طَرِيْقِ العَقْلِ أَنَّ الأَشْرَارَ يَحْسُدُوْنَ الأَخْيَارَ وَيَرْقُبُوْنَهُمْ لِيُوْقِعُوا بِهِمْ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُخَوِّنَهُ بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِيَّاهُ وَائتِمَانِهِ لَهُ. وَمُنْذُ مَجِيْئِهِ إِلَى الآنَ لَمْ يَطَّلِعْ لَهُ عَلَى خِيَانَةٍ إِلاَّ عَلَى العِفَّةِ وَالنَّصِيْحَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ رَأْيِ المَلِكِ أَنْ يُعَجِّلَ عَلَيْهِ لأَجْلِ طَابِقِ لَحْمٍ[1]. وَأَنْتَ أَيُّهَا المَلِكُ حَقِيْقٌ أَنْ تَنْظُرَ فِي حَالِ ابْنِ آوَى. وَلْتَعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَعَرَّضُ لِلَّحْمِ وَلاَ يَأْكُلُهُ، فَكَيْفَ لِلَحْمٍ اسْتَوْدَعْتَهُ إِيَّاهُ؟ وَلَعَلَّ المَلِكَ إِنْ فَحَصَ عَنْ ذَلِكَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ ابْنَ آوَى لَهُ خُصَمَاءُ[2] هُمُ الَّذِيْنَ ائْتَمَرُوا بِهَذَا الأَمْرِ، وَهُمُ الَّذِيْنَ ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ فَوَضَعُوْهُ فِيْهِ. فَإِنَّ الحِدَأَةَ إِذَا كَانَ فِي رِجْلِهَا قِطْعَةُ لَحْمٍ اجتَمَعَ عَلَيْهَا سَائِرُ الطَّيْرِ، وَالكَلْبَ إِذَا كَانَ مَعْهُ عَظْمٌ اجتَمَعَتْ عَلَيْهِ الكِلاَبُ. وَابْنُ آوَى مُنْذُ كَانَ إِلَى اليَوْمِ نَافِعٌ وَكَانَ مُحْتَمِلاً لِكُلِّ ضَرَرٍ فِي جَنْبِ مَنْفَعَةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ، وَلِكُلِّ عَنَاءٍ يَكُوْنُ لَكَ فِيْهِ رَاحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْوِي دُوْنَكَ سِرّاً.

فَبَيْنَمَا أُمُّ الأَسَدِ تَقُصُّ عَلَيْهِ هَذِهِ المَقَالَةِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ ثِقَاتِهِ فَأَخْبَرَهُ بِبَرَاءَةِ ابْنِ آوَى. فَقَالَتْ أُمُّ الأَسَدِ: إِنَّ المَلِكَ بَعْدَ أَنِ اطَّلَعَ عَلَى بَرَاءَةِ ابْنِ آوَى حَقِيْقٌ أَلاَّ يَتَسَاهَلَ مَعَ مَنْ سَعَى بِهِ[3] لِئَلاَّ يَتَجَرَّؤُوا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لِكَيْ لاَ يَعُوْدُوا إِلَى مِثْلِهِ؛ وَلاَ تَحْتَقِرْ مَا فَعَلُوا مَعَكَ فَإِنَّ العُشْبَ وَإِنْ كَانَ لاَ قُوَّةَ لَهُ يُصْنَعُ مِنْهُ الحَبْلُ الَّذِي يُوثَقُ بِهِ الفِيْلُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُرَاجِعَ فِي أَمْرِ الكَفُوْرِ لِلْحُسْنَى، وَالجَرِيْءِ عَلَى الغَدْرِ، وَالزَّاهِدِ فِي الخَيْرِ، وَالَّذِي لاَ يُوقِنُ بِالآخِرَةِ وَيَنْبَغِي أَنَّهُ يُجْزَى بِعَمَلِهِ. وَقَدْ عَرَفْتَ سُرْعَةَ الغَضَبِ وَفَرْطَ الهَفْوَةِ، وَمَنْ سَخِطَ بِاليَسِيْرِ لَمْ يَبْلُغْ رِضَاهُ بِالكَثِيْرِ. وَالأَوْلَى لَكَ أَنْ تُرَاجِعَ ابْنَ آوَى وَتَعْطِفُ عَلَيْهِ وَلاَ يُوْئِسَنَّكَ مِنْ مُنَاصَحَتِهِ مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ الإِسَاءَةِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لاَ يَنْبَغِي تَرْكُهُ عَلَى حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلاَحِ وَالكَرَمِ وَحُسْنِ العَهْدِ وَالشُّكْرِ وَالوَفَاءِ وَالمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ وَالسَّلاَمَةِ مِنَ الحَسَدِ وَالبُعْدِ مِنَ الأَذَى وَالاحْتِمَالِ للإِخْوَانِ وَالأَصْحَابِ، وَإِنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمُ المَؤُوْنَةُ. وَأَمَّا مَنْ يَنْبَغِي تَرْكُهُ فَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالشَّرَاسَةِ وَلُؤْمِ العَهْدِ وَقِلَّةِ الشُّكْرِ وَالوَفَاءِ وَالبُعْدِ عَنِ الرَّحْمَةِ وَالوَرَعِ، وَاتَّصَفَ بِالجُحُوْدِ لِثَوَابِ الآخِرَةِ وَعِقَابِهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ ابْنَ آوَى وَجَرَّبْتَهُ وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمُوَاصَلَتِهِ.

---

١ طابق لحم: وعاء لحم.
٢ خصماء: أعداء.
٣ سعى به: وشى به ونمَّ عليه.

فَدَعَا الأَسَـدُ بِابْنِ آوَى وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُ وَوَعَدَهُ خَيْراً وَقَالَ: إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ وَرَادُّكَ إِلَى مَنْزِلَتِكَ. فَقَالَ ابْنُ آوَى: أَوَ لَيْسَ هَذَا الَّذِي خِفْتُ مِنْهُ فِي أَوَّلِ اتِّصَالِي، وَالَّذِي لأَجْلِهِ امْتَنَعْتُ مِمَّا عَرَضْتَهُ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِكَ وَتَوَلِّي خِدْمَتِكَ؛ وَإِنَّ شَرَّ الأَخِلاَّءِ[1] مَنِ التَمَسَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضَرِّ أَخِيْهِ، وَمَنْ كَانَ غَيْرَ نَاظِرٍ لَهُ كَنَظَرِهِ لِنَفْسِـهِ، أَوْ كَانَ يُرِيْدُ أَنْ يُرْضِـيَهُ بِغَيْرِ الحَقِّ لأَجْلِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ وَكَثِيْراً مَا يَقَعُ ذَلِكَ بَيْنَ الأَخِلاَّءِ.

وَقَدْ كَانَ مِنَ المَلِكِ إِلَيَّ مَا عَلِمَ، وَلاَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَطْمَئِنَّ إِلَى مَنْ عَاقَبَهُ أَشَـدَّ العُقُوْبَةِ مِنْ نَزْعِهِ عَنْ عَمَلِهِ، أَوْ أَخْذِ مَالِهِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، أَوْ مَنْ كَانَ لِلْكَرَامَةِ أَهْلاً فَلَمْ يَعْرِفْ لَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يُعْطِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ، أَوْ كَانَ مَظْلُوْماً وَلَمْ يَنْظُرْ فِي أَمْرِهِ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الطَّمَعِ فَلَمْ يُصِـبْ مَا يَرْجُوْهُ، أَوْ كَانَ بَيْنَ قَوْمٍ قَدِ اجْتَرَمُوا جَرِيْمَةً هُوَ مِنْهَا بَرِيْءٌ، فَأُخِذَ هُوَ بِهَا مِنْ بَيْنِهِمْ وَخُلِّيَ سَبِيْلُهُمْ.

فَأَمْثَالُ هؤُلاَءِ لاَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَصْـحَبَهُمْ. وَأَنَا أَيُّهَا الملِكُ أَحَدُ هؤُلاءِ، فَلَعَلَّ المَلِكَ يَقُوْلُ: إِنَّ ابْنَ آوَى لاَ يَنْسَى الَّذِي لَقِيَهُ مِنَ الهَوَانِ فَيَقْتَصُّ مِنِّي، وَأَنَا يَعْلَمُ اللهُ أَنْ لَيْسَ فِي قَلْبِي شَـيْءٌ مِنْ قِبَلِ هَذَا، وَإِنَّمَا خَوْفِي أَنْ يَفْعَلُوا بِي ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلاَ يَغْلُظَنَّ[2] عَلَى نَفْسِ الملِكِ مَا أُخْبِرُهُ أَنِّي بِهِ غَيْرُ وَاثِقٍ، وَأَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِي أنْ أَصْحَبَهُ.

وَإِنَّ المَلِكَ لاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَصْـحَبَ مَنْ كَانَ مِثْلِي وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْفُضَـهُ أَصْلاً.

فَإِنَّ ذَا السُّلْطَانِ إِذَا عُزِلَ كَانَ مُسْتَحِقّاً لِلْكَرَامَةِ فِي حَالَةِ إِبْعَادِهِ وَالإِقْصَاءِ لَهُ. فَلَمْ يَلْتَفِتِ الأَسَـدُ إِلَى كَلاَمِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ طِبَاعَكَ وَأَخْلاَقَكَ، وَجَرَّبْتُ أَمَانَتَكَ وَوَفاءَكَ، وَعَرَفْتُ كَذِبَ مَنْ مَحَلَ بِكَ[3]، وَإِنِّي مُنْزِلُكَ فِي نَفْسِـي مَنْزِلَةَ الأَخْيَارِ الكُرَمَاءِ، وَالكَرِيْمُ تُنْسِيْهِ الخَلَّةُ الوَاحِدَةُ مِنَ الإِحْسَانِ الخِلاَلَ الكَثِيْرَةَ مِنَ الإِسَاءَةِ، وَقَدْ عُدْنَا إِلَى الثِّقَةِ بِكَ فَعُدْ إِلَى الثِّقَةِ بِنَا، فَإِنَّهُ كَائِنٌ لَنَا وَلَكَ بِذَلِكَ غِبْطَةٌ وَسرُوْرٌ.

فَعَادَ ابْنُ آوَى إِلَى وِلاَيَةِ مَا كَانَ يَلِي، وَضَـاعَفَ لَهُ الأَسَـدُ الكَرَامَةَ، وَلَمْ تَزِدْهُ الأَيَّامُ إِلاَّ تَقَرُّباً مِنْهُ.

---

١ الأخلاَّء: الأصدقاء.
٢ يغلظنَّ: لا يصعبنَّ.
٣ محل بك: أوقع بك.

بَابُ اللَّبُوَةِ وَالإِسْوَارِ وَالشَّعْهَرِ

قالَ دَبِ شَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَل، فَاضْرِبْ لِي مَثَلاً فِي شَأْنِ مَنْ يَدَعُ ضَرَّ غَيْرِهِ إِذَا قَدَرَ عَلَيْهِ بِمَا يُصِيْبُهُ مِنَ الضَّرَرِ، وَيَكُوْنُ لَهُ مِمَّا يَنْزِلُ بِهِ وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ عَنِ ارْتِكَابِ الظُّلْمِ وَالعَدَاوَةِ لِغَيْرِهِ.
قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: إِنَّهُ لا يُقْدِمُ عَلَى طَلَبِ مَا يَضُرُّ بِالنَّاسِ وَمَا يَسُوْؤُهُمْ إِلاَّ أَهْلُ الجَهَالَةِ وَالسَّفَهِ، وَسُوْءِ النَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ مِنْ أُمُوْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَقِلَّةِ العِلْمِ بِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنْ حُلُوْلِ النِّقْمَةِ، وَبِمَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَبِعَةِ[1] مَا اكْتَسَبُوا مِمَّا لاَ تُحِيْطُ بِهِ العُقُوْلُ، وَإِنْ سَلِمَ بَعْضُهُمْ مِنْ ضَرَرِ بَعْضٍ بِاتِّفَاقٍ عَرَضَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَبَالُ مَا صَنَعَ، لَمْ يَسْلَمَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُفَكِّرْ فِي العَواقِبِ لَمْ يَأْمَنِ المَصَائِبَ، وَكَانَ حَقِيْقاً أَلاَّ يَسْلَمَ مِنَ المَعَاطِبِ. وَرُبَّما اتَّعَظَ الجَاهِلُ وَاعْتَبَر بِمَا يُصِيْبُهُ مِنَ المَضَرَّةِ مِنَ الغَيْرِ فارْتَدَعَ عَنْ أَنْ يَغْشَى أَحَداً بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالعُدْوَانِ، وَحَصَلَ لَهُ نَفْعُ مَا كَفَّ عَنْهُ مِنْ ضَرَرِهِ لِغَيْرِهِ فِي العَاقِبَةِ.
وَمَثَلُ ذَلِكَ حَدِيْثُ اللَّبُوَةِ وَالإِسْوَارِ وَالشَّعْهَرِ.
قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
قَالَ الفَيْلَسُوفُ: زَعَمُوا أَنَّ لَبُوَةً كَانَتْ فِي غَيْضَةٍ وَلَهَا شِبْلاَنِ وَإِنَّهَا خَرَجَتْ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ وَخَلَّفَتْهُما فِي كَهْفِهِمَا. فَمَرَّ بِهِ إِسْوَارٌ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمَا وَرَمَاهُما فَقَتَلَهُما، وَسَلَخَ جِلْدَيْهِمَا فَاحْتَقَبَهُما وانْصَرَفَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ. ثُمَّ إِنَّها رَجَعَتْ فَلمَّا رَأَتْ مَا حَلَّ بِهِمَا مِنَ الأَمْرِ الفَظِيْعِ، اضْطَرَبَتْ ظَهْراً لِبَطْنٍ وَصَاحَتْ وَضَجَّت. وكَانَ إِلَى جَنْبِها شَعْهَرٌ فَلمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ صِيَاحِهَا قَالَ لَهَا: مَا هَذَا الَّذِي تَصْنعِيْنَ وَمَا نَزَلَ بِكِ أَخْبِرِيْنِي بِهِ! قَالَتِ اللَّبُوَةُ: شِبْلاَيَ مَرَّ بِهِمَا إِسْوَارٌ وَسَلَخَ جِلْدَيْهِمَا فَاحْتَقَبَهُما وَنَبَذَهُما فِي العَرَاءِ. قَالَ لَهَا الشَّعْهَرُ: لاَ تَضِجِّي وَأَنْصِفِي مِنْ نَفْسِكِ، وَاعْلَمِي أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ مُكَافَأَةٍ، فَفَاعِلُ الخَيْرِ يَحْمَدُهُ وَفَاعِلُ الشَّرِّ يَجْنِي ثَمَرَهُ؛ وَإِنَّ هَذَا الإِسْوَارَ لَمْ يَأْتِ إِلَيْكِ شَيْئاً إِلاَّ وَقَدْ كُنْتِ تَفْعَلِيْنَ بِغَيْرِكِ مِثْلَهُ، وَتَأْتِيْنَ مِثْلَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ وَاحِدٍ مِمَّنْ كَانَ يَجِدُ بِحَمِيْمِهِ وَمَنْ يعِزُّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا تَجِدِيْنَ بِشِبْلَيْكِ، فَاصْبِرِي مِنْ غَيْرِكِ عَلَى مَا صَبَرَ غَيْرُكِ عَلَيْهِ مِنْكِ فَإِنَّهُ قَدْ قِيْلَ: كَمَا تَدِيْنُ تُدَانُ. وَلِكُلِّ عَمَلٍ ثَمَرَةٌ مِنَ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وَهُما عَلَى قَدَرِهِ فِي الكَثْرَةِ وَالقِلَّةِ كَالزَّرْعِ إِذَا حَضَرَ الحَصَادُ أَعْطَى عَلَى حَسَبِ بَذْرِهِ.

---

١ تبعة، تبعة الشَّيء: نتيجته.

قَالَتِ اللَّبُؤَةُ: بَيِّنْ لِي مَا تَقُوْلُ وَأَفْصِحْ لِي عَنْ إِشَارَتِهِ.
قَالَ الشَّعْهَرُ: كَمْ أَتَى لَكِ مِنَ العُمْرِ؟
قَالَتِ اللَّبُؤَةُ: كَذَا وَكَذَا سَنَةً.
قَالَ الشَّعْهَرُ: مَا كَانَ قُوتُكِ فِيْهِ؟
قَالَتِ اللَبُؤَةُ: لَحْمُ الوَحْشِ.
قَالَ الشَّعْهَرُ: وَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكِ إِيَّاهُ؟
قَالَتِ اللَّبُؤَةُ: كُنْتُ أَصِيْدُ الوَحْشَ وَآكُلُهُ.
قَالَ الشَّعْهَرُ: أَرَأَيْتِ الوُحُوْشَ الَّتِي كُنْتِ تَأْكُلِيْنَ، أَمَا كَانَ لَهَا آباءٌ وَأُمَّاتٌ.
قَالَتْ: بَلَى.
قَالَ الشَّعْهَرُ: فَمَا بَالِي لاَ أَرَى وَلاَ أَسْمَعُ لأُوْلَئِكَ الآبَاءِ وَالأُمَّاتِ مِنَ الجَزَعِ[1] مَا أَرَى وَأَسْمَعُ لَكِ؟ أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِكِ مَا نَزَلَ إِلاَّ لِسُوْءِ نَظَرِكِ فِي العَوَاقِبِ، وَقِلَّةِ تَفَكُّرِكِ فِيْهَا، وَجَهَالَتِكِ بِمَا يَرْجِعُ عَلَيْكِ مِنْ ضَرِّهَا.
فَلَمَّا سَمِعَتْ اللَّبُؤَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلاَمِ الشَّعْهَرِ عَرَفَتْ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا جَنَتْ عَلَى نَفْسِهَا، وَأَنَّ عَمَلَهَا كَانَ جَوْراً وَظُلْماً. فَتَرَكَتِ الصَّيْدَ وَانْصَرَفَتْ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ إِلَى أَكْلِ الثِّمَارِ وَالنُّسْكِ وَالعِبَادَةِ.
فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ وَرَشَانٌ[2] كَانَ صَاحِبَ تِلْكَ الغَيْضَةِ وَكَانَ عَيْشُهُ مِنَ الثِّمَارِ، قَالَ لَهَا: قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الشَّجَرَ عَامَنَا هَذَا لَمْ تَحْمِلْ لِقِلَّةِ المَاءِ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُكِ تَأْكُلِيْنَها وَأَنْتِ آكِلَةُ اللَّحْمِ فَتَرَكْتِ رِزْقَكِ وَطَعَامَكِ وَمَا قَسَمَ اللهُ لَكِ، وَتَحَوَّلْتِ إِلَى رِزْقِ غَيْرِكِ فَانْتَقَصْتِهِ وَدَخَلْتِ عَلَيْهِ فِيْهِ، عَلِمْتُ أَنَّ الشَّجَرَ العَامَ أَثْمَرَتْ كَمَا كَانَتْ تُثْمِرُ قَبْلَ اليَوْمِ، وَإِنَّمَا أَتَتْ قِلَّةُ الثَّمَرِ مِنْ جِهَتِكِ، فَوَيْلٌ لِلشَّجَرِ، وَوَيْلٌ لِلثِّمَارِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ عَيْشُهُمْ مِنْهَا مَا أَسْرَعَ هَلاَكَهُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ، وَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا مَنْ لَيْسَ لَهُ فِيْهَا حَظٌّ وَلَمْ يَكُنْ مُعْتَاداً لأَكْلِهَا!؟
فَلَمَّا سَمِعَتِ اللَّبُؤَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلاَمِ الوَرَشَانِ تَرَكَتْ أَكْلَ الثِّمَارِ وَأَقْبَلَتْ عَلَى أَكْلِ العُشْبِ وَالعِبَادَةِ.
وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الجَاهِلَ رُبَّما تَصَرَّفَ بِضُرٍّ يُصِيْبُهُ عَنْ النَّاسِ كَاللَّبُؤَةِ الَّتِي انْصَرَفَتْ لِمَا لَقِيَتْ فِي شَبْلَيْهَا عَنْ أَكْلِ الثِّمَارِ بِقَوْلِ الوَرَشَانِ وَأَقْبَلَتْ عَلَى النُّسْكِ وَالعِبَادَةِ.
وَالنَّاسُ أَحَقُّ بِحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيْلَ: مَا لاَ تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ لاَ تَصْنَعْهُ لِغَيْرِكَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ العَدْلَ، وَفِي العَدْلِ رِضَى الله تعالَى ورِضَى النَّاسِ.

١ الجزع: الخوف.
٢ ورشان: طائر يشبه الحَمَام.

بَابُ إِيْلاَذَ وَبَلاَذَ وَإِيْرَاخْتَ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلاً فِي الأَشْــيَاءِ الَّتِي يَجِبُ علي المَلِكِ أَنْ يُلْزِمَ بِهَا نَفْسَــهُ، وَيَحْفَظَ مُلْكَهُ، وَيُثَبِّتَ بِهَا سُــلْطَانَهُ، وَيَكُوْنَ ذَلِكَ رَأْسَ أَمْرِهِ وَمِلاَكَهُ[١]. الحِلْمُ أَمِ المُرُوءَةُ أَمِ الشَّــجَاعَةُ أَمِ الجُوْدُ؟

قَالَ بَيْدَبَا: إِنَّ أَحَقَّ مَا يَحْفَظُ بِهِ المَلِكُ مُلْكَهُ الحِلْمُ وَبِهِ تَثْبُتُ السَّــلْطَنَةُ. وَالحِلْمُ رَأْسُ الأُمُوْرِ وَمِلاَكُهَا وَأَجْوَدُ مَا كَانَ فِي المُلُوْكِ، كَالَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَلِكٌ يُدْعَى بَلاَذَ وَكَانَ لَهُ وَزِيْرٌ يُدْعَى إِيْلاَذَ وَكَانَ مُتَعَبِّداً نَاسِــكاً. وَإِنَّ المَلِكَ نَامَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَرَأَى فِي مَنَامِهِ ثَمَانِيَةَ أَحْلاَمٍ أَفْزَعَتْهُ فَاسْــتَيْقَظَ مَرْعُوْباً، فَدَعَا بِالبَرَاهِمَةِ وَهُمُ النُّسَّــاكُ لِيُعَبِّرُوا رُؤْيَاهُ. فَلَمَّا حَضَــرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: لَقَدْ رَأَى المَلِكُ عَجبَا، فَإِنْ أَمْهَلَنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ جِئْنَاهُ بِتَأْوِيْلِهِ.

قَــالَ المَلِــكُ: قَــدْ أَمْهَلْتُكُمْ. فَخَرَجُوا مِنْ عِنْــدِهِ ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ أَحَــدِهِمْ وَائْتَمَرُوا[٢] بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا: قَدْ وَجَدْتُمْ عِلْماً وَاسِــعَاً تُدْرِكُوْنَ بِهِ ثَأْرَكُمْ وَتَنْتَقِمُوْنَ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّه قَتَلَ مِنَّا بِالأَمْسِ اثْنَيْ عَشَــرَ أَلْفاً، وَهَا هُوَ قَدْ أَطْلَعَنَا عَلَى سِــرِّهِ، وَسَــأَلْنَا تَفْسِــيْرَ رُؤْيَاهُ، فَهَلُمَّ نُغْلظْ لَهُ القَوْلَ وَنُخِفْهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ الفَرَقُ[٣] وَالجَزَعُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي نُرِيْدُ، وَنَأْمُرْهُ فَنَقُوْلُ: ادْفَعْ إِلَيْنَا أَحِبَّاءَكَ وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْكَ حَتَّى نَقْتُلَهُمْ.

فإِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فَلَمْ نَرَ أَنْ يُدْفَعَ عَنْكَ مَا رَأَيْتَ لِنَفسِــكَ وَمَا وَقَعْتَ فِيْهِ مِنْ هَذَا الشَّرِّ إِلاَّ بِقَتْلِ مَنْ نُسَمِّي لَكَ. فَإِنْ قَالَ المَلِكُ: وَمَنْ تُرِيْدُوْنَ أَنْ تَقْتُلُوا سَمُّوْهُمْ لِي.

قُلْنَا: نُرِيْدُ المَلِكَةَ إِيْرَاخْتَ أُمَّ جُوِيْرَ المَحْمُوْدَةَ أَكْرَمَ نِســائِكَ عَلَيْكَ، وَنُرِيْدُ جُوَيْرَ أَحَبَّ بَنِيْكَ إِلَيْكَ وأَفْضَــلَهُمْ عِنْدَكَ، وَنُرِيْدُ كَالَ الكَاتِبَ صَــاحِبَ سِــرِّكَ، وَسَــيْفَكَ الَّذِي لاَ يُوجَدُ مِثْلَهُ، وَالفِيْلُ الأَبْيَضَ الَّذِي لاَ تَلْحَقُهُ الخَيْلُ، وَالفَرَسَ الَّذِي هُوَ مَرْكَبُكَ فِي القَتَالِ، وَنُرِيْدُ البُخْتِيَّ[٤] السَّــرِيْعَ القَوِيَّ، وَنُرِيْدُ كَبَارِيُوْنَ الحَكِيْمَ الفَاضِلَ العَالِمَ بِالأُمُوْرِ لِنَنتَقِمَ مِنْهُ بِمَا فَعَلَ بِنَا.

---

١ ملاكه: قوامه.
٢ ائتمروا: تشاوروا.
٣ الفرق: الخوف الشديد.
٤ البختيُّ: الإبل الخراسانية.

ثُمَّ نَقُوْلُ لَهُ: إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا المَلِكُ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ سَمَّيْنَاهُمْ لَكَ، ثُمَّ تَجْعَلَ دِمَاءَهُمْ فِي حَوْضٍ تَمْلَؤُهُ ثُمَّ تَقْعُدَ فِيْهِ. فَإِذَا خَرَجْتَ مِنَ الحَوْضِ اجْتَمَعْنَا نَحْنُ مَعَاشِرَ البَرَاهِمَةِ مِنَ الآفَاقِ الأَرْبَعَةِ نَجُوْلُ حَوْلَكَ فَنَرْقِيْكَ، وَنَتْفِلُ عَلَيْكَ، وَنَمْسَحُ عَنْكَ الدَّمَ، وَنَغْسِلُكَ بِالمَاءِ وَالدُّهْنِ الطَّيِّبِ، ثُمَّ تَقُوْمُ إِلَى مَنْزِلِكَ البَهِيِّ فَيَدْفَعُ اللهُ بِذَلِكَ البَلاَءَ الَّذِي تَتَخَوَّفُهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنْ صَبَرْتَ أَيُّهَا المَلِكُ وَطَابَتْ نَفْسُكَ عَنْ أَحِبَّائِكَ الَّذِيْنَ ذَكَرْنَا لَكَ، وَجَعَلْتَهُمْ فِدَاكَ تَخَلَّصْتَ مِنَ البَلاَءِ، وَاسْتَقَامَ لَكَ مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ، وَاسْتَخْلَفْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ أَحْبَبْتَ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ تَخَوَّفْنَا عَلَيْكَ أَنْ يُغْصَبَ مُلْكُكَ أَوْ تَهْلِكَ. فَإِنْ هُوَ أَطَاعَنَا فِيمَا نَأْمُرُهُ قَتَلْنَاهُ شَرَّ قِتْلَةٍ.

فَلَمَّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى مَا ائْتَمَرُوا فِيْهِ رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ الثَّامِنِ وَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا المَلِكُ إِنَّا نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا تَفْسِيْرَ مَا رَأَيْتَ، وَفَحَصْنَا عَنِ الرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا، فَلْيَكُنْ لَكَ أَيُّهَا المَلِكُ الطَّاهِرُ الصَّالِحُ الكَرَامَةُ. وَلَسْنَا نَقْدِرُ أَنْ نُعْلِمَكَ بِمَا رَأَيْنَا إِلاَّ أَنْ تَخْلُوَ بِنَا وَتُؤْمِّنَنَا. فَأَخْرَجَ المَلِكُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَخَلاَ بِهِمْ فَحَدَّثُوْهُ بِالَّذِي ائْتَمَرُوا فِيْهِ. فَقَالَ لَهُمْ: المَوْتُ خَيْرٌ لِي مِنَ الحَيَاةِ إِنْ أَنا قَتَلْتُ هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ هُمْ عَدِيْلُ نَفْسِي، وَأَنا مَيْتٌ لاَ مَحَالَةَ، وَالحَيَاةُ قَصِيْرَةٌ وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكاً. وَإِنَّ المَوْتَ عِنْدِي وَفِرَاقَ الأَحْبَابِ سَوَاءٌ فَضْلاً عَمَّا أَرْتَكِبُهُ مِنَ الإِثْمِ فِي قَتْلِهِمْ.

قَالَ لَهُ البَرْهَمِيُّوْنَ: إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ أَخْبَرْنَاكَ. فَأَذِنَ لَهُمْ فَقَالُوا: أَيُّهَا المَلِكُ إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ صَوَاباً حِيْنَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَاحْتَفِظْ بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ هَذَا الَّذِي فِيْهِ لَكَ الرَّجَاءُ العَظِيْمُ عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِيْنٍ وَقِرَّ عَيْناً بِمُلْكِكَ فِي وُجُوْهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ الَّذِيْنَ شَرُفْتَ وَكَرُمْتَ بِهِمْ، وَلاَ تَدَعِ الأَمْرَ العَظِيْمَ وَتَأْخُذْ بِالضَّعِيْفِ فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ إِيْثَاراً لِمَنْ تُحِبُّ. وَاعْلَمْ أَيُّهَا المَلِكُ أَنَّ الإِنْسَانَ إِنَّمَا يُحِبُّ الحَيَاةَ مَحَبَّةً لِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ لاَ يُحِبُّ مَنْ أَحَبَّ مِنَ الأَحْبَابِ إِلاَّ لِيَتَمَتَّعَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ. وَإِنَّمَا قِوَامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللهِ بِمُلْكِكَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَنَلْ مُلْكَكَ إِلاَّ بِالمَشَقَّةِ وَالعَنَاءِ الكَثِيْرِ فِي الشُّهُوْرِ وَالسِّنِيْنَ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ وَيَهُوْنَ عَلَيْكَ، فَاسْتَمِعْ كَلاَمَنَا، وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ مُنَاهَا، وَدَعْ مَا سِوَاهَا فَإِنَّهُ لاَ خَطَرَ لَهُ.

فَلَمَّا رَأَى المَلِكُ أَنَّ البَرْهَمِيِّيْنَ قَدْ أَغْلَظُوا لَهُ فِي القَوْلِ وَاسْتَجْرَؤُوا عَلَيْهِ فِي الكَلاَمِ، اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ، وَقَامَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَيْهِمْ، وَدَخَلَ إِلَى حُجْرَتِهِ فَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي، وَيَتَقَلَّبُ كَمَا تَتَقَلَّبُ السَّمَكَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ المَاءِ، وَجَعَلَ يَقُوْلُ فِي نَفْسِهِ مَا أَدْرِي أَيُّ الأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي، الهَلَكَةُ أَمْ قَتْلُ أَحِبَّائِي؟ وَلَنْ أَنَالَ الفَرَحَ مَا عِشْتُ، وَلَيْسَ مُلْكِي بِبَاقٍ عَلَيَّ إِلَى الأَبَدِ، وَلَسْتُ بِالمُصِيْبِ سُؤْلِي فِي مُلْكِي، وَإِنِّي لَزَاهِدٌ فِي الحَيَاةِ إِذَا لَمْ أَرَ إِيْرَاخْتَ وَجُوَيْرَ، وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى القِيَامِ بِمُلْكِي إِذَا هَلَكَ وَزِيْرِي إِيْلاَذُ؟ وَكَيْفَ أَضْبِطُ أَمْرِي إِذا هَلَكَ فِيْلِيَ الأَبْيَضُ وَفَرَسِيَ الجَوَادُ؟ وَكَيْفَ أُدْعَى مَلِكاً وَقَدْ قَتَلْتُ مَنْ أَشَارَ البَرَاهِمَةُ بِقَتْلِهِ؟ وَمَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَهُمْ؟

ثُمَّ إِنَّ الحَدِيْثَ فَشَا فِي الأرض بِحُزْنِ المَلِكِ وَهَمِّهِ. فَلَمَّا رَأَى إِيْلاَذُ مَا نَالَ المَلِكُ مِنَ الهَمِّ والحُزْنِ، فَكَّرَ فِي حِكْمَتِهِ وَنَظَرَ، وَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَقْبِلَ المَلِكَ فَأَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا الأَمْرِ الَّذِي قَدْ نَالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُونِي. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِيْرَاخْتَ فَقَالَ: إِنِّي مُنْذُ خَدَمْتُ المَلِكَ إِلَى الآنَ، لَمْ يَعْمَلْ عَمَلاً إِلاَّ بِمَشُورَتِي وَرَأْيِي، وَأَرَاهُ يَكْتُمُ عَنِّي أَمْراً لاَ أَعْلَمُ مَا هُوَ، وَلاَ أَرَاهُ يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئاً، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ خَالِياً مَعَ جَمَاعَةِ البَرْهَمِيِّيْنَ مِنْذُ لَيَالٍ، وَقَدِ احْتَجَبَ عَنَّا فِيْهَا، وَأَنَا خَائِفٌ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ، فَلَسْتُ آمَنُهُمْ أَنْ يُشِيْرُوا عَلَيْهِ بِمَا يَضُرُّهُ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهُ السُّوْءُ. فَقُوْمِي وَادْخُلِي عَلَيْهِ، وَاسْأَلِيْهِ عَنْ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، وَأَخْبِرِيْنِي بِمَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَعْلِمِيْنِي، فَإِنِّي لاَ أَقْدِرُ عَلَى الدُّخُوْلِ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّ البَرْهَمِيِّيْنَ قَدْ زَيَّنُوا لَهُ أَمْراً وَحَمَلُوْهُ عَلَى خُطَّةٍ قَبِيْحَةٍ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ خُلُقِ المَلِكِ أَنَّهُ إِذَا غَضِبَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً، وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ صَغِيْرُ الأُمُوْرِ وَكَبِيْرُهَا.

فَقَالَتْ إِيْرَاخْتُ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ المَلِكِ بَعْضُ العِتَابِ فَلَسْتُ بِدَاخِلَةٍ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الحَالِ.

فَقَالَ لَهَا إِيْلاَذُ: لاَ تَحْمِلِي عَلَيْهِ الحِقْدَ فِي مِثْلِ هَذَا، وَلاَ يَخْطُرَنَّ ذَلِكَ عَلَى بَالِكَ، فَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُوْلِ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاكَ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ كَثِيْراً يَقُوْلُ: مَا اشْتَدَّ غَمِّي وَدَخَلَتْ عَلَيَّ إِيْرَاخْتُ إِلاَّ سُرِّيَ ذَلِكَ عَنِّي، فَقُوْمِي إِلَيْهِ وَاصْفَحِي عَنْهُ، وَكَلِّمِيْهِ بِمَا تَعْلَمِيْنَ أَنَّهُ تَطِيْبُ بِهِ نَفْسُهُ، وَيَذْهَبُ الَّذِي يَجِدُهُ[1]، وَأَعْلِمِيْنِي بِمَا يَكُوْنُ جَوَابُهُ، فَإِنَّ بِذَلِكَ لَنَا وَلأَهْلِ المَمْلَكَةِ أَعْظَمَ الرَّاحَةِ.

فَانْطَلَقَتْ إِيْرَاخْتُ فَدَخَلَتْ عَلَى المَلِكِ، فَجَلَسَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَتْ: مَا الَّذِي بِكَ أَيُّها المَلِكُ المَحْمُوْدُ، وَمَا الَّذِي سَمِعْتَ مِنَ البَرَاهِمَةِ؟ فَإِنِّي أَرَاكَ مَحْزُوْناً، فَأَعْلِمْنِي مَا بِكَ، فَقَدْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحْزَنَ مَعَكَ ونُؤَاسِيَكَ[2] بِأَنْفُسِنَا.

فَقَالَ المَلِكُ: أَيَّتُها المَرْأَةُ، لا تَسْأَلِيْنِي عَنْ أَمْرِي فَتَزِيْدِيْنِي غَمَّاً وَحُزْناً، فَإِنَّهُ أَمْرٌ لاَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلِيْنِي عَنْهُ. قَالَتْ: أَوَقَدْ نَزَلْتُ عِنْدَكَ مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا؟ إِنَّمَا أَحْمَدُ النَّاسِ عَقْلاً مَنْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ النَّازِلاَتُ، كَانَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ ضَبْطاً وَأَكْثَرَهُمُ اسْتِمَاعاً مِنْ أَهْلِ النُّصْحِ، حَتَّى يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّازِلَةِ بِالحِيْلَةِ والعَقْلِ، وَالبَحْثِ والمُشَاوَرَةِ، فَعَظِيْمُ الذَّنْبِ لا يَقْنَطُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلاَ تُدْخِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْئاً مِنَ الهَمِّ والحُزْنِ، فَإِنَّهُما لا يَرُدَّانِ شَيئاً مَقْضِيّاً، إِلاَّ أَنَّهُما يُنْحِلاَنِ الجِسْمَ ويُشْفِيَانِ العَدُوَّ، والصَّبْرُ عِنْدَ نُزُوْلِ المُصِيْبَةِ عِبَادَةٌ، وَسَوْفَ تَحْمَدُ أَمْرَكَ إِنْ أَخْبَرْتَنِي.

---

١ يجده: يحزنه.

٢ نؤاسيك: نخفّف عنك. نحمل معك.

قَالَ لَهَا المَلِكُ: لا تَسْأَلِيْنِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ شَقَقْتِ عَلَيَّ، والَّذِي تَسْأَلِيْنَني عَنْهُ لاَ خَيْرَ فِيْهِ لأَنَّ عَاقِبَتَهُ هَلاَكِي، وَهَلاَكُكِ، وَهَلاَكُ كَثِيْرٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي، وَمَنْ هُوَ عَدِيْلُ نَفْسِي. وذَاكَ أَنَّ البَرَاهِمَةَ زَعمُوا أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ قَتْلِكِ، وَقَتْلِ جُوَيْرَ، وَكَثِيْرٍ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِي، وَلاَ خَيْرَ فِي العَيْشِ بَعدَكُمْ، وَهَلْ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهَذَا إِلاَّ اعْتَرَاهُ الحُزْنُ؟

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ إِيْرَاخْتُ جَزِعَتْ، وَمَنَعَها عَقْلُهَا أَنْ تُظْهِرَ لِلْمَلِكِ جَزَعاً، فَقَالَتْ: أَيُّها المَلِكُ لاَ تَجْزَعْ، فَنَحْنُ لَكَ الفِدَاءُ، وَلَكَ فِي سِوَايَ وَمِثْلِي مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، وَلَكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ أَيُّهَا المَلِكُ حَاجَةً يَحْمِلُنِي عَلَى طَلَبِهَا حُبِّي لَكَ وَإِيْثَارِي إِيَّاكَ، وَهِيَ نَصِيْحَتِي لَكَ.

قَالَ المَلِكُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَتْ: أَطْلُبُ مِنْكَ أَلاَّ تَثِقَ بَعْدَهَا بِأَحَدٍ مِنَ البَرَاهِمَةِ، وَلاَ تُشَاوِرَهُمْ فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَثَبَّتَ فِي أَمْرِكَ، ثُمَّ تُشَاوِرَ ثِقَاتِكَ مِرَاراً، فَإِنَّ القَتْلَ أَمْرٌ عَظِيْمٌ، وَلَسْتَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تُحْيِيَ مَنْ قَتَلْتَ. وَقَدْ قِيْلَ فِي الحَدِيْثِ: إِذَا لَقِيْتَ جَوْهَراً لاَ خَيْرَ فِيْهِ، فَلاَ تُلْقِهِ مِنْ يَدِكَ حَتَّى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ.

وَأَنْتَ أَيُّهَا المَلِكُ لاَ تَعْرِفُ أَعْدَاءَكَ، واعْلَمْ أَنَّ البَرَاهِمَةَ لاَ يُحِبُّوْنَكَ وَقَدْ قَتَلْتَ مِنْهُمْ بِالأَمْسِ اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً، ولا تَظُنَنَّ أَنَّ هَؤُلاَءِ لَيْسُوا مِنْ أُوْلَئِكَ. وَلَعَمْرِي مَا كُنْتَ جَدِيْراً أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْيَاكَ، وَلاَ أَنْ تُطْلِعَهُمْ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا قَالُوا لَكَ مَا قَالُوا لأَجْلِ الحِقْدِ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَلَعَلَّهُمْ يُهْلِكُوْنَكَ وَيُهْلِكُوْنَ أَحِبَّاءَكَ وَوَزِيْرَكَ فَيَبْلُغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ، وأَظُنُّكَ لَوْ قَبِلْتَ مِنْهُمْ فَقَتَلْتَ مَنْ أَشَارُوا بِقَتْلِهِ، ظَفِرُوا بِكَ، وَغَلَبُوْكَ عَلَى مُلْكِكَ، فَيُعُوْدُ المُلْكُ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ. فَإِنَّ الشَّجَرَةَ إِذَا أُرِيْدَ قَلْعُهَا عُمِدَ أَوَّلاً إِلَى أُصُوْلِهَا وَمَا تَتَثَبَّتُ بِهِ فِي الأَرْضِ فَقُطِعَتْ ثُمَّ قُلِعَتْ فَهَانَ قَلْعُهَا. فَانْطَلِقْ إِلَى كَبَارِيُوْنَ الحَكِيْمِ فَهُوَ فَطِنٌ عَالِمٌ، فَأَخْبِرْهُ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْيَاكَ، واسْأَلْهُ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيْلِهَا[1].

فَلَمَّا سَمِعَ المَلِكُ ذَلِكَ سُرِّيَ عَنْهُ[2] مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنَ الغَمِّ. فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ، فَرَكِبهُ ثُمَّ انطَلَقَ إِلَى كَبَارِيُوْنَ الحَكِيْمِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ وَسَجَدَ لَهُ، وَقَامَ مُطَأْطِئاً الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ الحَكِيْمُ: مَا بَالُكَ أَيُّهَا المَلِكُ؟ وَمَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ؟

فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: إِنِّي رَأَيْتُ فِي المَنَامِ ثَمَانِيَةَ أَحْلاَمٍ قَصَصْتُها عَلَى البَرَاهِمَةِ، وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُصِيْبَنِي مِنْ ذَلِكَ عَظِيْمُ أَمْرٍ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَعْبِيْرِهِمْ لِرُؤْيَايَ، وَأَخْشَى أَنْ يُغْصَبَ مِنِّي مُلْكِي أَوْ أَنْ أُغْلَبَ عَلَيْهِ.

---

١ تأويلها: تفسيرها.
٢ سرِّي عنه: زال الهمُّ عنه والحزن.

فَقَالَ لَهُ الحَكِيْمُ: إِنْ شِئْتَ قصصْتَ عَلَيَّ أَحْلامَكَ، وَإِنْ شِئْتَ قَصصْتُها عَلَيْكَ وَأَخَبَرْتُكَ بِمَا رَأَيْتَ جَمِيْعَهُ!
قالَ المَلِكُ: بَلْ مِنْ فِيْكَ[1] أَحْسَنُ.
قَالَ الحَكِيْمُ: لاَ يَحْزُنُكَ أَيُّهَا المَلِكُ هَذَا الأَمْرُ، وَلاَ تَخَفْ مِنْهُ. أَمَّا السَّمَكَتَانِ الحَمْرَاوَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُما قَائِمَتِيْنِ عَلَى ذَنَبَيْهِمَا، فَإِنَّهُ يَأْتِيْكَ رَسُوْلٌ مِنْ مَلِكِ هَيْمُوْنَ بِعِقْدَيْنِ مُكَلَّلَيْنِ بِالدُّرِّ وَاليَاقُوْتِ الأَحْمَرِ قِيْمَتُهُمَا أَرْبَعَةُ آلافِ رَطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُوْمُ بَيْنَ يَدَيْكَ.
وَأَمَّا الوَزَّتَان اللَّتَانِ رَأَيْتَهُما طَارَتَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ فَوَقَعَتَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيْكَ مِنْ مَلِكِ بَلْخَ فَرَسَانِ لَيْسَ عَلَى الأَرْضِ مِثْلُهُما فَيَقُوْمَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ.
وَأَمَّا الحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا تَدِبُّ عَلَى رِجْلِكَ اليُسْرَى، فَإِنَّهُ يَأْتِيْكَ مِنْ مَلِكِ صِنْجِيْنَ مَنْ يَقُوْمُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خَالِصِ الحَدِيْدِ لا يُوْجَدُ مِثْلُهُ.
وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتُ كَأَنَّهُ خُضِّبَ بِهِ جَسَدُكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيْكَ مِنْ مَلِكِ كَازَرُوْنَ مَنْ يَقُوْمُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِلِبَاسٍ مُعْجِبٍ يُسَمَّى حُلَّةَ أُرْجُوَانٍ، يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ.
وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ غَسْلِكَ بِالمَاءِ، فَإِنَّهُ يَأْتِيْكَ مِنْ مَلِكِ رِهْزِيْنَ مَنْ يَقُوْمُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِثِيَابِ كَتَّانٍ مِنْ لِبَاسِ المُلُوْكِ.
وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ أَنَّكَ عَلَى جَبَلٍ أَبْيَضَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيْكَ مِنْ مَلِكِ كَيْدُوْرَ مَنْ يَقُوْمُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِفِيْلٍ أَبْيَضَ لاَ تَلْحَقُهُ الخَيْلُ.
وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأسِكَ شَبِيْهاً بِالنَّارِ، فَإِنَّهُ يَأْتِيْكَ مِنْ مَلِكِ الأَرْزَنِ مَنْ يَقُوْمُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِإِكْلِيْلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالدُّرِّ وَاليَاقُوْتِ.
وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي رَأَيْتَهُ ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنْقَارِهِ، فَلَسْتُ مُفسِّراً ذَلكَ اليَوْمَ وَلَيْسَ بِضَارِّكَ، فَلاَ تَوْجَلَنَّ مِنْهُ[2]، وَلَكِنَّ فِيْهِ بَعْضَ السُّخْطِ وَالإِعْرَاضِ عَمَّا تُحِبُّهُ.
فَهَذَا تَفْسِيْرُ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا المَلِكُ، وَأَمَّا هَذِهِ البُرُدُ[3] وَالرُّسُلُ فَإِنَّهَا تَأْتِيْكَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيْعاً، فَتَقُوْمُ بَيْنَ يَدِيْكَ.
فَلَمَّا سَمِعَ المَلِكُ ذَلِكَ سَجَدَ لِكَبَارِيُوْنَ وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ.
فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، جَاءَتِ البَشَائِرُ بِقُدُوْمِ الرُّسِلِ، فَخَرَجَ المَلِكُ فَجَلَسَ عَلَى السَّرِيْرِ وَأَذِنَ لِلأَشْرَافِ، وَجَاءَتْهُ الهَدَايَا كَمَا أَخْبَرَهُ كَبَارِيُوْنُ الحَكِيْمُ. فَلَمَّا رَأَى المَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ عَجَبُهُ وَفَرَحُهُ مِنْ عِلْمِ كَبَارِيُوْنَ وَقَالَ: مَا وُفِّقْتُ حِيْنَ قَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَى البَرَاهِمَةَ فَأَمَرُوْنِي بِمَا أَمَرُوْنِي بِهِ، وَلَوْلاَ أَنَّ اللهَ تَدَارَكَنِي لَهَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ.

١ من فيك: من فمك.
٢ لا توجلنَّ: لا تخافنّ.
٣ البرد: جمع بريد، وهي الخيل الَّتي تأتي عليها الرُّسل.

وَكَذَلِكَ لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَسْـمَعَ إِلاَّ مِنَ الأَخِلاَّءِ ذَوِي العُقُوْلِ؛ وَإِنَّ إِيْرَاخْتَ أَشَارَتْ بِالخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ وَرَأَيْتُ بِهِ النَّجَاحَ، فَضَعُوا الهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا لِتَأْخُذَ مِنْهَا مَا اخْتَارَتْ.

ثُمَّ قَالَ لإِيْلاَذَ: خُذِ الإِكْلِيْلَ وَالثِّيَابَ وَاحْمِلْهَا وَاتْبَعْنِي بِهَا.

وَدَعَا المَلِكُ إِيْرَاخْتَ وَحُوْرَقْنَاهَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لإِيْلاَذَ: دَعِ الكِسْوَةَ والإِكْلِيْلَ بَيْنَ يَدَيْ إِيْرَاخْتَ لِتَأْخُذَ أَيُّهَا شَاءتْ. فوُضِعَتِ الهَدَايَا بَيْنَ يَدَيْ إِيْرَاخْتَ، فَأَخَذَتْ مِنْهَا الإِكْلِيْلَ، وَأَخَذَتْ حُوْرَقْنَاهُ كُسْوَةً مِنْ أَفْخَرِ الثِّيَابِ وَأَحْسَنِهَا.

وَإِنَّ إِيْرَاخْتَ صَنَعَتْ لِلْمَلِكِ بَعْدَ ذَلِكَ أَرُزّاً بِحَلاَوَة، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ بِالصَّحْفَةِ، وَالإِكْلِيْلُ عَلَى رَأْسِهَا، وَاتَّفَقَ أَنَّ حُوْرَقْنَاهُ لَبِسَتْ تِلْكَ الكِسْوَةَ وَمَرَّتْ بَيْنَ يَدَيِّ المَلِكِ، فَالتَفَتَ المَلِكُ إِلَى إِيْرَاخْتَ فَقَالَ: إِنَّكِ جَاهِلَةٌ حِيْنَ أَخَذْتِ الإِكْلِيْلَ، وَتَرَكْتِ الكِسْوَةَ الَّتِي لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِثْلُهَا.

فَلَمَّا سَمِعَتْ إِيْرَاخْتُ مَدْحَ المَلِكِ لِحُوْرَقْنَاهَ وَثَنَاءَهُ عَلَيْهَا وَتَجْهِيْلَهَا هِيَ وَذَمَّ رَأْيِهَا، أَخَذَهَا مِنْ ذَلِكَ الغَيْرَةُ وَالغَيْظُ، فَضَرَبَتْ بِالصَّحْفَةِ رَأسَ المَلِكِ فَسَالَ الأَرُزُّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ تَمامَ تَعْبِيْرِ الرُّؤْيَا الَّتِي عَبَّرَهَا كَبَارِيُوْنَ.

فَقَامَ المَلِكُ مِنْ مَكَانِهِ وَدَعَا بِإِيْلاَذَ وَقَالَ: أَلاَ تَرَى وَأَنَا مَلِكُ العَالَمِ كَيْفَ حَقَّرَتْنِي هَذِهِ الجَاهِلَةُ، وَفَعَلَتْ بِي مَا تَرَى؟ فَانْطَلِقْ بِهَا وَاقْتُلْهَا وَلا تَرْحَمْهَا.

فَخَرَجَ إِيْلاَذُ مِنْ عِنْدِ المَلِكِ وَقَالَ: لاَ أَقْتُلُهَا حَتَّى يَسْكُنَ عَنْهُ الغَضَبُ، فَالمَرْأَةُ عَاقِلَةٌ سَدِيْدَةُ الرَّأْيِ، مِنَ المَلِكَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا عَدِيْلٌ فِي النِّسَاءِ، وَلَيْسَ المَلِكُ بِصَابِرٍ عَنْهَا، وَقَدْ خَلَّصَتْهُ مِنَ المَوْتِ، وَعَمِلَتْ أَعْمَالاً صَالِحَةً، وَرَجَاؤُنَا فِيْهَا عَظِيْمٌ، وَلَسْتُ آمَنُهُ أَنْ يَقُوْلَ: لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَهَا حَتَّى تُرَاجِعَنِي؟ فَلَسْتُ قَاتِلَهَا حَتَّى أَنْظُرَ رَأْيَ المَلِكِ فِيْهَا ثَانِيَةً، فَإِنْ رَأَيْتُهُ نَادِماً حَزِيْناً عَلَى مَا فَعَلَ جِئْتُ بِهَا حَيَّةً، وَكُنْتُ قَدْ عَمِلْتُ عَمَلاً عَظِيْماً، وَأَنْجَيْتُ إِيْرَاخْتَ مِنَ القَتْلِ، وَحَفِظْتُ قَلْبَ المَلِكِ، وَاتَّخَذْتُ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ يَداً[1]، وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحاً مُسْتَرِيْحاً مُصَوِّباً رَأْيَهُ فِي الَّذِي فَعَلَهُ، فَقَتْلُهَا لاَ يَفُوْتُ.

ثُمَّ انْطَلَقَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ، وَوَكَّلَ بِهَا خَادِماً مِنْ أُمَنَائِهِ، وَأَمَرَهُ بِخِدْمَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَكُوْنُ مِنْ أَمْرِ المَلِكِ. ثُمَّ خَضَّبَ سَيْفَهُ بِالدَّمِ، وَدَخَلَ عَلَى المَلِكِ كَالكَئِيْبِ الحَزِيْنِ فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ: إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيْرَاخْتَ. فَلَمْ يَلْبَثِ المَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الغَضَبُ، وذَكَرَ جَمَالَ إِيْرَاخْتَ وَفَضْلَهَا، وَاشْتَدَّ أَسَفُهُ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ يَعَزِّي نَفْسَهُ عَنْهَا وَيَتَجَلَّدُ. وهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ إِيْلاَذَ، أَحَقّاً أَمْضَى أَمْرَهُ فِيْهَا أَمْ لاَ.

---

١ واتَّخذت عند عامَّة النَّاس يدا: أي أصاب رفعة ومكانة.

وَرَجَا لِمَا عَرَفَ مِنْ عَقْلِ إِيْلاَذَ أَلاَّ يَكُوْنَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ. وَنَظَرَ إِلَيْهِ إِيْلاَذُ بِفَضْلِ عَقْلِهِ فَعَلِمَ الَّذِي بِهِ، فَقَالَ لَهُ: لاَ تَهْتَمَّ وَلاَ تَحْزَنْ أَيُّهَا المَلِكُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الهَمِّ وَالحُزْنِ مَنْفَعَةٌ، وَلَكِنَّهُما يُنْحِلاَنِ الجِسْمَ ويُفْسِدَانِهِ، فَاصْبِرْ. أَيُّهَا المَلِكُ عَلَى مَا لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ أَبَداً، وَإِنْ أَحَبَّ المَلِكُ أَنْ أُحَدِّثَهُ بِحَدِيْثٍ يُسَلِّيْهُ.

قَالَ: حَدِّثْنِي.

مَثَلُ الحَمَامَتَيْنِ

قَالَ إِيْلاَذُ: زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَتَيْنِ، ذَكَراً وَأُنْثَى، مَلأا عُشَّهُما مِنَ الحِنْطَةِ وَالشَّعِيْرِ. فَقَالَ الذَّكَرُ لِلأُنْثَى: إِنَّا إِذَا وَجَدْنَا فِي الصَّحَارِي مَا نَعِيْشُ بِهِ فَلَسْنَا نَأْكُلُ مِمَّا هَا هُنَا شَيْئاً، فَإِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَارِي شَيْءٌ، رَجَعْنَا إِلَى مَا فِي عُشِّنَا فَأَكَلْنَاهُ.

فَرَضِيَتِ الأُنْثَى بِذَلِكَ وَقَالَتْ لَهُ: نِعْمَ مَا رَأَيْتَ. وَكَانَ ذَلِكَ الحَبُّ نَدِيَّاً حِيْنَ وَضَعَاهُ فِي عشِّهِمَا. فَانْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغَابَ.

فَلَمَّا جَاءَ الصَّيْفُ يَبِسَ الحَبُّ وَتَضَمَّرَ، فَلَمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رَأَى الحَبَّ نَاقِصاً فَقَالَ لَهَا: أَلَيْسَ كُنَّا جَمَعْنَا رَأْيَنَا عَلَى أَلاَّ نَأْكُلَ مِنْهُ شَيئاً، فَلِمَ أَكَلْتِهِ؟ فَجَعَلَتْ تَحْلِفُ أَنَّهَا مَا أَكَلَتْ مِنْهُ شَيئاً، وَجَعَلَتْ تَتَنَصَّلُ[١] إِلَيْهِ فَلَمْ يُصَدِّقْهَا، وَجَعَلَ يَنْقُرُهَا حَتَّى مَاتَتْ.

فَلَمَّا جَاءَتِ الأَمْطَارُ وَدَخَلَ الشِّتَاءُ تَنَدَّى الحَبُّ، وَامْتَلأَ العُشُّ كَمَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَى الذَّكَرُ ذَلِكَ نَدِمَ. ثُمَّ اضْطَجَعَ إِلَى جَانِبِ حَمَامَتِهِ وَقَالَ: مَا يَنْفَعُنِي الحَبُّ وَالعَيْشُ بَعْدَكِ إِذَا طَلَبْتُكِ فَلَمْ أَجِدْكِ وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْكِ، وَإِذَا فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكِ وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُكِ وَلاَ أَقْدِرُ عَلَى تَدَارُكِ مَا فَاتَ. ثُمَّ اسْتَمرَّ عَلَى حُزْنِهِ فَلَمْ يَطْعَمْ طَعَاماً وَلاَ شَراباً حَتَّى مَاتَ إِلَى جَانِبِهَا.

وَالعَاقِلُ لاَ يَعْجَلُ فِي العَذَابِ وَالعُقُوْبَةِ، وَلاَ سِيَّمَا مَنْ يَخَافُ النَّدَامَةَ كَمَا نَدِمَ الحَمامُ الذَّكَرُ.

مَثَلُ القِرْدِ وَطَبَقِ العَدَسِ

وَقَدْ سَمِعْتُ أَيْضاً أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ الجَبَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ طَبَقٌ مِنَ العَدَسِ، فَوَضَعَ الطَّبَقَ عَلَى الأَرْضِ لِيَسْتَرِيْحَ، فَنَزَلَ قِرْدٌ مِنْ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِلْءَ كَفِّهِ مِنَ العَدَسِ، وَصَعِدَ الشَّجَرَةَ، فَسَقطَتْ مِنْ يَدِهِ حَبَّةٌ، فَنَزَلَ فِي طَلَبِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا وَانْتَثَرَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ العَدَسِ أَجْمَعُ.

---

١ تتنصَّل: تتبرَّأ.

وَأَنْتَ أَيْضاً أَيُّهَا المَلِكُ عِنْدَكَ كَثِيْرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ تَدَعُهُمْ وَتَطْلُبُ مَا لاَ تَجِدُ.
فَلمَّا سَـمِعَ المَلِكُ ذَلِكَ خَشِـيَ أَنْ تَكُوْنَ إِيْرَاخْتُ قَدْ هَلَكَتْ فَقَالَ: إِيْهاً[1] إِيْلاَذُ مِنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ سَـــاعَتِكَ، وَتَعَلَّقْتَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ كَانَ مِنِّي، وَلَمْ تَتَثَبَّتْ فِي الأَمْرِ.
قَالَ إِيْلاَذُ: إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ وَاحِدٌ لاَ يَخْتَلِفُ، هُوَ اللهُ الَّذِي لا تَبْدِيْلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلاَ اخْتِلاَفَ لِقَوْلِهِ.
قَالَ المَلِكُ: لَقَدْ أَفْسَدْتَ أَمْرِي، وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِيْرَاخْتَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: اثْنَانِ يَنْبَغِي لَهُما أَنْ يَحْزَنَا: الَّذِي يَعْمَلُ الإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَالَّذِي لاَ يَعْمَلُ الخَيْرَ أَبداً، لأَنَّ فَرَحَهُما فِي الدُّنْيَا وَنَعِيْمَهُما قَلِيْلٌ، وَنَدَامَتَهُما إِذَا يُعَانِيَانِ الجَزَاءَ طَوِيْلَةٌ، لاَ يُسْتَطَاعُ إِحْصَاؤُهَا.
قَالَ المَلِكُ: لَئِنْ رَأَيْتُ إِيْرَاخْتَ حَيَّةً لا أَحْزَنُ عَلَى شَيءٍ أَبَداً.
قَالَ إِيْلاَذُ: اثْنَانِ لاَ يَنْبَغِي لَهُما أَنْ يَحْزَنَا: المُجْتَهِدُ فِي البِرِّ كُلَّ يَوْمٍ، وَالَّذِي لَمْ يَأْثَمْ قَطُّ.
قَالَ المَلِكُ: مَا أَنَا بِنَاظِرٍ إِلَى إِيْرَاخْتَ أَكْثَرَ مِمَا نَظَرْتُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: اثْنَانِ لاَ يَنْظُرَانِ: الأَعْمَى، وَالَّذِي لاَ عَقْلَ لَهُ. وَكَمَا أَنَّ الأَعْمَى لاَ يَنْظُرُ السَّـــمَاءَ وَنُجُوْمَهَا، وَلاَ يَنْظُرُ البَعْدَ وَالقُرْبَ، كَذَلِكَ الَّذِي لاَ عَقْلَ لَهُ لاَ يَعْرِفُ الحَسَنَ مِنَ القَبِيْحِ، وَلاَ المُحْسِنَ مِنَ المُسِيءِ.
قَالَ المَلِكُ: لَوْ رَأَيْتُ إِيْرَاخْتَ لاَشْتَدَّ فَرَحَي.
قَالَ إِيْلاَذُ: اثْنَانِ هُمَا الفَرِحَانِ: البَصِـيْرُ وَالعَالِمُ. فَكَمَا أَنَّ البَصِـيْرَ يُبْصِـرُ أُمُوْرَ العَالَمِ وَمَا فِيْهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَـانِ وَالبَعِيْدِ وَالقَرِيْبِ، فَكَذَلِكَ العَالِمُ، يُبْصِـرُ البِرَّ وَالإِثْمَ، وَيَعْرِفُ أَعْمَالَ الآخِرَةِ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجَاتُهُ، وَيُهْدِي إِلَى صِرَاطٍ[2] مُسْتَقِيْمٍ.
قَالَ المَلِكُ: إِنِّي لَمْ أَشْتَفِ[3] مِنَ النَّظَرِ إِلَى إِيْرَاخْتَ بَعْدُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: اثْنَانِ لاَ يَشْـــتَفِيَانِ أَبَداً: مَنْ يَكُوْنُ هَمُّهُ جَمْعَ المَالِ وَادِّخَارَهُ، وَمَنْ يَأْمَلُ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَيَسْأَ مَا لاَ يَجِدُ.
قَالَ المَلِكُ: يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَبَاعَدَ مِنْكَ يَا إِيْلاَذُ، وَنَأْخُذَ الحَذَرَ وَنَلْزَمَ الاتِّقَاءَ([4]).
قَالَ إِيلاَذُ: اثْنَانِ يَنْبَغِي أَنْ يُتَبَاعَدَ مِنْهُمَا: الَّذِي يَقُوْلُ لاَ بِرَّ وَلاَ إِثْمَ، ولاَ عِقَابَ وَلاَ ثَوابَ، وَلاَ شَـــيْ عَلَيَّ مِمَّا أَنَا فِيْهِ، وَالَّذِي لاَ يَكَادُ يَصْـــرِفُ بَصَـــرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ بِمُحَلَّلٍ، وَلاَ أُذُنَهُ عَنِ اسْتِمَاعِ السُّوْءِ، وَلاَ نَفْسَـهُ عَنْ خَاصَّـةِ غَيْرِهِ، وَلاَ قَلْبَهُ عَمَّا تَهُمُّ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الإِثْمِ وَالحِرْصِ.

---

١ إيهاً: اسم فعل أمر بمعنى كفى.
٢ الصِّراط: الطَّريق.
٣ لم أشتفِ: لم أكتف.
٤ الاتِّقاء: التَّحفُّظ.

قَالَ المَلِكُ: صَارَتْ يَدِي مِنْ إِيْرَاخْتَ صِفْراً.
قَالَ إِيْلاَذُ: أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ أَصْفَارٌ: النَّهْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، وَالأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيْهَا مَلِكٌ، وَالمَرْأَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَعْلٌ، وَالجَاهِلُ الَّذِي لاَ يَعْرِفُ الخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ.
قَالَ المَلِكُ: إِنَّكَ يَا إِيْلاَذُ لَتُلَقَّى[1] الجَوَابَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يُلَقَّوْنَ الجَوَابَ: المَلِكُ الَّذِي يُعْطِي وَيَقْسِمُ مِنْ خَزَائِنِهِ، وَالمَرْأَةُ المُهْدَاةُ إِلَى مَنْ تَوَدُّ مِنْ ذَوِي الحَسَبِ، وَالرَّجُلُ العَالِمُ المُوَفَّقُ لِلْخَيْرِ.
قَالَ المَلِكُ: أَهَلَكَتْ إِيْرَاخْتُ يَا إِيْلاَذُ بِغَيْرِ حَقٍّ؟
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاثَةٌ هُمُ الزَّائِغُوْنَ[2] عَنِ الحَقِّ: الَّذِي يَلْبَسُ الثِّيَابَ البِيْضَ ثُمَّ يَنْفُخُ بِالكِيْرِ[3] فَيُسَوِّدُهَا بِالدُّخَانِ، وَالقَصَّارُ[4] الَّذِي يَلْبَسُ الجَوْرَبَيْنِ الجَدِيْدَيْنِ وَرِجْلاَهُ أَبَداً فِي المَاءِ، وَالَّذِي يَقْتَنِي الفَرَسَ الكَرِيْمَ لِلرُّكُوْبِ ثُمَّ يَلْتَهِي عَنْهُ فَلاَ يَرْكَبُهُ فَيَبْطَرُ.
قَالَ المَلِكُ: لَيْتَنِي أَنْظُرُ إِلَى إِيْرَاخْتَ قَبْلَ فِرَاقِ الدُّنْيَا.
قَالَ إِيْلاَذُ: الَّذِيْنَ يَطْلُبُوْنَ مَا لاَ يَقْدِرُوْنَ عَلَيْهِ ثَلاَثَةٌ: مَنْ لاَ وَرَعَ لَهُ وَهُوَ يَرْتَجِي ثَوَابَ الأَبْرَارِ، وَالبَخِيْلُ الَّذِي يَلْتَمِسُ بِبُخْلِهِ أَنْ يَنَالَ مَنْزِلَةَ السَّخِيِّ، وَالفَاجِرُ الَّذِي يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَأْمُلُ أَنَّ رُوْحَهُ مِنْ أَرْوَاحِ الشُّهَدَاءِ.
قَالَ المَلِكُ: إِنَّكَ لَتُحْزِنُني بِتَعْزِيَتِكَ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَحْزَنُوا: الَّذِي فَرَسُهُ سَمِيْنٌ حَسَنُ المَنْظَرِ سَيِّءُ المَخْبَرِ، وَصَاحِبُ المَرَقَةِ[5] الَّتي كَثُرَ مَاؤُهَا وَقَلَّ لَحْمُهَا فَصَارَتْ لاَ طَعْمَ لَهَا، وَالَّذِي لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِكْرَامِ زَوجَتِهِ ذَاتِ الحَسَبِ فَلاَ تَزَالُ تُسْمِعُهُ مَا يُؤْذِيْهِ.
قَالَ المَلِكُ: إِنَّك لأَهْلٌ أَنْ تُعَذَّبَ أَشَدَّ العَذَابِ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاثَةٌ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُعَذَّبُوا: المُجْرِمُ الَّذِي يُعَاقِبُ مَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ، وَالمُتقدِّمُ إِلَى مَائِدَةٍ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا، وَالَّذِي يَسْأَلُ أَصْدِقَاءَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَدَعْ مَسْأَلَتَهُمْ.
قَالَ المَلِكُ: إِنَّهُ لَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُسَفَّهَ يَا إِيْلاذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُسَفَّهُوا: النَّجَّارُ الَّذِي يَنْزِلُ البَيْتَ الصَّغِيْرَ بِأَهْلِهِ، ثُمَّ لاَ يَزَالُ يَنْشُرُ الخَشَبَ فَيَمْلأُ بَيْتَهُ مِنَ الحَطَبِ، وَيَصِيْرُ هُوَ وَامْرَأَتُهُ فِي ضِيْقٍ، وَالطَّبِيْبُ الَّذِي يَعْمَلُ بِالمُوْسَى وَلاَ يُحْسِنُ الاتِّقَاءَ فَيَقْطَعُ لُحُوْمَ النَّاسِ،

---

١ لتلقَّى: تُلهم الجواب وتوفَّق به.
٢ الزَّائغون: المائلون.
٣ الكير: الزِّقُّ الذي ينفخ فيه الحداد.
٤ القصَّار: مبيِّض الثِّياب.
٥ المرقة: ما يؤتدم به.

وَالغَرِيْبُ المُقِيْمُ بَيْنَ ظَهْرِ عَدُوِّهِ وَلاَ يُرِيْدُ الرُّجُوْعَ إِلَى أَهْلِهِ وَوَطَنِهِ، وَإِنْ مَاتَ فِي غُرْبَتِهِ أَيْضاً وَرِثُوْهُ فَيَصِيْرُ مَالُهُ لِلْغُرَبَاءِ وَيَنْسَى ذِكْرُهُ.
قَالَ المَلِكُ: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْكُنَ حَتَّى يَذْهَبَ غَضَبِي يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْكُنُوا: الَّذِي يَرْقَى الجَبَلَ الطَّوِيْلَ، وَالَّذِي يَصِيْدُ السَّمَكَ، وَالَّذِي يَهِمُ بِالعَمَلِ الجَسِيْمِ.
قَالَ المَلِكُ: إِنِّي لَحِقِيْرٌ فِي عَيْنِكَ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يُحقِّرُوْنَ أَرْبَابَهُمْ: الَّذِي يَجتَرِئُ وَيَهْذِي[1] بِالكَلاَمِ وَيَقُوْلُ مَا يَعْلَمُ وَمَا لاَ يَعْلَمُ، وَالمَمْلُوْكُ الغَنِيُّ الَّذِي سَيِّدُهُ مِنْ مَالِهِ شَيْئاً وَلاَ يُعِيْنُهُ بِهِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُغْلِظُ لِسَيِّدِهِ فِي القَوْلِ، وَيُخَاصِمُهُ ثُمَّ يُطِيْلُ فِي الخُصُومَةِ.
قَالَ المَلِكُ: إِنَّكَ لَتَسْخَرُ بِي يَا إِيْلاَذُ، وَدِدْتُ أَنَّ إِيْرَاخْتَ لَمْ تَكُنْ مَاتَتْ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُسْخَرَ مِنْهُمْ: الَّذِي يَقُوْلُ: شَهِدْتُ زُحُوْفاً[2] كَثِيْرَةً، فَأَكْثَرْتُ القَتْلَ وَالسَّبْيَ، فَلاَ يُرَى فِي جَسَدِهِ أَثَرٌ مِنَ القِتَالِ، وَالَّذِي يُخْبِرُ أَنَّه عَالِمٌ بِالدِّيْنِ نَاسِكٌ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ يَعِيْشُ بِالتَّنَعُّمِ وَالرَّفَاهِيَّةِ، تَرَاهُ أَسْمَنَ مِنَ الأَئِمَةِ الفُجَّارِ، فَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُسْخَرَ مِنْهُ وَيُتَّهَمُ فِيمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَذَابَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ يَكُوْنُ مَهْزُوْلَ الجِسْمِ قَلِيْلَ الطَّعَامِ، وَالمَرْأَةُ الَّتِي تَسْخَرُ مِنْ ذَاتِ الزَّوْجِ وَلَعَلَّهَا أَنْ تَكُوْنَ بَذِيَّةً[3].
قَالَ المَلِكُ: إِنَّكَ لُمتَجَبِّرٌ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يَتَجَبَّرُوْنَ: الجَاهِلُ الَّذِي يُعَلِّمُ السَّفِيْهَ وَيَقْبَلُ مِنْهُ وَيُمَارِيْهِ فَيَصِيْرَ أَمْرُهُ إِلَى نَدَامَةٍ، وَالَّذِي يُهَيِّجُ السَّفِيْهَ وَيَتَحَرَّشُ بِهِ مُتَعَمِّداً أَذَاهُ فَيُؤْذِي بِذَلِكَ نَفْسَهُ، وَالَّذِي يُفْضِي سِرَّهُ إِلَى مَنْ لاَ يَخْتَبِرُهُ وَيُدْخِلُهُ فِي الأَمْرِ العَظِيْمِ وَيَثِقُ بِهِ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ.
قَالَ المَلِكُ: أَنَا الَّذِي جَلَبْتُ المَشَقَّةَ عَلَى نَفْسِي.
قَالَ إِيْلاَذُ: اثْنَانِ هُما اللَّذَانِ يَجْلِبَانِ المَشَقَّةَ عَلَى نَفْسَيْهِمَا: الَّذِي يَنْكُصُ[4] عَلَى عَقْبَيْهِ وَيَمْشِي القَهْقَرَى[5]، فَرُبَّمَا عَثَرَ فَيَتَرَدَّى[6] فِيْ بِئْرٍ أَوْ يَقَعُ فِي مِهْوَاةٍ[7]، وَالَّذِي يَقُوْلُ: أَنَا مِنَ كُمَاةِ الحَرْبِ[8] فَيَغُرُّ غَيْرَهُ، فَإِذَا حَضَرَ النَّاسُ لِلْقِتَالِ تَلَفَّتَ يَمِيْناً وَشَمَالاً فَيَحْتَالُ لِلْفَرَارِ.

---

١ يهذي: يتكَّلم بكلام غير مفهوم.
٢ الزُّحوف: المعارك.
٣ البذيَّة: ذات الكلام الفاحش.
٤ ينكص: يتراجع.
٥ القهقرى: الرُّجوع إلى الخلف.
٦ يتردَّى: يسقط.
٧ المهواة: الهاوية.
٨ كماة الحرب: فرسان الحرب.

قَالَ المَلِكُ: لَقَدْ تَصَرَّمَ[١] مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ لاَ يَلْبَثُ وُدُّهُمْ أَنْ يَتَصَرَّمَ: الخَلِيْلُ الَّذِي لاَ يُلاَقِي خَلِيْلَهُ وَلاَ يُكَاتِبُهُ وَلاَ يُرَاسِلُهُ، وَالخِلُّ يُكْرِمُهُ أَحِبَّاؤُهُ وَلاَ يُنْزِلُ ذَلِكَ مَنْزِلَتَهُ وَلاَ يَقْبَلُهُ بِقَبُوْلِهِ وَلَكِنَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَسْخَرُ مِنْهُمْ، وَالقَاصِدُ خِلاَّنَهُ فِي النَّعِيْمِ وَالفَرَجِ وَقُرَّةِ العَيْنِ، يَسْأَلُهُمْ الأَمْرَ الَّذِي لاَ يَقْدِرُوْنَ عَلَيْهِ، ثُمَّ لا يُثِيبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئاً.
قَالَ المَلِكُ: قَدْ عَمِلْتَ بِقَتْلِ إِيْرَاخْتَ عَمَلاً يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى خِفَّةِ حِلْمِكَ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ يَعْمَلُوْنَ بِجُرْأَتِهِمْ مَا تَسْتَبِيْنُ بِهِ خِفَّةُ أَحْلاَمِهِمْ: المُسْتَوْدِعُ مَالَهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ أَمَانَتَهُ، وَالأَبْلَهُ القَلِيْلُ العَقْلِ الجَبَانُ الَّذِي يُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّهُ شُجَاعٌ مُقَاتِلٌ بَصِيْرٌ بِجَمْعِ المَالِ وَاتِّخَاذِ الأَخِلاَّءِ وَبِنَاءِ البُنْيَانِ وَهُوَ كَاذِبٌ فِي كُلِّ مَا ذَكَرَ، وَالَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ تَارِكٌ أُمُوْرَ الجَسَدِ مُقْبِلٌ عَلَى أُمُوْرِ الرُّوحِ وَهُوَ لاَ يُلْقَى إِلاَّ مُتَابِعاً لِهَوَاهُ تَارِكاً لأَمْرِ الله وَتَنْفِيْذِ وَصِيَّتِهِ.
قَالَ المَلِكُ: إِنَّكَ لَغَيْرُ عَاقِلٍ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ لا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُعَدُّوا مِنْ ذَوِي العَقْلِ: الإِسْكَافُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى المَكَانِ المُرْتَفِعِ فَإِذَا تَدَحْرَجَ شِفَارُهُ[٢] أَوْ شَيءٌ مِنْ أَدَوَاتِهِ شَغَلَهُ عَنْ كَثِيْرٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَالخَيَّاطُ الَّذِي يُطِيْلُ خَيْطَهُ فَإِذَا تَعَقَّدَ شَغَلَهُ عَنْ كَثِيْرٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَالَّذِي يَقُصُّ أَشْعَارَ النَّاسِ وَيَلْتَفِتُ يَمِيْناً وَشَمَالاً فَيُفْسِدُ شُعُورَهُمْ فَيَسْتَوْجِبُ بِمَا أَذْنَبَ العُقُوْبَةَ.
قَالَ المَلِكُ: كَأَنَّكَ تُرِيْدُ يَا إِيْلاذُ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ كُلَّهُمْ حَتَّى يَمْهُرُوا مِثْلَكَ، فَتُرِيْدُ أَنْ تُعَلِّمَنِي حَتَّى أَكُوْنُ مَاهِراً.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَلاَثَةٌ زَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ مَهُروا وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّمُوا: الَّذِي يَضْرِبُ بِالصَّنْجِ[٣] وَالعُوْدِ وَالطَّبْلِ وَلاَ يُوَافِقُ المِزْمَارَ وَسَائِرَ الأَلْحَانِ وَالمُصَوِّرُ الَّذِي يُحْسِنُ خَطَّ التَّصَاوِيْرِ وَلاَ يُحْسِنُ خَلْطَ الأَصْبَاغِ وَالَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ لَيْسَ مُحْتَاجاً إِلَى عِلْمِ شَيءٍ مِنَ الأَعْمَالِ وَأَنَّهُ بِالأَعْمَالِ وَالصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا عَالِمٌ وَلاَ يُبْصِرُ غَوْرَ الكَلاَمِ وَكَيْفَ هُوَ وَفِي أَيِّ سَاعَةٍ لَهُ أَنْ يُكَلِّمَ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَمَنْ هُوَ دُوْنَهُ.
قَالَ المَلِكُ: لَمْ تَعْمَلْ بِحَقٍّ إِذْ قَتَلْتَ إِيْرَاخْتَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: أَرْبَعَةٌ يَعْمَلُوْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ: الَّذِي لاَ يَصْدُقُ لِسَانُهُ وَلاَ يَحْفَظُ قَوْلَهُ، وَالسَّرِيْعُ فِي الأَكْلِ البَطِيءُ فِي العَمَلِ وَخِدْمَةِ مَنْ فَوْقِهِ، وَالَّذِي لاَ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُسْكِنَ غَضَبَهُ قَبْلَ خِزْيِ الذَّنْبِ، وَالمَلِكُ الَّذِي يَهِمُّ بِالأَمْرِ العَظِيْمِ ثُمَّ يَتْرُكُهُ.

---

١ تصرَّم: انقطع.
٢شفاره: جمع شفرة، وهي السّكّين.
٣الصَّنج: صفيحة مدوّرة من صفر يُضرب بها على أخرى. وصفائح صغيرة مستديرة تثبَّت في أطراف الدُّفِّ أو في أصابع الرَّاقصة يُدقُّ بها عند الطَّرب.

قَالَ المَلِكُ: لَوْ عَمِلْتُ بُسُنَّتِي لَمْ تَقْتُلْ إيْرَاخْتَ.
قَالَ إيْلاَذُ: أَرْبَعَةٌ يَعْمَلُوْنَ بِسُنَّةٍ: الَّذِي يَصْنَعُ الطَّعَامَ لِحِيْنِهِ وَيُهَيِّئُهُ فَيُقَدِّمُهُ لِسَيِّدِهِ لأَوَانِهِ، وَالَّذِي يَرْضَى بِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَصْرِفُ نَظَرَهُ عَنْ نِسَاءِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لاَ يَحِلُّ لَهُ وَالمَلِكُ الَّذِي يَعْمَلُ الأَمْرَ العَظِيْمَ بِمُشَاوَرَةِ العُلَمَاءِ، وَالرَّجُلُ الَّذِي يَقْهَرُ غَضَبَهُ.
قَالَ المَلِكُ: مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَثِقَ بِكَ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: أَرْبَعَةٌ لاَ يُوْثَقُ بِهِمْ: الحَيَّةُ المَارِدَةُ، وَكُلُّ سَبُعٍ مَخُوْفٍ مِنَ الحَيَوَانِ، وَالأَئِمَةُ الفُجَّارُ، وَالجَسَدُ الَّذِي قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِالمَوْتِ.
قَالَ المَلِكُ: إِنَّ ذَوِي الكَرَمِ مِنَ النَّاسِ لاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُضَاحِكُوا وَلاَ يُلاَعِبُوا.
قَالَ إِيْلاَذُ: أَرْبَعَةٌ لاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُضَاحِكُوا وَلاَ يُلاَعِبُوا: المَلِكُ العَظِيْمُ السُّلْطَانِ، وَالنَّاسِكُ المُتَعَبِّدُ، وَالرَّجُلُ السَّاحِرُ الخَسِيْعُ[1]، وَاللَّئِيْمُ الشَّرِهُ الطَّبِيْعَةِ.
قَالَ المَلِكُ: مَا يَنْبَغِي لَنَا مُخَالَطَتُكَ يَا إِيْلاَذُ بَعْدَ قَتْلِكَ إِيْرَاخْتَ.
قَالَ إِيلاَذُ: أَرْبَعَةٌ لاَ يُخَالِطُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالبَرُّ وَالفَاجِرُ، وَالنُّوْرُ وَالظُّلْمَةُ، وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ.
قَالَ المَلِكُ: مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَثِقَ بِكَ يَا إِيْلاَذُ أَبَداً.
قَالَ إِيْلاَذُ: أَرْبَعَةٌ لاَ يُوْثَقُ بِهِمْ: اللِّصُّ، وَالكَذُوْبُ، وَالمَذَّاقُ[2]، وَالحَقُوْدُ المُتسَلِّطُ.
قَالَ المَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيَّ إِيْرَاخْتَ حَيَّةً فَلَهُ عِنْدِي مِنَ المَالِ مَا أَحَبَّ.
قَالَ إِيْلاَذُ: خَمْسَةٌ المَالُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ: الَّذِي يُقَاتِلُ بِالأُجْرَةِ لاَ نِيَّةَ لَهُ فِي القِتَالِ إِلاَّ إِصَابَةُ أُجْرَتِهِ، وَاللِّصُّ الَّذِي يَنْقُبُ البُيُوتَ وَيَقْطَعُ الطَّرِيْقَ فَتُقْطَعُ يَدَاهُ أَوْ يُقْتَلُ، وَالتَّاجِرُ الَّذِي يَرْكَبُ البَحْرَ يَطْلُبُ جَمْعَ المَالِ، وَصَاحِبُ السِّجْنِ الَّذِي مُنَاهُ أَنْ يَكْثُرَ أَهْلُ سِجْنِهِ لِيُصِيْبَ مِنْهُمْ، وَالمُرْتَشِي فِي الحُكْمِ.
قَالَ المَلِكُ: قَدْ أَثْبَتَّ فِي نَفْسِي عَلَيْكَ حِقْداً بِقَتْلِكَ إِيْرَاخْتَ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: أَرْبَعَةٌ الحِقْدُ بَيْنَهُمْ ثَابِتٌ: الذِّئبُ وَالخَرُوْفُ، السِّنَّوْرُ وَالفَأْرَةُ، البَازِيُّ وَالدُّرَّاجُ، والبُوْمُ وَالغُرَابُ.
قَالَ المَلِكُ: لَقَدْ كَرِهْتُ قَتْلَ إِيْرَاخْتَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: سَبْعَةٌ أَشْيَاءَ مَكْرُوْهَةٍ: الشَّيْخُوْخَةُ الَّتِي تَسْلُبُ الشَّبَابَ وَالبَهَاءَ، وَالوَجَعُ الَّذِي يُنْحِلُ الجِسْمَ وَيَنْزِفُ الدَّمَ، وَالغَضَبُ الَّذِي يُفْسِدُ عِلْمَ العُلَمَاءِ وَحُكْمَ الحُكَمَاءِ، وَالهَمُّ الَّذِي يُنْقِصُ العَقْلَ وَيَسُلُّ الجِسْمَ، وَالبَرْدُ الَّذِي يَضُرُّ، وَالجُوْعُ وَالعَطَشُ اللَّذَانِ يُجْهِدَانِ كُلَّ شَيءٍ وَيُخْزِيَانِهِ، وَالمَوْتُ الَّذِي يُفْسِدُ جَمِيْعَ البَشَرِ.

١الخسيع: الخسيس.
٢المذَّاق: الخائن.

قَالَ المَلِكُ: غَبَنْتَنِي وَغَبَنْتَ نَفْسَكَ يَا إِيْلاَذُ.
قَالَ إِيْلاَذُ: ثَمَانِيَةٌ يَغْبِنُوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ: ذُو العِلْمِ القَلِيْلِ يَتكلَّف أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ كَثِيْراً، وَالرَّجُلُ العَظِيْمُ ذُو العَقْلِ وَلَيْسَ يَدْرِي فِطْنَةً، وَالَّذِي يَطْلُبُ مَا لاَ يُدْرِكُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ إِدْرَاكُهُ، وَالبَذِيءُ الفُجُوْرُ الأَشَــرُّ العَادِي طَوْرَهُ المُسْــتَغْنِي بِرَأْيِهِ عَنْ مُشَاوَرَةِ الأَخِلاَّءِ مِنْ أَهْلِ العَقْلِ وَالنُّصْحِ لَهُ، وَمُوَارِبُ[١] المُلُوْكِ وَالعُظَمَاءِ وَلاَ حِلْمَ وَلاَ عِلْمَ، وَمُطَّلِبُ العِلْمِ الَّذِي يُخَاصِــمُ فِيْهِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ وَلاَ يَقْبَلُ مِنْهُ مَا عَلَّمَهُ، وَمُجَامِلُ المُلُوْكِ غَيْرَ مَانِحٍ لَهُمُ الصَّفَاءَ وَلاَ بَاذِلٌ لَهُمْ وِدَّ صَدْرِهِ، وَمَلِكٌ قَهْرَمَانُهُ[٢] وَخَازِنُهُ كَذَّابٌ مِهْذَارٌ[٣] سَــيِّئُ الطَّبِيْعَةِ لاَ يَقْبَلُ الأَدَبَ مِنْ مُؤَدِّبٍ.
قَالَ المَلِكُ: أَنَا الَّذِي جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي وَجَرَرْتُ البَلاَءَ إِلَيْهَا.
قَالَ إِيْلاَذُ: أُوْلَئِكَ فِي النَّاسِ خَمْسَــةٌ: الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلْقِتَالِ وَهُوَ أَعْزَلُ، وَالبَخِيْلُ يَجْمَعُ مَالَهُ فِي مَنْزِلِهِ وَلاَ أَحَدَ مَعَهُ فَيَقْصِدُهُ اللُّصُـوْصُ فَيَقْتُلُوْنَهُ وَيَأْخُذُوْنَ مَالَهُ، وَالكَبِيْرُ يَخْطِبُ الصَّــغِيْرَةَ، وَالقَبِيْحُ يَخْطِبُ الجَمِيْلَةَ، وَالمَرْأَةُ الَّتِي تُحِبُّ وَلَدَهَا وَهُوَ شَاطِرٌ عَارِمٌ[٤]، فَهِيَ تَسْتُرُ أُمُوْرَهُ وَتُخْفِيْهَا ثُمَّ هُوَ يَكُوْنُ تَعَباً لَهَا وَوَبالاً[٥] عَلَيْهَا.
قَالَ المَلِكُ: قَدْ وَضَعْتُ الأَمْرَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ فِي قَتْلِي إِيْرَاخْتَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَةٌ، وَهُمْ: الطَّائِرُ الَّذِي يَرْفَعُ رِجْلَيْهِ نَحْوَ السَّــمَاءِ خَوْفاً مِنْ سُــقُوْطِهَا عَلَيْهِ، وَالكُرْكِيُّ الَّذِي يَقُوْمُ عَلَى رِجْلٍ وَاحِدَةٍ، وَلاَ يَضَــعُ الثَّانِيَةَ عَلَى الأَرْضِ خَوْفَ أَنْ يَخْسِفَهَا، وَالغَنِيُّ البَخِيْلُ إِذَا أَكَلَ لاَ يَشْبَعُ يَخَافُ عَلَى مَالِهِ مِنَ النَّفَادِ، كَالخَرَاطِيْنِ[٦] الَّتِي طَعَامُهَا التُّرَابُ تَقْصِــدُ الإِقْلاَلَ مِنَ الأَكْلِ مِنْهُ لِئَلاَّ يَنْفَدَ وَيَفْنَى، وَكَالكَلْبِ الَّذِي يَلِغُ مِنَ النَّهْرِ بِلِسَــانِهِ، وَلاَ يَعُبُّ مِنْهُ حِذَارَ أَنْ يَجِفَّ، وَالخُفَّاشُ الَّذِي يَطِيْرُ بِاللَّيْلِ، لاَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالنَّهَارِ مَخَافَةَ أَنْ يَصْطَادَهُ النَّاسُ لِحُسْنِهِ وَهُوَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ.
قَالَ المَلِكُ: لَمْ أَحْزَنْ قَطُّ حُزْنِي عَلَى إِيْرَاخْتَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: خَمْسَــةُ أَشْــيَاءَ إِذَا كُنَّ فِي المَرْأَةِ، كَانَتْ أَهْلاً أَنْ يُحْزَنَ عَلَيْهَا: إِذَا كَانَتْ عَفِيْفَةً، كَرِيْمَةَ الحَسَبِ وَالنَّسَبِ، عَاقِلَةً، جَمِيْلَةً، مُوَافِقَةً لِزَوْجِهَا مُحِبَّةً لَهُ.

١الموارب: المعارض.
٢القهرمان: أمين الملك.
٣المِهْذار: من يكثر في كلامه الخطأ والباطل.
٤العارم: الشَّرس المؤذي.
٥الوبال: الهلاك.
٦الخراطين: ديدان الأرض، تعيش في الأرض الرَّطبة.

قَالَ المَلِكُ: لَيْسَ تَأْخُذُنِي سِنَةٌ[١] وَلاَ نَوْمٌ مِنْ حُزْنِي عَلَى إِيْرَاخْتَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: اثْنَانِ لاَ يَهْجَعَانِ[٢] وَلاَ يَسْتَرِيْحَانِ: الكَثِيْرُ المَالِ وَلَيْسَ لَهُ خَازِنٌ وَلاَ أَمِيْنٌ، وَالشَّدِيْدُ المَرَضِ وَلاَ طَبِيْبَ لَهُ.
ثُمَّ إِنَّ إِيْلاَذَ، لمَّا رَأَى المَلِكَ قَدْ اشْتَدَّ بِهِ الأَمْرُ، سَكَتَ. فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا بَالُكَ يَا إِيْلاَذُ سَكَتَّ. قَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ، إِنِّي قَدْ تَجَاسَرْتُ عَلَيْكَ فِيمَا امتَحَنْتُكَ بِهِ إِرَادَةَ أَنْ أَعْلَمَ مَا آلَ[٣] إِلَيْهِ أَمْرُكَ فِي إِيْرَاخْتَ، وَأَرَانِي قَدْ تَجَاوَزْتُ طَوْرِي فِي ذَلِكَ، وَبَانَ لِي مِنْ حِلْمِكَ وَعَقْلِكَ مَا أَذْهَلَنِي، إِذْ لَمْ يَبْدُ مِنْكَ مَعَ مَا اجتَرَأْتُ بِهِ عَلَيْكَ شَيءٌ مِنَ الغَضَبِ، وَلاَ تَغَيَّرْتَ عَنْ حَالِكَ، وَهَا أَنَا شَاكِرٌ لِعَفْوِكَ وَصَفْحِكَ وَتَجَاوُزِكَ عَنِّي، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنِّي إِلاَّ نُصْحاً وَاسْتِطْلاَعاً لأَمْرِهِ، فَاعْفُ عَنِّي إِنْ شِئْتَ أَوْ فَعَاقِبْنِي بِمَا تَرَاهُ، فَإِنَّ إِيْرَاخْتَ بِالحَيَاةِ.
فَلَمَّا سَمِعَ المَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ فَرَحُهُ وَقَالَ: يَا إِيْلاَذُ، إِنَّمَا مَنَعَنِي مِنَ الغَضَبِ مَا عُرِفَ مِنْ نَصِيْحَتِكَ وَصِدْقِ حَدِيْثِكَ، وَكُنْتُ أَرْجُو لِمَعْرِفَتِي بِعِلْمِكَ أَلاَّ تَكُوْنَ قَدْ قَتَلْتَ إِيْرَاخْتَ، فَإِنَّهَا وَإِنْ تَكُنْ أَتَتْ عَظِيْماً وَأَغْلَظَتْ فِي القَوْلِ، لَمْ تَأْتِهِ عَدَاوَةً وَلاَ طَلَبَ مَضَرَّةٍ، وَلَكِنَّهَا فَعَلَتْ ذَلِكَ لِغَيْرَةٍ. وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعْرِضَ عَنْ ذَلِكَ وَأَحْتَمِلَهُ، وَلَكِنَّكَ يَا إِيْلاَذُ أَرَدْتَ أَنْ تَخْتَبِرَنِي وَتَتْرُكَنِي فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِهَا، وَقَدْ اتَّخَذْتَ عِنْدِي أَفْضَلَ الأَيَادِي، وَأَنَا لَكَ شَاكِرٌ فَانْطَلِقْ فَأْتِنِي بِهَا.
فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ المَلِكِ فَأَتَى إِيْرَاخْتَ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَتَزَيَّنَ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ وَانْطَلَقَ بِهَا. فَلَمَّا دَخَلَتْ سَجَدَتْ لِلْمَلِكِ، ثُمَّ قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَتْ: أَحْمَدُ اللهُ تَعَالَى ثُمَّ أَحْمَدُ المَلِكَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيَّ. قَدْ أَذْنَبْتُ الذَّنْبَ العَظِيْمَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لِلْبَقَاءِ أَهْلاً بَعْدَهُ، فَوَسِعَهُ حُلْمُهُ وَكَرَمُ طَبْعِهِ وَرَأْفَتُهُ، ثُمَّ أَحْمَدُ إِيْلاَذَ الَّذِي أَخَّرَ أَمْرِي، وَأَنْجَانِي مِنَ الهَلَكَةِ لِعِلْمِهِ بِرَأْفَةِ المَلِكِ، وَسَعَةِ حِلْمِهِ، وَجُوْدِهِ وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ، وَوَفَاءِ عَهْدِهِ.
وَقَالَ المَلِكُ لإِيْلاَذَ: مَا أَعْظَمَ يَدَكَ عِنْدِي وَعِنْدَ إِيْرَاخْتَ وَعِنْدَ العَامَّةِ، إِذْ قَدْ أَحْيَيْتَهَا بَعْدَمَا أَمَرْتُ بِقَتْلِهَا، فَأَنْتَ الَّذِي وَهَبَها لِيَ اليَوْمَ، فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ وَاثِقاً بِنَصِيْحَتِكَ وَتَدْبِيْرِكَ، وَقَدْ ازْدَدْتَ عِنْدِي كَرَامَةً وَتَعْظِيماً، وَأَنْتَ مُحَكَّمٌ فِي مُلْكِي تَعْمَلُ فِيْهِ بِمَا تَرَى، وَتَحْكُمُ عَلَيْهِ بِمَا تُرِيْدُ، فَقَدْ جَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَوَثِقْتُ بِكَ.
قَالَ إِيْلاَذُ: أَدَامَ اللهُ لَكَ أَيُّها المَلِكُ المُلْكَ وَالسُّرُوْرَ، فَلَسْتُ بِمَحْمُوْدٍ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ، لَكِنْ حَاجَتِي أَلاَّ يَعْجَلَ المَلِكُ فِي الأَمْرِ الجَسِيْمِ الَّذِي يَنْدَمُ عَلَى فِعْلِهِ، وَتَكُوْنُ عَاقِبَتُهُ الغَمَّ وَالحُزْنَ، وَلاَ سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ المَرْأَةِ النَّاصِحَةِ المُشْفِقَةِ، الَّتِي لا يُوْجَدُ فِي الأَرْضِ مِثْلُهَا.

١السِّنَة: النّوم.
٢يهجعان: ينامان.
٣آل: صار.

فَقَالَ المَلِكُ: بِحَقٍّ قُلْتَ يَا إِيْلاَذُ، وَقَدْ قَبِلْتُ قَوْلَكَ، وَلَسْـــتُ عَامِلاً بَعْدَها عَمَلاً كَبِيْراً وَلاَ صَـغِيْراً، فَضْـلاً عَنْ مِثْلِ هَذَا الأَمْرِ العَظِيْمِ الَّذِي مَا سَـلِمْتُ مِنْهُ، إلاَّ بَعْدَ المُؤَامَرَةِ وَالنَّظَرِ وَالتَّرَدُّدِ وَمُشَاوَرَةِ أَهْلِ المَوَدَّةِ وَالرَّأْيِ.
ثُمَّ أَحْسَـــنَ المَلِكُ جَائِزَةَ إِيْلاَذَ، وَمَكَّنَهُ مِنْ أُوْلَئِكَ البَرَاهِمَةِ الَّذِيْنَ أَشَـــارُوا بِقَتْلِ أَحِبَّائِهِ، فَأَطْلَقَ فِيْهِمْ السَّـــيْفَ، وَقَرَّتْ عَيْنُ المَلِكِ وَعُيُوْنُ عُظَمَاءِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَحَمِدُوا اللهَ، وَأَثْنُوا عَلَى كَبَارِيُوْنَ لِسَـــعَةِ عِلْمِهِ وَفَضْـــلِ حِكْمَتِهِ، لأَنَّهُ بِعِلْمِهِ خَلَّصَ المَلِكَ وَوَزِيْرَهُ الصَّالِحَ وَامْرَأَتَهُ الصَّالِحَةَ.

بَابُ النَّاسِكِ وَالضَّيْفِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَل فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الَّذِي يَدَعُ صُنْعَهُ الَّذِي يَلِيْقُ بِهِ وَيُشَاكِلُهُ[1] وَيَطْلُبُ غَيْرَهُ فَلاَ يُدْرِكُهُ وَيَرْجِعُ إِلَى الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَيَبْقَى حَيْرَانَ مُتَرَدِّداً.
قَالَ الفَيْلَسُـوْفُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ الكَرْخِ[2] نَاسِـكٌ عَابِدٌ مُجْتَهِدٌ. فَنَزَلَ بِهِ ضَـيْفٌ ذَاتَ يَوْمٍ فَدَعَا النَّاسِـكُ لِضَـيْفِهِ بِتَمْرٍ لِيُطْرِفَهُ بِهِ[3]، فَأَكَلاَ مِنْهُ جَمِيْعاً. ثُمَّ قَالَ الضَّـــيْفُ: مَا أَحْلَى هَذَا التَّمْرَ وَأَطْيَبَهُ! فَلَيْسَ هُوَ فِي بَلاَدِي الَّتِي أَسْـــكُنُهَا، وَلَيْتَهُ كَانَ فِيْهَا. ثُمَّ قَالَ أَرَى أَنْ تُسَـــاعِدَنِي عَلَى أَنْ آخُذَ مِنْهُ مَا أَغْرِسُـــهُ فِي أَرْضِنَا، فَإِنِّي لَسْتُ عَارِفاً بِثِمَارِ أَرْضِكُمْ هَذِهِ وَلاَ بِمَوَاضِعِهَا.
قَالَ لَهُ النَّاسِـــكُ: لَيْسَ لَكَ فِي ذَلِكَ رَاحَةٌ، فَإِنَّهُ يُثَقِّلُ عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يُوَافِقُ أَرْضَـكُمْ، مَعَ أَنَّ بِلاَدَكُمْ كَثِيْرَةُ الأَثْمَارِ فَمَا حَاجَةٌ مَعَ كَثْرَةِ ثِمَارِهَا إِلَى التَّمْرِ مَعَ وَخَامَتِهِ[4] وَقِلَّةِ مُنَاسَبَتِهِ لِلْجَسَدِ.
ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّاسِكُ: إِنَّهُ لاَ يُعَدُّ سَعِيْداً مَنْ طَلَبَ مَا لاَ يَجِدُ، وَإِنَّكَ سَعِيْدُ الجَدِّ[5] إِذَا قَنِعْتَ بِالَّذِي تَجِدُ وَتَزْهَدُ فِيمَا لاَ تَجِدُ.
وَكَانَ هَذَا النَّاسِـكُ يُحْسِـنُ العِبْرَانِيَّةَ فَسَـمِعَهُ الضَّـيْفُ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَرَّةً فاسْـتَحْسَـنَ كَلاَمَهُ وَأَعْجَبَهُ، فَتَكَلَّفَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ وَعَالَجَ فِي ذَلِكَ نَفْسَهُ أَيَّاماً.

١يشاكله: يوافقه.
٢أرض الكرخ: منطقة ببغداد في العراق.
٣ليطرفه به: ليقدِّمه له.
٤الوخامة: الثِّقل على المعدة.
٥الجدُّ: الحظُّ.

فَقَالَ النَّاسِكُ لَهُ: مَا أَخْلَقَكَ أَنْ تَقَعَ مِمَّا تَرَكْتَ مِنْ كَلاَمِكَ وَتَكَلَّفْتَ مِنْ كَلاَمِ العِبْرَانِيَّةِ فِي مِثْلِ مَا وَقَعَ فِيْهِ الغُرَابُ.
قَالَ الضَّيْفُ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
مَثَلُ الغُرَابِ وَالحجَلَةِ
قَالَ النَّاسِكُ: زَعَمُوا أَنَّ غُرَاباً رَأَى حَجَلَةً تَدْرُجُ وَتَمْشِي، فَأَعْجَبَتْهُ مِشْيَتُهَا وَطَمِعَ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا. فَرَاضَ عَلَى ذَلِكَ نَفْسَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْكَامِهَا[1] وَأَيِسَ مِنْهَا، وَأَرَادَ أَنْ يَعُوْدَ إِلَى مِشْيَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، فَإِذَا هُوَ قَدِ اخْتَلَطَ مَشْيُهُ وَتَخَلَّعَ فِيْهِ وَصَارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مَشْياً.
وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ أَنَّكَ تَرَكْتَ لِسَانَكَ الَّذِي طُبِعْتَ عَلَيْهِ وَأَقْبَلْتَ عَلَى لِسَانِ العِبْرَانِيَّةِ وَهُوَ لاَ يُشَاكِلُكَ، وَأَخَافُ أَلاَّ تُدْرِكَهُ وَتَنْسَى لِسَانَكَ وَتَرْجِعَ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْتَ شَرُّهُمْ لِسَاناً. فَإِنَّهُ قَدْ قِيْلَ إِنَّهُ يُعَدُّ جَاهِلاً مَنْ تكَلَّفَ مِنَ الأُمُوْرِ مَا لاَ يُشَاكِلُهُ وَلَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ، وَلَمْ يُؤَدِّبْهُ عَلَيْهِ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَعْرَفْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ وَذَوِي قَرَابَتِهِ؛ فَإِنَّ العَاقِلَ لاَ يَتَعَدَّى طَوْرَهُ.
وَالوُلاَةُ أَيُّهَا المَلِكُ وَأَرْبَابُ الأَمْرِ أَوْلَى بِالاِنْتِبَاهِ إِلَى هَذَا الشَّأْنِ وَمَنْعِ حُدُوْثِهِ بَيْنَ النَّاسِ، لأَنَّ فِيْهِ مَضَرَّةً لَهُمْ بِمَا يُجَرِّئُ الأَنْفُسَ عَلَى مُنَازَعَتِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيُغْرِيْهَا بِمُقَاوَمَتِهِمْ فِي أَحْكَامِهِمْ، لِمَا فِيْهِ مِنْ إِطْمَاعِ السَّفَلَةِ فِي مَرَاتِبِ أَهْلِ الطَّبَقَةِ العَالِيَةِ، وَمُزَاحَمَةِ اللَّئِيْمِ لِلْكَرِيْمِ، وَالجَاهِلِ لِلْعَالِمِ، وَالخَامِلِ لِلنَّسِيْبِ، وَالدَّنِيءِ لِلشَّرِيْفِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُفْضِي إِلَى تَشَوُّشِ العَالَمِ وَفَسَادِ الأُمُوْرِ وَاخْتِلاَطِ الطَّبَقَاتِ وَضَيَاعِ المَرَاتِبِ وَالأَقْدَارِ. وَالأُمُوْرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ تَجْرِي عَلَى مِثَالٍ وَاحِدٍ يَنْتَهِي إِلَى الأَمْرِ الخَطِيْرِ الجَسِيْمِ مِنْ مُزَاحَمَةِ المَلِكِ عَلَى مُلْكِهِ وَمُضَادَّتِهِ فِيْهِ.

بَابُ السَّائِحِ وَالصَّائِغِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الَّذِي يَضَعُ المَعْرُوْفَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَيَرْجُو الشُّكْرَ عَلَيْهِ.
قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: أَيُّهَا المَلِكُ لَيْسَ أَضْيَعُ مِنْ جَمِيْلٍ يُصْنَعُ مَعَ غَيْرِ شَاكِرٍ، وَلاَ أَخْسَرُ مِنْ صَانِعِهِ. كَمَا أَنَّهُ لاَ بَذْرَ أَنْمَى مِنْ بَذْرِ الجَمِيْلِ فِي قُلُوْبِ الشَّاكِرِيْنَ، وَلاَ تِجَارَةَ أَرْبَحُ مِنْ تِجَارَتِهِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ المَرْءَ جَدِيْرٌ أَنْ يَصْنَعَ المَعْرُوْفَ إِلَى كُلِّ أَحَد؛ فَإِنَّهُ إِنْ ضَاعَ المَعْرُوْفُ عِنْدَ النَّاسِ لاَ يَضِيْعُ عِنْدَ الله، وَلاَ سِيَّما إِلَى ذَوِي الشُّكْرِ وَالوَفَاءِ كَيْفَ كَانَتْ مَنْزِلَتُهُمْ، فَلَعَلَّهُ احْتَاجَ إِلَيْهِمْ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ فَيُكَافِئُوه عَلَيْهِ.

---
[1] إحكامها: إتقانها.

غَيْرَ أَنَّ المُلُوْكَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ ذَوِي العُقُوْلِ إِذَا تَعَمَّدُوا بِمَعْرُوْفِهِمْ أَحَداً يَخْتَصُّوْنَهُ بِهِ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَضَعُوْهُ مَوْضِعَهُ، وَلاَ يُضَيِّعُوْهُ عِنْدَ مَنْ لاَ يَحْتَمِلُهُ وَلاَ يَقُوْمُ بِشُكْرِهِ. فَيَنْبَغِي لِلْمُلُوْكِ أَلاَّ يَصْطَفُوا أَحَداً إِلاَّ بَعْدَ الخِبْرَةِ بِطَرائِقِهِ وَالمَعْرِفَةِ بِوَفَائِهِ وَمَوَدَّتِهِ وَشُكْرِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى المَشْهُوْرِ بِالاِسْتِقَامَةِ وَالعِفَّةِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ[1] مِنْ غَيْرِ اخْتِبَارٍ وَلاَ تَجْرِبَةٍ، كَانَ مُخَاطِراً فِي ذَلِكَ، مُشْرِفاً مِنْهُ عَلَى هَلاَكٍ وَفَسَادٍ.

أَلاَ تَرَى أَنَّ الطَّبِيْبَ الرَّفِيْقَ العَاقِلَ لاَ يَكْتَفِي فِي مُدَاواةِ المَرِيْضِ بِالمُعَايَنَةِ فَقَطْ، لَكِنَّهُ لاَ يُقْدِمُ عَلَى علاَجِهِ إِلاَّ بَعْدَ تَعَرُّفِ أَحْوَالِهِ، وَالجَسِّ لِعُرُوْقِهِ، وَمَعْرِفَةِ طَبِيْعَتِهِ وَسَبَبِ عِلَّتِهِ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ أَقْدَمَ عَلَى مُعَالَجَتِهِ. وَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَصُّوا بِذَلِكَ قَرِيْباً لِقَرَابَتِهِ وَلاَ أَحَداً مِنْ خَاصَّتِهِمْ لِشَرَفِهِ إِذَا كَانَ غَيْرَ مُحْتَمِلٍ لِلصَّنِيْعَةِ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا شَرُفَ بِتَشْرِيْفِهِمْ إِيَّاهُ، وَلاَ أَنْ يَمْنَعُوا مَعْرُوْفَهُمْ وَجَمِيْلَهُمْ عَنْ بَعِيْدٍ لِبُعْدِهِ، أَوْ خَامِلٍ لِخُمُوْلِهِ إِذَا كَانَ عَارِفاً بِحَقِّ مَا يُصْطَنَعَ إِلَيْهِ، مُؤدِّياً لِشُكْرِ مَا أُنْعِمَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ قِيْلَ لاَ يَنْبَغِي لِذِي العَقْلِ أَنْ يَحْتَقِرَ أَحداً مِنَ النَّاسِ حَتَّى البَهَائِمِ، وَلَكِنَّهُ خَلِيْقٌ أَنْ يَبْلُوَهُمُ وَيَخْتَبِرَهُمْ، وَيَكُوْنَ مَا يَصْنَعُ إِلَيْهِمْ عَلَى قَدَرِ مَا يَرَى مِنْهُمْ، فَقَدْ يَكُوْنُ الخَيْرُ عِنْدَ مَنْ يُظَنُّ بِهِ الشَّرُّ، وَالشَّرُّ عِنْدَ مَنْ يُظَنُّ بِهِ الخَيْرُ.

وَإِنَّ طَبَائِعَ الخَلْقِ أَيُّهَا المَلِكُ مُخْتَلِفَةٌ، وَلَيْسَ مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ مِمَّا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، أَوْ عَلَى رِجْلَيْنِ، أَوْ يَطِيْرُ بِجِنَاحَيْنِ، أَوْ يَسْبَحُ فِي المَاءِ شَيْءٌ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الإِنْسَانِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَرُبَّمَا تَحذَّرَ العَاقِلُ مِنَ النَّاسِ فَلَمْ يَأْمَنْ أَحَداً مِنْهُمْ، وَأَخَذَ ابْنَ عِرْسٍ فَأَدْخَلَهُ فِي كُمِّهِ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الآخَرِ، وَأَخَذَ الطَّيْرَ الجَارِحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَإِذَا صَادَ شَيْئاً أَبْقَى لَهُ مِنْهُ نَصِيْباً. وَمِنَ النَّاسِ البَرُّ وَالفَاجِرُ، وَمِنْ هَؤُلاءِ كُلُّ كَفُوْرٍ كَنُوْدٍ[2] حَتَّى لَقَدْ يَكُوْنُ فِي بَعْضِ البَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ مَا هُوَ أَوْفَى مِنْهُ ذِمَّةً، وَأَشَدُّ مُحامَاةً عَنْ حُرْمَةٍ، وَأَشْكَرُ لِلْمَعْرُوْفِ وَأَقْوَمُ بِهِ. وَقَدْ مَضَى فِي ذَلِكَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ بَعْضُ الحُكَمَاءِ.

قَالَ المَلِكُ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مَثَلُ القِرْدِ وَالحَيَّةِ وَالبَبْرِ

---

[1] استرسل إليه: اطمأنَّ وركن إليه.

[2] الكنود: جاحد النّعمة. ومن يَعُدُّ المصائب.

قَالَ الفَيْلَسُــوْفُ: زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً احْتَفَرُوْا رَكِيَّةً[١] فوقَعَ فِيْهَا رَجُلٌ صَــائِغٌ وَحَيَّةٌ وَقِرْدٌ وَبَبْرٌ[٢]. وَمَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ سَــائِحٌ، فَأَشْــرَفَ عَلَى الرَّكِيَّةِ، فَبَصُــرَ بِالرَّجُلِ وَالحَيَّةِ وَالقِرْدِ وَالبَبْرِ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِـهِ وقَالَ لَسْـتُ أَعْمَلُ لآخِرَتِي عَمَلاً أَفْضَــلَ مِنْ أَنْ أُخَلِّصَ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ بَيْنِ هؤلاءِ الأَعْداءِ، فَقَدْ قِيْلَ: لَمْ يُؤْجَرْ مَأْجُوْرٌ بِأَعْظَمَ مِنْ أَجْرِ مَنِ اسْتَحْيَا[٣] نَفْساً هَالِكَةً، وَلاَ عُوْقِبَ مُعَاقَبٌ بِأَشَدَّ مِنْ عِقَابِ مَنْ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَوْ بِمَشَقَّةٍ مِمَّا خَلاَ ذَهَابَ نَفْسِهِ.
فَأَخَذَ حَبْلاً وَأَدْلاَهُ[٤] إِلَى البِئْرِ فَتَعَلَّقَ بِهِ القِرْدُ لِخِفَّتِهِ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَدْلاَهُ ثَانِيَةً فَالتفَّتْ بِهِ الحَيَّةُ فَخَرَجَتْ، ثُمَّ أَدْلاَهُ ثَالِثَةً فَتَعَلَّقَ بِهِ البَبْرُ فَأَخْرَجَهُ. فَشَــكَرْنَ لَهُ صَــنِيْعَهُ وَقُلْنَ لَهُ: لاَ تُخْرِجْ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ الرَّكِيَّةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَــيءٌ أَقَلَّ مِنْ شُــكْرِ الإِنْسَانِ.
ثُمَّ قَالَ لَهُ القِرْدُ: إِنَّ مَنْزِلِي فِي جَبَلٍ قَرِيْبٍ مِنْ مَدِيْنَةٍ يُقَالُ لَهَا نُوَادَرَخْتُ. فَقَالَ لَهُ البَبْرُ: أَنَا أَيْضــاً فِي أَجَمَةٍ إِلَى جَانِبِ تِلْكَ المَدِيْنَةِ. قَالَتْ الحَيَّةُ: وَأَنا فِي سُـوْرِ تِلْكَ المَدِيْنَةِ فَإِنْ أَنْتَ مَرَرْتَ بِنَا يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ وَاحْتَجْتَ إِلَيْنَا فَصَــوِّتْ عَلَيْنَا حَتَّى نَأْتِيْكَ فَنَجْزِيَكَ بِمَا أَسْدَيْتَ إِلَيْنَا مِنَ المَعْرُوْفِ.
فَلَمْ يَلْتَفِتِ السَّائِحُ إِلَى مَا ذَكَرُوا لَهُ مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الإِنْسَانِ، وَأَدْلَى الحَبْلَ، فَأَخْرَجَ الصَّــائِغَ فَسَــجَدَ لَهُ وَقَالَ: لَقَدْ أَوْلَيْتَنِي[٥] مَعْرُوْفاً، فَإِنْ مَرَرْتَ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ بِمَدِيْنَةِ نُوَادَرَخْتَ فَاسْـأَلْ عَنْ مَنْزِلِي، فَأَنَا رَجُلٌ صَــائِغٌ، وَاسْـمِي فُلاَنٌ، لَعَلِّي أُكَافِئُكَ بِمَا صَــنَعْتَ إِلَيَّ مِنَ المَعْرُوْفِ. فَانْطَلَقَ الصَّــائِغُ إِلَى مَدِيْنَتِهِ، وَانْطَلَقَ السَائِحُ إِلَى وُجْهَتِهِ.
فَعَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ السَّــائِحَ اتَّفَقَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى تِلْكَ المَدِيْنَةِ فَانْطَلَقَ، فَاسْـتَقْبَلَهُ القِرْدُ فَسَــجَدَ لَهُ وَقَبَّلَ رِجْلَيْهِ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ القُرُوْدَ لاَ يَمْلِكُوْنَ شَــيْئاً، ولَكِنْ اقْعُدْ حَتَّى آتِيْكَ. وَانْطَلَقَ القِرْدُ وَأَتَاهُ بِفَاكِهَةٍ طَيِّبَةٍ، فَوَضَــعَها بَيْنَ يَدِيْهِ، فَأَكَلَ مِنْهَا حَاجَتَهُ.
ثُمَّ إِنَّ السَّــائِحَ انْطَلَقَ حَتَّى دَنَا مِنْ بَابِ المَدِيْنَةِ، فَاسْـتَقْبَلَهُ البَبْرُ، فَخَرَّ لَهُ سَـاجِداً وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوْفاً فَاطْمَئِنَّ سَــاعَةً حَتَّى آتِيَكَ. فَانْطَلَقَ البَبْرُ فَدَخَلَ فِي بَعْضِ الحِيْطَانِ إِلَى بِنْتِ المِلكِ، فَقَتَلَهَا وَأَخَذَ حُلِيَّهَا، فَأَتَاهُ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ السَّــائِحُ مِنْ أَيْنَ هُوَ، فَقَالَ فِي نَفْسِــهِ: هَذِهِ البَهَائِمُ قَدْ أَوْلَيْتْنِي هَذَا الجَزَاءَ، فَكَيْفَ لَوْ أَتَيْتَ إِلَى الصَّائِغِ؟

١الرّكيَّة: البئر.
٢الببر: حيوان ثديّ مفترس يتسلّق الأشجار أبيض البطن والجانبين، ومخطط بخطوط سوداء.
٣ استحيا: أعاد إليها الحياة.
٤أدلاه: أرسل الحبل في البئر.
٥أوليتني: صنعت لي.

فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُعْسِراً لاَ يَمْلِكُ شَيْئاً، فَسَيَبِيْعُ هَذَا الحُلِيَّ، فَيَسْتَوْفِي ثَمَنَهُ، فَيُعْطِيْنِي بَعْضَهُ وَيَأْخُذُ بَعْضَهُ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِثَمَنِهِ.

فَانْطَلَقَ السَّائِحُ فَأَتَى إِلَى الصَّائِغِ، فَلَمَّا رَآهُ رَحَّبَ بِهِ وَأَدْخَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِالحُلِيِّ مَعَهُ عَرَفَهُ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي صَاغَهُ لابْنَةِ المَلِكِ.

فَقَالَ الصَّائِغُ: اطْمَئِنَّ حَتَّى آتِيَكَ بِطَعَامٍ، فَلَسْتُ أَرْضَى لَكَ مَا فِي البَيْتِ، ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ يَقُوْلُ: قَدْ أَصَبْتُ فُرْصَتِي أُرِيْدُ أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى المَلِكِ، وَأَدُلَّهُ عَلَى ذَلِكَ فَتَحْسُنَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ. فَانْطَلَقَ إِلَى بَابِ المَلِكِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَن الَّذِي قَتَلَ ابْنَتَكَ وَأَخَذَ حُلِيَّهَا عِنْدِي. فَأَرْسَلَ المَلِكُ وَأَتَى بِالسَّائِحِ. فَلمَّا نَظَرَ الحُلِيَّ مَعَهُ لَمْ يُمْهِلْهُ، وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُعَذَّبَ وَيُطَافَ بِهِ فِي المَدِيْنَةِ وَيُصْلَبَ. فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ جَعَلَ السَّائِحُ يَبْكِي وَيَقُوْلُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: لَوْ أَنِّي أَطَعْتُ القِرْدَ وَالحَيَّةَ وَالبَبْرَ فِيْمَا أَمَرْتَنِي بِهِ، وَأَخْبَرْتَنِي مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الإِنْسَانِ، لَمْ يَصِرْ أَمْرِي إِلَى هَذَا البَلاَءِ، وَجَعَلَ يُكَرِّرُ هَذَا القَوْلَ. فَسَمِعَتْ مَقَالَتَهُ تِلْكَ الحَيَّةُ، فَخَرَجَتْ مِنْ جُحْرِ هَا فَعَرَفَتْهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهَا أَمْرُهُ فَجَعَلَتْ تَحْتَالُ فِي خَلاَصِهِ، فَانْطَلَقَتْ حَتَّى لَدَغَتْ ابنَ المِلِك، فَدَعَا المَلِكُ أَهْلَ العِلْمِ فَرَقُوْهُ لِيَشْفُوْهُ، فَلَمْ يُغْنُوا عَنْهُ شَيْئاً.

ثُمَّ مَضَتِ الحَيَّةُ إِلَى أُخْتٍ لَهَا مِنَ الجِنِّ، فَأَخْبَرَتْهَا بِمَا صَنَعَ السَّائِحُ إِلَيْهَا مِنَ المَعْرُوْفِ وَمَا وَقَعَ فِيْهِ، فَرَقَّتْ لَهُ وَانْطَلَقَتْ إِلَى ابْنِ المَلِكِ، وَتَرَاءَتْ لَهُ وَقَالَتْ: إِنَّكَ لاَ تَبْرَأُ حَتَّى يَرْقِيَكَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ عَاقَبْتُمُوْهُ ظُلْماً.

وَانْطَلَقَتْ الحَيَّةُ إِلَى السَّائِحِ فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ السِّجْنَ وَقَالَتْ لَهُ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْهُ مِن اصْطِنَاعِ المَعْرُوْفِ إِلَى هَذَا الإِنْسَانِ وَلَمْ تُطِعْنِي. وَأَتَتْهُ بِوَرَقٍ يَنْفَعُ مِنْ سُمِّهَا وَقَالَتْ لَهُ: إِذَا جَاؤُوا بِكَ لِتَرْقِيَ ابْنَ المَلِكِ، فَاسْقِهِ مِنْ مَاءِ هَذَا الوَرَقِ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ، وَإِذَا سَأَلَكَ المَلِكُ عَنْ حَالِكَ فَاصْدُقْهُ، فَإِنَّكَ تَنْجُو إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَإِنَّ ابْنَ المَلِكِ أَخْبَرَ أَبَاهُ أَنَّهُ سَمِعَ قَائِلاً يَقُوْلُ: إِنَّكَ لَنْ تَبْرَأَ حَتَّى يَرْقِيَكَ السَّائِحُ الَّذِي حُبِسَ ظُلْماً.

فَدَعَا المَلِكُ بِالسَّائِحِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْقِيَ وَلَدَهُ فَقَالَ: لاَ أُحْسِنُ الرَّقْيَ، وَلَكِنْ أُسْقِيْهِ مِنْ مَاءِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ الله تَعَالَى. فَسَقَاهُ فَبَرِئَ الغُلاَمُ.

فَفَرِحَ المَلِكُ بِذَلِكَ وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ فَأَخْبَرَهُ، فَشَكَرَهُ المَلِكُ وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً، وَأَمَرَ بِالصَّائِغِ أَنْ يُصْلَبَ، فَصَلَبُوْهُ لِكَذِبِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنْ الشُّكْرِ، وَمُجَازَاتِهِ الفِعْلَ الجَمِيْلَ بِالقَبِيْحِ.

ثُمَّ قَالَ الفَيْلَسُوْفُ لِلْمَلِكِ: فَفِي صَنِيْعِ الصَّائِغِ وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَاذِهِ إِيَّاهُ وَشُكْرِ البَهَائِمِ لَهُ وَتَخْلِيْصِ بَعْضِهَا إِيَّاهُ عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ، وَفِكْرَةٌ لِمَنِ افْتَكَرَ، وَأَدَبٌ فِي وَضْعِ المَعْرُوْفِ وَالإِحْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الوَفَاءِ وَالكَرَمِ، قَرُبُوا أَوْ بَعُدُوا، لما فِي ذَلِكَ مِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ، وَجَلْبِ الخَيْرِ، وَصَرْفِ المَكْرُوْهِ.

بَابُ ابْنِ المَلِكِ وَأَصْحابِهِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُ المَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَلَ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لاَ يُصِيْبُ الخَيْرَ إِلاَّ بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَتَثَبُّتِهِ[١] فِي الأُمُوْرِ كَمَا يَزْعَمُوْنَ، فَمَا بَالُ الرَّجُلِ الجَاهِلِ يُصِيْبُ الرِّفْعَةَ وَالخَيْرَ، وَالرَّجُلِ الحَكِيْمِ العَاقِلِ قَدْ يُصِيْبُ البَلاَءَ وَالضَّرَّ.

قَالَ بَيْدَبَا: كَمَا أَنَّ الأَعْمَى لاَ يُبْصِرُ إِلاَّ بِقَلْبِهِ، وَلاَ يَمْشِي إِلاَّ بِحِسِّهِ مَعَ المُهْلَةِ وَالتَّأَنِّي، كَذَلِكَ يَنْبَغِي للإِنْسَانِ أَنْ يَسْلُكَ فِي الأُمُوْرِ بِعَيْنِ العَقْلِ وَالبَصِيْرَةِ وَالعِلْمِ وَبِالتَّثَبُّتِ وَالأَنَاةِ[٢]، فَقَلَّ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى هَذَا، غَيْرَ أَنَّ القَضَاءَ وَالقَدَرَ قَدْ يَغْلِبَانِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَدْ يَعْثُرُ البَصِيْرُ وَيَسْلَمُ الضَّرِيْرُ. وَمَثَلُ ذِلِكَ مَثَلُ ابْنِ المَلِكِ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ المَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ اصْطَحَبُوا فِي طَرِيْقٍ وَاحِدَةٍ: أَحَدُهُمْ ابْنُ مَلِكٍ، وَالثَّانِي ابْنُ تَاجِرٍ، وَالثَّالِثُ ابْنُ شَرِيْفٍ ذُو جَمَالٍ، وَالرَّابِعُ ابْنُ أَكَّارٍ[٣]، وَكَانُوا جَمِيْعاً مُحْتَاجِيْنَ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ ضَرَرٌ وَجَهْدٌ شَدِيْدٌ فِي مَوْضِعِ غُرْبَةٍ، لاَ يَمْلِكُوْنَ إِلاَّ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ يَمْشُوْنَ إِذْ فَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ. وَكَانَ كُلُّ إنسانٍ مِنْهُمْ رَاجِعاً إِلَى طِبَاعِهِ وَمَا كَانَ يَأْتِيْهِ مِنْهُ الخَيْرُ.

فَقَالَ ابْنُ المَلِكِ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا كُلَّهُ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ، وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَى الإِنْسَانِ يَأْتِيْهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَالصَّبْرُ لِلْقَضَاءِ وَالقَدَرِ وَانْتِظَارُهُمَا أَفْضَلُ الأُمُوْرِ. وَقَالَ ابنُ التَّاجِرِ: العَقْلُ أَفْضَلُ شَيءٍ، وَقَالَ ابْنُ الشَّرِيْفِ: الجَمَالُ أَفْضَلُ مِمَّا ذُكِرَ. ثُمَّ قَالَ الأَكَّارُ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الاجْتِهَادِ فِي العَمَلِ.

فَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ مَدِيْنَةٍ يُقَالُ لَهَا مِطْرُوْنُ، جَلَسُوا فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا يَتَشَاوَرُوْنَ، فَقَالُوا لابْنِ الأَكَّارِ: انْطَلِقْ فَاكْتَسِبْ لَنَا بِاجْتِهَادِكَ طَعَاماً لِيَوْمِنَا هَذَا.

فَانْطَلَقَ ابْنُ الأَكَّارِ فَاحْتَطَبَ طُنَّاً[٤] مِنَ الحَطَبِ، وَأَتَى بِهِ المَدِيْنَةَ، فَبَاعَهُ بِدِرْهَمٍ وَاشْتَرَى بِهِ طَعَاماً، وَكَتَبَ عَلَى بَابِ المَدِيْنَةِ: عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ إِذَا جَهَدَ بِهِ الرَّجُلُ بَدَنَهُ قِيْمَتُهُ دِرْهَمٌ. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِالطَّعَامِ فَأَكَلُوا.

١تثبُّته: تأكُّده.
٢الأناة: اللِّين والرِّفق.
٣الأكّار: الفلاّح.
٤الطُّنّ: الحزمة من الحطب.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلَّذِي قَالَ إِنَّهُ لَيسَ شَـــيءٌ أَعَزَّ مِنَ الجَمَالِ أَنْ تَكُوْنَ نَوْبَتُهُ(١). فَانْطَلَقَ ابْنُ الشَّـــرِيْفِ لِيَأْتِيَ المدِيْنَةَ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِـــهِ وَقَالَ: أَنَا لَسْتُ أُحسِنُ عَمَلاً فَمَا يُدْخِلُنِي المَدِيْنَةَ، ثُمَّ اسْتَحَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ طَعَامٍ وَهَمَّ بِمُفَارَقَتِهِمْ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيْمَةٍ فَغَلَبَهُ النَّوْمُ فَنَامَ. فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مُصَوِّرٌ وَبَصُرَ بِهِ، فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهُ أَنْ يُصَوِّرَهُ وَيَكْتَسِبَ مِنْ صُـوْرَتِهِ إِذَا عَمِلَ مِنْهَا صُـوْراً وَبَاعَهَا، فَأَيْقَظَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيُصَـوِّرَهُ. فَلمَّا كَانَ المَسَـاءُ أَجَازَهُ بِمِئَةِ دِرْهَمٍ، فَخَرَجَ وَكَتَبَ عَلَى بَابِ المَدِيْنَةِ: جَمَالُ يَوْمٍ وَاحِدٍ يُسَاوِي مِئَةَ دِرْهَمٍ، وَأَتَى بِالدَّرَاهِمِ إِلَى أَصْحَابِهِ.

فَلَمَّا أَصْـــبَحُوا فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ قَالُوا لابْنِ التَّاجِرِ: انْطَلِقْ فَاطْلُبْ لَنَا بِعَقْلِكَ وَتِجَارَتِكَ لِيَوْمِنَا هَذَا شَيْئاً. فَانْطَلَقَ ابْنُ التَّاجِرِ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بَصُرَ بِسَفِيْنَةٍ مِنْ سُفُنِ البَحْرِ كَثِيْرَةِ المتَاعِ قَدْ قَدِمَتْ إِلَى السَّاحِلِ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ التُّجَّارِ يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَبْتَاعُوا مِمَّا فِيْهَا مِنَ المَتَاعِ، فَجَلَسُـــوا يَتَشَـــاوَرُوْنَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ المَرْكَبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ارْجِعُوا يَوْمَنَا هَذَا، لاَ نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئاً حَتَّى يَكْسُدَ المتَاعُ عَلَيْهِمْ فَيُرَخِّصُوْهُ عَلَيْنَا مَعْ أَنَّنا مُحْتَاجُوْنَ وَسَيَرْخُصُ.

فَخَالَفَ ابْنُ التَّاجِرِ الطَّرِيْقَ، وَجَاءَ إِلَى أَصْـــحَابِ المَرْكبِ، فَابْتَاعَ مِنْهُمْ مَا فِيْهِ بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ نَسِـــيْئَةً(٢)، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِيْنَةٍ أُخْرَى. فَلَمَّا سَمِعَ التُّجَّارُ ذَلِكَ خَافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذَلِكَ المتَاعُ مِنْ أَيْدِيْهِمْ، فَأَرْبَحُوْهُ عَلَى مَا اشْـتَرَاهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَأَحَالَ عَلِيْهِمْ أَصْـحَابَ المَرْكَبِ بِالبَاقِي، وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَكَتَبَ عَلَى بَابِ المَدِيْنَةِ: عَقْلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَمَنُهُ وَاحِدٍ ثَمَنَهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ.

فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الرَّابعُ قَالُوا لابْنِ المَلِكِ: انْطَلِقْ أَنْتَ وَاكْتَسِـــبْ لَنَا بِقَضَـــائِكَ وَقَدْرِكَ. فَانْطَلَقَ ابْنُ المَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بَابِ المَدِيْنَةِ، فَجَلَسَ عَلَى دَكَّةٍ(٣) فِي بَابِ المدِيْنَةِ.

وَاتَّفَقَ بِالقَدَرِ أَنْ مَاتَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَلَمْ يُخَلِّفْ وَلداً وَلاَ أَحداً ذَا قَرَابَةٍ، فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجَنَازَةِ المَلِكِ وَلَمْ يُحْزِنْهُ وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُوْنَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكْتَرِثْ لِمَا هُمْ فِيْهِ.

فَأَنْكَرُوا حَالَهُ وَشَـتَمَهُ البَوَّابُ وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ يَا لَئِيْمُ، وَمَا يُجْلِسُـكَ عَلَى بَابِ المَدِيْنَةِ، وَلاَ نَرَاكَ تَحْزَنُ لِمَوْتِ المَلِكِ وَلاَ تَهْتَمُّ؟ وَطَرَدَهُ البَوَّابُ عَنِ البَابِ، فَلمَّا ذَهَبُوا عَادَ الغُلاَمُ فَجَلَسَ مَكَانَهُ.

١ نوبته: دوره.
٢النَّسيئة: البيع بالدَّين، والسَّداد إلى وقت آخر.
٣الدَّكة: المصطبة. المقعد الحجري.

فَلَمَّا دَفَنُوا المَلِكَ وَرَجَعُوا، بَصُــرَ بِهِ البَوَّابُ فَغَضِــبَ وَقَالَ لَهُ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنِ الجُلُوْسِ فِي هَذَا المَوْضِــعِ؟ وَأَخَذَهُ فَحَبَسَــهُ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ، وَقَدِ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ المَدِيْنَةِ يَتَشَـاوَرُوْنَ فِي مَنْ يُمَلِّكُوْنَهُ عَلَيْهِمْ وَيَخْتَلِفُوْنَ بَيْنَهُمْ، إِذْ دَخَلَ البَوَّابُ فَقَالَ لَهُمْ:

إِنِّي رَأَيْتُ أَمْسِ غُلاَماً جَالِســاً عَلَى الدبابِ، وَلَمْ أَرَهُ يَحْزَنُ لِحُزْنِنَا كَأَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ عِنْدَهُ بِعَظِيْمٍ، وَتَلُوْحُ عَلَيْـهِ لَوَائِحُ العِزَّةِ وَالشَّــرَفِ، فَكَلَّمْتُـهُ فَلَمْ يُجِبْنِي فَطَرَدْتُهُ عَنِ البَابِ، فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جَالِســاً، فَأَدْخَلْتُهُ السِّــجْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُوْنَ عَيْناً. فَبَعَثَ أَشْـرَافُ المَدِيْنَةِ إِلَى الغُلاَمِ، فَجَاؤُوا بِهِ فَسَـأَلُوْهُ عَنْ حَالِهِ وَمَا أَقْدَمَهُ إِلَى مَدِيْنَتِهِمْ. فَقَالَ: أَنَا ابْنُ مَلِكِ فَوَيْرَانَ، وَإِنَّهُ لَمَّا مَاتَ وَالِدِي غَلَبَنِي أَخِي عَلَى المُلْكِ، وَقَدْ كَانَ أَبِي عَهِدَ إِلَيَّ بِهِ، فَغَصَــبَنِي إِيَّاهُ، فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذَراً عَلَى نَفْسِي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ.

فَلَمَّا ذَكَرَ الغُلاَمُ مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ، عَرَفَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ يَغْشَــى[1] بِلاَدَ أَبِيْهِ مِنْهُمْ، وَأَثْنُوا عَلَى أَبِيْهِ خَيْراً. ثُمَّ إِنَّ الأَشْرَافَ اخْتَارُوا الغُلاَمَ أَنْ يُمَلِّكُوْهُ عَلَيْهِمْ، وَرَضُوا بِهِ.

وَكَانَ لأَهْلِ تِلْكَ المَدِيْنَةِ سُــنَّةٌ[2] إِذَا مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكاً حَمَلُوْهُ عَلَى فِيْلٍ أَبْيَضَ، وَطَافُوا بِهِ حَوَالِي المَدِيْنَةِ. فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ مَرَّ بِبَابِ المَدِيْنَةِ، فَرَأَى الكِتَابَةَ عَلَى البَابِ فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ: إِنَّ الاجْتِهَادَ وَالجَمَالَ وَالعَقْلَ وَمَا أَصَــابَ الإِنْسَــانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدِ اعْتُبِرَ ذَلِكَ بِمَا سَاقَ اللهُ إِليَّ مِنَ الكَرَامَةِ وَالخَيْرِ.

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَجَلَسَ عَلَى سَرِيْرِ مُلْكِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ مَعَهُمْ، فَأَحْضَرَهُمْ، فَأَشْرَكَ صَاحِبَ العَقْلِ مَعَ الوزَرَاءِ، وَضَمَّ صَاحِبَ الاجْتِهَادِ إِلَى أَصْحَابِ الزَّرْعِ، وَوَلَّى صَاحِبَ الجِمّالِ إِحْدَى مَصَالِحِهِ.

ثُمَّ جَمَعَ عُلَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: أَمَّا أَصْـحَابِي فَقَدْ تيقَّنُوا أَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللهُ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الخَيْرِ، إِنَّمَا هُوَ بِقَضَــاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ. وَإِنَّمَا أُحِبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذَلِكَ وَتَسْـــتَيْقِنُوْهُ، فَإِنَّ الَّذِي مَنَحَنِيَ اللهُ وَهَيَّأَهُ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ وَلَمْ يَكُنْ بِجَمَـالٍ وَلاَ عَقْـلٍ وَلاَ اجْتِهَـادٍ؛ وَمَـا كُنْـتُ أَرْجُو إِذْ طَرَدَنِي أَخِي أَنْ يُصِـيْبَنِي مَا يُعَيِّشُـنِي مِنَ القُوْتِ فَضْـلاً عَنْ أَنْ أُصِـيْبَ هَذِهِ المَنْزِلَةَ؛ وَمَا كُنْتُ أُؤَمِّلُ أَنْ أَكُوْنَ بِهَا، لأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ الأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَــلُ مِنِّي حُسْــناً وَجَمَالاً، وَأَشَدُّ اجْتِهَاداً، وَأَحْزَمُ رَأْياً، فَسَاقَنِي القَضَاءُ إِلَى أَنِ اعْتَزَزْتُ بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ.

١يغشى البلاد: يأتيها، يزورها.

٢السُّنَّة: العادة، النِّظام، القانون.

وَكَانَ فِي ذَلِكَ الجَمْعِ شَــيْخٌ، فَنَهَضَ حَتَّى اسْــتَوَى قَائِماً وَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلاَمِ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ، وَلَكِنَّ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذَلِكَ وُفُوْرُ عَقْلِكَ وَحُسْــنُ ظَنِّكَ، وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنَا فِيْكَ وَرَجَاءَنَا لَكَ، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا ذَكَرْتَ وَصَــدَّقْنَاكَ فِيمَا وَصَــفْتَ، وَالَّذِي سَــاقَ اللهُ إِلَيْكَ مِنَ المُلْكِ وَالكَرَامَةِ كُنْتَ أَهْلاً لَهُ، لِمَا قَسَــمَ اللهُ تَعَالَى لَكَ مِنَ العَقْلِ وَالرَّأْيِ، وَإِنَّ أَسْــعَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ رَأْياً وَعَقْلاً، وَإِنَّمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْنَا بِقَضَائِهِ إِذْ وَفَّقَكَ لَنَا عِنْدَ مَوْتِ مَلِكِنَا وَكَرَّمَنَا بِكَ.

ثُمَّ قَامَ شَــيْخٌ آخَرُ، فَحَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ شَــأْنَ القَضَــاءِ وَالقَدَرِ لَكَمَا ذَكَرْتَ.

مَثَلُ السَّائِحِ

ثُمَّ قَامَ شَــيْخٌ آخَرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجدَّهُ وَذَكَرَ آلاَءَهُ[1] وَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ وَأَنَا غُلاَمٌ، قَبْلَ أَنْ أَكُوْنَ سَــائِحاً، رَجُلاً مِنْ أَشْــرَافِ النَّاسِ، فَلَمَّا بَدَا لِي رَفْضُ الدُّنْيَا فَارَقْتَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي مِنْ أُجْرَتِي دِيْنَارَيْنِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَأَسْتَبْقِيَ الآخَرَ.

فَأَتَيْتُ السُّوْقَ فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِيْنَ زَوْجَيْ هُدْهُدٍ[2]، فَسَاوَمْتُهُ فِيْهِمَا لأُطْلِقَهُما، فَأَبَى الصَّــيَّادُ أَنْ يَبِيْعَهُما إِلاَّ بِدِيْنَارَيْنِ، فَاجتَهَدَتُ أَنْ يَبِيْعَنِيْهِمَا بِدِيْنَارٍ وَاحِدٍ فَأَبَى. فَقُلْتُ فِي نَفْســي: أَشْــتَرِي أَحَدَهُمَا وَأَتْرُكُ الآخَرَ، ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُمَا يَكُوْنَانِ زَوْجَيْنِ ذَكَراً وَأُنْثَى فَأُفَرِّقَ بَيْنَهُما. فَأَدْرَكَنِي لَهُما رَحْمَةٌ، فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ وَابْتَعْتُهُما بِدِيْنَارَيْنِ، وَأَشْفَقْتُ إِنْ أَرْسَلْتُهُما فِي أَرْضٍ عَامِرَةٍ أَنْ يُصَادَا وَلاَ يَسْتَطِيْعَا أَنْ يَطِيْرَا مِمَّا لَقِيَا مِنَ الجُوْعِ وَالهُزَالِ[3] وَلَمْ آمَنْ عَلَيْهِمَا الآفَاتِ[4].

فَانْطَلَقْتُ بِهِمَا إِلَى مَكَانٍ كَثِيْرِ المَرْعَى وَالأَشْــجَارِ بَعِيْدٍ عَنِ النَّاسِ وَالعُمْرَانِ فَأَرْسَلْتُهُمَا، فَطَارَا وَوَقَعَا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، فَلَمَّا صَارَا فِي أَعْلاَهَا شَكَرَا لِي وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُوْلُ لِلآخَرِ: لَقَدْ خَلَّصَنَا هَذَا السَّــائِحُ مِنَ البَلاَءِ الَّذِي كُنَّا فِيْهِ، وَاسْــتَنْقَذَنَا مِنَ الهَلَكَةِ، وَإِنَّا لَخلِيْقَانِ[5] أَنْ نُكَافِئَهُ بِفِعْلِهِ. وَإِنَّ فِي أَصْــلِ هَذِهِ الشَّــجَرَةِ جَرَّةً مَمْلُوْءَةً دَنَانِيْرَ أَفَلا نَدُلُّهُ عَلَيْهَا فَيَأْخُذُهَا؟ فَقُلْتُ لَهُما: كَيْفَ تَدُلاَّنَنِي عَلَى كَنْزٍ لَمْ تَرَهُ العُيُوْنُ وَأَنْتُمَا لَمْ تُبْصِرَا الشَّبَكَةَ؟ فَقَالاَ: إِنَّ القَضَاءَ وَالقَدَرَ الَّذِي يَتَسَلَّطُ عَلَى القَمَرِ وَالشَّمْسِ فَيَكْسِفُهُما، وَعَلَى الحُوْتِ فِي قَعْرِ البَحْرِ فَيُصْطَادُ إِذَا نَزَلَ، صَرَفَ العُيُوْنَ عَنْ مَوْضِعِ الشَّيءِ، وَغَشَّى عَلَى البَصرِ.

١آلاؤه: نعمه وعطاياه.
٢الهدهد: طائر معروف ذو خطوط وألوان كثيرة له قُنْزَعةٌ على رأسه.
٣الهزال: الضَّعف والنُّحول.
٤الآفات: الأمراض.
٥خليقان: جديران.

وَإِنَّما صَرفَ القَضَاءُ أَعْيُنَنَا عَنِ الشَّرَكِ، وَلأَمْ يَصْرِفْهَا عَنْ مَوْضِعِ الشَّيءِ، وَغَشَّى عَلَى البَصَرِ. وَإِنَّمَا صَرَفَ القَضَاءُ أَعْيُنَنَا عَنِ الشَّرِكِ، وَلَمْ يَصْرِفْهَا عَنْ هَذَا الكَنْزِ لِتَنْتَفِعَ أَنْتَ بِهِ.

فَاحْتَفَرْتُ وَاسْـــتَخْرَجْتُ البَرْنِيَّةَ[1] وَهِيَ مَمْلُوْءَةٌ دَنَانِيْرَ، فَدَعَوْتُ لَهُمَا بِالعَافِيَةِ وَقُلْتُ لَهُما: الحَمَدُ لله الّذِي عَلَّمَكُمَا مِمَّا رَأَى وَأَنْتُما تَطِيْرَانِ فِي السَّـــمَاءِ وَأَخْبَرْتُمانِي بِمَا تَحْتَ الأَرْضِ. فَقَالاَ لِي: أَيُّهَا العَاقِلُ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ القَدَرَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ لاَ يَسْتَطِيْعُ أَحَدٌ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ؟

فَلْيَعْرِفْ أَهْلُ النَّظَرِ فِي الأُمُوْرِ أَنَّ جَمِيْعَ الأَشْــيَاءِ بِقَدَرِ الله وقَضَــائِهِ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَجْلُبْ إِلَى نَفْسِهِ مَحْبُوباً، وَلاَ يَدْفَعُ عَنْهَا مَكْرُوْهاً إِلاَّ بِإِذْنِ الله تَعَالَى. فَلْتَتِقْ نُفُوْسُ أَهْلِ الفِكْرِ بِذَلِكَ وطمئن إِلَيْهِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رَاحَةً لِلْمُبْتَلِي وَدَاعِياً لِمَنْ تُؤَاتِيْهِ المقَادِيْرُ عَلَى شُكْرِ رَبِّ العَالَمِيْنِ.

الحَمَامَةُ وَالثَّعْلَبُ وَمَالِكُ الحَزِيْنِ

قَالَ دَبْشَلِيْمُالمَلِكُ لِبَيْدَبَا الفَيْلَسُوْفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا المَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلاً فِي شَأْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلاَ يَرَاهُ لِنَفْسِهِ.

قَالَ الفَيْلَسُوْفُ: إِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ الحَمَامَةِ وَالثَّعْلَبِ وَمَالِكِ الحَزِيْنِ.

قَالَ المَلِكُ: وَمَا مَثَلُهُنَّ؟

قَالَ الفَيْلَسُــوْفُ: زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَةً كَانَتْ تُفْرِخُ فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ طَوِيلَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي السَّــمَاءِ. فَكَانَتِ الحَمَامَةُ إِذَا شَــرَعَتْ فِي نَقْلِ العُشِّ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلَةِ فَلاَ يُمْكِنُهَا ذَلِكَ إِلاَّ بَعْدَ شِــدَّةٍ وَتَعَبٍ وَمَشَــقَّةٍ لِطُوْلِ النَّخْلَةِ وَسُــحْقِهَا[2] وَكَانَتْ إِذَا فَرَغَتْ مِنَ النَّقْلِ بَاضَــتْ ثُمَّ حَضَــنَتْ بَيْضَــهَا، فَإِذَا انْقَاضَ[3] وَأَدْرَكَ فِرَاخُهَا جَاءَ هَا ثَعْلَبٌ قَدْ تَعَهَّدَ ذَلِكَ مِنْهَا لِوَقْتٍ قَدْ عَلِمَهُ رَيْثَمَا يَنْهَضُ فِرَاخُهَا، فَوَقَفَ بِأَصْلِ النَّخْلَةِ فَصَاحَ بِهَا وَتَوَعَّدَهَا[4] أَنْ يَرْقَى إِلَيْهَا أَوْ تُلْقِيَ إِلَيْهِ فِرَاخَهَا، فَتُلْقِيْهَا إِلَيْهِ.

فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ أَدْرَكَ لَهَا فَرْخَانِ إِذْ أَقْبَلَ مَالِكٌ الحَزِيْنُ فَوَقَعَ عَلَى النَّخْلَةِ. فَلَمَّا رَأَى الحَمَامَةَ كَئِيْبَةً حَزِيْنَةً شَــدِيْدَةَ الهَمِّ، قَالَ لَهَا: يَا حَمَامَةُ مَا لِي أَرَاكِ كَاسِفَةَ البَالِ سَيِّئَةَ الحَالِ؟

---

١ البرنيَّة: الجرَّة.

٢ سحقها: علُّوها، ارتفاعها.

٣ انقاض: فقس، خرج فراخها من البيضة.

٤ توعَّدها: هدَّدها.

فَقَالَتْ لَهُ: يَا مَالِكٌ الحَزِيْنُ إِنَّ ثَعْلَبَاً دُهِيْتُ بِهِ كُلَّمَا لِي فَرْخَانِ جَاءَنِي يَتَهَدَّدَنِي، وَيَصِيْحُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ فَأَفْرَقُ مِنْهُ[1] وَغَرِّرْ بِنَفسِكَ[2]، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَأَكَلْتَ فَرْخَيَّ طِرْتُ عَنْكَ وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي.

فَلَمَّا عَلَّمَهَا مَالِكٌ الحَزِيْنُ هَذِهِ الحِيْلَةَ طَارَ فَوَقَعَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ، وَأَقْبَلَ الثَّعْلَبُ فِي الوَقْتِ الَّذِي عرفَ، فَوَقَفَ تَحْتَ النَّخْلَةِ ثُمَّ صَاحِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ. فَأَجَابَتْهُ الحَمَامَةُ بِمَا عَلَّمَهَا مَالِكٌ الحَزِيْنُ.

فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ حَتَّى أَتَى مَالِكاً الحَزِيْنَ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، فَوَجَدَهُ وَاقِفاً، فَقَالَ لَهُ الثَّعْلَبُ: يَا مَالِكٌ الحَزِيْنُ إِذَا أَتَتْكَ الرِّيْحُ عَنْ يَمِيْنِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ؟

قَالَ: عَنْ شِمَالِي، قَالَ: فَإِذَا أَتَتْكَ عَنْ شِمَالِكَ أَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ. قَالَ: أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِيْنِي أَوْ خَلْفِي. قَالَ: فَإِذَا أَتَتْكَ الرِّيْحُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ أَيْنَ تَجْعَلُهُ؟ قَالَ: أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحَيَّ. قَالَ: وَكَيْفَ تَسْتَطِيْعُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ أَيْنَ تَجْعَلُهُ؟ قَالَ: أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحَيَّ. قَالَ: وَكَيْفَ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَنَاحَيْكَ؟ مَا أَرَاهُ يَتَهَيَّأُ لَكَ. قَالَ: بَلَى.

قَالَ: فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ فَلَعَمْرِي يَا مَعْشَرَ الطَّيْرِ لَقَدْ فَضَّلَكُمُ اللهُ عَلَيْنَا. إِنَّكُنَّ تَدْرِيْنَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ مَا نَدْرِي فِي سَنَةٍ، وَتَبْلُغْنَ مَا لاَ نَبْلُغُ، وَتُدْخِلْنَ رُؤُوْسَكُنَّ تَحْتَ أَجْنِحَتِكُنَّ مِنَ البَرْدِ وَالرِّيْح، فَهَنِيْئاً لَكُنَّ. فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ؟.

فَأَدْخَلَ الطَّائِرُ رأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحَيْهِ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ مَكَانَهُ، فَأَخَذَهُ فَهَمَزَهُ هَمْزَةً دَقَّتْ عَنُقَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ تَرَى الرَّأْيَ لِلْحَمَامَةِ وَتُعَلِّمُهَا الحِيْلَةَ لِنَفْسِهَا وَتَعْجَزُ عَنْ ذَلِكَ لِنَفْسِكَ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْكَ عَدُوُّكَ ثُمَّ قَتَلَهُ وَأَكَلَهُ.

أَلْهَمَنَا اللهُ أَنْ نَكُوْنَ مِنَ المُؤْتَمِرِيْنَ لِمَا يَأْمُرُوْنَ وَالمُنْتَصِحِيْنَ بِمَا يَنْصَحُوْنَ.

---

١ أفرق منه: أخاف منه.

٢ غرَّر بنفسه: عرَّضها للهلاك.

خَاتِمَةُ الكِتَابِ

فَلَمَّا انْتَهَى المَنْطِقُ بِالفَيْلَسُــوْفِ إِلَى هَذَا المَوْضِــعِ سَــكَتَ المَلِكُ. فَقَالَ لَهُ الفَيْلَسُوْفُ: أَيُّهَا الملِكُ عِشْتَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمُلِّكْتَ الأَقَالِيْمَ السَّبْعَةَ، وَأُعْطِيْتَ مِنْ كُلِّ شَــيءٍ حَظَّاً، وَبَلَغْتَ مَا أَمَّلْتَهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرةِ فِي سُـرُوْرٍ مِنْكَ وَقُرَّةِ عَيْنٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ بِكَ وَمُسَــاعَدَةِ القَضَــاءِ وَالقَدَرِ لَكَ، فَإِنَّهُ قَدْ كَمُلَ فِيْكَ الحِلْمُ وَالعِلْمُ، وَحَسُــنَ مِنْكَ العَقْلُ وَالنِيَّةُ، وَتَمَّ فِيْكَ البَأْسُ وَالجُوْدُ، وَاتَّفَقَ مِنْكَ القَوْلُ وَالعَمَلُ. فَلاَ يُوجَدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ وَلاَ فِي قَوْلِكَ سَــقَطٌ وَلاَ عَيْبٌ. وَقَدْ جَمَعَتْ النَّجْدَةَ وَاللِّيْنَ، فَلاَ تُوْجَدُ جَبَانَاً عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلاَ ضِيِّقَ الصَّدْرِ عِنْدَ مَا يَنُوبُكَ مِنَ الأَشْيَاءِ.

وَقَدْ جَمَعْتُ لَكَ فِي هَذَا الكِتَابِ شَــمْلَ بَيَانِ الأُمُوْرِ، وَشَــرَحْتُ لَكَ جَوَابَ مَا سَــأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْهَا تَزَلُّفاً إِلَى رِضَــاكَ، وَابْتِغَاءً لِطَاعَتِكَ فَأَبْلَغْتُكَ فِي ذَلِكَ غَايَةَ نُصْحِي، وَاجْتَهَدْتُ فِيْهِ بِرَأْيِي وَنَظَرِي وَمَبْلَغِ فِطْنَتِي.

وَاللهُ تَعَالَى يَقْضِي حَقِّي بِحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْكَ فِي إِعْمَالِ فِكْرِكَ وَعَقْلِكَ فِيمَا وَضَعْتُ لَكَ مِنَ النَّصِــيْحَةِ وَالمَوْعِظَةِ. مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ المَنْصُــوْحُ بِأَوْلَى بِالنَّصِــيْحَةِ مِنَ النَّاصِحِ، ولاَ الآمِرُ بِالخَيْرِ بِأَسْعَدِ مِنَ المُطِيْعِ لَهُ فِيْهِ. فَافْهَمْ ذَلِكَ أَيُّهَا المَلِكُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ.